الدكتور
محمود صالح منسي

حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دراسات فى تاريخ الشرق العربى الحديث



تأليف

الدكتور

محمود صالح منسى

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

جامعة الأزهر

١٩٧٨

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن شارع الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨١

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وبعد :

فقد شهد القرن العشرون ، والنصف الثانى منه على وجه الخصوص ، ازدهار الحركة القومية بين عرب المشرق ، حتى أينعت ، وأتت بعض أكلها، متمثلة فى حصول الجانب الأكبر من الوطن العربى على الاستقلال، وتحرره من نير المستعمر الأجنبى ، ثم تطلعه إلى وحدة تجمع شتاته بعد طول انقسام، ورغبة قوية فى السير على طريق التنمية والتقدم والنهوض لتعويض مافاته ، والقضاء على بقايا التخلف الاقتصادى والسياسى والاجتماعى . وهذا كله إنما هو نتاج الوعى القوى لدى العرب ، وإحساسهم بقوميتهم المتميزة عن غيرها من القوميات ، وبانتمائهم إلى مجموعة من البشر ترتبط فيما بينها بعديد من الروابط الطبيعية والبشرية تجعلها مجموعة متجانسة ، هذه الروابط التى من شأنها أن تجعل كل عربى من سكان الوطن العربى الممتد من الخليج إلى المحيط ينفعل مع بقية أبناء الأمة .

وإذا كنا نسمع أصداء تتردد فى أنحاء مختلفة من الوطن العربى تدعو إلى قيام نوع من أنواع الوحدة أو الاتحاد فيما بينها فما ذلك إلا نتيجة الاعتراف -وكما أثبت التاريخ - بأن شعوب الأمة العربية لاتستطيع مواجهة الغد بمشاكله والفرقة تمزق كيانها ، فى الوقت الذى تتجه فيه وحدات أخرى فى العالم إلى التجمع رغم مابين أجزائها من اختلافات لاوجود لها بين أجزاء الأمة العربية، فأسباب التجمع والوحدة بين أجزاء الأمة العربية أقوى من أسباب الفرقة ؛ والعرب الآن أشد مايكونون حاجة إلى الوحدة ، فهى السبيل الوحيد لمواجهة

الجمود الذى خيم عليها مايزيد على ست سنوات ، وتحركت الدول نحو إيجاد حل الأزمة بعد طول امتناع ولامبالاة . بل وتأييد لإسرائيل على حساب الحق العربى . ناهيك عن موقف التضامن الذى تجلى بأوضح صوره وأروعها فى مختلف المجالات ، الأمر الذى يعتبر ظاهرة لها دلالتها فى تاريخ العرب المعاصر ، وهى ظاهرة كان الغيورون من العرب والأصدقاء ينتظرونها ، ولكن انتظارهم لم يطل ، وجزى الله الشدائد كل خير ؟

دكتور

محمود صالح منسى

الرياض فى

١٩٧٤/١٠/١٠م

٢٤ /١٣٩٤/٩ هـ

مقدمة الطبعة الثانية

حمداً لله، وشكراً للقارىء على حسن استقباله للطبعة الأولى من هذا الكتاب، مما جاء دليلا على أن العمل الجاد يلقى الجزاء الحسن، مما حدانى إلى إصدار هذه الطبعة مزيدة ومنقحة.

وإذا كان الكتاب يدور حول حركة اليقظة العربية فإن الطبعة الجديدة تصدر فى وقت تجلت فيه اليقظة العربية بأروع معانيها ويتجلى ذلك عندما هبت القوات المصرية والسورية - تساندها الأقطار العربية - فى أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٧٤ - رمضان ١٣٩٣ - تغسل عن نفسها وشرفها عار الهزيمة وتسترد أرضها السليبة بقوة السلاح - ولم تأل أية دولة عربية جهداً فى سبيل تقديم الدعم للمعركة، بما فى ذلك الموقف الحازم الحاسم الذى وقفته الدول العربية المنتجة للنفط حين قطعت إمداده عن الدول المؤيدة لإسرائيل وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وهولندة ولم تتزحزح الدول العربية عن موقفها على الرغم مما كانت تواجهه من تهديد ووعيد وصل إلى حد التلويح من جانب أنصار إسرائيل باستخدام القوة المسلحة لاحتلال حقول النفط. فما كان من الدول العربية إلا أن ردت على هذا التهديد بمثله وظهر استعدادها للتضحية إلى درجة التهديد بنسف حقول النفط وإشعال النار فيها إذا ما فكرت الدول الغربية فى استخدام القوة المسلحة، رغم ما كان ينطوى عليه ذلك من أضرار بالغة باقتصاديات هذه البلاد التى يعتبر النفط المصدر الأول وربما الوحيد لإيراداتها.

وكانت (أزمة الطاقة) التى وقعت فى العالم كله نتيجة لهذا الموقف إلى جانب وحدة الصف العربى، ونجاح القوات العربية فى تحطيم أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر - سبباً فى تحرك أزمة الشرق الأوسط نحو الحل وخروجها من

مشكلة الأمن ومشكلة التنمية وهما أكبر مشاكل العصر ، ولا تستطيع كل دولة من الوطن العربى أن تواجه هذه المشكلات وحدها بمعزل عن شقيقاتها.

وهذه الأصداء التى تتردد داعية إلى الوحدة إنما هى ظاهرة صحية تدل على نمو الوعى القومى ، فهو - بعد أن حقق الاستقلال - يريد أن يحافظ على هذا الاستقلال ، الذى لا يتهدد فقط من جانب الدول الاستعمارية التى تريد العودة إلى نفوذها القديم فى الوطن العربى بشكل أو بآخر ، ولكن أيضاً بسبب وجود ذلك الجسم الغريب (إسرائيل) الذى خلقه الاستعمار فى قلب الوطن العربى ليكون أداته فى تهديد الأمة العربية تهديداً مستمراً ، وشغلها عن أهدافها القومية الكبرى .

ولم يكن من الممكن أن تحدث هذه اليقظة القومية بين العرب او لم تتوفر لها المقومات الأساسية ، شأنها فى ذلك شأن القوميات الأخرى التى سجل التاريخ كفاحها من أجل التحرر والوحدة والنهوض فى مختلف أنحاء العالم .

المقومات الطبيعية :

فالوطن العربى يتميز بامتداده على مساحة من الأرض لا يدانيه فيها وطن آخر ، فهو يمتد بين الخليج والمحيط على مسافة تصل إلى ستة آلاف كيلو متر ، وهذه المساحة تشكل رقعة متصلة اتصالا جغرافياً مستمراً دون فواصل طبيعية ، وحتى البحر الأحمر الذى يبدو لأول وهلة وكأنه فاصل يفصل الشطر الآسيوى من الوطن العربى عن الشطر الإفريقى ، فإنه لم يكن كذلك فى حقيقة الأمر ، ذلك أن برزخ السويس كان طريقاً للهجرات العربية المتجهة إلى شمال أفريقية ، كما أن مضيق باب المندب كان من السهل على الهجرات العربية عبوره إلى شرق أفريقية .

وهذه الوحدة المكانية التى يتميز بها الوطن العربى هى التى تبرز الشذوذ الذى ترتب على خلق إسرائيل ، ذلك الإسفين الذى وضعه الاستعمار لتمزيق وحدة الوطن العربى لإضعافه حتى تسهل السيطرة عليه .

ومن أهم خصائص الوطن العربى تلك الحدود الواضحة كل الوضوح التى تفصل بينه وبين الأوطان المجاورة . مما جعل للوطن العربى شخصية واضحة المعالم ، وفى ظل الاستقرار الذى توفر نتيجة هذه الحدود نما الشعور القومى الموحد . وليس هنا مجال تناول هذه الحدود بالتفصيل ، ولكن يكفى أن نشير إلى أنه بالنسبة لأفريقية العربية ، فإنه يفصلها عن أوربا فى الشمال البحر المتوسط ، وفى الغرب المحيط الأطلنطى ، وفى الجنوب الصحراء الكبرى وخط تقسيم المياه بين النيل والكنغو وهضبة البحيرات وهضبة الحبشة ، وهى كلها حدود طبيعية منيعة عازلة .

أما الشطر الآسيوى من الوطن العربى فيحده البحر المتوسط من الشمال الغربى والمحيط الهندى من الجنوب ، وخليج عمان والبحر العربى فى الجنوب الشرقى ، وتفصل بين العراق وإيران (أى بين القوميتين العربية والإيرانية) جبال زاجورس الوعرة التى تفصل بينهما فصلا لا يكاد يكون تاماً باستثناء المنطقة الجنوبية عند البصرة وشط العرب حيث الحدود السياسية لا تتفق مع الحدود الطبيعية أو القومية مما جعل منطقة عربستان العربية (ويسميها الإيرانيون خوزستان) تدخل ضمن إيران بعد أن تنازلت عنها الحكومة العثمانية لإيران فى معاهدة أرضروم عام ١٨٤٧ وهذه نقطة ضعف فى حدود الوطن العربى . أما فى شمال العراق فالحدود تخترق منطقة جبلية يسكنها الأكراد ، وبذلك يدخل جزء منهم فى العراق وجزء فى سوريا وجزء فى تركيا وجزء فى إيران (ودخول الأكراد فى العراق يمثل نقطة ضعف أخرى) . وفى الشمال الغربى

من الوطن العربى تفصل الجبال بين تركيا من ناحية العراق ، وسوريا من ناحية أخرى ، وذلك عند هضاب كردستان والأناضول التى تفصل مابين القومية العربية والقومية التركية ، باستثناء لواء الإسكندرونة الذى حصلت عليه تركيا من فرنسا (التى كانت تتولى الانتداب على سوريا) قبيل الحرب العالمية الثانية ، وهذه نقطة الضعف الثالثة فى حدود الوطن العربى . وهكذا نرى أن الوطن العربى بحدوده الواضحة المنيعة كان مسرحاً ملائماً لنمو القومية العربية داخل إطار طبيعى محدد .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الموقع الجغرافى للوطن العربى جعل له مزايا عظيمة، فهو حلقة الاتصال بين الشرق والغرب (وازدادت أهميته بعد حفر قناة السويس سنة ١٨٦٩) ، كما يطل على عدد من البحار الهامة: الأطلنطى والمتوسط والأحمر والهندى ، وتمر به طرق التجارة العالمية ، وكذلك المواصلات على اختلاف أنواعها .

ومما يلاحظ أيضاً على الوطن العربى أنه يتكون من مجموعة من الهضاب والسهول ، أما السلاسل الجبلية فهى لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من السطح، وهذه الجبال لا توجد فى الغالب إلا حول الهضاب والسهول ، أى على شكل إطار جبلى يحيط بالمنطقة ، فهى جبال هامشية ، يضاف إلى ذلك أنها ليست شديدة الوعورة بل إنها أيضاً مأهولة بالسكان ، كجبال الشام وجبال المغرب .

ومعنى ذلك أنه لا يوجد عائق يحول دون اتصال أجزاء الوطن العربى بعضها ببعض وبذلك ، أصبح الاتصال ميسوراً منذ أقدم العصور ، وكانت سهولة التضاريس من أهم العوامل التى ساعدت على تحقيق التجانس والوحدة بين أبناء الأمة العربية .

فإذا تأملنا الظروف المناخية للوطن العربي لوجدنا أنه يمتد عبر أكثر من ثلاثين درجة من درجات العرض (من درجة عرض ٤ إلى درجة عرض ٣٧ شمالا) ، وهو امتداد كبير ، جعل الوطن العربي يضم أكثر من إقليم مناخي ففيه إقليم البحر المتوسط ، والإقليم السوداني، والإقليم شبه الاستوائي ، والإقليم الجاف وشبه الجاف ، وقد أدى تنوع الأقاليم المناخية إلى تنوع الحياة النباتية سواء الطبيعية أو الزراعية ، ولذلك نجد غلات بلاد المغرب والشام من موالح وكروم وزيتون وأشجار الأرز تختلف عن حاصلات السودان الأوسط والجنوبي من الذرة والسمسم والفول السوداني والقطن والصمغ والمنتجات الحيوانية ، كما تختلف هذه وتلك عن غلات السهول الفيضية في وادي النيل ووادي الرافدين بالعراق .

وهذا التنوع في الغلات خلق ضرورة التبادل الاقتصادي منذ القدم ، وبذلك قام تعامل اقتصادي وعلاقات اقتصادية وثيقة بين أقطار الوطن العربي، ولو كان الوطن العربي بيئة واحدة لما نشأت ضرورة لمثل هذا التعامل ولما صار له أثر في توثيق الصلات وارتباط المصالح ، ومما يسهل هذا التعامل أنه لا تقف دونه حواجز مانعة ، وهكذا يسرت الطبيعة سبل الاتصال بين أجزاء الوطن العربي .

وإلى جانب ذلك فإنه على الرغم من تنوع الأقاليم المناخية ، فإن الجانب الأكبر من الوطن العربي يدخل ضمن الإقليم الجاف أو شبه الجاف ، وقد أدى ذلك بدوره إلى وحدة في كثير من الأوضاع والمشكلات الاقتصادية في الوطن العربي ، فإن غلبة الجفاف جعلت المشكلة التي تواجه الوطن في في مختلف أجزائه تتعلق بموارد المياه سواء أكانت جوفية أم نهرية ، ومشروعات الري الحديثة اللازمة للتطوير الاقتصادي تكاد تتشابه .

المقومات البشرية :

وإذا كانت المقومات الطبيعية تمثل دعامة رئيسية للقومية العربية، فإن المقومات البشرية تمثل هي الأخرى دعامة لا تقل أهمية عن المقومات الطبيعية . ذلك أن مجموع أفراد الأمة العربية يصل إلى نحو مائة وعشرين مليون شخص ، وعلى الرغم من أنهم لا يتوزعون بنسبة واحدة في كل أجزاء الوطن العربي ، بل يتجمعون في تجمعات سكانية تفصل بينها مساحات من الخلاء السكاني ، فإنهم – رغم هذا العمران المتقطع المرتبط بتوزيع الماء – يتميزون بالتجانس الكبير الواضح، ولا شك أن الظروف الطبيعية ساعدت على هذا التجانس ، فلم تخلق عقبات تحول دون الاتصال أو تشجع على العزلة ، بل وتوفرت دوافع الاتصال المتمثلة في تنوع الإنتاج الذي استوجب التبادل التجاري وأوجد مصلحة اقتصادية مشتركة .

إلا أن العامل الأساسي للتجانس البشري في الوطن العربي يرجع إلى التجانس العنصري ، أو وحدة العنصر (الجنس) ، ومن البديهيات المسلم بها أنه كلما ازداد التجانس العنصري ازداد التآلف وتوثقت أواصر الوحدة . والأمة العربية تمتلك من وحدة الجنس ما لا يتوفر عند كثير من الأمم الأخرى ، ذلك أنه باستثناء الأقلية الزنجية الصغيرة في جنوب السودان ، فإن الأغلبية الساحقة من سكان الوطن العربي ينتمون إلى المجموعة الجنسية المعروفة بعنصر البحر المتوسط ، أحد عناصر الجنس القوقازي .

وإذا كان لا بد وأن نجد في منطقة كالوطن العربي بموقعها الجغرافي المتوسط مؤثرات جنسية أخرى ، فإن القاعدة العامة هي سيادة عنصر البحر المتوسط على كل أنحاء الوطن العربي من الخليج إلى المحيط . وقد جاء هذا التجانس العنصري نتيجة الهجرات السامية في موجات متتالية من صحراء العرب إلى

الشام والعراق ومصر ومنها إلى السودان وشمال أفريقية ، وكان العامل الاقتصادى هو الدافع الأساسى لهذه الهجرات التى ترجع إلى بضعة آلاف من السنين ، فاجتذبت بلاد الشام الكنعانيين والفينيقيين والعموريين والآراميين، واجتذبت أرض العراق الكلدانيين والعموريين والآشوريين ، واجتذبت مصر عبر برزخ السويس هجرات مختلفة من صحراء العرب . وعبر البحر الأحمر وصلت هجرات عربية إلى السودان قبل الإسلام وفى أيام التوسع الإسلامى ، إلا أن أغلبية الموجات العربية وصلت إلى السودان من مصر عن طريق وادى النيل ، وهو الطريق الطبيعى بين مصر والسودان من أقدم العصور ، وكذلك طريق الصحراء الممتدة عبر الحدود بين القطرين. وعلى الرغم من وضوح بعض المميزات الزنجية بين السودانيين ، إلا أن العنصر السائد فى السودان الأوسط والشمالى هو عنصر البحر المتوسط ، بل إن القبائل العربية البدوية فى السودان تكاد لا تختلف عن عرب شبه الجزيرة العربية سواء فى مظهرها أو فى أسلوب حياتها .

أما بلاد المغرب ، فإن أساسها كان من العناصر الحامية (البربر) التى جاءت من آسيا عن طريق باب المندب إلى وادى النيل ثم اتجهت من مصر غرباً إلى شمال أفريقية . إلا أنه لا يوجد فارق عنصرى بين الحاميين والساميين فهم عنصر واحد ، ولم تلبث الموجات السامية أن وصلت إلى المغرب سواء عن طريق البحر المتوسط الذى يتميز بالهدوء والجزر وأشباه الجزر ، وعن طريقه جاءت موجة الفينيقيين الساميين الذين استقروا فى تونس وأسسوا قرطاجنة وانتشروا على الساحل الشمالى ، أو عن طريق السهل الساحلى من مصر فى أثناء موجة الفتح العربى وما بعدها .

وهكذا صار أهالى الوطن العربى يملكون من التجانس العنصرى مالا تملكه كثير من الأمم الأخرى ، ولا يقلل من هذا التجانس وجود أقلية

عنصرية فى جنوب السودان حيث تسود الصفات الزنجية ، لأن هذه الأقلية لاتتجاوز ثلاثة ملايين نسمة من مجموع الأمة العربية ، كما أنه لا شك فى حدوث اختلاط بين أهل جنوب السودان وعنصر البحر المتوسط فى الشمال بدليل ظهور الصفات الزنجية معدلة بين الشيلوك ، وسوف يشتد الاختلاط والتزاوج بينهم بمضى الزمن مما سيقلل من الفروق الجنسية الحالية .

* * *

ومن أهم مقومات القومية العربية ذلك التجانس اللغوى الرائع بين أبناء الأمة العربية ، واللغة عامل هام يعتبر ركناً أساسياً من أركان الوحدة القومية بوجه عام ، واللغة العربية هى لغة الأغلبية الساحقة إذ يتكلم بها نحو ٩٠ ٪ من أبناء هذه الأمة ، حقاً هناك اختلاف فى اللهجات بين قطر وقطر ، ولكن هذا الاختلاف لا يقف حائلا دون التفاهم ، فأينما سرنا فى الوطن العربى نجد اللغة العربية هى لغة الحياة اليومية ، ولغة العلم والأدب بين جميع سكان هذا الوطن المترامى الأطراف ، واللهجات المحلية قريبة من بعضها لا تخرج عن كونها اختلافات فى النطق ، أو استبدال حرف بحرف آخر .

وحتى هذا الاختلاف فى اللهجات المحلية يمكن التغلب عليه بمراعاة استعمال اللغة العربية الفصحى فى التعليم والإذاعة والصحف ، مما يعمل على تضاؤل الاختلاف بين اللهجات المحلية واللغات العامية .

وقد كان للقرآن الكريم الفضل فى نشر اللغة العربية وتدعيم مكانتها فى الوطن العربى وجعلها لغة عامة فى جميع أجزائه ، وكان لارتباط اللغة العربية بهذا العامل الروحى أثر كبير فى رسوخها وتمسك أبناء الوطن العربى بها ، وارتباطهم بعضهم ببعض بهذا الرباط القوى المتين .

ونظراً لهذه الأهمية للغة العربية كأحد المقومات الأساسية للقومية العربية وإيجاد التفاهم والوحدة الفكرية بين أبناء الأمة العربية اهتم أعداء القومية العربية بإضعاف هذا الرباط اللغوى بتشجيع اللهجات المحلية ، وتشجيع الكتابة بها دون الفصحى ، حتى تنقطع وسيلة التفاهم بين أبناء الأمة العربية ، كما حاول الاستعمار الأجنبى أن ينشر لغته ويجعلها اللغة الأساسية على حساب اللغة العربية ، مثلما فعل الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، حتى يضعف الرابطة بين هذا الشعب العربى وبقية شعوب الأمة العربية .

ولابد من الإشارة إلى أن الوطن العربى يضم أقليات لغوية محدودة . تتمثل فى الأكراد فى آسيا العربية ، والبربر وأهالى جنوب السودان فى أفريقية العربية . أما الأكراد فعددهم فى العراق وسوريا لايتجاوز المليون ، ولكن مما يقلل من أثر الاختلاف اللغوى بين الأكراد والعرب، أن الاختلاف الجنسى بينهما لايكاد يذكر ، ثم أن الأكراد مسلمون يرتبطون بالعرب برباط روحى متين ، هذا إلى جانب رابطة المصلحة ، ورابطة الماضى المشترك ، والكفاح المشترك ، وكثير من الأكراد يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأصلية مما يخفف من مشكلة الأقلية الكردية .

أما الأقلية البربرية فى المغرب فإنها لاتزيد عن ٦ مليون شخص ، كما أن اللغة البربرية لغة حامية تجمعها والعربية وحدة الأصل ، وهى أيضاً لغة غير مكتوبة ، وإذا كتب البربر كتبوا باللغة العربية ، كل هذه عوامل أدت إلى انتشار اللغة العربية ، وكان من الممكن أن تنتشر العربية على حساب البربرية أكثر من ذلك لولا جهود الاستعمار الفرنسى لفصل المغرب العربى عن بقية أجزاء الوطن العربى ، فعمل على بعث اللغة البربرية ، ثم العمل على فرنسة هذه الأقطار العربية .

ولاتزيد الأقلية اللغوية فى جنوب السودان عن ثلاثة ملايين شخص .

وكان من الممكن أن تقل عن ذلك بكثير لو استمرت عملية التعريب فى تقدمها من الشمال صوب الجنوب . لولا سياسة الاستعمار الإنجليزى فى الفصل بين شمال السودان وجنوبه ففرضوا القيود على الانتقال من الشمال إلى الجنوب وشجعوا انتشار اللغة الإنجليزية ، وعملوا على الإبقاء على المستوى الحضارى المنخفض لأهل الجنوب .

إلا أن وجود هذه الأقليات اللغوية داخل الوطن العربى لا يقلل من الانسجام اللغوى ولا يضعف من شأن الوحدة اللغوية . فان هذه الأقليات الثلاث لا يزيد عددها عن عشرة ملايين أى ١٠ ٪ من مجموع أبناء الوطن العـــربى .

وعلى الرغم من أن وحدة الدين ليست شرطاً لا غنى عنه لقيام الوحدة القومية ، كما هو الحال بالنسبة لوحدة اللغة ، أو وحدة الجنس ، حيث إن الدين لله والوطن للجميع ، ومع ذلك فإنه إذا توفرت وحدة دينية بين أبناء الوطن الواحد كان ذلك عاملا مساعداً لتدعيم الوحدة وتقويتها واستمرارها وهذا مايتمثل فى الوطن العربى حيث يدين بالإسلام نحو ٩٣ ٪ من أبنائه ، وبذلك صارت الوحدة الدينية إحدى مقومات القومية العربية والتماسك القومى إلى جانب المقومات الأخرى .

ومما يزيد من أثر الدين الإسلامى أن كتابه السماوى وهو القرآن نزل باللغة العربية التى انتشرت بين جميع أبناء الوطن العربى على اختلاف أديانهم ، كما أن الإسلام لا ينظم علاقة الإنسان بربه فحسب بل إنه ينظم شئون المجتمع ، فهو نظام اجتماعى وسياسى ، ويتضمن تشريعاً شاملا للمعاملات والأحوال الشخصية ، والعلاقات بين الحاكم والمحكوم . ولذلك كان الإسلام عنصراً

من عناصر الوحدة بين أغلبية أبناء الأمة العربية ، وإذا ما انتقل عربى من قطر لآخر داخل الوطن العربى الكبير فإنه لا يصادف شيئاً غريباً ، فطرز العمارة الإسلامية تكاد تكون واحدة ، وأسماء الناس ، وعلاقاتهم الاجتماعية ونظرتهم للأمور ، والاحتفالات والأعياد ، والشعائر الدينية ، كل هذا لا يتغير من قطر إلى قطر .

وعلى الرغم من أن الوطن العربى يضم نحو ثلاثة ملايين مسيحى ، فإن ذلك لم يضعف من وحدة هذا الوطن ، لأن المسيحيين جزء أصيل من الوطن العربى يشتركون مع الأغلبية المسلمة فى الجنس واللغة والعادات والتقاليد ، والتجربة التاريخية والمصلحة ، ولذلك كان المسلمون والمسيحيون يداً واحدة فى الكفاح ضد الاستعمار رغم محاولاته التفرقة بينهما ، ويتمثل هذا فى وحدة الهلال والصليب فى أثناء ثورة ١٩١٩ فى مصر ضد الحماية البريطانية . كما توجد فى الوطن العربى أقلية يهودية يصل عددها إلى مائتى ألف شخص ، وهى أقلية ضئيلة ، أما الصهيونيون فى فلسطين المحتلة فهم ليسوا من هذا الوطن ووجودهم الحالى إنما هو احتلال عسكرى أجنبى . كما يضم الوطن العربى أقلية وثنية فى جنوب السودان يقدر عددها بنحو ثلاثة ملايين أى ٣٪ من مجموع الأمة العربية .

وإذا توفر للوطن العربى هذا التجانس العنصرى واللغوى والروحى ، بالإضافة إلى التاريخ المشترك الذى مر بهذا الوطن نتيجة موقعه الجغرافى وظروفه الطبيعية كان لابد وأن يؤدى ذلك كله إلى وحدة فى المفاهيم الاجتماعية ، وفى مقدمتها العادات والتقاليد ، وتشابه النظرة إلى شئون الحياة ، فمعظم أبناء الوطن العربى يشتركون إلى حد كبير فى معظم العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج والأفراح والمآتم ، والمجاملات ، والأطعمة ، وهناك

بعض الصفات الأخلاقية المشتركة كالكرم والوفاء والتماسك العائلى ، كما يتفقون فى نظرتهم للمرأة والعرض والشرف والثأر .

* * *

إلا أن وجود هذه الأسس والعناصر لا يكفى ،فقد تتوفر هذه المقومات لدى شعب من الشعوب ، ومع ذلك تمر قرون وقرون قبل أن يفطن هذا الشعب إلى الطريق الذى تلزمه هذه المقومات باتباعه ، إذ لا بد وأن يشعر كل فرد بهذه الروابط الطبيعية والبشرية التى تربطه ببقية أبناء أمته ، وبذلك تنشأ لديه العاطفة التى تجعله يتعاطف معهم ويحس نحوهم بشعور خاص لا يشعر بمثله نحو أبناء قومية أخرى ، ويحس نحو وطنه بالولاء والإخلاص الذى يجعله يتفانى فى حبه والتفانى فى خدمته وإعلاء شأنه ، وهذه هى العاطفة القومية ، وهى لا تتكون إلا نتيجة النضج ، وهذا النضج لا يحدث فجأة ، ولكنه ينمو مع الأيام ، نتيجة يقظة قومية تتضافر عدة عوامل على إنعاشها وإحيائها ، فإذا ما ازدهرت انتفض الشعب انتفاضة قومية تدفعه إلى السير فى طريق تحقيق أمانيه التى يلزمه الشعور القومى بتحقيقها ، فإذا كان وطنه قد ابتلى باستعمار أجنبى هب يغسل عن وطنه عار التبعية للأجنبى ، وإذا كان وطنه تمزقه الانقسامات المصطنعة جاهد من أجل القضاء عليها وتحقيق الوحدة ، وإذا كان وطنه يعانى من التخلف فى شتى ميادين الحياة نشط الشعب لكى يسمو بوطنه ويسير به فى طريق التقدم والمدنية حتى يتبوأ مكانه اللائق بين الأوطان .

ولذلك ، وبحكم انتمائى إلى هذه الأمة العربية رأيت أن أكتب عن حركة اليقظة العربية الحديثة فى شطر من الوطن العربى ، وهو الشطر الآسيوى نظراً لأن هذا الشطر بمختلف أقطاره مر فى العصور الحديثة وبخاصة فى

القرنين التاسع عشر والعشرين بظروف تكاد تكون واحدة ، جعلت من أقطاره وحدة واحدة ، فقد ظل هذا الشطر حتى الحرب العالمية الأولى تابعاً للدولة العثمانية ، دون أن تصل إليه أيدى الاستعمار ، وإن تطلعت إليه أنظاره ، ولم تلبث أن تضافرت عوامل – فى أثناء القرن التاسع عشر – ساعدت على نمو الوعى القومى لدى عرب المشرق ، ولكن الحكم التركى كان يحمل بين ثناياه عوائق تقف فى طريق ازدهار هذا الوعى القومى فإن سياسة العزلة التى اتبعتها الدولة العثمانية فى حكم ممتلكاتها عزلت أقطار المشرق العربى عن التيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية التى كانت تموج فى أوربا فى ذلك الوقت ، ولذلك فإنه بينما كانت أوربا تتبع الطريقة العلمية التجريبية التى ساعدت على تقدم العلوم وظهور الاختراعات ، وبينما أخذت النظم السياسية الحديثة تظهر فى أوربا ، وكذلك الحركات التحررية ، والأفكار القومية ، كان المشرق العربى – فى ظل الحكم التركى – يعانى من التخلف والجمود الذى أثر بدوره على القومية العربية ، وإن بقيت مقوماتها .

وإلى جانب ذلك لجأ سلاطين آل عثمان وخاصة السلطان عبد الحميد الثانى إلى ترويج فكرة الجامعة الإسلامية يحاول أن يطفىء بها جذوة الشعور القومى التى بدأت تظهر بين أهل المشرق العربى ، محاولا بذلك أيضاً جمع المسلمين – بما فيهم العرب – حول لواء الخلافة العثمانية فى وجه الأطماع الاستعمارية المسيحية الزاحفة من أوربا .

وكانت الحرب العالمية الأولى هى الفرصة التى سنحت لتحقيق الأمانى العربية فى الاستقلال عن الترك ، فكانت ثورة الحجاز عام ١٩١٦ ومساعدة عرب الشام للحلفاء ضد الأتراك : إلا أنه إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد تمخضت عن انحسار الحكم التركى عن أقطار المشرق العربى ، فقد وقعت هذه

الاقطار فريسة الاستعمار الأوربى الذى كان يمنى نفسه بها ، وكانت الحرب هى الفرصة السانحة لتحقيق أطماعه ، ولم يكتف الاستعمار الأوروبى بالسيطرة عليها ، بل مزق المنطقة أرباً . وفرض عليها تجزئة مصطنعة ، بهدف خلق كيان ممزق ضعيف يضمن استمرار التبعية والتخلف ويدعم مركز الاستعمار ومصالحه، حيث إن هذه الانقسامات تستنزف كل إمكانيات المنطقة وتمتص جهودها . فلا تتفرغ أبداً لمحاربة الاستعمار والتخلص منه .

وقد اتخذت هذه التجزئة وهذا التفتيت المقصود مظاهر عدة ، منها خلق وحدات سياسية صغيرة لا تمتلك من المقومات الطبيعية أو البشرية ما يضمن بقاءها، ومنها فصل المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية ، علماً بأن إحداهما لا تستطيع الحياة بدون الأخرى ، كما يظهر فى منطقة الخليج العربى والجنوب العربى ، وساحل الشام ، كما فرض الاستعمار حدوداً مصطنعة بين هذه الوحدات قد تكون حدوداً غير واضحة كما هو الحال بين وحدات شبه الجزيرة العربية أو حدوداً فلكية كما هو الحال بين مصر وليبيا وبين العراق والأردن أو حدوداً تجاهلت الظروف الطبيعية والبشرية الواحدة فشطرتها كالحد بين مصر والسودان الذى يقطع الاتصال الطبيعى الذى يفرضه نهر النيل والاستمرار البشرى الذى يتمثل فى قبائل جنوب مصر وشمال السودان .

ولم يكتف الاستعمار الأوروبى بذلك بل هو يسعى جاهداً من أجل القضاء على عروبة بعض الأقطار العربية مثلما حاولت فرنسا فى الجزائر ، ومثلما جرى فى منطقة الخليج العربى والجنوب العربى حيث ينقل الإيرانيون والهنود لتغيير معالمها العربية .

ولذلك فقد صار على أهل المشرق العربى فى القرن العشرين عبء الكفاح ضد هذا الاستعمار ، وما ترتب عليه من تمزق وتخلف ، وإذا كانت كثير

من أقطار المشرق العربى قد تخلصت فعلا من السيطرة الأجنبية فإنها تحاول جاهدة العمل على الحيلولة دون الوقوع فى براثنها مرة أخرى ، كما أن الشعب العربى وقد رأى ما حل بوطنه صارت نفسه تهفو إلى الوحدة — أى نوع من الوحدة — تضمن لوطنه الحياة الحرة الكريمة التى يتطلع إليها ، حتى يستطيع مواجهة مشكلات العصر : الأمن والتنمية .

* * *

وهذه الدراسة التى أقدمها للقارىء العربى تعرض للمرحلة الأولى لحركة اليقظة الحديثة فى الشرق العربى الآسيوى ضد الترك وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ عندما أصيبت الأمانى القومية لدى عرب المشرق بنكسة شديدة .

وقد يلاحظ القارىء أننى تناولت بعض عناصر الموضوع بشىء من التفصيل ، مثل دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، ولقد كان لهذا التفصيل ما يبرره ، ذلك لأن الحرب العالمية الأولى كانت امتحاناً واجهته القومية العربية ، وكان عليها أن تختار ما يتفق ومصالحها ، ثم إن هذه الحرب كانت الفرصة السانحة التى أمسكت بها دولتا الغرب : بريطانيا وفرنسا لتحقيق أطماعهما الاستعمارية التقليدية فى أقطار المشرق العربى .

* * *

ولقد عودت القارىء فيما سبق أن قدمته من مؤلفات تاريخية ، أن أنحو منحنى علمياً موضوعياً ، بالاعتماد على مصادر أصلية ، تتضمن - إلى جانب كتابات المعاصرين ومن شاركوا فى الأحداث موضع الدراسة — وثائق رسمية ، المنشور منها وغير المنشور ، مع الاهتمام - على وجه الخصوص - بالوثائق التى لم يسبق استخدامها .

وعلى الرغم من أن الموضوع الذى تتناوله الدراسة التى بين أيدينا يغلب عليه الطابع القومى ، الأمر الذى قد يدعو إلى تناوله فى دراسة خفيفة ، يتملك الكاتب فيها الشعور الوطنى ، ويحلق به الخيال ، فتسيطر على كتابته الألفاظ والعبارات الرنانة ، التى تحدث فى نفس القارىء أثراً عاطفياً ، فإننى التزمت بمنهجى ، واعتمدت على وثائق لم يسبقنى إليها كاتب ، حرصاً على أصالة البحث التاريخى ، حتى فى الموضوعات التى تتصل بشئون الوطن العربى الذى أنتمى إليه .

وفى مقدمة الوثائق التى اعتمدت عليها فى هذه الدراسة نوعان : أولهما سجلات وزارة الخارجية الأمريكية عن الأحوال الداخلية فى الدولة العثمانية فى الفترة بين عامى ١٩١٠ ، ١٩١٨ ، وتتضمن هذه السجلات تقارير للقناصل الأمريكيين فى شتى أنحاء الشرق العربى الآسيوى : بغداد وبيروت ودمشق وحيفا ، علاوة على تقارير السفير الأمريكى فى الآستانة إلى حكومته ، وهذه التقارير تتضمن الكثير من المعلومات الجديدة عن الأحوال فى الشرق العربى الآسيوى ، والمشاعر الوطنية التى كانت تموج به فى ذلك الوقت .

وثانيهما تلك التقارير التى كان يبعث بها المندوب الأمريكى الخاص إلى الشرق وليام ييل اعتباراً من عام ١٩١٧ ، يصف فيها أحوال الشرق العربى الآسيوى إبان الحرب العالمية الأولى ، وقد سبق لى أن اعتمدت على تقارير ييل المتصلة بفلسطين ، وذلك فى دراستى السابقة عن تصريح بالفور .

ويرجع اعتمادى أساساً على هذه الوثائق الأمريكية إلى ما كانت تتمتع به هذه الدولة فى ذلك الوقت من مكانة دولية ، حيث أن أطماعها فى المنطقة لم تكن قد ظهرت بعد ، مما يجعلنا نطمئن - بدرجة كبيرة -

إلى تصوير ممثليها السياسيين فى المنطقة للأحوال السائدة فيها خلال الفترة موضع الدراسة .

وإننى لأرجو أن أكون قد وفقت فى رسم صورة صادقة لتاريخ الشرق العربى الآسيوى فى تلك الحقبة ، وأن أكون قد أسديت لوطنى العربى الكبير ، والدراسات التاريخية خدمة متواضعة ، والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق ؟

القاهرة فى { يناير ١٩٧٢ م / ذى القعدة ١٣٩١ هـ }

دكتور
محمود صالح منسى

الباب الأول

الشرق العربى الآسيوى فى ظل الحكم العثمانى

الفصل الأول : الغزو العثمانى للشرق العربى .

الفصل الثانى : أحوال الشرق العربى الآسيوى فى ظل الحكم العثمانى .

الفصل الثالث : بداية اليقظة العربية .

الفصل الأول

الغزو العثمانى للشرق العربى

شهد القرن الثالث عشر الميلادى مولد إمارة تركية جديدة فى الأناضول ، صارت منذ عام ١٢٨٨ تحمل اسم أميرها عثمان الذى خلف أباه أرطغرل ، وتضافرت عوامل عديدة فيما تبقى من القرن الثالث عشر وطوال القرنين التاليين ساعدت الأتراك العثمانيين على التوسع - فى آن واحد - فى كل من آسيا الصغرى على حساب الإمارات السلجوقية التركية ، وإمارتى طرابيزون وكليكية المسيحيتين ، وبقايا الممتلكات البيزنطية فى الأناضول ، وفى شبه جزيرة البلقان على حساب الأنقاض البيزنطية والشعوب البلقانية .

واستمرت موجة التوسع العثمانى فى أوروبا حتى بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوط عاصمتها القسطنطينية فى يد السلطان العثمانى محمد الثانى (الفاتح) عام ١٤٥٣ ، وحتى عام ١٥١٢ عندما خلع السلطان بايزيد الثانى . كما شهدت هذه الفترة أيضاً تحول الإمارة العثمانية تدريجياً حتى أصبحت دولة كبرى أو إمبراطورية عظمى ، وانتقلت عاصمتها من بروسة (١٣٢٦) إلى أدرنة (١٣٦١) حتى استقرت فى القسطنطينية بعد فتحها (١٤٥٣) وصارت تحمل اسم إسلامبول (مدينة الإسلام) .

إتجاه العثمانيين نحو الشرق وأسبابه :

إلا أن عام ١٥١٢ كان عاماً حاسماً فى تاريخ الإمبراطورية العثمانية ، فقد تولى عرشها السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى ، وفى عهده حدث تحول عام وعميق فى استراتيجية الدولة ، فتوقفت فى عهده فتوحها فى أوروبا لكى تتجه نحو الشرق الإسلامى فى آسيا وأفريقيا .

وعلى الرغم مما يذهب إليه البعض من أن هذا التحول فى استراتيجية الدولة العثمانية يرجع إلى أنه صار من المتعذر على الدولة العثمانية — فى عهد سليم الأول — أن تواصل فتوحاتها فى القارة الأوروبية بدعوى أنها قد وصلت إلى درجة التشبع ، فإنه لا يمكن قبول هذا التفسير لسبب بسيط ، وهو أنه بمجرد وفاة السلطان سليم الأول عاد ابنه سليمان المشرع إلى توجيه فتوحات الدولة إلى أوروبا مرة أخرى ، فأوغل فى قلبها حتى استولى على بودابست واكتسح سهول المجر (١٥٢٦) وانتزع معظمها من امبراطورية النمسا ، ووصل إلى أسوار مدينة فيينا (١٥٢٩) .

ويذهب البعض مذهباً آخر فى تحليل هذا التحول ، وهو رغبة العثمانيين فى حماية الشرق العربى الإسلامى من الخطر البرتغالى الاستعمارى الصليبى ، الذى كان قد استشرى منذ نجح البرتغاليون فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ، فسعوا إلى انتزاع النشاط التجارى البحرى فى المحيط الهندى من أيدى العرب والمسلمين ، بل وحاولوا أيضاً تطويق الشرق الإسلامى بالاستيلاء على منافذه إلى بحار الشرق ، فاستولى البرتغاليون — لذلك — على جزيرة سقطرة ، التى تتحكم فى مضيق باب المندب ، كما استولوا على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية حتى مسقط ، وسيطروا على هرمز ، كما حاول البرتغاليون — بالتعاون مع الحبشة — توجيه حملة بحرية ضد الحجاز للاستيلاء على جدة ، لولا أن أرسل الله عليهم ريحاً عاتية ففشلت الحملة .

ولكننا نلاحظ أنه إذا كان العثمانيون قد توسعوا حتى وصلوا إلى اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية ، واتخذوا من هذه الأصقاع قواعد للقضاء على النفوذ البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى ، ونجح العثمانيون فعلا فى جعل البحر الأحمر بحراً إسلامياً صرفاً لا تدخله السفن غير الإسلامية ، فإن هذه الإجراءات من جانب العثمانيين كانت وقائية دفاعية ، لم يفكروا فيها ولم

يقدموا عليها إلا بعد أن استولوا فعلا على هذه الأقاليم ، وصار يقع على عاتقهم عبء حمايتها والدفاع عنها بعد أن صارت ممتلكات عثمانية .

وثمة تبرير ثالث لاتجاه العثمانيين نحو الشرق الشرق العربى والإسلامى ، ألا وهو رغبة السلطان سليم فى إخضاع العالم الإسلامى - بما يضمه من أماكن مقدسة إسلامية ، فى دولة واحدة تحت سيادته ، حتى يدعم مركز الدولة العثمانية كدولة إسلامية سنية ، فى مواجهة أعدائه الذين كانوا يتمثلون فى أوروبا المسيحية ودولة الفرس الشيعية .

إلا أنه إذا كان السلطان سليم قد حقق فعلا هذه النتائج ، فإننا لا نستطيع - رغم ذلك - القول بأنها كانت فى مخططه وهو يوجه جيوشه صوب الشرق لأنه كثيراً ما يتمخض الحدث عن نتائج لم تكن فى الحسبان عند وقوعه ، والأمر الذى يجعلنا نشك فى أن ذلك كان هدف السلطان سليم أن جمع شتات المسلمين فى دولة واحدة تخضع للسلطان العثمانى كان يستدعى بالضرورة سيطرة العثمانيين على الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية كلها ، ولكن الثابت أن السلطان عند ما توجه لمحاربة المماليك فى الشام لم يكن يفكر جدياً فى الاستيلاء على مصر ، ولكنها الظروف المشجعة التى ظهرت عقب موقعة مرج دابق ، التى انهارت فيها قوة المماليك ، وظهر ضعف الجبهة المملوكية متمثلا فى خيانة بعض البكوات ، وانحياز الخليفة العباسى المتوكل على الله ، ووضع نفسه تحت تصرف السلطان سليم ، وكذلك انحياز كبرى عائلات الشام ، كل هذا شجع السلطان على متابعة الزحف ، ولكن بعد أن حاول التوصل إلى صلح مع المماليك مكتفياً بالجزء الشمالى من الشام ، تاركا مصر وبقية الشام فى حوزتهم فى ظل السيادة العثمانية ، وعندما رفض المماليك العرض التركى تابع سليم سيره حتى أكمل فتح الشام ، ثم فتح مصر ،

وعندما أثار المماليك المقاومة ضده بحيث تحرج مركزه فى القاهرة صب سليم جام غضبه على الأمير المملوكى خاير بك الذى زين له فتح مصر وهون له من أمر هذا الفتح .

ومما يؤكد هذا الرأى أيضاً أنه بعد أن هزم طومان باى نهائياً وقبض عليه وأحضر أمام السلطان العثمانى دار بينهما حديث مثير ، أورده ابن زنبل أحمد الرمال الذى عاصر تلك الفترة ، ومما جاء فى هذا الحديث على لسان السلطان سليم قوله « والله ماكان قصدى أذيتك ، ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ماجئت لك ولا دست أرضك »[1] .

وإذا كان السلطان سليم الأول قد ترك الدولة الصفوية الشيعية قائمة فى فارس على الرغم من انتصاره عليها عسكرياً فى واقعة جالديران عام ١٥١٤ ودخوله عاصمتها تبريز ، فقد كان أولى به وأجدر أن يترك الدولة المملوكية السنية فى مصر والشام وشأنها ، ولو أن هناك من يقول بأن صعوبة المواصلات بين عاصمة الدولة العثمانية وإيران ، واختلاف المذهب بين العثمانيين السنيين ، والإيرانيين الشيعة جعل العثمانيين لا يرحبون بالسيطرة على إيران خوفاً من عدم استتباب الأمور لهم فيها[2] .

إلا أن التفسير الأقرب إلى المنطق للتحول فى استراتيجية الدولة العثمانية من أوروبا إلى الشرق الإسلامى هو أن الأحداث التى كانت تجرى وقتئذ فى مطلع

---

(١) ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر - واقعة السلطان الغورى مع سليم الأول - تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة د. ت.) ص ١٣٦

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (١٩٦٠) ص ٤١

القرن السادس عشر) فى هذه المنطقة هى التى حتمت على السلطان سليم أن يوجه جهوده الحربية هذه الوجهة، فقد كانت تجاور دولته فى الشرق دولتان إسلاميتان : الدولة الصفوية فى فارس ودولة المماليك فى مصر والشام ، وقد كان وجودهما يحمل فى طياته خطراً يتهدد الدولة العثمانية ويجعل الصدام أمراً محتوماً ، ففى فارس قامت منذ عام ١٥٠١ الأسرة الصفوية ، التى جاش فى صدرها شعور قومى دينى بزعامة الشاه إسماعيل الصفوى ، الذى حاول إعلاء كلمة المذهب الشيعى فى الأقطار المجاورة لفارس ، فغزا العراق فى عام ١٥٠٨ من أجل هدم مزارات الشيعة فى النجف وكربلاء ، بل وساورته أطماع نشر المذهب الشيعى فى الأناضول حيث استجاب لدعوته بعض رعايا السلطان ، فانتشر بينهم مذهب شيعى فوضوى يسمى (قزل باش) أى الرأس الأحمر ، اجتذب العناصر البائسة .

وكان من الطبيعى أن تهب الدولة العثمانية السنية لمواجهة هذا الزحف الشيعى الذى يحمل بين ثناياه خطراً سياسياً يهدد كيان الدولة من أساسه ، فاتجه السلطان سليم إلى العراق ، ومنها إلى فارس حيث أنزل الهزيمة بإسماعيل الصفوى فى جالديران (١٥١٤) ودخل تبريز العاصمة ، واستولى على المناطق الشمالية من بلاد مابين النهرين (كردستان وديار بكر والموصل) . ثم عاد سليم إلى عاصمته بعد أن اطمأن إلى زوال الخطر عن دولته .

ولكن هذه الحرب كانت لها نتيجة أخرى : وهى أنه باستيلاء العثمانيين على هذه الجهات من الصفويين صارت الممتلكات العثمانية مجاورة لدولة المماليك فى الشام مما أدى إلى وقوع الصدم بين الدولتين العثمانية والمملوكية .

وتراكمت - إلى جانب ذلك - فى سحب العلاقات بين الدولتين بعض

العوامل التى أدت إلى الصدام ، كان أهمها - إلى جانب الخلاف على تخطيط الحدود بين شمالى الشام وجنوب شرقى الأناضول ، وإيواء قنصوه الغورى لبعض الأمراء العثمانيين المناوئين السلطان سليم - ذلك الموقف المائع غير الحاسم ولا المحدد الذى وقفه السلطان المملوكى قنصوه الغورى من الحرب بين السلطان سليم والشاه إسماعيل الصفوى ، فلا هو انضم صراحة إلى الشاه ، ولو فعل لساعده فى مقاومة الزحف العثمانى ، ومحاولة حصر الجيش العثمانى بين قوتين وقطع خط الرجعة عليه ، ولا هو أيد العثمانيين ، ولا هو التزم بموقف الحياد الدقيق بينهما ، فأخذ حاكم إمارة ذى القادر الخاضعة لحماية المماليك يتعرض لمرور المؤن فى طريقها إلى الجيش العثمانى الزاحف على فارس مما أحنق السلطان سليم ودفعه إلى القضاء على هذه الإمارة ، وبذلك أصبح العثمانيون يطوقون الممتلكات المملوكية فى شمال الشام .

غزو مصر والشام :

ولم تلبث الحرب أن اشتعلت بين العثمانيين والمماليك ، فزحف الجيش العثمانى بقيادة السلطان سليم على الشام ، ونجح السلطان فى كسب جماعة من أعوان الغورى وأغراهم بخيانة سلطانهم ، مثل خاير بك نائب السلطان فى حلب ، وجان بردى الغزالى نائبه فى حماه ، وكان من نتيجة هذه الخيانة ، وتفوق الجيش العثمانى فى السلاح الحديث وبخاصة فى المدفعية الثقيلة أن انهزمت القوات المملوكية هزيمة ساحقة فى موقعة مرج دابق شمال حلب فى ٢٤ أغسطس (آب) ١٥١٦ ، وهى الموقعة التى وقع فيها السلطان الغورى تحت سنابك الخيل بين آلاف الصرعى من جيشه ، ولم يعثر على جثته .

وعقب واقعة مرج دابق دخل السلطان سليم حلب ، كما وضع المتوكل على الله الخليفة العباسى نفسه تحت تصرف السلطان سليم ، وأغرى هذا

الانتصار الساحق السلطان على مواصلة الزحف ، فأخذت بقية مدن الشام تسقط تباعاً فى يده ، وهو يتجه جنوباً صوب مصر ، فدخل دمشق حيث حضر إليه الأمراء يعلنون ولاءهم له .

أما فى مصر فقد أنزل السلطان سليم الهزيمة بالسلطان المملوكى الجديد طومان باى عند الريدانية فى صحراء العباسية فى ٢٣ يناير (كانون ثان) ١٥١٧ ، ودخل العثمانيون القاهرة التى استباحوها ثلاثة أيام . ونقل سليم مقر قيادته إلى بولاق ، وصار يخطب له فى خطبة الجمعة بمساجد القاهرة .

وعلى الرغم من المقاومة التى أبداها طومان باى ومن التف حوله من المماليك والعربان وأفراد الشعب بعد دخول العثمانيين القاهرة سواء فى القاهرة ذاتها (كما فى واقعة الصليبة ٥ - ٧ محرم سنة ٩٣٢ هـ = ٢٩ - ٣١ يناير (كانون ثانى) ١٥١٧ م) أو فى الصعيد ، فإن النصر فى النهاية كان حليف العثمانيين ، وقبض على طومان باى ، ودارت محادثة طويلة بينه وبين السلطان سليم الذى أعجب به وأكبر فيه روح الكفاح ، وكاد يبقى على حياته لولا تحريض خاير بك وجان بردى الغزالى اللذين أثارا مخاوف السلطان سليم من احتمال قيام طومان باى بثورة فى مصر تخرجها من حوزة الدولة العثمانية ، فأمر سليم بإعدام طومان باى شنقاً على باب زويله[1] فى ٢٣ أبريل (نيسان) ١٥١٧ ، وتم دفنه بمسجد الغورى ، وبذلك طويت صفحة دولة المماليك ، وأصبحت بلاد الشام ومصر ضمن الممتلكات العثمانية . وقد كافأ السلطان سليم الأميرين الخائنين ، فعين جان بردى الغزالى والياً على الشام ، وعين خاير بك والياً على مصر ، فكان ثانى وال من قبل العثمانيين ، إذ كان قد وليها قبله ولفترة قصيرة يونس باشا العثمانى .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٤ - ١١٦ .

خضوع الحجاز للعثمانيين :

ولقد ترتب على خضوع مصر والشام للعثمانيين وزوال دولة المماليك أن دخل الحجاز تلقائياً وسلمياً ضمن الدولة العثمانية ، ذلك أن الحجاز كان تحت السيادة الإسمية للمماليك وكان الحجاز يتلقى من مصر كل عام كميات من الغلال، علاوة على الأموال لفقراء الحرمين الشريفين ، والمرتبات لأشراف الحجاز، وكان المحمل المصرى من أهم قوافل الحج التى تتوجه إلى الحجاز كل عام فيحمل معه الخير والرخاء .

ولقد رأى الشريف بركات شريف مكة أنه لا ضير من أن يتحول بولائه إلى العثمانيين بعد انهيار دولة المماليك ، بل على العكس وجد أنه سيكون لهذا التحول فائدته فى استمرار تدفق الخيرات من مصر على الحجاز ، ولذلك فإنه عندما دعاه السلطان سليم للدخول فى طاعة العثمانيين استجاب على الفور لهذه الدعوة وأوفد ابنه وشريكه فى الولاية (أبو نمى) يحمل مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم فى القاهرة تعبيراً عن الولاء ، فمنحه السلطان سليم تفويضاً بحكم مكة حيث صارت الخطبة باسم سليم ، وأمر بقتل حسين الكردى صاحب جدة من قبل السلطان الغورى ، وبذلك احتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة كما كان فى أيام المماليك وأنشأت صنجقية عثمانية فى جدة، وأصبح تعيين شريف مكة بيد السلطان العثمانى .

ولقد ترتب على سيطرة العثمانيين على الحجاز أن صارت البلاد الإسلامية هناك تقع ضمن الدولة العثمانية ، وقبل ذلك كانت كل من دمشق والقدس والقاهرة قد دخلت فى حوزة العثمانيين ، وبذلك صار لهؤلاء وجود فى البحر الأحمر الذى حاولوا استكمال سيطرتهم عليه بالاستيلاء على اليمن .

الغزو العثمانى لليمن :

دخلت بلاد اليمن تحت السيادة العثمانية سلميا فى بادىء الأمر ، كما حدث بالنسبة للحجاز ، وذلك عندما أصدر السلطان سليم حكما سلطانيا بتثبيت اسكندر الجركسى واليا على اليمن مثلما كان فى عهد المماليك ، إلا أن النزاع استمر بين القواد الجراكسة فى اليمن الأمر الذى أدى إلى زعزعة النفوذ العثمانى ، مما دفع العثمانيين إلى إرسال حملة بقيادة سليمان باشا الخادم عام ١٥٣٨ ، فكانت أول حملة حقيقية على اليمن ، دخلت عدن بترحيب من حاكمها عامر بن داود الطاهرى الذى كان فى نزاع مع إمام اليمن ، إلا أن الجنود العثمانيين أعملوا فيها النهب والسلب . كما غدر سليمان باشا الخادم بأمير عدن الذى ساعدهم على دخولها ، مما كان له أسوأ الأثر على سمعة العثمانيين ، ولكن سليمان باشا الخادم فشل فى استدراج الإمام شرف الدين .

ثم حاولت الدولة العثمانية فى عام ١٥٥١ أن تزيل الأثر السىء الذى أحدثته سياستها فى المنطقة فعينت واليا جديداً على اليمن هو مصطفى باشا النشار ، وعهدت إليه بالتفاهم مع الإمامية الزيدية ، ونجح الوالى فى مهمته ، ومما ساعده على ذلك نجاح العثمانيين فى بسط نفوذهم على الساحل الشرقى لأفريقية (سواكن ومصوع) منتهزين فرصة الانقسام فى الحبشة بين أنصار الكنيسة الغربية وأنصار الكنيسة الشرقية ، ذلك الانقسام الذى تطور إلى حرب أهلية .

وفى خلال فترة الهدوء فى اليمن أرسل العثمانيون حملة إلى الخليج استولت فى عام ١٥٥٣ على مسقط ، وعلى الحسا فى عام ١٥٥٥[١] وحاصرت هرمز ، ولكنها عادت بعد وصول أسطول برتغالى إلى المنطقة .

---

(١) ساطع الحصرى : مرجع سبق ذكره ص ٩

ولم يلبث أن عاد الحكم العثمانى فى اليمن إلى سيرته الأولى السيئة ، وتجدد النزاع بين الزيدية والعثمانيين ، ونجح الزيديون فى طردهم من عدن ومعظم جهات اليمن ، فأرسلت الدولة العثمانية حملة كبرى لإعادة فتح اليمن بقيادة سنان باشا (١٥٦٨ - ١٥٦٩) ، وهو ما يسمى بالفتح العثمانى الثانى لليمن .

واستولى سنان باشا على عدن ، ثم دخل فى حرب عنيفة ضد الزيدية ، حتى توصل الطرفان إلى اتفاق يقضى بأن يحكم إمام الزيدية باسم السلطان العثمانى.

ولكن تجدد النزاع بعد ذلك ، ونجح الزيديون فى انتزاع صنعاء وتعز وعدن حتى أخرجوا العثمانيين من اليمن كله عام ١٦٣٦ ، وعلى الرغم من عودة الحكم العثمانى إلى اليمن مرة أخرى ، فقد ظلت الاضطرابات والثورات تعم اليمن دون انقطاع .

وعلى الرغم من التوسع العثمانى فى شبه الجزيرة العربية ، فإن الرحالة كارستن نيبور Caraten Neibuhr فى مذكراته عن مشاهداته فى بلاد العرب فى منتصف القرن الثامن عشر يذكر أن اليمن وحضرموت وعمان والحسا ونجد وبقية بلاد العرب ما عدا الحجاز كانت تحت حكم ولاة شبه مستقلين ، ولا يربطها بالدولة إلا سيادة إسمية ، تتمثل فى دفع الجزية السنوية ، وأنه على الرغم من ادعاء السلطان ملكية هذه الأقاليم فقد كان أهلها لا يعترفون بذلك ، وأنه لم يكن هناك من يمكن اعتباره تابعاً للسلطان إلا شريف مكة[١] وإن كانت الحكومة العثمانية عملت على تدعيم نفوذها فى هذه المناطق فاعترف شيخ الكويت بالحماية التركية فى أثناء حملة مدحت باشا لإخضاع أمير نجد عام ١٨٧١ ، وفى عام ١٨٩٣ أبلغت حكومة الباب العالى الحكومة البريطانية، بأنها تعتبر جميع المناطق الواقعة على الساحل جنوبى البصرة وحتى ساحل

---

(١) د . محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ص ١٢٣

عمان مناطق تابعة لولاية البصرة ، وظلت الحكومة البريطانية حتى عام ١٨٩٧ تعترف بأن سيادة السلطان العثماني على الكويت أمر لا يمكن تجاهله أو إنكاره[١] .

الفتح العثماني للعراق :

رأينا كيف أسفر الصدام الأول بين العثمانيين والصفويين في جالديران عام ١٥١٤ عن سيطرة العثمانيين على المناطق الشمالية من بلاد ما بين النهرين (كردستان وديار بكر والموصل) ، أما العراق الأوسط والجنوبي فقد ظل تحت سيطرة الفرس . وفي عهد السلطان سليمان المشرع كان بعض الطامعين في منصب حاكم بغداد يتطلعون إلى معونة وتأييد العثمانيين ، في مواجهة منافسيهم الذين كانوا يحظون بتأييد شاه فارس ، يضاف إلى ذلك أن أهل السنة في العراق كانوا يرسلون الدعوة تلو الأخرى مستنجدين بالسلطان سليمان لإنقاذهم من الحكم الفارسي الشيعي ، ولذلك فقد قام السلطان سليمان على رأس حملة على العراق عام ١٥٣٣ فدخل بغداد .

ومما يلاحظ أن السلطان العثماني السني — في سياسته في العراق — حرص حرصاً شديداً على عدم الإساءة إلى مشاعر الشيعة ، ولذلك زار الكثير من مزاراتهم وأوقف عليها الكثير من الأوقاف ، كما بنى سد (السليمانية) على الفرات الأوسط لحماية العتبات المقدسة في كربلاء من مياه الفيضان في الربيع ، وزار قبر الإمام علي في النجف ، ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن إرضاء السنة كذلك ، وقبل أن يغادر سليمان العراق بعث إليه حاكم البصرة العربي بابنه راشد يحمل إليه المفاتيح رمزاً للخضوع ، وبذلك ألحقت البصرة بالممتلكات العثمانية .

(١) د . محمود الداود : الخليج العربي ج ١ (د . ت) ص ١١٠ — ١١٦

وهكذا خضع العراق من شماله إلى جنوبه للحكم العثمانى، ومع ذلك، فقد عاد الفرس لاسترداد العراق أكثر من مرة، وبخاصة فى عام ١٦٢٣، وظل كذلك حتى عام ١٦٣٨ حين جرد السلطان مراد الرابع حملة كبرى زحف بها على العراق حتى استعاده مرة أخرى للحكم العثمانى، ولم ينته الصراع بين فارس والدولة العثمانية إلا فى عام ١٧٤٧ حين خلص العراق للحكم العثمانى[1].

نتائج الفتح العثمانى للشرق العربى:

ولقد كان من أهم نتائج الفتح العثمانى للشرق العربى ووصول العثمانيين إلى البحار الشرقية أن وقع على كاهل العثمانيين واجب إنقاذ ممتلكاتهم فى هذه المناطق من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى، وهكذا نجد أن الحرب ضد البرتغاليين فرضت نفسها فرضاً على العثمانيين وحدهم بعد امتلاكهم أقاليم تقع على البحر الأحمر والخليج والبحر العربى.

وإلى جانب ذلك فقد كان من أهم نتائج الفتح العثمانى للشرق العربى أيضاً أن اكتسبت الدولة العثمانية صبغة عربية لم تكن لها من قبل، وأصبح العرب يكونون نسبة كبيرة من سكان الدولة العثمانية، كما تدعم مركز هذه الدولة كدولة إسلامية بعد ضم الأماكن المقدسة الإسلامية.

العثمانيون والخلافة الاسلامية:

وقد كان من أهم النتائج التى ترتبت على خضوع مصر للدولة العثمانية انتقال الخلافة الإسلامية إلى آل عثمان. وقد ثار جدل كبير حول هذا الموضوع، فالبعض ينكر أن الخليفة العباسى فى مصر المتوكل على الله قد تنازل رسمياً عن لقبه للسلطان العثمانى سليم الأول، استناداً إلى أن المؤرخين المعاصرين للغزو العثمانى لمصر مثل ابن إياس وابن زنبل لم يذكروا شيئاً مطلقاً عن هذا التنازل، رغم ما أورده ابن إياس من تفاصيل عن علاقة السلطان سليم بالخليفة المتوكل،

---

(١) د: محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٣ – ١٢٠.

واستناداً إلى أن نقل شعار الخلافة (البردة النبوية وبعض شعيرات من لحية الرسول عليه الصلاة والسلام . وسيف عمر بن الخطاب ،وكانت محفوظة حتى الغزو العثمانى بمسجد أبى أيوب الأنصارى) لا يعتبر دليلا قاطعاً على حدوث التنازل لأن السلطان سليم كان شغوفاً بنقل كل ثمين من مصر إلى الآستانة[١].

بينما يقول البعض الآخر من المؤرخين بفكرة التنازل عن الخلافة للعثمانيين ومن هؤلاء المؤرخ الرومانى دوسون D'Ohsson فى كتابه وصف عام الإمبراطوريه العثمانية[٢] ، ولعله عثر فى أرشيف الآستانة - فى أثناء إقامته الطويلة فيها - على وثائق تثبت التنازل ، إلا أنه لم يحدد لنا هذه الوثائق .

وقد استطاع البعض[٣] العثور على مخطوطات عثمانية بمكتبة جامعة القاهرة تتمثل فى مجموعة من القوانين التى أصدرها السلطان سليمان المشرع ، وتحتوى على بعض ألقاب السلطان ومنها : « خليفة رسول رب العالمين، وحائز الإمامة العظمى ووارث الخلافة الكبرى » هذا إلى جانب بعض المراسلات السلطانية إلى حكومة النمسا فى القرن السابع عشر ، والمحفوظة فى أرشيف النمسا التاريخى Haus Hof und Staatarchiv وتتضمن لقب الخلافة « حامى حمى السلطنة العلية ومقر الخلافة السنية » .

ومن المرجح أن الخلافة ظلت فى المتوكل على الله حتى وفاته عام ١٥٤٣، وبعد ذلك مباشرة انتقلت إلى العثمانيين ، وكل ما فى الأمر أن السلاطين العثمانيين لم يهتموا فى بداية الأمر بإبراز صفة الخلافة فى ذلك الوقت المبكر لأسباب منها أن الخلافة وقتئذ كانت قد فقدت مكانتها ،ولم يعد الخليفة أكثر من رمز للتبرك ، بينما كان العثمانيون فى هذا الوقت يبنون مجدهم على أساس

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى: تاريخ أوروبا فى مطلع العصور الحديثة حـ ١ ص ٥٨٩

(٢) Tableau Gèneral de l' Empire Ottoman .

(٣) د . حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ص ٧٧

القوة العسكرية وحدها فلم يكونوا بحاجة إلى قوة روحية تشد أزرهم فى مواجهة أوروبا ، ولم تظهر حاجة الدولة إلى هذه القوة الروحية المتمثلة فى الخلافة إلا منذ القرن الثامن عشر ، وفى أثناء القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ، عندما ضعفت الدولة ، وبرزت أطماع الدول الأوروبية فيها ، فحاول السلاطين — وخاصة عبد الحميد الثانى — استخدام صفة الخلافة لجمع كلمة المسلمين وراء السلطان الخليفة ، لمقاومة الأطماع الأوروبية ، إلى جانب مقاومة الحركات القومية والانفصالية والدستورية التى بدأت تظهر فى الممتلكات العثمانية فى ذلك الوقت ، ومنها الحركة القومية العربية ، كما سيظهر فى فصول تالية من هذه الدراسة.

الفصل الثاني

أحوال الشرق العربي الآسيوي

في ظل الحكم العثماني

سياسة العثمانيين في حكم البلاد العربية:

وقد كان للحكم العثماني في البلاد العربية آثار سيئة حيث صارت البلاد مسرحاً للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفاً من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقاً لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعية ، وشمل البلاد التأخر ، إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة واقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أما ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً .

وكان المجتمع في نظر العثمانيين ينقسم إلى طبقتين : الحكام الأتراك والرعية المحكومين ، ومهمة الطبقة الثانية خدمة الأولى أي أن الأتراك صاروا طبقة أرستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية المجتمع وترفعوا عن الاتصال به [1] . كما أحاط العثمانيون بلاد الشرق العربي بسياج منيع من العزلة رغبة في الإبقاء عليها

---

(1) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص١٤٦–١٤٧

تحت حكمهم وخاصة بعد أن فشلوا فى طرد البرتغاليين من منطقة الخليج العربى أو القضاء على نشاطهم فى المحيط الهندى ، أو إيقاف تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح وإعادتها إلى الطريق القديم[١] ، وبذلك انقطعت الصلات السياسية والاقتصادية والحضارية بين العالم والشرق العربى الذى أوصدت أبوابه فى وجه الحضارة العربية التى كانت تسير مسرعة فى طريق التقدم منذ القرن السادس عشر .

وعلى الرغم من المساوىء التى شابت الحكم العثمانى فى البلاد العربية ، فإنه لم يكن سوءاً كله وإنما حمل فى طياته ـ وعن غير قصد ـ بعض الحسنات التى استطاع العرب الإفادة منها ، ومن بعض عيوبه على السواء ، فإنه بالعزلة التى فرضها العثمانيون على البلاد العربية استطاعوا أن يدفعوا عن الشرق العربى غائلة الاستعمار العسكرى الأوروبى حتى أواخر القرن الثامن عشر مما أضفى عليه نوعاً من الهدوء[٢] ، كما أفادت البلاد العربية ـ باستثناء الجزائر ـ من السياسة التى اتبعتها الدول الأوروبية الكبرى حتى السبعينيات من القرن التاسع عشر ، وهى سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها . كما أن الحكم العثمانى غير المباشر كان قليل التأثير فى حياة المجتمعات العربية فى الشرق ، فقد احتفظ العثمانيون بالبناء الاجتماعى والاقتصادى الذى كان سائداً فى المنطقة قبل دخولها فى حوزتهم ، ولم يفرضوا عليها القوانين والأنظمة العثمانية الصرفة لئلا يخلوا بتنظيمات هذه البلاد الاقتصادية ، مكتفين بفرض سيطرتهم السياسية والعسكرية تاركين لشعوب هذه البلاد مؤسساتهم السابقة وحرية الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم[٣] . ومن ذلك إبقاؤهم على الطوائف

---

(١) د . عبد العزيز الشناوى : الوحدة العربية فى التاريخ الحديث والمعاصر (مرآة العلوم الاجتماعية ـ ديسمبر سنة ١٩٦٣) ص ١٠

(٢) Zeine : Arab - Turkish Relations (1958) p14

(٣) توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ((١٩٦٠)ص٣

التى كان ينقسم إليها أصحاب الحرف ، وكانت الطائفة بمثابة منظمة اجتماعية واقتصادية لها دستورها غير المكتوب من العادات والتقاليد الموروثة ، ولها شيخ يتولى شئونها وتنظيم علاقاتها بالحكومة فيما يختص بالضرائب وحفظ النظام داخل الطائفة ورعاية مصالحها وقد رغبت الدولة العثمانية فى الإبقاء على هذا الوضع لكى يساعدها على حفظ النظام بين السكان والاتصال بالأهالى عن طريق شيوخهم[١] ، وقد ساعد هذا الوضع على احتفاظ العرب فى ظل الحكم العثمانى بمقوماتهم الأساسية من لغة وثقافة وعادات وتقاليد وكانت هذه المقومات هى الأساس الركين الذى قامت عليه الحركة القومية العربية ، خاصة وأن انعزال الحكام الأتراك عن العرب واستعلاءهم عن الشعوب الخاضعة لهم جعل الحكم العثمانى عديم التأثير فى حياة الشرق العربى ، وبذلك لم يتمكن العثمانيون من تتريك الشرق ، ولم يحاولوا ذلك إلا فى سنوات حكمهم الأخيرة ، بل على العكس نجحت مجتمعات الشرق العربى - بتراثها الفكرى - فى التأثير على الترك ، خاصة وقد كان للعرب تراث حضارى عظيم بينما لم يكن للترك رصيد حضارى كبير ليغيروا المقومات الأساسية للشعب العربى ، ولذلك كان الحكم العثمانى للشعب العربى ضئيل الأثر فى حياة المجتمعات العربية ، وفى تطويرها بما يتناسب مع القرون الأربعة التى خضعت طوالها الشعوب العربية للحكم العثمانى[٢] حتى لقد لعب العرب المسلمون دوراً هاماً فى النظام القضائى للامبراطورية العثمانية ، وهو نظام قائم على الشريعة الإسلامية ، كما تخرج من الأزهر فى القاهرة والمدارس الدينية السنية فى دمشق وحلب وطرابلس كثير من العلماء والقضاة والمفتون الذين تولوا القضاء والإفتاء فى مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية[٣] .

---

(١) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ١٤٧ — ١٤٨

(٢) د . عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ١٤ — ١٩

(٣) Zeino : Ouv. cit. p. 14.

الترابط العربي في ظل الحكم العثماني :

وإذا كانت طبيعة الحكم العثماني قد ساعدت على عدم ذوبان المقومات الأساسية للشعوب العربية ، فإن الترابط العربي كان يغذي هذه المقومات ، وكان من أوضح مظاهر هذا الترابط الحج والمعاهد العلمية العربية ، ثم الاتصال الثقافي بين العلماء العرب . فالحج كان مجالاً للتجارة والتبادل الثقافي حيث كان بعض الحجاج من طلاب العلم يتوقفون في مكة أو القاهرة أو دمشق لعدة سنوات أو بقية حياتهم لتلقي العلم أو للتدريس . أما عن المعاهد العلمية ، فإن الأزهر ـ في مقدمتها ـ حفظ التراث الحضاري العربي وصار مركز إشعاع يضيء الطريق ويبدد الظلمات التي خيمت على المنطقة العربية تحت الحكم العثماني وقام الأزهر بدور رائع في الحفاظ على اللغة العربية ، وتدعيم مركزها إزاء اللغة التركية التي وفدت مع الحكام العثمانيين واستخدموها في حكومات الولايات العربية ، كما برز الأزهر في الاتصال الثقافي بين مختلف أنحاء الوطن العربي ، وظل الكعبة الثقافية التي تهوى إليها أفئدة العلماء والفقهاء وطلاب العلم[1] تزخر بهم أروقته ، كما كانت دمشق بسبب موقعها مقراً لرجال العلم ، وعلى الرغم من انحطاط المستوى الثقافي في ذلك الوقت ، فإن العلماء بعلاقاتهم العلمية ونشاط دور العلم استطاعوا أن يحفظوا المجتمعات العربية متماسكة في عصر سادت فيه الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي ، ولذلك فإن التعليم في الشرق العربي على العهد العثماني كان يؤدي وظيفة اجتماعية أكثر منها تعليمية[2].

ولا ننسى أن استيلاء العثمانيين على البلاد العربية خلق في الشرق وحدة سياسية ، ورغم أنها وحدة انعزالية ، فقد جمع الأتراك العرب في دولة واحدة ، أكسبت الشرق نوعا من الاستقرار النسبي كان يفتقده منذ القرن الثامن عشر ، وفي ظل

---

(١) د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره ص ١٨ - ١٩

(٢) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٦١ - ٢٦٢

الحكم العثمانى لم يعد بين البلاد العربية حدود سياسية فاصلة ولا حواجز جمركية تقف فى وجه انتقال العربى من قطر لآخر، وممارسة ألوان من النشاط دون قيود[1] .

وعلى الرغم من هذه الحسنات التى جاءت عرضاً ، فقد كان الحكم العثمانى شيئاً فهو حكم أجنبى جامد متخلف أسدل على الشرق العربى أستاراً من التخلف والتأخر فى كافة المجالات ونواحى النشاط

اختلاف نظرة عرب المغرب الى الحكم العثمانى :

وعلى الرغم من أن مدار البحث فى هذه الدراسة هو الشرق العربى فى آسيا فإنه مما تجدر ملاحظته أن أهل المشرق العربى ينظرون إلى الحكم العثمانى نظرة تختلف عن نظرة إخوانهم أهل المغرب العربى فى إفريقية ، الأمر الذى يدعونا إلى محاولة تفسير هذا الاختلاف .

فأهل المشرق العربى فى آسيا - كما رأينا - يرون فى الحكم العثمانى حكماً أجنبياً جامداً متخلفاً لم تجن البلاد من ورائه خيرا ، وإذا كان قد حمل فى طياته بعض الحسنات فإنها كانت عارضة غير مقصودة .

أما أهل المغرب العربى[2] فيرون غير ذلك ، فهم ينكرون وصف الخلافة العثمانية بصفة المستعمر المحتل التركى الذى شهده إخوانهم المشارقة، وإنما يرون فى الخلافة العثمانية جمعاً لشمل هذه الأقطار فى مواجهة أعداء الإسلام، فيذهب

---

(١) . عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ١٤

(٢) الدكتورة بنت الشاطىء : مقال بعنوان (أصداء من ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر - صحيفة الأهرام فى ١٦/٢/١٩٧١ م .

بعضهم[1] إلى أن « الذى كان فى بلادنا هم إخواننا الأتراك المسلمون ، وجودهم بيننا كان باستدعائنا واستنجادنا وعن محض إرادتنا واختيارنا ؛ وما استجابوا لنا ليحكمونا بل للتعاون على مقاومة الاستعمار ورد العدوان وتطهير أرض الإسلام من خبث الكفران . . . ومن المغالطة والتحامل أن يتجنى متجن فينعته بالاحتلال أو الاستعمار ، وأعداء الإسلام المتربصون بنا الدوائر هم الذين دسوا هذه العبارات السامة والمنفرة ليهزوا روح التضامن الإسلامى الذى كان ولا يزال شجى فى حلوقهم والسد المنيع الذى انحسرت عنده مؤامراتهم الصليبية الاستعمارية » .

وذهب كاتب ومفكر جزائرى هو الشاذلى المكى إلى أن الجيش التركى بالجزائر الذى لم يتجاوز عدده ثلاثة آلاف جندى إنما كان « ضيفاً مكرماً طيلة ثلاثة قرون ، يشارك فى حماية ثغور الجبهة ، وكان كبير النفس أبياً شجاعاً هب متطوعاً لمشاركتنا ودعم قواتنا فى مواجهة الغزو ، وضحى فى سبيل ذلك بأغلى الدماء وأعز الأرواح ومن واجب المسلمين أن يقدروا تضحيات الجيش التركى وأن يخلدوا ذكراها باعتزاز ، لا أن يجحدوها ويغمزوها بالطعن والتجريح ، وليذكروا ما حاق بالعرب – بعد سقوط الخلافة العثمانية من تنابذ وتباغض وتخاذل أسلم أرضهم للصهيونية تبذر فيها الرعب والإرهاب وتنهش لحم الشعب الفلسطينى نهش الضوارى ، وتمعن فيهم تنكيلا وتشريداً ... »[2].

ويذهب مولود قاسم وزير الأوقاف والشئون الإسلامية بالجزائر إلى أن الأتراك – فى ضوء واقعهم التاريخى – كانوا نعم العون والسند للجزائر فيما

---

(١) من حديث السيد أحمد حمانى رئيس المجلس الأعلى الإسلامى بالجزائر أمام ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر ، كما ورد فى مقال لدكتورة بنت الشاطئ .
(٢) من مقال الدكتورة بنت الشاطئ .

عانته من أهوال الغزو الاستعمارى ووطأة جبروته ، ولن نغمط فضلهم ولن نتردد فى التنويه بشهامتهم والعرفان بجميل ما قاموا به من جهاد بطولى وقدموا من تضحيات باهرة لنصرة إخوانهم المسلمين وحماية ثغورهم فى تلكم الحقب من تاريخ الصراع المرير بين الحملات الصليبية الاستعمارية والمسلمين المستبسلين فى المقاومة »[١] .

هـذا هو مجمل رأى أهل المغرب العربى فى الوجود العثمانى فى بلادهم ، ولهم عذرهم فيما ذهبوا إليه ، ونستطيع أن نفسر نظرتهم هـذه على ضوء الأحداث التاريخية التى وقعت فى بلادهم وفى بلاد المشرق العربى إبان العصر العثمانى .

لقد استخدم الأتراك العثمانيون القوة والقهر فى سبيل السيطرة على أقطار المشرق العربى ، وكان تقدم قواتهم فى هـذه البلاد يتخذ شكل الغزو فلقى مقاومة شديدة تتمثل فى المواقع الحربية التى دارت بينهم وبين المدافعين عن هذه البلاد ، مثل موقعة مرج دابق والريدانية ، وحتى بعد دخولهم القاهرة صادفوا ـ كما رأينا ـ مقاومة فى أحيائها الشعبية أقلقتهم حتى لقد قيل إن السلطان العثمانى الغازى سليم الأول كانت تراوده فكرة الانسحاب ، ولقد استعان الأتراك العثمانيون فى غزوهم ـ إلى جانب القوة العسكرية القاهرة ـ بالخيانة التى تتمثل فى موقف خايربك وجان بردى الغزالى .

لكن سيطرة العثمانيين على المغرب العربى تمت بطريقة مختلفة تماما ، ووجد الأتراك العثمانيون ترحيبا من أهل هذه البلاد ، بل وكان ذهابهم إليها بدعوة من أهلها ، وهذا الاختلاف فى طبيعة التواجد التركى إنما يرجع إلى اختلاف الظروف التى كان يعيش فى ظلها أهل المغرب العربى فى ذلك الوقت

---

(١) من مقال الدكتورة بنت الشاطىء .

فإنه عندما هلت مطـــالع القرن السادس عشر الميلادى كانت أسبانيا فى مقدمة الأمم التى تم توحيدها فى أوروبا ، واستكملت هذه الدولة وحدتها عندما سقطت فى سنة ١٥٤٢ غرناطة - آخر معاقل المسلمين فى أسبانيا - فى أيدى الملوك الكاثوليك ، وترتب على سقوط غرناطة انتهاء الوجود الإسلامى فى أسبانيا وصارت أوروبا تنظر إلى أسبانيا باعتبارها فارسة المسيحية .

وبعد الاستيلاء على غرناطة وجهت أسبانيا جهودها الحربى إلى أقطار شمالى إفريقية التى أنسحب إليها المسلمون فراراً من الاضطهاد الذى نزل بهم فى أسبانيا ، كما كان من خطة الأسبان تطويق أقاليم المغرب العربى باحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط إمعانا فى الانتقام من العرب المسلمين ، ومحاولة تقويض الكيان الاقتصادى العربى بانتزاع تجارة المشرق من أيديهم .

ولقد شهدت هذه الفترة من القرن السادس عشر حربا بحرية طاحنة بين الجانبين ، فقد كان الأسبان يتعقبون سفن الأندلسيين المتجهة صوب سواحل المغرب العربى ويهاجمون موانى شمال إفريقية ، ورداً على ذلك حاول أبناء هذه البلاد الدفاع عن سفن المهاجرين ووقف هجمات سفن المسيحيين بل ومحاولة الثأر والانتقام من المسيحيين وسفنهم ، وإذا كان البعض يصف هذه الحوادث بالقرصنة فإنها لم تكن كذلك إلا من جانب الأسبان ، أما من جانب المغاربة فقد كان جهاداً بحرياً من أجل العروبة والإسلام ، وكفاحاً ضد استعمار صليبى كشر عن أنيابه ودفاعاً عن حرية موانى المغرب العربى وتجارته .

ولذلك فإن النتيجة المنطقية لسقوط غرناطة كانت أن تعمل أسبانيا على كسر شوكة المسلمين الذين تزداد قوتهم على الشاطىء المقابل ، وممن شجعوا

الملوك الكاثوليك على السير فى هذا السبيل الكاردينال فرنسسكو اكسيمينز Xemencs الذى أخذ على عاتقه نشر المسيحية فى شمال إفريقية وتكوين إمبراطورية كاثوليكية فى تلك الأصقاع .

وقد استطاع جيش أسبانى بقيادة نافارو احتلال أوران (وهران) بمساعدة مدافع الأسطول من البحر ، وقد ارتكبت القوات الأسبانية من أعمال السلب والنهب والقتل ما يعتبر صفحة سوداء فى سجل الجيش الأسبانى فى ذلك العهد . ولكن نشاط الأسبان فى تلك الفترة لم يتجاوز احتلال عدد من المراكز المبعثرة على الساحل الشمالى لافريقية

ومنذ سنة ١٥١٩ عندما تولى شارل الخامس ملك أسبانيا عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، أصبح يعتبر نفسه بطل المسيحية وحاميها ولذلك لم يقنع بهذه المراكز الساحلية التى قنع بها أسلافه . وإذ احتدم النضال بين الأسبان والمغاربة فى عهد شارل الخامس استدعى حاكم الجزائر الأخوين عروج وخير الدين لمساعدته فى طرد الأسبان من إحدى القلاع الساحلية (بنون) .

وكان عروج قد قاسى من الأسر فى سفن المسيحيين ، ثم هرب وعمل فى سفن الدولة الحفصية فى تونس ، وتعاون مع أخيه خير الدين فى إنشاء إمارة مستقلة فى جزيرة جربة اتخذا منها قاعـــدة بحرية جمعا فيها المتطوعين والسفن .

وعندما استدعى حاكم الجزائر الأخوين المغامرين خلع عروج الحاكم وحل محله ، ولكنه لم يلبث أن مات فى إحدى المعارك ضد الأسبان سنة ١٥١٨ وخلفه أخوه الأصغر خير الدين المعروف باسم برباروسا أى ذى اللحية الحمراء ، وكان يفوق أخاه وازداد جيشه قوة بانضمام عدد كبير من المتطوعين

الذين أخرجوا من أسبانيا ومع ذلك لم يكن فى استطاعته مواجهة القوة العسكرية الأسبانية برية وبحرية وحده ، وكان الجيش الأسبانى فى ذلك الوقت يعتبر من أقوى الجيوش فى أوروبا .

ولم يلبث بربار وسا أن طلب مساعدة السلطان العثمانى الذى منحه لقب بك بكوات إفريقية وأرسل إليه تعزيزات من الجنود الانكشارية ، بل ونصبه السلطان العثمانى على رأس أسطوله فى غرب البحر المتوسط الذى نقل إليه العثمانيون نشاطهم فى تلك الفترة ، وقد استطاع بربار وسا الاستيلاء على المنطقة الساحلية وقضى على الحامية الأسبانية فى يونيو سنة ١٥٢٩ ، وأنزل بالتجارة الأسبانية خسائر فادحة وأغارت قواته على سواحل أسبانيا واستطاع خلال تلك الغارات أن ينقذ نحو سبعين ألفاً من المسلمين من براثن محاكم التفتيش ويعود بهم إلى الجزائر . وهكذا تدعم حكم بربار وسا فى الجزائر .

وأخذ بربار وسا يوسع منطقة نفوذه فاحتل بيزرته ثم تونس التى كان ملكها الوطنى مولاى الحسن تحت سيطرة الأسبان . وهكذا صار للإمبراطورية العثمانية وجود قوى فى البحر المتوسط الغربى وقد أثار سقوط تونس مشاعر المسيحيين عامة وشارل الخامس خاصة ، وتدفقت عليه المعونات المالية والعسكرية من جميع الأقطار المسيحية ، وتكونت حملة مشتركة استطاعت استرداد تونس بعد أن دفعت الثمن غالياً ، ولكن ذلك لم يفت فى عضد بربار وسا الذى تابع بمعونة الأسطول العثمانى نشاطه بمهاجمة الجزر فى البحر المتوسط الغربى وسواحل أسبانيا . بل ونقل نشاطه إلى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، فى سنة ١٥٣٧ ظهرت الأساطيل التركية بقيادة خير الدين بربار وسا فى المياه الإيطالية وأنزلت قوات عند أوترانتو وشاع فى أوروبا أن السلطان سليمان يريد الزحف على روما لتقويض دعائم الكنيسة الكاثوليكية مثلما فعل السلطان محمد الفاتح

من قبل عندما دخل القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وقد استطاع الأسطول العثمانى أن ينزل هزيمة بالأسطول الأوروبى المشترك مما دعا البندقية إلى التنازل للدولة العثمانية عن جزر بحر إيجة التى استولى عليها بربروسا . وبذلك أصبح الأتراك مسيطرين على البحر المتوسط بأكمله .

وظلت الهواجس تنتاب الإمبراطور شارل الخامس من خيرالدين بربروسا وفشلت محاولة شارل الاستيلاء على الجزائر كما فشلت محاولات له لكسب بربروسا إلى جانبه بل تدبير اغتياله . ولم يتخلص شارل من هواجسه إلا بوفاة بربروسا فى سنة ١٥٤٦ فكانت وفاته خسارة كبرى نزلت بالسلطان سليمان ، ولكن وفاة بربروسا لم تضع حداً لنشاط الأتراك العثمانيين فى البحر المتوسط فقد خلفه دراغوث التى واصل حملاته ضد أسبانيا ، وفى سنة ١٥٥١ استولى على طرابلس وطرد منها فرسان القديس يوحنا ، وبذلك لم يكن للأسبان فى شمال أفريقية سوى تونس ولكنهم رفعوا الحصار عنها ، وفى سنة ١٥٦٥ فقد العثمانيون دراغوث قائدهم العظيم . وقرر السلطان سليم الثانى الذى تولى العرش الإمبراطورية فى السنة التالية انتزاع قبرص من البنادقة ، الأمر الذى استثار العالم المسيحى بزعامة فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى كون حلفاً من بعض الدول الأوروبية ، وتجمع أسطول مشترك بقيادة القائد الأسبانى دون جوان ، وأخذ البابا يبارك الحملة الصليبية ويبث فى رجالها الاعتقاد بأنهم مقدمون على معركة سوف يتقرر فيها مصير المسيحية جمعاء .

والتحم الأسطولان العثمانى والمسيحى فى معركة ليبانتو البحرية سنة ١٥٧١ التى انتصر فيها الأسطول المسيحى ، واهتز العالم المسيحى طرباً لهذا الانتصار وتمادى المسيحيون فى أحلامهم فصاروا يطمعون فى غزو الإمبراطورية العثمانية ودخول القسطنطينية ذاتها .

إلا أن معركة لبانتو لم تضع حداً للتفوق البحرى العثمانى كما يقول الأوربيون المتعصبون ، فقد عكف القبطان باشا الجديد واسمه علوج على أى السيف على ، على بناء أسطول جديد بحيث استطاع بعد عام واحد أن يعاود نشاطه فى البحر المتوسط ويعترض الأساطيل المسيحية كما أنه فى سنة ١٥٧٤ قام القبطان باشا ومعه سنان باشا بحملة انتزعت تونس من أيدى الأسبان ، وبذلك خلص شمال أفريقية الإسلامى من براثن الاستعمار الصليبى .

ومن هذا العرض التاريخى السريع نجد الفرق بين الظروف التى خضع فيها المشرق العربى للحكم العثمانى وتلك التى خضع فيها المغرب العربى :الغزو والقهر والإجبار فى حالة المشرق ، أما فى المغرب فقد كان هناك الترحيب والقبول عن رضا وطيب خاطر ، وقد رأينا كيف أن الحكم العثمانى كان السبيل الوحيد لتخلص المغرب العربى من الغزو الاستعمارى الصليبى ، ولولا هذا الوجود العثمانى الإسلامى فى المغرب العربى والحوض الغربى للبحر المتوسط لتحققت أحلام الكاردينال اكسمينيز فى استئصال الإسلام من هذه المنطقة وإقامة إمبراطورية مسيحية كاثوليكية على أشلاء المسلمين . فلا غرو إذ يترحم المغاربة على الحكم الإسلامى فى بلادهم ويذكرونه حتى الآن بالخير .

وثمة عامل آخر يجعل للمغاربة عذرهم فى نظرتهم إلى الحكم العثمانى فى بلادهم . فقد وقعت أقطار المغرب تحت سيطرة الاستعمار الأوروبى (النصرانى) منذ وقت مبكر من القرن التاسع عشر ، فاحتلت فرنسا الجزائر منذ سنة ١٨٣٠، وتونس فى سنة ١٨٨١ ، واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١، واحتلت فرنسا مراكش سنة ١٩١٢ ، أى أن أقطار المغرب العربى الإسلامى وقعت قبل الحرب العالمية الأولى فى براثن الاستعمار الأوروبى النصرانى الذى سام

أهل هذه البلاد سوء العذاب وحاول أن يطمس معالم شخصيتها العربية الإسلامية . أما بالنسبة لأقطار المشرق العربى الرئيسية (باستثناء مصر) فإنها لم تخضع للحكم الاستعمارى الأوربى النصرانى إلا عقب الحرب العالمية الأولى بل إن بعض جهاته مثل معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ـ باستثناء المناطق الساحلية ـ لم تخضع للاستعمار الأوربى بالمرة ، وبالتالى لم تذق مرارته ولم تعان من قسوته .

ولا شك فى أن خضوع المغرب العربى للاستعمار الأوربى منذ وقت مبكر جعل المغاربة يتعلقون بالوجود التركى الذى كان وجوداً إسلامياً كان من أبرز صفاته عدم التدخل فى حياة الناس وشئونهم .

وإلى جانب ذلك فهناك اعتبار آخر كان له أثره فى اختلاف حكم المشارقة عن حكم المغاربة على الوجود العثمانى ، فقد ابتلى المشارقة فى سنوات الحكم العثمانى الأخيرة ، والسابقة على الحرب العالمية الأولى ، وفى عهد حكومة الاتحاديين بفترة قاسية جنح فيها ساسة الدولة العثمانية إلى سياسة التتريك ومحاولة طمس الشخصية العربية ، وإبراز السمات التركية للدولة على ماعداها . ووصل بهم الحال إلى درجة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية . وسار الترك على سياسة عنصرية طابعها التعصب لما هو تركى ومحاولة إعلاء الجنس التركى وهو أمر يتعارض مع الأخوة الإسلامية ، وذكريات هذه السنوات الأخيرة من الحكم التركى فى بلاد المشرق العربى لم تمح من أذهان كثير من المشارقة ، وكان لها تأثيرها على كراهيتهم للحكم العثمانى برمته وفى كل عهوده .

* * *

ومع ذلك فإن العرب فى المنطقة لم يحاولوا الانتفاض عليه . ويرجع ذلك

إلى الرابطة الدينية التى ربطت العرب بالعثمانيين ، فإن بلاد المسلمين كانت تعتبر دولة واحدة يطلق عليها (دار الإسلام) ، ولما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية حملت لواء الحرب أول ما حملت على الدول الأوروبية (بلاد الكفر)، فإن المسلمين فى مختلف أنحاء الأرض كانوا يعتبرون هذه الفتوحات جهاداً فى سبيل الله وتوسيعاً لرقعة الإسلام[١]، وكانت العاطفة الدينية فى تلك القرون من أقوى الروابط ، وكانت العاطفتان الدينية والوطنية ممتزجتين بحيث كان من الصعب الفصل بينهما ، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام ، وإلى ما بعد قيام الحرب العالمية الأولى فى مطلع العقد الثانى من القرن العشرين ، ظل هذا الرباط يشد جماهير كثيفة من العرب إلى الخلافة الإسلامية ، ولم يكن العرب يشعرون بأنهم يختلفون عن حكامهم طالما كانت تجمعهم رابطة الدين، بل كانوا يعتبرون أن الدولة ـ دولة الإسلام ـ هى دولتهم ، وأن السلطان المسلم هو الوارث الفعلى لرئاستهم الدينية ،وحامى حمى الإسلام ، ورافع لواء الجهاد ضد الكفار ، حتى أنه فى الوثائق وكتب المعاملات لم تكن تطلق عليهم كلمة عرب ، بل كانت تسميتهم الشائعة هى كلمة مسلمين ، هم والترك على السواء فى عصر كان الدين هو الفارق المميز بين الجماعات[٢] ، وقد ظهرت فى التاريخ أمثلة لهذا الترابط العربى على المستوى الإسلامى كتقدم متطوعى الحجاز بقيادة الكيلانى لمساعدة أهل الصعيد ضد الفرنسيين ، ومتطوعى طرابلس الغرب إلى البحيرة بقيادة رجل من درنة لقب نفسه بالمهدى لمقاتلة الفرنسيين فى البحيرة من أجل نصرة الدين[٣] .

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (١٩٦٠) ص ١٦ ــ ٢١ .

(٢) (Saab, H. : Arab Federalists of the Ottoman Empire a958), p 108 .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨ .

الانتفاضات فى الشرق العربى على الحكم العثمانى :

ومع ذلك فقد كانت هناك انتفاضات على الحكم العثمانى فى بعض الأقطار العربية ، مثل حركة فخر الدين المعنى الثانى فى لبنان فى القرن السابع عشر ، وحركة على بك الكبير فى مصر ، وظاهر العمر فى فلسطين فى القرن الثامن عشر ، إلا أن هذه الحركات لم تكن سوى حركات فرديه أثارتها دوافع شخصية بحتة ، أكثر منها تعبيراً قومياً منبعثاً من آلام الشعوب وآمالها يدفعه الاعتزاز بالجنس الذى ينتمون إليه . ثم شهد المشرق العربى ـ فى القرن التاسع عشر ـ حركتين كانتا أكثر أهمية وأعمق أثراً من الحركات السابقة ، أولاهما الحركة السلفية فى شبة الجزيرة العربية ، والأخرى محاولات محمد على لتكوين دولة تضم بلاد المشرق العربى . أما الحركة السلفية التى ظهرت فى نجد منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فهى حركة دينية رأت أنه لا منجاة للعالم الإسلامى من أخطار الأطماع الاستعمارية المحدقة به إلا بالعودة إلى بساطة الإسلام الأولى وتخليصه من الشوائب ، والبعد عما هو أوربى ، وبذلك نجد أن هدف الحركة الوهابية السلفية هو نفس هدف محمد على وبعض سلاطين العثمانيين مع اختلاف الوسيلة ، فبينما هى عند السلفيين العودة إلى بساطة الإسلام الأولى والتمسك بالقرآن نصاً وروحا ، وعدم التورط فى حركة الاستغراب westernization (الأخذ بأساليب الحضارة الغربية) ، فهى لدى محمد على وسليم الثالث ومحمود الثانى الاتصال بالأنظمة الغربية والأخذ منها ، ويرجع البعض [١] هذا الاختلاف إلى أن نجد مهد الحركة السلفية تقع فى شبه الجزيرة العربية مهد الدعوة الاسلامية الأولى ، بينما تقع مصر على البحر المتوسط أى فى طريق المؤثرات الأجنبية ، وتربطها بالعالم الغربى صلات وثيقة ، إلا أنه لا يمكن اعتبار الحركة السلفية حركة قومية عربية فإنها لم تقم ضد الأتراك

---

(١) Saab : Ouv. Cit., p. 146 .

كأجانب يحتلون البلاد العربية ، وإنما باعتبارهم مسلمين خرجوا على مبادىء الدين الاسلامى الحقة ، وكان السلفيون يقفون موقف العداء من العرب الشيعة فى العراق والسنيين فى الحجاز مثلما كانوا يقفون موقف العداء من الأتراك[1]

محمد على وتكوين دولة عربية :

وترجع أهمية الحركة الوهابية السلفية إلى أن قيام محمد على بإخمادها أضفى عليه شهرة فى العالم الاسلامى كما كانت فرصة أتاحت له الاتصال بجزء من العالم العربى مما أوجد لديه ولدى ابنه إبراهيم فكرة إنشاء دولة تنتظم الأقاليم العربية الخاضعة للحكم العثمانى[2] ، وقد حاول محمد على إقناع السلطان ، بأن إخماد الحركة الوهابية يستلزم توجيه حملة مصرية سورية عراقية تتقدم من الأقطار الثلاثة تحت قيادته لكى تطبق على السلفيين فى نجد ، وبذلك حاول أن يضع إمكانيات هذه الأقطار تحت سيطرته وإدماجها فى امبراطورية كبرى دون الالتجاء الى القوة[3] . الا أنه لم يفكر فى اتخاذ خطوات إيجابية لتحقيق هذه الأحلام إلا بعد دخوله الشام ، إذ أصبح فى يده ـ حينئذ ـ جانب كبير من المشرق العربى يضم أمهات المدن العربية فى المنطقة : مكة والمدينة والقاهرة والقدس ودمشق ، فقد كتب القنصل البريطانى فى الاسكندرية فى يناير (كانون ثان) ١٨٣٢ إلى حكومته بأن محمد على يهدف إلى تدعيم سلطه فى باشويات عكا ودمشق ، ثم مد سلطانه إلى حلب وبغداد والمناطق التى تتكلم العربية ، ويعتبرها محمد على الجزء العربى من الامبراطورية العثمانية[4] ،

---

(١) Yale, W. : The near East (1958), P. 183

(٢) Antonius, G. : The Arab AWakening (1938), pp. 22-23

(٣) Saab : Ouv, Cit., p. 168 .

(٤) Temperley: Harold : the Near East -- The Crimea (19.6) p. 96 (From Palmerston to Temple, March 21, 1833)

بل ذهب البعض الى حد القول ، بأن محمد على كان يفكر ، ويطمع فى الخلافة ذاتها ، والحلول محل السلطان العثمانى فيها ، فقد بعث كامبل Campbell قنصل بريطانيا العام فى مصر فى أول أكتوبر (تشرين أول) ١٨٢٨ برسالة إلى حكومته يقول فيها إنه علم أن مشروع الخلافة يدور فى رأس محمدعلى ، وأن هذا التفكير يلقى التأييد من النمسا عن طريق الكولونيل بروكش Prokesch وأن ميمو Mimaut قنصل فرنسا يغذى آمال محمد على فى هذا الاتجاه ويشجعها ، وأن لاورين Laurin قنصل النمسا العام فى مصر أكد لزميله الانجليزى أن ثمة خريطة رسمها بروكش حدد عليها البلاد التى ستنضوى تحت الخلافة الجديدة ، والتى ستتضمن جزءاً كبيراً على طول الفرات كان يخضع لباشوية بغداد ، وأرفق القنصل الانجليزى بتقريره صورة من مذكرة بروكش التى كانت بتاريخ ١٧ مايو (آيار) ١٨٣٢ ، والتى يقول فيها إن الإمبراطورية العربية تتكون من مصر والنوبة وسنار ودارفور وكردفان فى إفريقية وكل شبه الجزيرة العربية حتى الخليج (الفارسى) ، وامتداد الضفة اليمنى للفرات وكل الشام ، «ولو أن مترنيخ ذكر أن هذه الفكرة خاصة ببروكش وحده ، وليس للحكومة النمسوية أية صلة بها[1]» . وإلى جانب المعونة والتأييد اللذين كان محمد على يأمل أن يجدهما لدى بعض الدول فى هذا الاتجاه ، فقد كان موقفه قوياً وظروفه خير مشجع له ، فمعظم أقطار المشرق العربى — بما فيها الأماكن المقدسة — فى قبضته ، ولم يكن السلطان يتمتع بحب رعاياه ، هذا بالاضافة إلى تنظيم الجيش المصرى وقوته .

كما أخذ إبراهيم فى أثناء تقدمه فى الشام يقوم بالدعاية بين الأهالى لفكرة الدولة العربية المستقلة عن الحكم العثمانى ، وحاول فى منشوراته استثارة

---

(١) Ibid pp. 420 — 421

الشعور العربى بإعلانه أن الجيوش المصرية لن تقف فى زحفها إلا عند الفاصل بين المتكلمين بالتركية والتكلمين بالعربية ، وأنه يعتزم إعطاء العرب حقوقهم ، وأن يجعل منهم كياناً مستقلا (١) كما استطاع أن يقيم نظاما جديداً على أنقاض النظام القديم المتداعى ، وامتدت يد الإصلاح إلى مختلف نواحى الحياة ، وحقق المساواة التى لم تعرفها بلاد الشام منذ الحكم العربى الأول ، وعلى ذلك يرى البعض أن هذا الاتجاه من جانب محمد على وإبراهيم يعتبر بداية للحركة القومية العربية ، إلا أن البعض الآخر ينكر عليها التفكير العربى ، ويسوق العديد من الأدلة لنفى وجود أى تفكير عربى لدى محمد على الذى بدأ وعاش وانتهى عثمانياً مسلما ، وإثبات أن مهمته كما حددها كانت إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد (٢) وأنه كان ألبانياً لا يعرف العربية ، يميل إلى الترك ويفضلهم على العرب ، وقد فاوضته فرنسا من أجل غزو الجزائر لحسابها (٣)، وأن الفتوحات التى قام بها إنما كان كل منها وليد ظروف سياسية أو اقتصادية أو حربية خاصة بكل حملة ، ولم تكن من بين دوافعها أبداً الرغبة فى إحياء القومية العربية ولا تحقيق الوحدة العربية ، فالفتوحات العربية فى عهد محمد على لم تكن تسير وفق مخطط قومى عربى ، ومنشورات إبراهيم فى الشام ما كانت تهدف إلا إلى استمالة الأهالى لتسهيل الزحف العسكرى ، فهى لا تزيد عن كونها وعوداً للاستهلاك المحلى (٤)، ولا شك أن محمد على لم يكن يؤمن بالعروبة، ولم ينتفض انتفاضته ضد السلطان العثمانى دفاعا عن القومية العربية ، أو رغبة فى تخليص

---

(١) د . عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٢٠ .

(٢) محمد شفيق غربال : محمد على — إعلام الإسلام / ٨ (١٩٤١) ص ٦٢ .

(٣) Douin, G.: Moh. Ali et l'Expedition d' Alger (1930)

وقد نشر المؤلف فى هذا المصدر محاضر المفاوضات التى دارت بين الجانبين الفرنسى والمصرى لإرسال حملة مصرية إلى بلاد الجزائر .

(٤) د . عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٢٠ — ٢١ .

العرب من حكم الترك ، وإنما كان محمد على وطنياً عثمانياً يطمع لا فى تحطيم الإمبراطورية العثمانية ، بأن ينتزع منها أقاليمها العربية ، ويكون بدلا منها دولة لنفسه و خلفائه، وإنما كان يهدف أولا إلى تجديد الإمبراطورية العثمانية بالسيطرة على أزمة الحكم فيها إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم محاولة إدخال النظام الغربية مستعينا بمقدرته وموارد مصر الاقتصادية[١] فقد صرح اسكامبل قنصل بريطانيا العام فى مصر بأن الحكومة العثمانية قد صارت بالية من أساسها، وقد استنفدت كل مواردها المادية والمعنوية ، وأصبحت مكروهة محتقرة من الأمة عاجزة عن الدفاع عن نفسها فتركت نفسها ولا حول لها فريسة للروس[٢] ، وإنه لذلك يعمل باسم أمة الإسلام ولعل هذا ما دفع بالأسطول العثمانى إلى الإبحار من البسفور إلى الاسكندرية ليضع نفسه تحت تصرف محمد على فى أثناء أزمة ١٨٣٩ ، وبعد وصول الأسطول العثمانى إلى الاسكندرية فى ١٧ يوليو (تموز) ١٨٣٩ ، ألقى محمد على فى رجال هذا الأسطول خطابا دعا فيه إلى الوحدة الأخوية بين المسلمين ، وألح على ضرورة الولاء للسلطان كما عبر عن رغبته فى الذهاب إلى الآستانة لإعادة تنظيم الإمبراطورية العثمانية .

إلا أن محمد على قدر أنه إذا لم يستطع ذلك فلا أقل من أن تقتصر دولته على الأقطار العربية التى تشترك مع مصر فى الجوار واللغة والجنس . وبذلك حاول أن يجمع بعض الأقطار العربية تحت إمرته فى دولة واحدة واختار أن تكون كلها أقطاراً عربية ، لا إيمانا بالعروبة ، ولكن لكى يخلق بين أجزاء دولته رابطة قوية تصلح أساسا متيناً لدولته فتصير لها مقومات الدولة إذا قدر له النجاح فى إنشائها وفصلها عن الدولة العثمانية . ومهما يكن من أمر فإن

---

(١) Tyonbee, A.: A study of History, VIII (1951) p. 247.

(٢) Saab; Ouv. Cit. p. 165.

محاولة محمد على هذه لم يقدر لها النجاح ، وكان فشلها يرجع إلى عدة عوامل امل من أهمها أنه كان متردداً فلم يكن هدفه الذى يسعى إليه واضحا تمام الوضوح حتى بالنسبة له ، فلو أنه فى توسعه ظل على ولائه العثمانى لكان الرأى العام الإسلامى قد سانده ـ فقد علق عليه المسلمون الآمال الكبار ، لأنه أظهر فى تعامله مع الغرب استقلالا لم تظهره حكومة الباب العالى (١) .

وإذا كان محمد على لم يتخذ الاتجاه العثمانى الصرف فإنه كذلك لم يتخذ الاتجاه العربى الصرف ، ولو فعل لكسب تأييد الرأى العام العربى ، فقد كان الناس ـ حتى فى بغداد ـ ينظرون إلى إبراهيم باعتباره المنقذ من تدهور الحكم العثمانى إلا أن محمد على ـ رغم أنه هدد عاصمة الخلافة مرتين ، وأصبح يسيطر فى إبان قوته عن الأقطار العربية شرقى برقة وغربى العراق ـ فإن لم يستطع أن يتخذ قراراً حاسماً بالاستقلال عن السلطان أو الولاء التام له ، وإنما تردد بين هذا وذاك ، تردد بين تجديد الدولة العثمانية كلها بصفته أحد ولاتها وتحت لواء سلطان عثمانى يقام باختياره فى الآستانة ، وبين الاقتصار على دولته فى الأقطار التى تتكلم العربية .

ولقد كان محمد على يهتم اهتماماً بالغا بوضعه الشرعى . وقد ظهر ذلك حتى فى أثناء غزو الشام عندما أمر ابنه إبراهيم بألا يعلن إلغاء سلطة السلطان العثمانى هناك ما لم يحصل أولا على فتوى بذلك من زعماء الدين المحليين يعلنون فيه عزل السلطان محمود بوصفه غير أهل للحكم ، كما أنه بعد الهزيمة الساحقة التى نزلت بجيش السلطان تردد فى إعلان استقلاله ، فقد كان على علم بالشعور الدينى لدى الناس ، وكان يخشى ألا يلقى التأييد الكافى (٢) ، وهكذا لم يستطع

---

(١) Toynbee : Ouv. Cit. p. 248.

(٢) Saab : Ouv. Cit. pp 166 — 173.

محمد على - بسبب عثمانيته - أن يعطى لدولته صفة نهائية محددة

ومهما قيل فى تعليل فشل محمد على فى إقامة دولة تضم الأقطار العربية التى فتحها ، فلا جدال فى أن أقوى الأسباب التى أدت إلى هذا الفشل كان موقف الدول الأوروبية عامة ، وبريطانيا خاصة ، فإن بريطانيا كانت مطمئنة على الهند فى ظل الوضع القائم فى الشرق ، وكان بالمرستون يرى أن الدولة العثمانية أفضل دولة يمكن أن يطمئن لترك الطريق إلى الهند تحت سيادتها ، ولذلك فإن وقوع الأقطار التى يمر بها الطريق إلى الهند تحت حكم محمد على أثار قلق بريطانيا فوقف بالمرستون فى وجه محمد على عندما حاول الأخير أن يتوغل فى العراق ، ويضم أورفا إلى حلب ، ثم يتقدم إلى دير الزور عام ١٨٣٤ / ١٨٣٥ [١] واعتبر بالمرستون أن محاولة محمد على ضم البلاد العربية، وتكوين دولة منها يستلزم بالضرورة تفكك الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها وأن هذا أمر لا يمكن السكوت عليه ، كما كانت بريطانيا آنذاك لا تسمح بأن تتعرض الدولة العثمانية لتهديد القوات المصرية من الجنوب والروسية من الشمال ، وكان عطف فرنسا على أحلام محمد على سبباً لإثارة مخاوف بريطانيا وشكوكها ، ولذلك فإن الحكومة البريطانية لم تلق بالا لما اقترحه كامبل قنصلها العام فى مصر ، وغيره من ممثلى بريطانيا فى أقطار الشرق العربى، عندما حاولوا إقناع حكومتهم بأن إقامة خلافة عربية تحت إمرة محمد على قد تكون أكثر مقدرة من الإمبراطورية العثمانية المتداعية على الوقوف فى وجه الروس ولكن الحكومة البريطانية فضلت الاعتماد على نفسها فى صد الروس، وفضلت الإبقاء على الوضع القائم وتوازن القوى الذى قام على وجود الإمبراطورية العثمانية .

---

(١) Temperley, H. : Ouv, Cit. pp. 94-6 (From palmerston to Temple, March 21, 1833).

ومن بين أسباب فشل محمد على أن الوعى القومى الحقيق كقوه سياسية لم يكن قوياً بدرجة كافية بين العرب ، وكانت فكرة تكوين دولة عربية مستقلة ، فكرة سابقة لأوانها فى ذالك الوقت ، فإن إسلام الدولة العثمانية ، وخلافة السلطان العثمانى ، جعلا المسلمين عرباً وغير عرب يرتبطون برابطة العقيدة، وكانت العاطفة الوطنية ممتزجة بالعاطفة الدينية ، وكان الرباط الدينى لا يزال يشد جماهير العرب إلى الخلافة الإسلامية [1] ، وإذا كان محمد على قد فشل فى إنشاء دولة عربية،إلا أنه خلال حكم إبراهيم للشام،نعم المسيحيون بمساواة كانوا يفتقدونها فى الحكم العثمانى، كما فتحت أبواب البلاد أمام المؤثرات الغربية ، كما أنه إذا كانت حركة جمع البلاد العربية وتوحيدها قد فشلت على عهد محمد على لأن من تصدى لقيادتها لم يكن عربياً يؤمن بالعروبة ، فإن الحركة القومية العربية لم تلبث أن أثبتت وجودها بعد أن ازدهر الوعى القومى ، وتقدم من أبناء العروبة من يحمل لواءها .

---

(١) د . عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٢٧ — ٢٨
Yale, W. : ouv, Cit., p. 193

الفصل الثالث

بداية اليقظة العربية

عوامل اليقظة العربية :

وعلى الرغم من ولاء العرب للدولة استجابة للعاطفة الدينية ، فإن كراهية العرب للأتراك لم تلبث أن أطلت برأسها من بين ثنايا هذا الولاء ، وذلك فى غضون القرن التاسع عشر لأسباب مختلفة متعددة ، منها ما أحدثته المؤثرات الغربية على اختلاف أنواعها من أثر ملموس فى الشام بوجه خاص ، وفى العراق إلى حد ما ، فإن انتشار التعليم الغربى . وما صحبه من تسرب الأفكار السياسية الغربية كان له أثره فى يقظة أهالى هذين القطرين وتفتح أعينهم على عالم جديد من التقدم والقوة على عكس حالة التأخر والجهل والجمود السائدة فى الإمبراطورية ، ومن ثم أخذت الأجناس المختلفة التى تتكون منها الإمبراطورية ـ بما فيهم العرب ـ تسير فى طريق الوعى القومى(١) .

ومن العوامل الهامة الأخرى ما أسفرت عنه حركة التنظيمات التى شرعت فيها الدولة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فقد صدر فى عام ١٨٣٩ مرسوم سلطانى (مرسوم الكلخانة(٢)) الذى قضى بعدم معاقبة أحد دون محاكمة علنية ، وبالمساواة فى المعاملة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون ، وضرورة وضع مشروع لإبطال المتاجرة فى الوظائف التى كانت سبباً رئيسياً فى فساد الحكم .

كما صدر فى عام ١٨٥٦ (عقب حرب القرم) مرسوم التنظيمات

---

(١) Zeine : ouv. Cit., p. 36.

(٢) نسبة إلى قصر الكلخانة الذى قرىء فيه المرسوم فى حفل رسمى

الخيرية الذى أكد ماتضمنه مرسوم الكلخانة وبخاصة مبدأ المساواة بين كل رعايا السلطان .

وعلى الرغم من أن التنظيمات أعلنت المساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، فإن الحكومة العثمانية لم تطبق هذه المساواة تطبيقاً دقيقاً مما أتاح الفرصة لتأثر العناصر غير المسلمة بالنشاط الأوربى فى مجال السياسة والثقافة والدين ، وكان لذلك أسوأ الأثر فى بعض الإيالات العربية كبلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية ، وهذا هو السبب فى أنه على الرغم من اتجاه المسلمين بأفئدتهم إلى السلطنة والخلافة ، فقد ظلت هذه الأقليات غير المسلمة تتطلع إلى هذه أو تلك من الدول الأوروبية فى طلب الحماية مما أدى إلى تعميق الهوة بين المسلمين والمسيحيين فى أقطار الشرق العربى .

يضاف إلى ذلك أن حركة التنظيمات التى شرعت فيها الدولة اصطبغت بالصبغة المركزية فى إدارة المقاطعات بحيث لا يترك للطوائف الدينية والأمراء المحليين ذلك الاستقلال الذاتى الذى كانوا يتمتعون به وتشديد قبضة الدولة على أطراف الإمبراطورية ، فقضى السلطان محمود ، على حكم المماليك فى العراق عام ١٨٣٠ ، وأزاح القرمانيين عن حكم طرابلس عام ١٨٣٥ ، وفى الحجاز عين حاكم عثمانى ليوازى سلطة الشريف بعد خروج المصريين عام ١٨٤٠ ، كما حاول العثمانيون إدماج اليمن فى الحكم المركزى على الرغم من أن اليمن لم يخضع لهم تمام الخضوع ، وظل اليمنيون يلقبون إمامهم بلقب أمير المؤمنين لأنهم يقولون بأن الخلافة لقرشى عامة ولزيدى خاصة[1] .

أما لبنان فإنه بعد إخلائه من الحكم المصرى تولى حكمه بشير الثالث الذى

---

(١) د . محمد بديع شريف : اليقظة الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر ص ٣٥ فى (دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة) مع آخرين .

كان آخر أمير لبنانى ، لأن الدولة عينت بعده حكاماً من الترك أخذوا يثيرون الفتن مما أدى - مع دسائس الدول الأجنبية - إلى مذابح ١٨٦٠ ، وحتى عندما وضع للبنان نظامه الإدارى عام ١٨٦١ نجح الباب العالى فى إبقاء سيطرته على ميناء بيروت للمحافظة على صلة دمشق بالبحر لأغراض عسكرية ، ولم ينفذ النظام الإدارى للبنان على الوجه الصحيح ، بل حاولت الدولة استرداد الامتيازات التى حصل عليها فلم يبق له من استقلاله الإدارى إلا القليل ، وهكذا نرى أن هذه الإصلاحات لم تقم على أساس إعطاء الحقوق القومية للعناصر التى تتألف منها الدولة ، بل كان هدفها إظهار تمتع رعايا الدولة - المسلمين وغير المسلمين - بالمساواة ومزجهم فى التبعية العثمانية ، وجعلهم كأفراد أمة واحدة حتى تستغنى الطوائف غير الإسلامية عن الالتجاء إلى حماية الدول الأجنبية ، ورغم ماقيل من أن قانون الولايات الذى سنته الدولة عام ١٨٦٤ فى عهد السلطان عبد العزيز كان يرمى إلى إشراك السكان فى تدبير مصالحهم العامة وتخفيف شدة الحكم المركزى ، فقد ظلت الإدارة المركزية هى الهدف ، وظلت مهام الولاة مقصورة على تنفيذ أوامر العاصمة ، كما أن الهيئات المنتخبة - طبقاً للقانون الجديد - لمعاونة الولاة لم يكن من بين أعضائها التسعة سوى أربعة منتخبون ، هـذا إلى جانب تدخل الحكومة فى عملية الانتخاب .

أثر الحكم المصرى على اليقظة العربية :

وفى الحديث عن العوامل التى أدت إلى اليقظة القومية فى المشرق العربى ، لانستطيع أن نغفل أثر الحكم المصرى على بعض جهاته ، فإنه قبل الحكم المصرى، كانت الحالة الثقافية فى الشام متدهورة ، ولم يكن هناك سوى مدارس ابتدائية لاتهتم إلا ببعض الدراسات الدينية السطحية ، ولكن منذ عام ١٨٣٤ توالى إنشاء المدارس الابتدائية فى مختلف أرجاء البلاد ، كما أنشئت مدارس ثانوية

فى بعض المدن الرئيسية مثل دمشق وحلب وأنطاكية ، ورغم انهيار هذا النظام عقب إخلاء الجيش المصرى للشام عام ١٨٤٠ ، قد ترك أثراً باقياً ، إذ أن المسلمين ـ رغبة فى تجنب تجنيد أبنائهم ـ اتجهوا إلى فتح مدارس خاصة، كما نشأت الرغبة فى التعليم الدنيوى ، فأرسل الكثيرون أبناءهم إلى المدارس الأجنبية التى افتتحتها البعثات التبشيرية التى ازداد نشاطها هى الأخرى نتيجة للحكم المصرى فى الشام[1] فضاعفت من نشاطها التعليمى .

البعثات التبشيرية :

ولم يكن الشام حديث عهد بالبعثات التبشيرية . بل كانت البلاد ميداناً لنشاط الإرساليات منذ القرن السابع عشر ، وذلك بسبب كثرة المسيحيين ووجود الأماكن المقدسة بها[2] ، إلا أن نشاط هذه البعثات كان محدوداً اقتصر على إنشاء بعض المدارس ونشر الكتب الدينية ، وكانت كل البعثات من الكاثوليك وأغلبهم ينتمى إلى الجزويت (اليسوعيين) ، وكان جهدهم الأكبر قائماً على الثقافة النظرية والعقائدية ، ولم يفعلوا شيئاً من أجل إحياء اللغة العربية كما أنه لا يمكن القول بأنهم استطاعوا تخفيف حدة التعصب الدينى أو تقدم الفكر[3] إلا أن جماعة الجزويت حلت منذ عام ١٧٧٣ وأغلقت معظم مؤسساتهم ولم تقدر لهم للعودة إلا عام ١٨٣١ بسبب نشاط البعثات البروتستانتية الأمريكية التى بدأت تفد على الشام من مالطة منذ عام ١٨٢٠ ، حين أنشأوا أول مركز لهم فى الشرق فى بيروت ، وقد صادفت البروتستانت الأمريكيين صعوبة خاصة ، الا وهى عدم وجود أقلية بروتستانتية فى الشام، ولذلك لم يكن لهم من سبيل لكسب الأنصار سوى تحويل الأفراد من المذاهب

---

(١) Antonius : ouv. Cit. pp. 40–41.

(٢) د . الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

(٣) Antonius : ouv. cit. p. 37.

الأخرى إلى البروتستانتية ولذلك أدى نشاط البروتستانت إلى إثارة عداء وكراهية رجال الدين المحليين والكاثوليك الفرنسيين على السواء .

وبدخول الشام تحت الحكم المصرى أتيحت الفرصة للبعثات التبشيرية الأجنبية لممارسة نشاطها على نطاق واسع ، فعاد الجزويت وازداد عدد الأمريكيين وبدأ التنافس بين الفريقين ، ذلك التنافس الذى ساعد على إحياء اللغة العربية ، وما ارتبط بها من حركة فكرية لم تلبث أن تحولت من الأدب إلى السياسة ، إذ أنه لما لم يكن للبروتستانت الأمريكيين أنصار بين العرب كما كان الحال بالنسبة للكاثوليك والأرثوذكس ، فقد بدأ المبشرون البروتستانت يستعملون اللغة العربية فى الصلاة ، كما ترجموا الإنجيل إلى العربية نظراً لأنهم لا يتمسكون باللغات التقليدية للأناجيل كاللاتينية بالنسبة للكاثوليك واليونانية بالنسبة للأرثوذكس ، ولوحظ أن البروتستانت أخذوا يكتسبون نفوذاً كبيراً بين الجماهير ، وتنبه المبشرون الكاثوليك والوطنيون الأرثوذكس إلى خطورة التبشير فعمدوا إلى محاكاتهم باستخدام اللغة العربية . وأخذت جميع الطوائف تتنافس فى إحياء الثقافة العربية ، وفى هذه الحالة لم تنحصر مهمة الثقافة العربية ـ كما كان الحال عند المسيحيين فى ذلك الوقت ـ فى خدمة العلوم الدينية ، وإنما اهتم بها المسيحيون كثقافة قومية يفخرون بها على الترك ، فصار التعليم باللغة العربية فى جميع المدارس البروتستانتية والكاثوليكية[1] .

ولنشر الإنجيل وبعض التعاليم البروتستانتية باللغة العربية نقل المبشرون الأمريكيون مطبعتهم العربية من مالطة إلى بيروت فى عام ١٨٣٤ ، وأخذوا بواسطتها فى طبع ما تحتاجه مدارسهم من كتب ، بل وصنعوا فى ليبزج أنماطاً جديدة من الحروف عرفت باسم الحروف العربية الأمريكية[2] كما اهتم

---

(١) د . الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٣٣ ـ ٣٤

(٢) Antonius : ouv. cit. p. 42.

البروتستانت الأمريكيون بتوفير المدرسين لحولوا مدرستهم العليا فى عباى بلبنان إلى كلية المعلمين ، كما قام رائدهم إيلى سميث وزوجته فى عام ١٨٣٤ بإنشاء أول مدرسة للبنات ، إلا أن العمل الذى توج جهود البعثة البروتستانتية كان إنشاء الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت عام ١٨٦٦[١] ، وعين « دانيل بليس Daniel Bilss » مديراً لها . وفى بداية الأمر كانت الدراسة مقصورة على الدراسات الثانوية العليا ، والطب ، وكان التعليم باللغة العربية ، وبمرور الزمن ارتفع مستوى التعليم واتسع نطاقه حتى بلغت الكلية مستوى الجامعات ، وقد أثار نشاط البعثات البروتستانتية غيرة البعثات الكاثوليكية التى أخذت بدورها تعمل على نشر التعليم وإقامة المدارس وخاصة منذ عودة الجزويت عام ١٨٣١ ، وكانت أهم مدارسهم مدرسة غازير بلبنان التى تحولت عند نقلها إلى بيروت عام ١٨٧٥ إلى جامعة سان جوزيف التى كان لها ـ كأختها الأمريكية ـ دور كبير فى نشر الثقافة ، كما حاكى الجزويت الأمريكيين فى الطباعة العربية منذ سنة ١٨٤٧ ، إلا أننا يجب ألا نغرق فى تمجيد الدور الذى لعبته البعثات التبشيرية (وسنوضح ذلك فى فصل تال) .

وقد دفع نشاط المدارس التبشيرية المختلفة رجال الدين الوطنيين فى الشام على اختلاف مذاهبهم إلى مضاعفة نشاطهم التعليمى بفتح المدارس المختلفة من أجل المحافظة على كيانهم[٢] . ومما يلاحظ فى نشوء الحركة القومية العربية أن المسيحيين لعبوا دوراً كبيراً فى إثارة الوعى القومى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ذلك أنه كان من نتائج إهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية بل ومطاردتها أن اللغة العربية وآدابها لم تجد ملجأ سوى لدى الإرساليات

---

(١) وصارت منذ عام ١٩١٩ تسمى بالجامعة الأمريكية .
Hurewitz : Middle East Dilemmas (1953) p. 106 .

(٢) Yale : Ouv. cit. pp 194 - 5 .

التبشيرية المسيحية فى الشام بالذات ، حيث كان التعليم فى مدارسها يجرى باللغة العربية ، وهكذا أتيح للمسيحيين فرصة الاطلاع والبحث فى تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم[1] . ومما ساعد المسيحيين على أن يلعبوا هذا الدور فى الحركة القومية أنهم كانوا يعيشون فى مستوى اقتصادى مرتفع ، ويشكلون عنصراً اقتصادياً فى المجتمع العربى ، فقد كانوا قطاعا نشطاً ، كما كانوا يظفرون بتأييد فرنسا وحمايتها وامتيازاتها فى الدولة العثمانية ، وكانوا أوثق اتصالا بأوروبا من العرب المسلمين ، ولذلك قاموا بدور الوسيط بين الغرب والعالم العربى من الناحية التجارية . وقد أتاح لهم هذا الوضع أن يتأثروا بالحضارة الغربية والفكر الغربى أكثر من المسلمين[2] .

ولقد شهد القرن التاسع عشر عدداً من رواد الأدباء والمفكرين العرب الذين حملوا لواء النهضة الأدبية والفكرية ، وقد برز منهم نصيف اليازجى وبطرس البستانى . أما اليازجى فقد استعان به الأمريكيون فى تأليف الكتب التى تدرس بمدارسهم ، وأخذ فى ندواته يدعو العرب مسلمين ومسيحيين إلى إحياء الأدب العربى القديم ، وأما البستانى فقد استعان به الأمريكيون أيضاً فى تدريس اللغة العربية فى كلية المعلمين بعباى ، وفى تأليف الكتب ، واشترك مع ايلى سميث فى ترجمة الإنجيل ، ثم وضع سفريه العظيمين : قاموس (محيط المحيط) ومختصره (قطر المحيط) ، ثم موسوعته العربية (دائرة المعارف) ، وإلى جانب ذلك فقد دفعته حوادث ١٨٦٠ التى أثارها التعصب إلى محاولة تهدئة النفوس والقضاء على التعصب . فأصدر فى بيروت فى عام ١٨٦٠ (نفير سوريا) أسبوعياً ، وهى أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة إلى الوحدة والتكاتف ونبذ التعصب . وبعد ثلاث سنوات أنشأ

---

(١) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٦٤ .
(٢) د . الشناوى مرجع سبق ذكره ص ٣٤ .

(المدرسة الوطنية) لكى تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومى ، وفى عام ١٨٧٠ أصدر (الجنان) وهى مجلة أدبية سياسية نصف شهرية ، كان هدفها ـ كنفير سوريا ـ محاربة التعصب والدعوة إلى التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن ، وكان شعارها : الوطنية من الإيمان[١] .

الجمعيات الأدبية فى الشام :

وقد تردد صدى هذا النشاط الثقافى فى تأليف الجمعيات الأدبية فى الشام وكانت أولاها (جمعية الفنون والعلوم) ببيروت التى اشترك البستانى واليازجى فى إنشائها عام ١٨٤٧ مع طائفة من أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية ، ولم يدخلها أحد من المسلمين ، ولم يلبث الجزويت (اليسوعيون) أن حذوا حذو الأمريكيين ، فأسسوا (الجمعية الشرقية) من المسيحيين العرب والأجانب دون المسلمين إلا أن أهم هذه الجمعيات كانت (الجمعية العلمية السورية) التى أنشئت عام ١٨٥٧ ، وكانت تختلف عن الجمعيتين السابقتين فى ناحيتين على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن كل أعضاء الجمعية كانوا من العرب فلم تضم أحداً من الأجانب على الإطلاق ، كما أنها كانت تضم أعضاء من العرب المسلمين إلى جانب الأعضاء المسيحيين مما يدل على تطور الوعى القومى ، والارتفاع فوق الخلافات الطائفية ، ورغم أن حوادث عام ١٨٦٠ أدت إلى وقف نشاطها فقد أعيد تكوينها على نطاق أوسع ، فأصبحت تضم عدداً من الشخصيات العربية التى كانت تعيش خارج الشام ، وخاصة فى الآستانة والقاهرة وغيرهما ، وهكذا ـ ولأول مرة تحت الحكم التركى ـ يلتئم شمل المذاهب المختلفة حول هدف واحد ، من أجل تقدم البلاد العربية . والفخر بالتراث العربى ; كما أصبحت مهداً للحركة السياسية ولذلك يعتبر تكوين هذه الجمعية أول مظهر من مظاهر الوعى القومى الجماعى.

---

(١) Antonius : Ouv. cit. pp. 47 – 50.

وفى مجلس خاص لبعض أعضاء الجمعية العلمية السورية أطلقت الحركة القومية العربية أولى صيحاتها . ذلك أن ابراهيم اليازجى ألقى قصيدة وطنية كانت بمثابة دعوة للعرب الى الثورة ، والتخلص من الحكم التركى[1] ، وهكذا بدأت الحركة القومية العربية كحركة أدبية تعمل على إحياء اللغة العربية وآدابها ، وبعث التراث الفكرى العربى والإفادة منه ، ثم تحولت الى دور العمل السياسى ، ففى عام ١٨٧٥ تألفت جمعية بيروت السرية .

---

(١) ومما جاء فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب … فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
أندارکم فى عيون الترك نازلة … وحقكم بين أيدى الترك مغتصب
صبرا هيا أمة الترك التى ظلمت … دهراً فعما قليل ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف مأربنا … فلن يخيب لنا فى جنبه أرب

توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٣٦ — ٢٧

الباب الثانى

العهد الحميدى

١٨٧٦-١٩٠٨

الفصل الرابع

الجامعة الإسلامية بين الأفغانى وعبد الحميد الثانى

دستور مدحت باشا :

لقد دفع سوء أحوال الدولة العثمانية فريقاً من الترك والأحرار بزعامة مدحت باشا إلى العمل على تقويض دعائم حكم السلطان عبد العزيز بإرغامه على التخلى عن العرش لابن عمه مراد الخامس (٢٩/٣٠ مايو-أيار-١٨٧٦) وقد عزل هذا أيضاً بعد ثلاثة أشهر بسبب اختلال قواه العقلية ، وخلفه أخوه الأصغر عبد الحميد الثانى فى ٣١ أغسطس (آب) ١٨٧٦ ، وفى خلال سنى حكمه خطت الحركة العربية خطوات واسعة ، وأينع الوعى القومى فى الشام ، وبدأ يظهر أثره فى البلاد العربية الأخرى ، حتى أتى ثماره بعد عزل عبد الحميد حين تحول إلى حركة علنية واسعة النطاق .

فقد كانت أحوال الدولة - عند تولى عبد الحميد - سيئة للغاية ، ومستقبلها يبدو قاتماً ، فقد أخذت ألوية العصيان ترفع فى أقاليمها وخاصة فى البلقان ، واشتدت المذابح فى بلغاريا ، وأخذت روسيا تهدد بالتدخل العسكرى ضد الدولة دفاعاً عن شعوب البلقان ، وإذ صممت الدول على فرض الإصلاحات على الحكومة التركية فقد انعقد فى الآستانة عام ١٨٧٦ مؤتمر من السفراء لإعداد منهاج للإصلاحات . ولكن عبد الحميد قطع عليهم عملهم بإعلان دستور الإمبراطورية وبذلك لم يعد لاجتماعهم ضرورة ، ثم دعا البرلمان إلى الاجتماع ، وبدأت الإمبراطورية العثمانية وكأنها بدأت تسير على النهج الذى

رسمه لها حزب الإصلاح[1] . وقد كان مدحت ورفاقه يعتقدون أن الآلام التى كانت تعانيها الإمبراطورية والأسقام التى تنخر فى كيانها السياسى سوف تزول بقيام الدستور الذى ينقذ البلاد من الحكم المطلق ، ولما كان هؤلاء الأحرار هم الذين أقاموا عبد الحميد سلطاناً فإنه لم يلبث أن استجاب لهم فأعلن الدستور فى الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون أول) عام ١٨٧٦ بعد أن عين مدحت باشا صدراً أعظم فى ١٨ ديسمبر .

وكان دستور مدحت يهدف إلى تقييد سلطة السلطان المطلقة ، وتحقيق المساواة فى المعاملة بين الرعايا على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، واعتقد مدحت كذلك أن الدستور يساعد على خلق رأى عام حر مستنير يستطيع أن يقف فى وجه تدخل الدول الأجنبية فى الشئون الداخلية للامبراطورية[2] . إلا أن السخط الذى كان سائداً بين الشعوب الخاضعة للدولة لم يكن مرجعه الطغيان وفساد الحكم فحسب ، بل كان مظهراً لنمو الوعى القومى ، الأمر الذى لم يفطن إليه مدحت ، كما أن الدستور ، ولو أنه قيد سلطة السلطان إلى حد ما ، فإن هذا التقييد لم يكن بالدرجة التى أرادها مدحت .

وعلى كل حال فإن عهد الحياة الدستورية لم يطل لأن عبد الحميد لم يأخذ بالدستور إيماناً به ، وإنما أراد أن يفسد خطة التدخل الدولى ، إلى جانب استمالة رعاياه الأحرار حتى يشتد ساعده وتتاح له فرصة القضاء على الحركة التقدمية ، ولذلك فإنه سرعان ما ضاق ذرعا بالحياة النيابية بعد أن استنفدت أغراضها بتهدئة الأحرار ونسف المؤتمر الأوروبى والاطمئنان على عرشه ، خاصة وقد

---

(١) رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ — ترجمة صالح العلى (١٩٦٠) ص ٤٣/٤٤ .

(٢) Saab . Ouv cit. p. 185

قويت المعارضة فى مجلس المبعوثان ، وكان كثير من زعماء المعارضة من العرب ، رغم أن معارضتهم لم تكن قائمة على أساس الدفاع عن حقوق العرب ، بل كانت المعارضة لأسباب تتصل بأحوال الدولة العثمانية عامة[١] .

وقد سنحت لعبد الحميد فرصة الانقلاب على الدستور والإحاطة بالحياة الدستورية عام ١٨٧٧ عندما أعلنت روسيا الحرب على الدولة وتقدمت الجيوش الروسية إلى ضواحى الآستانة ، وانتهز عبد الحميد الفرصة لتعطيل الدستور فى ١٤ فبراير (شباط) ١٨٧٧ ، وتأجيل اجتماع البرلمان - الذى لم يدع بعد ذلك حتى عام ١٩٠٨ [٢] - وأعيد الأعضاء إلى بلادهم ونفى بعضهم إلى مناطق نائية وعزل مدحت ، وبعد ذلك ألصقت به تهمة قتل السلطان عبد العزيز ، وحكم عليه ونفى إلى الحجاز حيث قتل .

وهكذا كان النجاح الدستورى قصير الأجل ولم يعمر طويلا لأسباب داخلية وخارجية ذلك أن مدحت حاول أن يقيم نظاماً دستورياً للامبراطورية دون أن تكون هناك تقاليد دستورية سابقة ، ولذلك لم يحدث رد فعل أثر فض عبد الحميد لمجلس المبعوثان ، لأن الحياة الدستورية لم يكن يسندها رأى عام واع ، كما أنه حاول إقامة دستور واحد لوحدة سياسية كبرى لم تكن أقاليمها متجانسة بسبب تنوع ثقافاتها ، هذا بالإضافة إلى مؤامرات الدول الأجنبية والعناصر الرجعية لتقويض دعائم الحكم الدستورى[٣] .

الاستبداد الحميدى :

وبعد أن عطل عبد الحميد الدستور سارت سياسته فى اتجاهات معينة

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٣٠ .

(٢) Emin, A. : Turkey in The World war (1930) p. 31.

(٣) Saab : Ouv. Cit. pp. 187. 8.

أملتها عليه ظروف الدولة الداخلية والخارجية ، ذلك أن اقتراب الروس من مشارف الآستانة فى الحرب السابقة لم يدع لديه إيماناً بقوته العسكرية ، كما أن معاهدة برلين رغم تدخل بريطانيا ـ جعلته يشعر بأن حياة الإمبراطورية رهن بمشيئة الدول ، وإلى جانب ذلك كان مركزه المالى سيئا ، ولذلك فقد لجأ إلى الديون التى خصص جانباً كبيراً منها لإعادة تنظيم جيشه ، وأبدى اهتماما خاصا بالكليات العسكرية دون التعليم المدنى[١] .

ثم فرض على الشعب حكما فرديا استبداديا تساوت جميع العناصر فى الخضوع له ، بما فيهم العرب الذين حاول ربط بلادهم بشبكة من الخطوط البرقية والحديدية ليسهل عليه إرسال القوات الحربية لقمع ما قد ينشب فيها من ثورات[٢] .

أخذ الاستبداد الحميدى يقوى وتشتد قبضته على رعاياه ، بتأثير خوفه من عواقب نشاط العناصر التقدمية ، مما جعله يصطنع شبكة قوية واسعة من الجاسوسية حتى أصبح حكمه من أقسى أنواع الحكم وأشدها طغيانا .

سياسة عبد الحميد الإسلامية :

إلا أن أهم الوسائل التى لجأ إليها عبد الحميد لمواجهة الموقف فى الداخل والخارج كانت سياسته الإسلامية عندما استخدم الدين لمقاومة معارضيه فى الداخل ومواجهة أعدائه فى الخارج ، بإبراز السمات الدينية (المقدسة) لمنصبه بصفته الخليفة زعيم المسلمين ، واستثارة الإخلاص لعرشه بالضرب على الأوتار الحساسة لدى الملايين من رعاياه المسلمين ، وبذلك يضمن ولاءهم ، ولا يجد التقدميون أى تأييد من جانبهم ، وهكذا سعى عبد الحميد لإحلال

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp. 67 — 68

(٢) Zeine : Arab — Turkish Relations, d. 54

فكرة الجامعة الإسلامية محل الجامعة العثمانية التي كان ينادى بها (مدحت) وأنصار التنظيمات ، وكان عبد الحميد يرى أنه يمكن استخدام فكرة الجامعة الإسلامية كأداة تضمن التفاف العالم العربي ، بل والعالم الإسلامي حول الخلافة العثمانية ، وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على الأقاليم العربية في وقت كانت الدولة تفقد أقاليمها في البلقان الواحد تلو الآخر ، كما كان عبد الحميد يهدف — إلى جانب تدعيم مركزه بإخماد أي حركة تقدمية — إلى استخدام الجامعة الإسلامية لمقاومة الدول الغربية بل والضغط عليها ، تلك الدول التي كانت تستغل فرصة ضعف الدولة لكنها كانت لا تزال تهاب قوة الإسلام ، إذ أنه بهذه السياسة يجمع حوله الشعوب الإسلامية العربية منها وغير العربية ، بما فيها تلك الشعوب الخاضعة للدول الأوربية ، وخاصة العرب في شمال أفريقية الخاضعين لفرنسا ، ومسلمي الهند الخاضعين لبريطانيا والتتر الخاضعين لروسيا[1] .

والواقع أن العالم الإسلامي كان يموج منذ أواخر القرن الثامن عشر بحركات دينية قوية جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب Westernization في الشرق الأدنى وكرد فعل لاعتداءات الدول الأوربية على بعض أجزاء العالم الاسلامي . وكانت بعض هذه الحركات الدينية تتخذ موقفاً سلبياً من الاستغراب وتنادى بالارتداد أو الرجوع إلى الأصول الاسلامية الأولى ، وهذه هي الحركات السلفية مثل الوهابية في شبه الجزيرة العربية ، والسنوسية في شمال أفريقية ، والمهدية في السودان[2] إلا أن حركة الجامعة الاسلامية كانت أكثر الحركات السلفية إدراكاً لمشاكل العالم الاسلامي .

---

(١) Antonius ; Ouv. cit, p. 75

(٢) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٣٨ .

الأفغاني والجامعة الاسلامية :

وقد ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية ـ قبل عبد الحميد ـ على يد جمال الدين الأفغاني الذي يعتبر الأب الروحي والعقلي لها ، وكان من الشخصيات التي تركت أثراً عميقاً على العالم الاسلامي في العصر الحديث ، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص .

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عنه فلا يزال يحيط بحياته بعض الغموض ، وليس هنا مجال الخوض في الخلاف حول أصل الأفغاني ، وهل هو أفغاني سني كما يقول هو وتلامذته ومريدوه ، أو إيراني شيعي كما يذهب أعداؤه ومعارضوه ، مثل أبي الهدى الصيادي ـ عدوه في أخريات أيامه ـ والذي ذهب إلى تسميته (بالمتأفغن) أي من يدعي الانتساب إلى الأفغان[1] .

ومسألة أصل الأفغاني على جانب كبير من الأهمية ، نظراً لأنه عمل على نشر مبادئه وأفكاره بين جموع السنيين في العالم الاسلامي ، ممن كانوا لا يتقبلون هذه الآراء من داعية شيعي ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نحسم هذه المسألة برأي قاطع في هذه الدراسة ، فهي تحتاج إلى بحث خاص يستند إلى أسانيد لم تتوفر لنا بعد ، وكل ما يهمنا إبرازه هنا هو أن العالم الإسلامي الذي جاس فيه الأفغاني داعيا قبله على أنه أفغاني سني ، وليس إيرانياً شيعياً ، وبذلك انتشرت مبادىء الأفغاني وأثرت فيمن حوله ، الأمر الذي أتاح له فرصة إحداث هذا الأثر العميق .

وحركة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني — وإن كانت امتداداً للحركات الوهابية والسنوسية من حيث أنها تهدف إلى تخليص الإسلام من

---

(١) Hourani, A. : Arabic Thought in the liberal Age (1967), p. 108.

الشوائب التى علقت به ، إلا أنه فى نفس الوقت ، ونظراً لأنه على عهد جمال الدين كان الاستعمار الأوروبى قد أخذ يجتاح الكثير من أقطار العالم الإسلامى ، فقد حاول الأفغانى أن يوقف هذا الزحف الاستعمارى عن طريق تنظيم الحكومات الإسلامية القائمة ، وإدخال الأفكار والأنظمة الغربية التى كانت سر قوة الغرب ، ثم توحيد صفوف المسلمين الوقوف فى وجه المد الاستعمارى الأوروبى ، أى بينما كانت الحركات السلفية تتجه إلى محاربة السيطرة العثمانية كانت حركة الجامعة الإسلامية تدعو إلى وحدة صفوف المسلمين وراء الدولة العثمانية ، وهذه هى العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، أى أن الأفغانى كان يعمل - إلى جانب إصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية - على صد النفوذ الأوروبى ، خاصة وأنه كان يرد الاستعمار الأوروبى إلى أساس دينى ويعتبره حركة نصرانية موجهة ضد الإسلام .

ويذهب البعض[1] إلى أن تفكير الأفغانى مر بمراحل ، أولاها عندما كان يرفض إعطاء أى وزن للفكر القومى والخصائص القومية مكتفياً بوحدة العقيدة ، وفى هذه المرحلة نجد الكثير من عباراته التى ظهرت على وجه الخصوص فى مقالات « العروة الوثقى »[2] مثل عبارات « غناء الإسلام عن القومية » ، وقوله بأن : « لاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم[3] » ، وقوله : « علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم

---

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى (١٩٦٨) ص ٤١-٤٤٢ .

(٢) كانت جمعية سرية أسسها جمال الدين وتتكون من أعضاء مسلمين من الهند ومصر وشمال إفريقية والشام ، وكان هدفها توحيد المسلمين وإيقاظهم من سباتهم وتعريفهم بالأخطار المحدقة بهم ، وإرشادهم إلى طريقة التغلب على هذه الأخطار .

Zeine : Arab – Turkish Relations, p. 69.

وقد أصدرت الجمعية فى باريس صحيفة بهذا الاسم ولم يظهر منها سوى ثمانية عشر عدداً بين ١٣ مارس (آذار) ، ١٧ أكتوبر (تشرين) ١٨٨٤ .

(١) العروة الوثقى (ط ١-١٩٠٧) ص ٦٩ - مقال (الوحدة الإسلامية)

وأعقادهم ، ولتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الأقطار الإسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوه ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة ... فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ودماؤكم فلا تريقوها . وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ، هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر ، وإن تناءت دياره وتقاصت أقطاره . هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها »[1] .

والأفغانى فى هذه الدعوة إنما يتأثر بالتاريخ الإسلامى وحياة المسلمين الأولى بقوله : « هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى المغربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وإن المسلم فى تبدل حكومانه لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها »[2] .

---

(١) العروة الوثقى ص ٤٥ ، ٤٨ — مقال (التعصب) .

(٢) المصدر نفسه ص ١١ — مقال (الجنسية والديانة الإسلامية) .

وهكذا كان الأفغاني في هذه المرحلة من تفكيره يرى أن للمسلمين بديلاً عن القومية يفضلها، وفيه عنها غناء، ألا وهو اتحادهم في الملة في ظل حكم مثالي يحافظ على الشريعة، وهو شرط أساسي عند الأفغاني لصرف النظر عن بناء الدول على أساس القومية والجنس، وعلى ذلك كان يرى أن المتدين بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد[1]، وأن رابطة المسلمين الملية أقوى من رابطة الجنسية واللغة [2].

وقد تأثر موقف الأفغاني من الدولة العثمانية بتفكيره الإسلامي في هذه المرحلة فإنه عندما أيقن من أن الاستعمار الأوروبي هو العدو الذي يتربص بالعالم الإسلامي دعا إلى توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات المسلمين في دولة واحدة تحت ظل الخلافة الإسلامية العثمانية، التي كان يعلق عليها الآمال في حماية العالم الإسلامي من الاستعمار الأوروبي النصراني، ومن هنا جاء قوله بأن « الذات الشاهانية، وهي الأب الأكبر لعموم المسلمين، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الأعداء في البلاد الإسلامية، وهي لا تألوا جهداً في تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم » [3].

لذلك فإنه ماكاد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يبدأ دعوة الجامعة الاسلامية حتى وجد التأييد والعون من الأفغاني الذي رأى فيه « من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا، وحسن

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠ ـ مقال (الجنسية والديانة الإسلامية).
(٢) المصدر نفسه ص ٥ ـ مقال (لماذا صدرت الجريدة).
(٣) محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص ٥٢ .

أولياءه ، واستعداده للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعنى إلى مد يدى له ، فبايعته بالخلافة والملك ، عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم[١] .

الأفغانى يقدر الرابطة القومية :

ومع ذلك فإن الأفغانى لم يلبث أن أقر بقوة الرباط القومى ، فقد كان العصر الذى يعيش فيه هو عصر القوميات فى أوروبا ، وكان سياج العزلة الذى أحاط به العثمانيون ممتلكاتهم قد أخذ يتهاوى فى أواخر القرن التاسع عشر إزاء تقدم وسائل المواصلات وانتشار التعليم فى الشرق العربى ، سواء التعليم الوطنى أو التعليم الغربى ولذلك فإننا لا يلبث أن نرى الأفغانى يتحدث عن المسلمين فيرى أن رابطتهم الملية مع رابطة اللسان أقوى من الروابط الجنسية[٣] ، وهذا تطور هام فى حياة الأفغانى وتفكيره واتجاهه وجهة قومية ؛ فصار يعترف بأن اللغة عنصر حيوى فى خلق المجتمعات المستقرة ، وأن المجتمعات الإنسانية التى ليست لها لغة مشتركة لا تملك أساس الوحدة القوية ، وأنه حتى المجتمع الدينى إذا كانت له لغة مشتركة فإنه سيقوى ويشتد ساعده ، وأنه « لو أن العثمانيين اتخذوا اللغة العربية لغة لكل الامبراطورية فان كل شعوبها سوف يصبحون وقد جمعتهم رابطتان بدلا من رابطة واحدة فتقوى وحدتهم » .

ثم إذا بالإفغانى يردد بأنه « لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

---

(٤) المصدر السابق ، نقلا عن الخاطرات ص ٦٧ .

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٤٥ — نقلا عن الخاطرات ص ٤١٦ .

فالأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان »[١] ، وفي الوقت نفسه لم يتخل عن اتجاهه الإسلامي بل حاول التوفيق بين فكرة الإسلام وفكرة العروبة . فكان يرى أن الإسلام كعقيدة إنما هو طريق التعرب واكتساب خصائص الأمة العربية فيقول « إن كل من رضي بالإسلام أو رضي بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم إلى التعرب ، فمصر بينما هي هرقلية رومانية ، ومقوقسها عامل له فيها ، أصبحت بعد قليل من الزمن إسلامية في الأغلبية ، عربية بالصورة المطلقة في كافة مميزات العرب ، وهكذا القول في سوريا والعراق »[٢] ويتطرق الأفغاني من ذلك إلى قوله بأن « المسلم أو المسيحي أو اليهودي في مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم على نسبته العربية . فيقول (عربي) ثم يذكر جامعته الدينية . . . والأغرب أن التركي والجركسي والأرناءوطي وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات ويمتزج في المجموع حتى يخال أنه (عربي قح) »[٣] .

وأخذ الأفغاني يردد عبارة (جامعة اللسان) وأنه « لا جامعة لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ... وأن العرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان ، وهو أهم الأركان ، . . وهو من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر ، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرصة ، ونهضت بعد دهر فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ،

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ — نقلا عن الخاطرات ص ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ عن الخاطرات ص ٩٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٥ ، ٢٢٣ عن الخاطرات ص ٩٨ .

والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد إلى ما شاء الله »[١] .

ويستطرد الأفغانى فى بيان وتوكيد الصلة بين الإسلام والعروبة ، فيذكر أن اللسان العربى هو لسان الدين . . ، وأنه كان لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر »[٢] ، بل يذهب الأفغانى إلى حد القول بأن « الأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان مالا يحتاج معه إلى دليل أو برهان » كما أشرنا من قبل ، ويقوده ذلك إلى حد المطالبة بتعريب الدولة العثمانية لأنها « لو تعربت وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام بالتركى والعربى ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وما فى الدين الإسلامى من عدل ، وما فى سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفى مكارمهم من عادات ، لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً » ، وأنه « لو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم ، واستعربوا ، وترأسوا ذلك الملك ، وعدلوا فى أهله ؛ وجروا على سنن الرشيد ، ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين ، فما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة وأعز جانباً وأمنع حوزة »[٣] .

الخلاف بين الأفغانى وعبد الحميد :

ولم يكن من المتوقع أن يستمر الوئام والوفاق بين الأفغانى والسلطان عبد الحميد ، لأن الأفغانى — من أجل تحقيق أمنيته فى تجدد العالم الإسلامى — كان يسعى من أجل العثور على حاكم مسلم يستطيع عن طريقه تحقيق هذا

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨ عن الخاطرات ص ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ عن الخاطرات ص ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٧١ عن الخاطرات ص ٢٢٢ ، ٢٢٦ .

الهدف السامى ، وهذا ما جعله يتطلع إلى السلطان العثمانى ، لمحاولة استخدام نفوذه فى سبيل خدمة الإسلام ولكن عبد الحميد كان — على العكس — تراوده الآمال فى استخدام الأفغانى وأفكاره عن الجامعة الإسلامية فى جمع شتات المسلمين حول عرشه تحقيقاً لمصالحه هو وأسرته .

وعندما وجد الأفغانى أن دهاء عبد الحميد موجه ضد الأحرار والثوار ومن أجل تحقيق مصالحه التى تصورها له حاشيته الفاسدة الظالمة التى توجه سياسة الدولة ، وأنه لا أمل فى إصلاح عبد الحميد أو صلاحه ، شرع الأفغانى يقف منه موقفاً عدائياً ولا يتحرز فى توجيه اللوم إليه ، حتى لقد دخل عليه يوماً يطلب منه أن يقيله من بيعته له « بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد ... »[1] .

ولم يكن من الممكن أن يستمر الوفاق بين الأفغانى وعبد الحميد بعد أن اتضح أن أفكار كل منهما تسير فى مسار يخالف مسار أفكار الآخر ، فالأفغانى لم يعد يرى أن تشجيع الحركات القومية داخل المجتمع الإسلامى يتناقض تناقضاً صارخاً مع فكرة الوحدة الإسلامية ، ذلك أن فكرته عن الاتحاد الإسلامى تقوم على تقوية العلاقات بين الأمم الإسلامية ، ومع أن مثله الأعلى فى الوحدة الإسلامية كان إقامة حكومة واحـــدة تطبق المبادىء الإسلامية ، إلا أنه أقر بأن هذه الأمنية بعيدة المنال ، ولذلك فقد كان ينادى بتقوية الروابط بين الدول الإسلامية القائمة وهى روابط تقوم على العدل والشورى ، يدفعهم هدف واحد ، مهتدين بهدى القرآن ، ولذلك كان يقترح إنشاء حلف إسلامى ، تتزعمه أكبر وأقوى دولة إسلامية وكان يقصد بها الدولة العثمانية ، وقد وصف لنا جمال الدين كيف أنه فكر فى جعل الامبراطورية العثمانية مركزاً للاتحاد الإسلامى ، فكانت خطته تتضمن تحويل الامبراطورية

---

(١) محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص ٥٣ عن الخاطرات ص ٦٨ .

العثمانية إلى (مملكة الممالك) بتنظيمها على أساس لا مركزى حقيق واقترح ذلك على عبد الحميد متمثلا بمصر وتقدمها بعد تحويلها إلى خديوية يتمتع حاكمها بسلطات واسعة ، واعتبر جمال الدين أن مثل هذا الخديو سيكون أفضل للأقاليم والإمبراطورية من حكام ترسلهم الآستانة ، ولذلك طلب الأفغانى من عبد الحميد تحويل الولايات إلى خديويات ، وقال إن هذه الوحدة - إلى جانب الخوف من الاحتلال الأجنبى - ستدفع إيران وأفغانستان والإمارات الإسلامية فى الهند إلى الانضمام إلى الإمبراطورية العثمانية فى شكلها الجديد ، وبذلك يصبح السلطان العثمانى - فى نظر الأفغانى - ملك الملوك ، ويصير سيداً على دولة قوية تستطيع أن تعيد للإسلام أمجاده وتحمى البلاد الإسلامية من السيطرة الأجنبية ، إلا أن عبد الحميد لم يستجب لأفكار الأفغانى اللامركزية[١] .

وإلى جانب ذلك فقد كان ثمة اتجاه دستورى فى دعوة الأفغانى ،فقد كان يريد أن يكون الاتجاه الإسلامى اتحاداً دستورياً ، وسعى إلى تحويل الممالك الإسلامية القائمة إلى ممالك دستورية ، وكان الأفغانى يفضل العمل على ازدياد الوعى الدستورى بين الشعوب الاسلامية حتى ترغم حكامها على إصدار دساتير فتبدو من صنع الشعب وبذلك يكون الشعب مستعداً للدفاع عنها لا كما كان يرى مدحت من أنه لا مانع من أن يكون الدستور منحة من السلطان ، وقد سجل المخزومى عن الأفغانى أنه قال « لا يحيى الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قوياً عادلا ، لا مستبداً عادلا ، لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة[٢] .

---

(١) Saab : Ouv. cit. pp. 191 - 192

د . محمد بديع شريف : مرجع سبق ذكره ص ٣٧ .

(٢) أنيس صايغ : فى مفهوم الزعامة السياسية — من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر (١٩٦٥) ص ١٥ .

وعندما كان الأفغانى فى الآستانة طلب من عبدالحميد إقامة نظام للشورى فى الإمبراطورية ، وتغيير نظام الحكومة تغييراً جذرياً ، وعندما رفض عبدالحميد دب اليأس فى نفس الأفغانى وأصبح يعتبر عبد الحميد (جرثومة فى صدر الدولة »[١] وصار الأفغانى يعتقد أن حكم عبد الحميد الفردى المطلق لايمكن أن يصلح للوحدة الإسلامية التى كانت نفس الأفغانى تهفو إليها للوقوف فى وجه الخطر الأوروبى .

وإذا كان الأفغانى يدافع بشدة عن الإسلام فقد كان يدافع عن التراث العربى حتى لقد نادى بجعل اللغة العربية لغة الإمبراطورية العثمانية ، مما جعل عبد الحميد يشك فى أن الأفغانى يهدف إلى استقلال البلاد العربية ، ويتجلى هذا فى مصادرة السلطان عبد الحميد لجريدة (البيان) التى أصدرها محمد باشا المخزومى مريد الأفغانى عام ١٨٩٣ ، وهى الجريدة التى رسم لها الأفغانى منهاجاً ليكون على غرار منهاج العروة الوثقى ، وكان فى مقدمة أسباب تعطيل جريدة البيان وقوعها فى خطأ مطبعى جعل من إحدى عبارات مقدمتها « من نواياانا الخدمة العامة والاخلاص والنية سابقة العمل » فصارت « والنية سابقة اليمن » فصورت حاشية عبدالحميد هذه العبارة على أن المخزومى وأستاذه الأفغانى - بإصدار هذه الجريدة - إنما يسعيان إلى تحرير اليمن واستقلالها ثم استقلال البلاد العربية الأخرى[٢] .

وما دامت دعوة الأفغانى تقوم - ضمن أركانها - على الالتفاف حول الخلافة وعلى الحج فقد دعاه عبدالحميد إلى الآستانة ١٨٩٢ ، ورغم اختلافهما حول الناحية الدستورية فقد كانا متفقين بخصوص الجامعة الإسلامية ، وعلى

---

(١) Saab, H : Ouv. cit. pp. 192-193.

(٢) محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص ٧٦ عن الخاطرات ص ٤١٧ - ٤١٨ .

ذلك سارت جهود عبد الحميد فى هذين الاتجاهين ، الخلافة والحج ، ولكن من أجل تحقيق مصالحه الخاصة .

أما عن الخلافة فقد عمل عبد الحميد على إحياء عظمتها الدينية واسترداد هيبتها وأخذ يضفى على حياته الخاصة الكثير من مظاهر التقوى والورع وتخلى ـ ظاهرياً على الأقل ـ عن كثير من الأعمال المنافية للدين والتى كان يباشرها أسلافه كما أحاط نفسه برجال الدين ، وعمد إلى استصراخ المسلمين فى كافة أنحاء العالم إلى نصرته والالتفاف حوله ، وأخذ يهدد الدول الغربية برعاياهم المسلمين فمسلمو ألبانيا يهدد بهم النمسا ، والتتر والأكراد يهدد بهم روسيا ، والهنود يهدد بهم بريطانيا ، وعرب شمال أفريقية يهدد بهم فرنسا[١] كما أنشأ مدرسة للوعاظ لتدريب المبعوثين الذين أخذ يوفدهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى للدعاية لفكرته الإسلامية ، كما أخذ يبذل المساعدات المالية بسخاء للمدارس الدينية فى داخل الدولة وخارجها ، كما سخر الصحافة لدعوته .

سياسة عبد الحميد ازاء العرب :

وقد حاول عبد الحميد كسب العرب على وجه الخصوص بعد أن بدأت تظهر بينهم بعض مظاهر الوعى القومى فأغدق الهبات السخية على معاهد التعليم العربية ، والمناصب ومظاهر التكريم على بعض الشخصيات العربية ، وأنفق أموالا طائلة على إصلاح وتزيين مساجد مكة والمدينة والقدس ، كما شكل إحدى فصائل حرسه من العرب ، كما أدخل بعض العرب فى خدمته الخاصة ووصل بعضهم إلى مراكز بارزة مثل عزت باشا العابد العربى السورى الذى صار من سكرتيرى السلطان[٢] وقد كان من الطبيعى أن يحظى العرب بالذات ـ من خلال تيار الجامعة الإسلامية ـ بمركز مرموق عند عبد الحميد ،

---

(١) د . محمد أنيس ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤١ .
(٢) Antonius : Ouv. cit. p. 71

فمنهم الرسول وفيهم الرسالة ، وبلغتهم نزلت ، وفى أراضيهم الأماكن المقدسة الإسلامية ، هذا علاوة على أهميتهم للدولة بحكم عددهم وموقع بلادهم[1] ولو أن البعض يعتبر أن القول باعتماد عبد الحميد على العرب وإيثاره إياهم مبالغ فيه لأنه كان يعتمد على كل العناصر الإسلامية مثلما كان ظلمه يشمل كل العناصر فى الدولة[2] وعلى كل حال فإن محاولة عبدالحميد كسب العرب لم تصل إلى درجة منحهم أى قدر من مطالبهم التى كانت فى ذلك الوقت متواضعة .

إذ أن عبدالحميد ـ من ناحية أخرى ـ كان قلقاً إزاء الاضطرابات المعادية للترك وخاصة فى لبنان ، وظهور منشورات ثورية فى بيروت . وازدادت مخاوفه وشكوكه فى أن العرب يعملون من أجل إقامة خلافة عربية[3] ولذلك فإنه كان يلجأ إلى وسائل الإرهاب إذا ما أخفقت وسائله فى الترغيب ، فكان دعاته يعملون على بذر الخلاف بين الزعماء العرب وإثارة الخلافات العائلية والقبلية وإذكاء نارها ، وأحياناً كان يوعز بالاغتيال كما كان يرغم بعض الزعماء على الإقامة فى الآستانة تحت مراقبة جواسيسه ، ومن هؤلاء الحسين ابن على الذى أقام فى عاصمة الدولة منذ عام ١٨٩٣[4] .

وأما سياسة عبدالحميد إزاء الركن الثانى فى سياسته الإسلامية ، وهو الحج فقد دفع شريف مكة لنشر الدعوة بين الحجاج . كما اهتم بإنشاء الخط الحديدى بين دمشق والمدينة ومنها إلى مكة لتسهيل الحج ولدوافع أخرى سياسية واستراتيجية . أما من الناحية الاستراتيجية فقد أتاح المشروع لعبد الحميد ـ وبتكاليف منخفضة نسبيا ـ وسيلة لنقل قواته براً إلى شبه الجزيرة بدلا

---

(١) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٢ .

(٢) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٤٦ .

(٣) Zeine : Ouv. cit, p. 54

(٤) Gontaut – Biron : comment la France . . . . p. 10.

من الطريق البحرى البطىء كثير التكاليف عبر قناة السويس ، بل وأصبح عبد الحميد يتطلع إلى اليوم الذى يمتد فيه هذا الخط جنوباً حتى يقوى قبضته على اليمن الثائر ، وبذلك تصير شبه الجزيرة العربية فى متناول حكومة الآستانة ، وبذلك يصير من السهل القضاء على أية محاولة عربية للتحرر من النير التركى[١] .

ومن ناحية أخرى كان مشروع خط سكة حديد الحجاز مشروعاً ذا بريق جذب الأنظار والقلوب ، إذ أثار حماساً كبيراً فى مختلف جهات العالم الإسلامى فانهالت التبرعات من كل ناحية لإنشاء الخط ، وبفضل هذا المشروع ، وسياسته الإسلامية ضمن عبد الحميد طاعة رعاياه ورضاهم عن حكمه ، أما المظالم التى كانت تنزل بالشعب فإن الناس كانوا يلصقونها بالموظفين ولا يشكون فى أمر الخليفة[٢] .

إلا أن مشروع سكة حديد الحجاز كان مصدر قلق لعرب شبه الجزيرة وخاصة الحجاز لأن الخط الحديدى يضر بمصالحهم ويحرمهم مورداً هاما من موارد الرزق كانوا يحصلون عليه بنقل الحجاج على الإبل ، ولذلك فقد قاوموا عملية إنشاء الخط وكثيراً ما هاجموه وسطوا على معدات بنائه حتى اضطرت الحكومة التركية إلى متابعة العمل فى الخط تحت حراسة مشددة ، إلى أن تم تنفيذه وانتهى العمل فيه عام ١٩٠٨ عندما وصل إلى المدينة (وكان قد بدء العمل فيه عام ١٩٠١)[٣] .

وقد شعر عبدالحميد بالارتياح لأن أغلبية العرب المسلمين فى ذلك الوقت

---

(١) Ibid.

(٢) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٩ .

Antonius : Ouv. cit. pp. 74 — 75 .

(٣) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٤٥ .

كانوا يميلون إلى تأييد الخلافة ويرون فى ذلك تأييداً للاسلام ، كما أن المستنيرين منهم فطنوا - فى قلق - إلى مخططات الدول الأوروبية لاقتسام الدولة العثمانية بما فيها الأقاليم العربية ، ولذلك أدرك المسلمون ضرورة تقوية الاسلام كوسيلة للوقوف فى وجه الغرب ، ولم يفكروا فى تحطيم السيادة العثمانية أو الانسلاخ عن الامبراطورية ، وكل ما كانوا يسعون إليه هو إدخال الاصلاحات السياسية والاقتصادية التى تمكنهم من التقدم والنهوض والوقوف فى وجه أطماع الغرب ، أكثر من دعوتهم للتخلص من الحكم التركى ، وهكذا ظل زعماء المسلمين على إخلاصهم للدولة العثمانية ، ولم تكن لديهم النية لإضعاف الدولة العثمانية التى كانت لاتزال فى أعين المعاصرين دولة الاسلام الكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل ، ولذلك فإن اليقظة العربية فى ذلك الوقت كانت يقظة ضد مساوىء وطغيان الحكم التركى والرغبة فى إصلاحه دون التفكير آنئذ - فى إقامة دولة عربية مستقلة -[1] .

---

(١) Zeine : Ouv . cit, p. 58

الفصل الخامس

الحركة القومية العربية فى ظل الحكم الحميدى

وعلى الرغم من سياسته الإسلامية فقد كان حكم عبد الحميد سيئاً بغيضاً بالنسبة لكافة عناصر الدولة ، الترك وغير الترك ، العرب وغير العرب على السواء ، بسبب المظالم التى حلت بالأهالى ، وسياسة الضغط والكبت التى فرضها على رعاياه رغم أنه لم يناد بالعنصرية وبسياسة التتريك ، ولم يعمل على ترويج فكرة القومية التركية كما كان الحال فى عهد الاتحاديين ، فقد كانت اللغة التركية مفروضة ضمناً ، إذ كانت شرطاً أساسياً لتولى وظائف الدولة والترشيح لمجلس النواب ، كما اتجهت الدولة فى عهده نحو مركزية الحكم وصهر العناصر فى بوتقة واحدة[1] .

جمعية بيروت السرية :

وقد جاء أول رد فعل لطغيان عبد الحميد وسياسته الإسلامية من لبنان حيث كان قد نما الشعور المعادى للترك تغذيه عدة عوامل مثل التعليم الغربى وظهور الصحف العربية والسفر إلى الخارج وعودة المغتربين من الولايات المتحدة وتوثق الصلة التجارية بالغرب والتوسع فى الأخذ بالأساليب الغربية على أنه كان ثمة عامل آخر هام ألا وهو شعور المسيحيين بأنهم أشبه بجزيرة غريبة وسط محيط من المسلمين وأن الحكومة ليست حكومتهم ، مما جعلهم يسعون جاهدين للانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الاستقلال ، ومن هنا فالحركة القومية فى لبنان ضد الترك كانت لبنانية مارونية وليست عربية شاملة[2] .

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٤٣ .

(٢) Zeine : Ouv. Cit. pp. 38—49.

وفى هذه الظروف تأسست جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ وكانت تهدف إلى استقلال لبنان وسورية إن أمكن ، وقد بدأت بأعضاء مسيحيين إلا أنه لم يلبث أن اتضح لمؤسسيها الشبان أنه من أجل النجاح فى تحقيق الأهداف التى يصبون إليها لا بد من حصولهم على معونة العرب المسلمين ، وصار من الضرورى مواجهة الترك بجبهة واحدة ، ولذلك انضم إلى الجمعية بعض الأعضاء المسلمين .

وقد زاولت الجمعية نشاطها على عهد عبد الحميد إلا أنه بسبب شدة وطأة حكمه اقتصر هذا النشاط على إصدار المنشورات ولصقها فى الشوارع تحت ستر الظلام حتى إذا ما طلع الصبح تجمع الناس حولها لقراءتها ، وقد تضمنت هذه المنشورات مهاجمة مساوىء الحكم التركى ودعوة الشعب العربى للثورة عليه ، وقد أحدثت هذه المنشورات أثرها على سلطات الآستانة التى شددت من قبضتها حتى وجد أعضاء الجمعية أنه من الأفضل وقف نشاطهم فأحرقوا سجلاتها وهرب معظمهم إلى مصر وإذا كان من العسير تحديد تاريخ توقف نشاط الجمعية إلا أنه يمكن القول بأنها أوقفت نشاطها بين عامى ١٨٨٢ — ١٨٨٣[1] .

ومن التقارير التى كان يرسلها قنصل بريطانيا العام فى بيروت عن هذه المنشورات نستطيع أن نلم بالأهداف التى كانت تسعى جمعية بيروت السرية إلى تحقيقها ، فقد أنحت هذه المنشورات باللوم على أهل الشام لخضوعهم لحكم الترك ، ولانقسامهم وتعصبهم الذى جعلهم فريسة للأطماع الأوروبية ، وأكدت الجمعية أهمية الوحدة ، كما هاجمت الترك لفشلهم فى تنفيذ الإصلاحات التى وعدوا بها قبل عشرين عاماً . ودعا المنشور إلى منح لبنان الحكم الذاتى ، وسورية إن أمكن ،

---

(١) Ibid. p. 68 .

ويعتبر المنشور الذى أرسل قنصل بريطانيا العام صورة منه إلى حكومته فى ٣١ ديسمبر (كانون أول) ١٨٨٠ أهم هذه المنشورات لأنه تضمن تسجيلا لبرنامج الجمعية السياسى الذى اتفق أعضاؤها على تنفيذه ولو بحد السيف ، وكانت أهم عناصر هذا البرنامج :

(١) منح الاستقلال لسورية بالاتحاد مع لبنان .

(٢) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى البلاد .

(٣) إلغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبير ونشر الثقافة .

(٤) استخدام الوحدات المجندة من الأقاليم العربية محلياً داخل حدود هذه الأقاليم[1] .

ورغم هذا التقدم الذى أحرزته الحركة العربية إذ صار لها برنامج محدد فقد قوبلت منشورات جمعية بيروت بالسلبية الصامتة ، ولم تجد الوسط الملائم لأنها انتشرت فى عدد محدود من مدن الشام ولم يدر بها الجانب الأكبر من الأهلين ، وفضلا عن ذلك لم يكن هؤلاء على استعداد بعد لتقبل مثل هذه الأفكار الثورية ، وبذلك يعتبر مثل هذا النشاط سابقاً لأوانه لأنه كان يتطلب وعياً قومياً متقدماً ، ومع ذلك فإنه إذا كان لم يقدر لهذه الحركة النجاح فإنها على كل حال قد حددت الرغبات والأمانى التى كانت تجيش فى الصدور ، وبذلك تعتبر خطوة إلى الأمام فى طريق الحركة القومية وأول تعبير عن الأهداف السياسية إذ دعت إلى فكرة الدولة الوطنية الحديثة المستقلة سياسيا والقائمة على أساس قومى[2] .

وفى برنامج جمعية بيروت السرية اقتصرت الحدود التى طلب لها الاستقلال

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp. 83 — 4 .

(٢) Ibid pp. 84 — 6 .

على سورية ولبنان ، إلا أن هذه الحدود ستنمو تدريجياً لتشمل فى برنامج العربية الفتاة كل الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ممتدة من وادى دجلة والفرات إلى خليج السويس ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان[1].

وفى الفترة ما بين عام ١٨٨٠ ونشوب الثورة فى الحجاز عام ١٩١٦ كانت الحركة القومية العربية تبدو ساكنة فى الظاهر ليس فقط بسبب رقابة عبد الحميد وجواسيسه وشدة وطأة حكمه التى أدت إلى هجرة كثير من الشخصيات القيادية ، ولكن أيضا بسبب عوامل أخرى أضعفت الحركة إلى حد ما ، منها سياسة عبد الحميد إزاء العرب ، وكذلك نمو التعليم الغربى وازدياد سلطة رجال الدين .

أما سياسة عبد الحميد إزاء العرب فقد سبقت الإشارة إليها وهى إن لم تعرقل نمو الحركة القومية إلا أنها حدت من قوتها وذلك عن طريق (الترغيب والترهيب) ، وقد كانت هذه السياسة متبعة فى الشام بوضوح أكثر من غيرها من الأقطار العربية لأنها كانت مهد الحركة العربية ، أو لأنها كانت أكثر بلاد الشرق العربى الآسيوى تقدماً ، علاوة على أنها كانت مفتاح هذه الأقاليم من الناحية الجغرافية .

مساوىء التعليم الغربى :

ولقد شهد عهد السلطان عبد الحميد الثانى ظاهرة كان لها أثرها على الحركة القومية العربية ألا وهى ظاهرة اتساع نطاق التعليم الغربى فى الشام تحت إشراف البعثات التبشيرية . إلا أننا يجب ألا نغرق فى تمجيد الدور الذى لعبته هذه البعثات ، فإنه على الرغم من أن التعليم كان عاملا قويا فى يقظة بعض أقطار المشرق العربى والارتفاع بالمستوى الثقافى ، إلا أن الدور الذى لعبه تعليم

---

(١) Saab : ouv. Cit. pp. 207 — 8.

المبشرين في تنوير شباب العرب سياسيا وقوميا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان مبالغا فيه . بل وكانت له آثاره الخطيرة في إقليم مثل الشام كان فريسة الخلافات الداخلية والانقسامات المذهبية .

ذلك أن البعثات التبشيرية الكثيرة التي جاءت إلى الشرق كان هدفها نشر العقيدة المسيحية بين المسلمين ، كما كانت تحدوها الرغبة في تحويل المسيحيين من الطوائف والمذاهب الأخرى إلى طائفتها ومذهبها ، فالمدارس كانت أولا وقبل كل شيء مسيحية ذات مذهب خاص ، وقد ساعد هذا على اندلاع نيران التنافس المذهبي الذي وصل إلى حد العداء ، بدرجة صار معها تدخل القناصل ضروريا للحيلولة دون وقوع مشاكل سياسية .

كما أن البعثات التبشيرية لم تكن تقتصر نشاطها على المجال الديني ، فإنها لما كانت تنتمي إلى دول أوروبية مسيحية كبرى تبدي نحو الشرق اهتماما خاصاً فقد اعتبرت هذه البعثات ومؤسساتها أن واجبها تدعيم المكانة السياسية للدولة التي تنتسي إليها والتي تساند هذه البعثات مادياً وأدبياً ، ولذلك فان هذه البعثات التبشيرية صارت أداة لتحقيق أطماع سياسية مستعينة بالأقليات الدينية وجعلت البلاد مسرحا للتنافس الدولي ، فالحكومة الفرنسية كانت تمد العون إلى البعثات الفرنسية الكاثوليكية وشجعتها على احتضان الموارنة، وقامت مدارس البعثات الفرنسية الكاثوليكية هذه والتي يشرف عليها ويديرها المبشرون الجزويت بتلقين الجيل الصاعد تعليما ـ رغم كفايته ـ إلا أنه كان يهدف إلى طبع العقول بطابع فرنسي وجعل ولائهم الفكري يتجه نحو فرنسا ، وغرس حب فرنسا في قلوب التلاميذ العرب ، كما سعى الروس عن طريق بعثتهم التبشيرية إلى التأثير على الأرثوذكس لأغراض مماثلة لأغراض فرنسا ، كما ساند الإنجليز - عن طريق سلطاتهم القنصلية ـ الدروز لكي يعتبروا بريطانيا حاميتهم ، أما الأمريكيون فقد خلقوا الطائفة البروتستانتية الجديدة التي

أضافت عنصراً جديداً زاد من الانقسام الذى كان موجودا من قبل .

وهكذا لم يكن تقدم التعليم الغربى نعمة كله ، فرغم أنه ارتفع بالمستوى الثقافى فى الشام إلا أنه كان له ضرره إذ وسع شقة الخلاف المذهبى وأضاف عقبة كبيرة من أهم العقبات التى وقفت فى وجه النمو القومى ، فقد صار التعليم أداة للتغلغل السياسى الأجنبى كما أنه ساعد على ازدياد النفوذ السياسى لرجال الدين ، وفى هذا المجال كان التعليم يفسد عمل المصلحين العرب من جيل البستانى الذين وقفوا ضد الخلافات المذهبية وأطماع رجال الدين السياسية، وقد كان هذا كله يفت فى عضد الحركة القومية العربية(١) .

إلا أنه كان من نتائج انتشار التعليم الغربى أن انتقل زمام قيادة الحركة العربية من أيدى المسيحيين إلى المسلمين نتيجة تهجم الثقافة الأجنبية على اللغة العربية ، فإن نشاط المدارس والكليات الأجنبية أدى إلى تعليم التلاميذ اللغة الأجنبية الخاصة بالدولة التى تنتمى إليها كل مدرسة وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب اللغة العربية ، تحقيقاً لأهدافهم السياسية ، وحتى الأمريكيون الذين كانوا رواداً فى إحياء المراجع العربية لجأوا إلى هذه الطريقة وفى عام ١٨٨٠ صارت اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى الكلية السورية ، وبمرور الوقت نشأ جيل يحذق الإنجليزية أو الروسية أو الفرنسية أكثر مما يحذق العربية(٢) .

وقد كان لهذه الظاهرة أثرها الحاسم على مستقبل الحركة القومية ، فإن مرتادى المدارس الأجنبية كانوا فى الغالب من المسيحيين لأن أغلبية

---

(١) Antonius : Ouv Cit. P. 93

(٢) Ibid pp. 93 - 44.

المسلمين – خشية التبشير – كانوا يفضلون إرسال أبنائهم إلى مدارس أقل مستوى ولكنها مدارس دينية ، ورغم أن التعليم الذى كان يتلقاه تلاميذ المدارس الأجنبية كان أرفع مستوى من الناحية العلمية إلا أنه أضعف التأثير العربي على عقولهم وأبعدهم عن النبع الذى يغذى الحركة القومية العربية ، وبابتعاد المسلمين عن المدارس الأجنبية ظلوا شديدى الصلة بحياتهم التقليدية ومقومات شخصيتهم القومية ، حتى عند التحاقهم بالكليات التركية ، حقا لقد كان التعليم الذى يتلقونه أضيق نطاقا ولكن لغته كانت العربية ، وكان لهذا أثره من وجهة النظر القومية ، فإنه إذا كان العرب المسيحيون الذين تعلموا فى المدارس التبشيرية الأجنبية قد دفعوا بالقومية العربية إلى الأمام واتجهوا نحو الانفصال عن الدولة العثمانية متأثرين بهذه المؤثرات الأجنبية أو بتأثير وعى قومى عربى حقيقى أو بعداء المسيحيين للامبراطورية العثمانية باعتبارها دولة إسلامية[1] ، فإن هؤلاء العرب المسيحيين لم يستطيعوا قيادة حركة قومية شاملة تضم العرب جميعاً وأغلبيتهم مسلمون ولم يستطيعوا قيادة حركة ثورية تهدف إلى تحرير العرب من نير السلطان العثمانى المسلم الذى كان خليفة على المسلمين فى الوقت نفسه . وقرب نهاية القرن التاسع عشر فقط عندما انتشر التعليم بين العرب المسلمين أصبح منهم قادة متحمسين للحركة القومية العربية ، بدأت الحركة تأخذ طابعها السياسى القومى الحقيقى ، فان المسيحيين كانوا يتطلعون إلى هذه أو تلك من الدول الأوربية لتخليصهم ليس فقط من الحكم التركى ولكن كذلك من سيطرة مواطنيهم المسلمين ، وكانوا بتأثير الأفكار الغربية يخشون الاستقلال تحت سيطرة المسلمين ، وكانت الدول الأوربية تسعى لاحتضان الحركة القومية العربية لتستخدمها فى تحقيق أغراضها الخاصة ، بمحاولة الاتفاق مع الوطنيين العرب وخاصة المسيحيين[2] .

---

(١) Saab : Ouv. Cit. PP. 201 – 6.

(٢) Yale : The Near East. PP. 196 – 7.

وإذا كان طغيان عبد الحميد لم يسمح للحركة القومية العربية بالتعبير عن ذاتها إلا أن الحركة أخذت تعمل سراً داخل الإمبراطورية ، أو صراحة فى مصر والعواصم الأوروبية حيث التجأت العناصر القومية والدستورية للتعبير عن أمانيها ولتنظيم نشاطها بعيداً عن متناول عبد الحميد وبطشه .

وقد كانت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر حاقدة على عبد الحميد لسياسته الإسلامية ولاتجاهه نحو التحالف مع ألمانيا ، ولذلك رحبت بالفارين من وجه طغيانه سواء من العرب أو من الترك[١] .

ولذلك قامت جمعيات سرية هدفها العمل من أجل إدخال الإصلاحات فى الأقطار العربية وفى بعض الأحوال تحرير العرب من الحكم التركى أو أى سيطرة أجنبية ، وقد وفد على القاهرة والاسكندرية كثير من الوطنيين العرب حيث مارسوا نشاطهم بحرية ، وفى عام ١٨٩٧ أنشأ الزعماء العرب جمعية سياسية ظهرت تحت اسم جمعية الشورى العثمانية وكان من مؤسسيها السيد محمد رشيد رضا ورفيق العظم واشترك فيها وطنيون آخرون من الامبراطورية ، وكان هدفها معارضة استبداد عبد الحميد وحكمه الجائر ، ومحاولة تغيير شكل الحكومة إلى النظام النيابى ، وكان للجمعية فروع فى أنحاء الامبراطورية وكانت منشوراتها تطبع بالعربية والتركية وترسل مع المسافرين وبحارة السفن الروسية إلى الموانى التركية على البحر الأسود ومنها توزع فى الأناضول . وقد حلت الجمعية نفسها بعد وصول تركيا الفتاة إلى الحكم عام ١٩٠٨[٢] .

وإن اشتراك قوميات مختلفة منها الترك أنفسهم فى هذه الجمعية ، والهدف

---

(١) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٥٠ .

(٢) Zeine Ouv. Cit p. 67

الذى كانت تسعى إليه ، ثم اختفاؤها بعد وصول تركيا الفتاة إلى الحكم ليدل على أن العرب فى هذا العمل لم يكونوا مدفوعين بدافع قومى صرف بل انحصر هدفهم فى تغيير الحكومة مع الاستمرار فى الارتباط بالامبراطورية ، وكان هذا هو طابع هذه المرحلة من كفاح العرب .

الكواكبى :

ومن العلامات المميزة فى طريق التطور القومى كان عبدالرحمن الكواكبى، الحلبى المولد ، والذى غادر الشام عام ١٨٩٨ إلى مصر حتى عام ١٩٠٤ فراراً من طغيان عبد الحميد .

وكان الكواكبى يكره من أعماق قلبه الظلم والاضطهاد ، كما كان يؤمن إيماناً عميقاً بمستقبل الإسلام والعنصر العربى ، وقد عبر عن هذه الآراء فى كتابيه (طبائع الاستبداد) و (أم القرى) .

وفى (طبائع الاستبداد) - وهو مجموعة من المقالات كان قد نشرها فى الصحف المصرية — عرض لأسباب الاستبداد وآثاره ، ورغم أنه لم يذكر مستبداً معيناً ، إلا أن القارىء يلمح من خلال كتاباته صورة عبد الحميد .

أما فى (أم القرى) فقد حلل مفاسد الدولة العثمانية وانتقد إدارتها المركزية وأنكر على السلاطين تلقبهم بألقاب الخلافة ، ولذلك فقد دعا إلى إقامة خليفة عربى فى مكة . وقد شرح الكواكبى فى (المنار) بين عامى ١٩٠٢ — ١٩٠٣ الدواء الذى كان يرى فيه علاج مشاكل العالم الإسلامى ، ورغم أنه نادى — شأنه شأن جمال الدين — بجمع المسلمين بين مراكش والصين فى نظام اتحادى واحد كالجامعة الإسلامية إلا أن دعوته انطوت على تطور قومى عربى فقد أخذ يشيد بفضل العرب ويعلن حقوقهم المهضومة ، ويرى أن النهوض الدينى يجب أن يتم على أيديهم ، وبذلك فإنه رغم أن نشاطه

كان لايزال داخل إطار الوحدة الإسلامية إلا أنه ميز تمييزاً واضحاً بين المسلمين العرب وغير العرب(١) . ودعا إلى الفصل إدارياً بين الترك والعرب باتباع نظام لامركزى فى الإدارة ، وبينما كان جمال الدين يدعو إلى توحيد العالم الإسلامى تحت أى خليفة كان الكواكبى ينادى بإقامة خليفة عربى فى مكة ، وليس معنى ذلك أنه كان يدعو إلى تعصب دينى أو جنسى بل على العكس كان يدعو إلى نبذ الخلافات الطائفية والحصول على الاستقلال الإدارى لكل القوميات الداخلة فى الامبراطورية العثمانية ، ولذلك فقد كان له أصدقاء من المسلمين والمسيحيين واليهود وكان دائماً يعلن أن الوطنية تسمو على الخلافات المذهبية .

وإذا كان الكواكبى لم يستطع أن يذهب إلى أكثر من القول بإقامة خلافة عربية محل الخلافة العثمانية . فإن ذلك على أيام الكواكبى وفى ظل الظروف التى كان يعيش فيها يعتبر خطوة جريئة فى برنامجه للإصلاح الدينى والسياسى وثورة على النظم القائمة(٢) .

وإلى جانب ذلك فقد ظهرت فى بعض العواصم الأوربية صحف تعبر عن مطالب العرب مثل (الاتحاد العربى) التى أصدرها دكتور لويس صابونجى فى لندن عام ١٨٨١ و (البصير) التى أصدرها خليل غانم فى باريس عام ١٨٠٢(٣) ولا نستطيع أن نغفل صحيفة (لسان الحال) التى تعتبر من أكثر الصحف العربية تبكيراً فى الظهور فى بيروت يحررها خليل سركيس وتضمنت خلال عام ١٨٧٨ الكثير من المقالات عن الإصلاحات المطلوبة فى لبنان والشرق الأدنى .

---

(١) Zeine : Ouv, Cit, p. 60,

(٢) Saab : Ouv. Cit pp. 202—5

حاطوم : مرجع سبق ذكره ص ١٤ — ١٥

(٣) Saab : Ouv. Cit p. 208.

وهنا تجب الإشارة إلى أنه كان هنـاك بين الكتاب المسيحيين بعض المعتدلين الذين ـ رغم كراهيتهم للحكم العثمانى والإدارة العثمانية ـ فانهم لم يرغبوا فى تحطيم الإمبراطورية العثمانية ، ومن بين هؤلاء سليم تقلا مؤسس الأهرام وفارس نمر صاحب ومحرر المقطم وجورجى زيدان مؤسس الهلال ، وفرح أنطون صاحب ومحرر (الجمعية العثمانية) والشاعر خليل مطران [١] .

نجيب عازورى :

ومن مظاهر الدعوة السياسية فى عهد عبد الحميد تلك الحملة التى قام بها نجيب عازورى ، وهو عربى مسيحى ، تولى منصب نائب متصرف القدس بين عامى ١٨٩٩ ، ١٩٠٤ ثم اختلف مع رئيسه كاظم بك متصرف القدس بسبب سوء الإدارة العثمانية فاستقال ، وقام بجولة فى مدن الشام لمدة شهرين بعد استقالته ، ودعا إلى إنشاء حزب سياسى جديد أسماه رابطة الوطن العربى . إلا أن نشاطه أقلق السلطات التركية ولذلك سارع بالهجرة من الشام إلى فرنسا ثم إلى القاهرة حيث أقام إلى أن توفى عام ١٩١٦ .

وقد أسس (عازورى) عام ١٩٠٤ رابطة الوطن العربى بالاشتراك مع يوجين يونج (أحد موظفى مصلحة الاستعمار الفرنسى السابقين)(٢) وغايتها تحرير الشام من سيطرة الترك ووجهت هذه الرابطة نداءات إلى العرب تحضهم على الثورة ، وفى عام ١٩٠٥ نشر (عازورى) كتاباً بعنوان : يقظة الأمة العربية أمام مصالح ومنافسات الدول الأجنبية Reveil de la Nation Arabe en Presence des interets et des Rivalites des Puissances Etrangeres. وفيه أعرب عن رأيه فى وجود أمة عربية تضم المسلمين والمسيحين، ودعا إلى

---

(١) Zeine : Opv Cit. pp. 58—60

(٢ ايرلاند / خياط : العراق دراسة فى تطوره السياسى (١٩٤٠) ص ١٦٩

استقلال هذه الدولة التي كانت حدودها ـ في رأيه ـ تضم البلاد العربية الآسيوية بحيث تظل مصر وشمال أفريقية خارجها . وقد هاجم (عازوري) الطائفية في كتابه ، واعتبرها شراً يهدم الحركات القومية من أساسها واعتبر أن المشاكل الدينية التي تنشأ بين مختلف الطوائف ما هي إلا مشاكل سياسية تثيرها الدول الأجنبية في سبيل منافعها الخاصة ، وأن المسيحيين ليسوا أقل عروبة من المسلمين[١] ودعا (عازوري) إلى إنشاء دولتين : دولة دينية على غرار الفاتيكان على أن تكون دولة عربية إسلامية مستقلة، تقوم في الحجاز وتكون عاصمتها مكة وتحكمها أسرة عربية ويلقب حاكمها بالخليفة ويباشر سلطة روحية على جميع المسلمين في كافة أنحاء الأرض ، على أن يكون نفوذه السياسي مقصوراً على بلاد الحجاز .

والدولة الثانية دولة عربية علمانية تتمثل في سلطنة دستورية تضم سورية ولبنان وفلسطين (أي الشام) ويكون رئيسها أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر حتى يمكن تجنب ما قد يحدث من نزاع بين الطوائف على اختيار هذا السلطان العربي على أن تسير هذه الدولة على النظم الحضارية العصرية وتقتبس منها[٢] .

واعتبر (عازوري) هذا حلا مرضياً للجميع ، يرضى المسلمين الذين تهفو نفوسهم إلى نظام الخلافة الإسلامية الحقة بعد انتزاعها من الترك لأن العرب أحق بها منهم ، كما كان (عازوري) يرى أن هذا الحل من شأنه أن يقضي على مخاوف المسيحيين في الشام على اختلاف مذاهبهم وكذلك اليهود ، وبذلك لا تخضع العناصر المسيحية واليهودية للنظم الإسلامية في الدولة

---

(١) نور الدين حاطوم ، مرجع سبق ذكره ص ١٧ ــ ١٨ .
(٢) د . الشناوي : مرجع سبق ذكره ص ٣٠ ــ ٣١ .

العربية الجديدة التى كان يرى قصرها على الشام فلا تضم العراق أو مصر لأنه كان يخشى قيام وحدة سياسية أكبر فيتحول مسيحيو الشام فيها إلى أقلية .

وهكذا أظهر (عازورى) أن له نزعة إقليمية سورية رغم أنه ندد أكثر من مرة بالطائفية وأخطارها على الوحدة العربية .

وكان (عازورى) قد قدم مذكرة إلى الدول الكبرى عام ١٩٠٥ ونشرها فى صدر كتابه قال فيها إن القومية العربية حقيقة واقعة ، وإن الوعى العربى قد انتشر بين العرب وهم يريدون الانفصال عن آل عثمان وتأسيس دولة مستقلة ، وأعلن استعداد العرب ـ عند قيام هذه الدولة ـ لاحترام المصالح الأجنبية وجميع الامتيازات التى منحها الترك ، وكذلك احترام استقلال لبنان الداخلى والأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين والإمارات العربية فى جنوب شبه الجزيرة والخليج وأعلن أنه لا يطالب الدول الكبرى بالتدخل المسلح وإنما كل ما يريده منها تأييد الحركة بمجرد الوقوف على الحياد وتشجيع العرب بالمشاركة الوجدانية على أن يقوم العرب بتحقيق أهدافهم بأنفسهم[1] .

ولعل من أهم الأمور التى تلفت النظر أن (عازورى) نبه لأول مرة إلى المطامع الصهيونية فى فلسطين ، ولعل وجوده فى متصرفية القدس لمدة خمس سنوات جعله يفطن إلى هذه المسألة التى عبر عن اهتمامه بها فى كتابه (يقظة الأمة العربية) وقد وعد بإصدار كتاب مستقل عنها ولو أنه لم يفعل ، ومع ذلك فقد خصص فصلا مستقلا فى كتابه عن اليقظة العربية فى فلسطين ونعى على الحكومة العثمانية تهاونها فى منع تسلل الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ولفت الأنظار إلى أن اليهود قد شرعوا فى ذلك الوقت فى تأسيس مستعمرات زراعية لهم فى المنطقة بين الجليل والخليل والحولة[2] ، وذكر أن ثمة حادثين

(١) د . الشناوى : مرجع سبق ذكره ٣١ / ٣٢ .

(٢) د . الشناوى : مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

هامين ومن طبيعة واحدة ولكنهما متعارضان وهما يقظة الأمة العربية والجهد الخفى لإنشاء ملك إسرائيل القديم من جديد على نطاق أوسع ، وأن مصير الحركتين للقتال والصراع إلى أن تتغلب إحداهما على الأخرى وأن مصير العالم كله معلق على النتيجة النهائية لهذا الصراع[١] .

وكان (عازورى) يعتقد أن أوروبا تستطيع حماية العرب من هذا الخطر الصهيونى أكثر مما تستطيعه الدولة العثمانية . ولاحظ (عازورى) كذلك أن بعض قناصل الدول الأوربية يعملون أحياناً على تسهيل عمليات الهجرة اليهودية وقد خدعتهم الفكرة الإنسانية التى يتستر وراءها اليهود[٢] .

وإلى جانب ذلك أصدر (عازورى) فى باريس بالاشتراك مع يوجين يونج مجلة شهرية بالفرنسية اسمها الاستقلال العربى (١٩٠٧ — ١٩٠٨) هدفها تعريف الغرب بالقضية العربية[٣] .

ورغم أن حملة (عازورى) قد لفتت الأنظار فى أوروبا فى ذلك الوقت إلا أنها فيما يختص بالحركة القومية العربية كان تأثيرها لا يكاد يذكر فقد توقف صدور مجلة (الاستقلال العربى) عندما صدر الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ ، كما كانت حركته ونشاطه بعيدين عن الجو العربى فلم تنتشر فيه ، كما أنه بصرف النظر عن هذه الكتابات فإن حملة (عازورى) كانت صادرة من عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية فلم تصل إلى قلب الحركة[٤] .

---

(١) نور الدين حاطوم : مرجع سبق ذكره ص ١٨ .

Yale : The Near East, p. 197.

(٢) د . الشناوى : سبق ذكره ص ٣٣ .

(٣) وقد صدر العدد الأول منها فى أبريل (نيسان) ١٩٠٧ والعدد الأخير فى سبتمبر (أيلول) ١٩٠٨ وفيه ذكر عازورى أن جميع ما يسعى إليه العرب سوف يتم تحقيقه على أيدى جماعة الاتحاد والترقى وبذلك انتهى دوره من أجل القضية العربية .

إيرلاند / خياط : العراق : دراسة فى تطوره السياسى ص ١٦٩/١٧٠ .

(٤) نور الدين حاطوم : مرجع سبق ذكره ص ١٨ .

بل إن أنطونيوس يعتبر نشاط (عازورى) مثلا على ما ترتب على التعليم الأجنبى من انحراف بعض دعاة الثورة العربية عن منبعها الأصيل .

مركز مصر فى الحركة العربية :

وفى الوقت نفسه هاجر عدد من السوريين واللبنانيين إلى القاهرة هرباً من طغيان عبد الحميد ، حيث صاروا رواد نهضة صحفية أدبية ، وكان كثير منهم من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، ومن أبرزهم جورجى زيدان ودكتور شبلى شميل ودكتور يعقوب صروف مؤسس المقتطف وهى أول مجلة علمية حديثة باللغة العربية . هذا على الرغم مما يذهب إليه البعض من أن مصر فى هذه الفترة من حكم عبد الحميد قد حادت عن طريق الحركة العربية واتبعت سياسة وطنية خاصة بسبب الحوادث التى وقعت فيها والتى انتهت بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، وأنه بعد أن كانت الحركة الفكرية فى مصر تسير جنباً إلى جنب مع الحركة الفكرية فى الشام صار لمصر طابع مصرى صرف كان أول وأهم أهدافه إخراج الاحتلال البريطانى من البلاد وبذلك ولدت القومية المصرية واتخذت طريقاً يختلف عن الحركة العربية العامة [١] .

ولا شك أن مرد ذلك يرجع إلى تلك العزلة النسبية التى دخلت فيها مصر منذ فشل محمد على فى بناء دولة عربية فى الشام وشبه الجزيرة ، وكان محمد على وخلفاؤه يعملون على الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وقد حققوا فى هذا المجال قدراً كبيراً من النجاح فاكتسبت مصر شخصية مستقلة عن بقية أجزاء الدولة العثمانية مما أدى إلى انعزالها عن بقية أجزاء الدولة فى الشرق العربى الذى كان خاضعاً للحكم العثمانى المباشر ، خصوصاً وأنه بعد ذلك اتجهت مصر نحو أفريقية وظلت الوحدة السياسية بين مصر والسودان مركز الثقل فى سياسة

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. p. 99

ونشاط الخديو بل ونشاط الحركة الوطنية المصرية ، فساعد هذا بدوره على انصراف مصر عن الشرق العربى بقضاياه ومشاكله . ثم حدث الاحتلال البريطانى لمصر فزاد من عزلتها عن الشرق العربى إذ أن هذا الاحتلال جعل قضية مصر تختلف موضوعياً عن قضية الشرق العربى ، فبينما كانت الحركة الوطنية فى مصر تكافح ضد السيطرة الأوربية وتتطلع إلى تأييد ومساعدة الدولة العثمانية كانت الشعوب العربية فى الشرق العربى تكافح فى سبيل تحررها من السيطرة العثمانية وتتطلع إلى تأييد الدول الأوربية ، فأعداء مصر كانوا حلفاء الحركة القومية فى الشرق العربى وأعداء هذه حلفاء لمصر (١) .

ومع ذلك فلم يكن وفود هؤلاء الكتاب إلى مصر يرجع إلى ما كانت تتمتع به مصر فى ظل الاحتلال البريطانى من حرية فكرية كما يقول البعض (٢) وإنما كان ترحيب سلطات الاحتلال فى مصر بهؤلاء الناقمين على حكم عبدالحميد إنما يرجع إلى نقمة بريطانيا على سياسته الإسلامية التى جعلت المسلمين حتى فى مستعمراتها يلتفون حول الخلافة ، يضاف إلى ذلك تطلع الوطنيين المصريين إلى الدولة العثمانية فى كفاحهم ضد بريطانيا ، علاوة على فتح أبواب الدولة العثمانية أمام النفوذ الألمانى .

ومهما يكن من أمر فإنه بسبب وجود الأزهر ، وتخرج عدد كبير من المصريين من جامعات فرنسا ، وإقامة بعض المفكرين السوريين واللبنانيين فيها وتأثير جمال الدين الأفغانى وتلامذته مثل محمد عبده ومحمد رشيد رضا ، أخذت مصر تحتل مكانا قياديا ثقافيا على الصعيدين العربى والإسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر (٣) .

---

(١) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٦٨ — ٩ .

(٢) Saab : Ouv. Cit. pp. 209 — 210

(٣) Ibid.

وعلى الرغم من النقد الشديد الذى يوجه إلى عبد الحميد وعهده من جانب الكثيرين وبخاصة الأحرار ، لما شهده عهده من مصارع الحرية ، وتعقب الأحرار من أنصار الحكم الدستورى ، فنى تصورى أن السلطان عبد الحميد الثانى تعرض لحملة قاسية من النقد .

فإنه إذا كان عهد السلطان عبد الحميد يوصم بالاستبداد فإن الاستبداد فى عهده كان امتداداً للاستبداد طوال العهد العثمانى ، وإن كان العرب قد أحسوا بالاستبداد فى عهده أكثر من أى وقت مضى بسبب نمو الوعى القومى العربى . بل إنه ليمكن القول بأن ظروف الدولة فى عهد عبد الحميد سواء فى الداخل حيث انتشرت الحركات الانفصالية واشتد ساعدها عن ذى قبل ، أو فى الخارج حيث اشتدت أطماع الدول الأوربية فى ممتلكات الدولة العثمانية ، هذه الظروف جميعاً كان من شأنها أن تؤدى إلى انهيار الدولة من أساسها ، وإذا أراد حاكم لدولته البقاء وإنقاذها من مثل هذه الظروف فلابد وأن يلجأ إلى تقوية قبضته وتدعيم حكمه .

بل إننا نستطيع أن نقول إن عهد السلطان عبد الحميد لم يكن أشد استبداداً وطغياناً من عهد الدستوريين الذين جاءوا بعده فى حكم الدولة بعد أن عصفوا بحكمه (الاستبدادى) وصاروا يحكمون باسم الدستور حكما كان أشد استبداداً وتعنتاً وطغياناً من حكم عبد الحميد كما سنرى عند الكلام عن عهد الاتحاديين . وليس معنى ذلك نفى صفة الاستبداد عن عبد الحميد والدليل على استبداده هجرة المفكرين العرب من قبضته .

ولكن عهد عبد الحميد يستحق كلمة حق وإنصاف ، على الأقل بسبب موقفه من مسألتين كان لهما أعمق الأثر على الدولة العثمانية عامة والشرق العربى بل والعالم العربى كله على وجه الخصوص ، وأولهما أنه على الرغم من توثق العلاقات بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الألمانية فى عهد عبد الحميد فإن

ألمانيا لم تستطع أن تجره إلى إبرام معاهدة كتلك التى أبرمها معها الاتحاديون فيما بعدفى عام ١٩١٤، وكانت سبباً فى تورط الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى ، تلك الحرب التى كانت فرصة استغلتها الدول الأوروبية للسيطرة على ما تبقى من أقطار الشرق العربى .

موقف عبد الحميد من الصهيونية :

وثانيهما موقف السلطان عبد الحميد من الأطماع الصهيونية فى فلسطين ، ذلك الموقف الذى تجلى فى أكثر من مناسبة فى أثناء عهده ، فإنه عندما ساءت أحوال اليهود فى روسيا طلبت بعض الشخصيات اليهودية وأعضاء حركة أحباء صهيون من القنصل العثمانى العام فى أودسا منحهم تصريحات لدخول فلسطين والاستقرار فيها ، وبعد أن اتصل القنصل العثمانى بحكومته تلقى منها رداً علقه على شكل إعلان خارج مكتبه فى ٢٨ أبريل (نيسان) عام ١٨٨٢ وجاء فيه أن الحكومة العثمانية تبلغ جميع اليهود الراغبين فى الهجرة إلى الدولة بأنه من غير المسموح لهم الاستقرار فى فلسطين ، ولكنهم يستطيعون الانتقال إلى الأقاليم الأخرى فى الامبراطورية العثمانية حيث يمكنهم الإقامة شريطة أن يصيروا رعايا عثمانيين ،وأن يقبلوا الالتزام بتنفيذ القوانين المعمول بها فى الإمبراطورية العثمانية .

ولقد صدم اليهود لهذا القرار ، واتجهت وفود منهم إلى الآستانة فى مايو (أيار) ويونيو (حزيران) ١٨٨٢ . للتأكد من أن هذا الإعلان يتفق وسياسة حكومة الباب العالى إزاء الهجرة اليهودية ، وعن طريق معونة السفير الأمريكى لدى الباب العالى ومساعدة بعض كبار الشخصيات اليهودية فى العاصمة التركية أمكن لهذه الوفود الاتصال بوزيرى الحربية والداخلية ، وفى الثانى عشر من يونيو (حزيران) تحدث السفير الأمريكى ـ نيابة عن الوفد الرومانى ـ مع وزير الخارجية التركى الذى أبلغ السفير بأنه يمكن لهؤلاء اليهود

الاستيطان بشرط ألا يستقروا داخل حدود فلسطين[١] وكان هذا تأكيداً للإعلان الذى ظهر فى أبريل (نيسان) خارج القنصلية التركية فى أودسا .

ومع ذلك ، فإنه فى ٢٩ يونيو (حزيران) ١٨٨٢ ، أبحر بعض هؤلاء اليهود المتجمعين فى الآستانة فى طريقهم إلى يافا . وفى اليوم نفسه تلقى متصرف القدس برقية من حكومته تأمره بألا يسمح لأى يهودى من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن تطأ قدماه أرض فلسطين ، كما اتخذت إجراءات المنع ذاتها فى اللاذقية وبيروت وحيفا ، وبعد ستة أشهر أخطرت البعثات الدبلوماسية لدى الباب العالى رسمياً بقرار مجلس الوزراء العثمانى بمنع استيطان واستقرار اليهود الروس فى فلسطين[٢] .

وفى عام ١٨٨٤ صدرت تعليمات أخرى من الحكومة العثمانية اشترطت فيها من أجل السماح لليهود بدخول فلسطين ـ ألا تزيد مدة إقامتهم على ثلاثين يوماً ، وعندما احتجت الدول فى عام ١٨٨٧ على هذه القيود أطال الباب العالى الفترة المسموح بها للحجاج اليهود للاقامة فى فلسطين إلى ثلاثة شهور .

ومما ساعد على تطبيق هذه القيود بدقة كبيرة إلى حد ما أنه كان يتولى متصرفية القدس فى ذلك الحين محمد شريف رءوف باشا الذى كان يؤيد سياسة حكومته فى منع اليهود من الإقامة فى فلسطين ، وكان يسارع إلى طرد الحجاج اليهود من فلسطين بالقوة بمجرد انقضاء المدة المسموح بها لهم ، كما كان يمنع ـ بقدر استطاعته ـ بيع الأراضى لليهود .

---

(١) U, S, (Dept. of State), Papers relating to the Foriegn Affairs of the U S, 1882 (Washington 1883), p, 518, enclosure to no. 107 (13, 6. 1882), Ambssador Lewis Wallace to Sa.d Pacha.

(٢) Public Record Office, F. O. 78/3506, enclosure to no, 48 (22. 1, 1883); « Notification Officieille »,

ومع ذلك فقد استطاع بعض اليهود النفاذ إلى فلسطين عن طريق مساعدة القناصل الأوروبيين في فلسطين ، علاوة على قبول مساعدي المتصرفين الرشوة، كما أن اليهود لم يعدموا الوسيلة للتحايل على القانون .

ولما كان العرب في فلسطين قد فطنوا إلى الخطر الذي يتهددهم ويتهدد مستقبلهم نتيجة هذا التسلل اليهودي الصهيوني إلى بلادهم ، فقد أرسل بعض أعيان القدس في ٢٤ يونيو (حزيران) ١٨٩١ عريضة إلى سلطات الآستانة، يطلبون فيها اتخاذ إجراءات فعالة كفيلة بمنع دخول اليهود الأجانب وشرائهم الأرض ، بعد أن لاحظ العرب أن القيود المفروضة على اليهود الأجانب قد خفت بعد أن ترك رءوف باشا القدس عام ١٨٨٩ ، ولذلك استجابت الحكومة العثمانية لهذا النداء وجددت القيود[١] . وبعد عام صدر قانون يحرم بيع أراضي الحكومة إلى كل اليهود بما فيهم الرعايا العثمانيون منهم[٢] .

وعندما اتضحت معالم الحركة الصهيونية وأهدافها الحقيقية بعد ظهور هرتزل وتوليه زعامتها ، اتجه هرتزل - وهو يسعى من أجل الحصول على تأييد الدول لمخططاته في فلسطين - شطر ألمانيا صديقة الدولة العثمانية ، وعلى الرغم من أن بعض الألمان كانوا يدعون الحكومة العثمانية إلى عدم وضع أية عقبات في طريق الصهيونية من أجل الاستفادة من هجرة اليهود ونجاحهم كمستعمرين في تقوية الدولة العثمانية[٣] ، فإن التجاء هرتزل إلى القيصر الألماني

---

(١) Public Record Office 195/1727 no; 25 (16, 7, 1891), J. Dickson (Jerusalem) to E. Fane (Constantinople).

(٢) Ibid 195/1765 no. 35 (30. 12. 1892). J. Dickson (Jerusalem) to Sir Francis Clare — Ford (Constantinople),

(٣) Campbell : Report on Zionism p. 1603 (National Archives ; Washington).

لم يأت بفائدة ، وعندئذ قرر الزعيم الصهيوني الاتصال مباشرة بالسلطان العثماني . وكان هرتزل يحلم بمساومة ، فلوح للترك بمعونة مالية يهودية تنقذهم من الأزمه المالية مقابل أن يصدر السلطان تصريحاً لشركة أراض يهودية للاستيطان وتطوير الزراعة في فلسطين حتى يمكن إقامة جمهورية أرستقراطية في فلسطين على نمط جمهورية البندقية [٢] وفي يونيو ١٨٩٦ كان السلطان عبدالحميد قد أبلغ هرتزل بطريق غير مباشر أن الامبراطورية العثمانية « ليست ملكاً لي ولكنها ملك للشعب ولا أستطيع التنازل عن أي جزء منها ، فدع اليهود يوفرون ملايينهم ، وإذا قسمت إمبراطوريتي فإنهم يستطيعون الحصول على فلسطين بدون مقابل ، ولكن على أشلائنا ، ولن أوافق على تمزيق أوصالنا [٣] » .

وقد قابل (هرتزل) السلطان عبد الحميد عام ١٩٠١ وتكرر اللقاء عام ١٩٠٢ وقد اختلفت الروايات حول نتيجة الاجتماع ، فذهب البعض إلى أن عبد الحميد وافق على بيع جزء من فلسطين مقابل خمسين مليون فرنك من الذهب لم يتمكن اليهود من جمعها ، بينما يذهب البعض الاخر إلى أن عبدالحميد رغم إظهار عطفه على اليهود رفض عرض هرتزل ، وأنه عرض تهجير اليهود في مناطق مبعثرة بالأناضول والعراق وليس في فلسطين وبشرط اكتسابهم الجنسية العثمانية . ولم يسمح بالهجرة على نطاق واسع ، فقد كان يعلم تماماً حقيقة أهداف الصهيونية التي كانت قد أعلنتها في مؤتمرها الأول قبل سنوات قلائل ، وكان عبد الحميد يفرق بين الصهيونيين واليهود كرعايا عثمانيين ، وكان في أثناء محادثاته مع هرتزل يرى أن المستعمرات الصهيونية في فلسطين سوف

---

(٢) Barbour: Ouv; Cit. pp. 45 – 48.

(٣) Patai, R. (ed.):The Complete Diaries of th. Herzl (N.Y.) 1960. 1. p. 328. entry for 19/6/1896.

تخلق أقلية جديدة تسعى إلى الاستقلال بالاستعانة بالدول الأجنبية[١] وإلى جانب ذلك فقد كان عبد الحميد يخشى غضب الرأى العام الإسلامى ، ولو أن اليهود نجحوا فى الحصول على فرمانات جزئية لشراء بعض الأراضى فى فلسطين واستغلوا ذلك فى بناء عدة مستعمرات أشرفت عليها جمعية (الكارن كايمت Keren Kayemeth L-yisrael أى الصندوق القومى اليهودى) التى أنشئت عام ١٩٠٧ وورثت مؤسسة البيكا [٢] وعلى كل حال فقد باءت مفاوضات هرتزل بالفشل وأيقن أن الترك لن يسمحوا أبداً بهجرة جماعية إلى فلسطين ، رغم محاولة هرتزل الالتجاء إلى وسائل ملتوية بعد ذلك إذ أنه وقد علم بعدم رضا السلطان عن الطلبة العثمانيين الذين يتلقون العلم فى أوروبا ويعودون بأفكار تحررية كتب رسالة خاصة إلى السلطان يطلب السماح له بإنشاء جامعة يهودية فى القدس لتغنى عن إيفاد الطلبة العثمانيين إلى الخارج حيث يستطيعون تلقى أرقى أنواع التعليم تحت إشراف السلطات والقوانين العثمانية ، إلا أنه لم يتلق رداً على خطابه [٣] .

من العرض السابق للنشاط القومى العربى فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى أى فى أواخر القرن التاسع عشر ، يلاحظ أنه إذا كانت اليقظة العربية قد بدأت فى الوضوح فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فقد كان لا يزال يعوقها عن التقدم والازدهار عاملان · أولهما ارتباط العرب بالترك برابطة العقيدة الإسلامية ، وثانيهما هو ما كان لا يزال يراود العرب من أمل فى نجاح مساعيهم المشتركة مع أحرار الترك فى القضاء على الاستبداد الحميدى وإرساء

---

(١) Yale : Ouv. Cit, p, 146.

(٢) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ص ٢٣ .

(٣) Barbour : Ouv. Cit. pp, 48 — 9.

قواعد حكومة دستورية يجد فيها العرب والترك على السواء أمانا من الظلم والاستبداد ، وضمانا لحقوقهم فى الدولة ، فقد كان أقصى ما يصبو إليه العرب فى ذلك الوقت ، لا الاستقلال والانفصال عن الدولة ، ولكن إدخال الإصلاحات العامة فى إدارة الدولة بما يكفل لهم الحياة كعرب لهم شخصيتهم داخل الدولة العثمانية .

الباب الثالث

عهد الاتحاديين

١٩٠٨ — ١٩١٤

الفصل السادس : مرحلة الوفاق العربي التركي .

الفصل السابع : مرحلة النفور العربي التركي .

الفصل الثامن : الجمعيات العربية في الشام والعراق .

الفصل التاسع : الأحوال في شبه الجزيرة العربية .

الفصل السادس

مرحلة الوفاق العربي التركي

حركة تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ :

لم يكن الفرار من طغيان عبد الحميد واستبداده مقصوراً على أحرار العرب بل شمل الكثيرين من مصلحى الترك وأحرارهم الذين فشلوا فى إقناعه بإعادة الحياة الدستورية ، فصب عليهم جام غضبه وطاردهم .

وترجع حركة تركيا الفتاة إلى عهد السلطان عبد العزيز ، وهى حركة تمثل البورجوازية التركية ، إذ كانت تتألف من الشباب التركى المثقف ثقافة أوروبية، ولم يكن هدفها تصفية الإمبراطورية ، ولكن إقامة حكم دستورى فيها ، حتى تستطيع الصمود فى وجه الأطماع الغربية ، وإرضاء القوميات الثائرة داخلها ، وكان مدحت باشا قائداً لهذه الحركة ، وبعد أن تنكر عبدالحميد للحكم الدستورى عام ١٨٧٧ تحولت حركة تركيا الفتاة إلى حركة سرية داخل البلاد وعلنية خارجها ، من أجل إعادة الدستور (المشروطية) [١] .

وفى عام ١٨٨٩ ألف بعض طلاب المدرسة الطبية العسكرية فى الآستانة جمعية سرية كانت البداية الحقيقية لحركة تركيا الفتاة ضد عبدالحميد، وانتشرت أفكارها إلى المدارس العسكرية العثمانية خاصة ، وذلك لأن التعليم العسكرى كان أنضج أنواع التعليم وأكثرها اتصالا بالثقافة الأوروبية . وعندما افتضح سر الجمعية عام ١٨٩٢ غادر بعض أعضائها البلاد إلى باريس خاصة ، هربا من انتقام عبد الحميد ، ولاستكمال دراساتهم ، ومنهم خليل غانم العربى المسيحى ، الذى أصدر فى جنيف جريدة (الهلال) ثم جريدة (تركيا الفتاة)

---

(١) رامزور : تركيا الفتاة : ترجمة صالح العلى (١٩٦٠) ص ٤٠ ـ ٤١ .

La Jeune Turquie فى باريس ، كما هاجم استبداد عبد الحميد فى الصحف الفرنسية ، ومنهم أحمد رضا الذى كان مديراً للتعليم فى بروسة وأصدر فى باريس صحيفة (مشورت) كل أسبوعين باللغة التركية مع ملحق لها باللغة الفرنسية ، وكانت تهرب إلى تركيا ذاتها عن طريق دوائر البريد الأجنبية التى كانت تتمتع بامتيازات خاصة داخل الدولة [١] .

وكان مراد بك ـ مدرس التاريخ فى الكلية المدنية ـ من أحرار الترك الذين تركوا بلادهم ، ولجأ أولا إلى مصر حيث أسس جريدة (الميزان) التى أخذت تتسرب خفية إلى الأحرار والمثقفين فى الآستانة .

وازداد عدد الترك الأحرار فى المنفى ، وخاصة بعد افتضاح أمر المؤامرة التى دبرت للاحاطة بحكم عبدالحميد عام١٨٩٦ ، وعندئذ تركز نشاط الأحرار فى باريس ، خصوصاً وأنه فى العام نفسه غادر مراد بك مصر إلى باريس بعد أن مل الإنجليز نشاطه ، وفى عام ١٨٩٩ هرب إلى باريس الداماد محمود زوج شقيقة السلطان عبد الحميد ، ومعه ولداه صباح الدين ولطف الله ، حيث انضما إلى أحرار العثمانيين فى باريس ، إلا أن هؤلاء لم يكونوا متفقين إلا على أمر واحد ألا وهو محاربة عبد الحميد والقضاء على حكمه الاستبدادى ولكنهم اختلفوا حول طريقة إدارة الدولة بعد ذلك ، فبينما كان أحمد رضا وأنصاره يصرون على قيام حكم مركزى فى الآستانة تتجمع فى يده كل السلطات ، كان الفريق الآخر (صباح الدين) يحبذ اللامركزية وتوسيع صلاحيات الولايات . ويدعو إلى تكوين اتحاد عثمانى يكون فيه لمختلف قوميات الدولة قسط كبير من الحكم الذاتى [٢] ، ولذلك فقد انضم إلى هذا الفريق كثير من رجال القوميات غير التركية ، والطوائف غير الإسلامية .

---

(١) رامزور : المرجع نفسه ص ٥١

(٢) رامزور : المرجع نفسه ص ٩٩

ويتهم (رامزور) أفكار تركيا الفتاة بالجدب حيث لا يجد فيها أى اعتراف بالمشاكل الأساسية التى كانت تواجه الإمبراطورية ، وأنها اعتبرت عبد الحميد وحده سبباً لمعظم الشرور المنتشرة فى الإمبراطورية ، وكان العلاج فى نظرها من البساطة بمكان ، ألا وهو تنحية عبد الحميد ، وإعادة دستور مدحت من جديد ، للحفاظ على وحدة الإمبراطورية ، وأما القوميات التى تتكون منها الإمبراطورية فكانت تتهم بالخيانة إذا ما سعت لتحقيق كيانها القومى ، ولا يقدم لها بديلا لهذا الكيان سوى شىء هزيل وهو أن تصبح عثمانية [١] .

ولكن هذا الاتهام إذا صح فانه يكون بالنسبة لفريق أحمد رضا الذى نادى بالمركزية . أما فريق صباح الدين ، فقد رأينا أنه نادى بمنح قوميات الدولة حكما ذاتيا ، ولو أن هذا الجناح لم يستطع الصمود فى وجه دعاة المركزية .

وقد عمل عبد الحميد على عرقلة نشاط الجمعية فى باريس بالتدخل الدبلوماسى وباستخدام العملاء ، حتى أنه نجح فى إقناع مراد بك بالتخلى عن نشاطه الثورى والعودة إلى الآستانة .

وفى عام ١٩٠٦ استطاع الضابط مصطفى كمال — فى أثناء وجوده فى دمشق — أن يؤسس جمعية من العناصر الساخطة على عبد الحميد أسماها (الوطن) ، لم تلبث — بسبب تعقب عبد الحميد لها — أن نقلت نشاطها إلى سالونيك ، حيث صار اسمها (الوطن والحرية) . وفى سالونيك وجد مصطفى كمال جمعية أخرى من الأحرار تمارس نشاطا سريا كبيرا وتسمى (الجمعية العثمانية الحرة) ، وكان من أعضائها جمال وطلعت .

وكان اختيار أحرار الترك لسالونيك فى مقدونيا مركزاً لنشاطهم يرجع إلى

(١) رامزور : المرجع نفسه ص ٧٢

أنها كانت أكثر مناطق الدولة تقدماً واتصالا بالعالم الأوربى ، هذا إلى جانب ضعف قبضة عبد الحميد نسبياً عليها ، كما أن نشاط قوميات البلقان فى المنطقة دفع الدولة إلى حشد قوات عسكرية فيها تحت قيادة أنشط وأكفأ الضباط وأكثرهم ثقافة وإقداماً ، يضاف إلى ذلك أنه بسبب الاضطرابات فى هذه المنطقة أنشئت إدارة دولية خاصة تحت إشراف خمس دول أوروبية ، فكان أن وجد الجيش الثالث العثمانى نفسه فى قلب دائرة التدخل الأجنبى .

وفى عام ١٩٠٧ تم فى سالونيك توحيد الجمعية العثمانية الحرة (عثمانلى حريت) مع جمعية الوطن والحرية ، واتصلت الجمعية الجديدة بأحمد رضا وفريقه فى باريس ، واتحد الجميع تحت اسم جمعية الاتحاد والترقى العثمانى (عثمانلى ترقى واتحاد جمعيتى)[١] .

وعندما علم أحرار الترك فى سالونيك باجتماع ريفال بين نيقولا الثانى قيصر روسيا وإدوار السابع ملك بريطانيا فى ٩ و ١٠ يونيو (حزيران) ١٩٠٨ انتابتهم المخاوف من احتمال فرض تضحيات جديدة على الدولة العثمانية ، وصار أعضاء الاتحاد والترقى يخشون أن تتنازل بريطانيا عن معارضتها التقليدية للأطماع الروسية وأن هذا قد يعنى زوال الحكم التركى من أوروبا[٢]

وعلى ذلك قام الجيش الثالث بثورة يوليو (تموز) عام ١٩٠٨ ، التى أرغمت عبد الحميد على إعادة الدستور ، الأمر الذى قوبل بكثير من الابتهاج فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، بما فى ذلك البلاد العربية ، حتى أنه عندما وضع الشاعر التركى (توفيق فكرت) نشيداً وطنياً لهذه المناسبة ، قام موسيقى عربى من بيروت هو (وديع صبرا) بتلحينه ، ودعا الناس إلى الاجتماع

(١) رامزور : المرجع نفسه ص ١٣٧ – ١٣٩ .

(٢) د . أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٠٤ .

لإنشاده فى أكبر ميادين العاصمة ، ثم قام شاعر عربى من بغداد (معروف الرصافى) بترجمة هذا النشيد إلى العربية[١] .

استبشار العرب بالدستور :

وقد امتلأت نفوس العرب ـ خلال الأشهر الأولى من عودة المشروطية (الدستور) بالبشر والحبور ، وعبروا عن شعورهم بوسائل مختلفة ، فأعرب السوريون فى الأرجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتتاب عام للتبرع بسفينة حربية ، هدية منهم للبحرية العثمانية ، بينما شكل أهالى بيروت حرساً وطنياً لمساعدة الجيش عند الضرورة[٢] .

أما طالب بك النقيب نائب البصرة الجديد فقد ابتاع من ماله الخاص مركباً بخارياً وأهداه إلى الحكومة ، لكى تستخدمه فى المحافظة على شط العرب ، كما تطوع لإصلاح العلاقات بين الأمير مبارك الصباح قائمقام الكويت وبين الحكومة العثمانية[٣] .

وقد بلغ من إخلاص العرب للعهد الجديد أن بعضهم صار يتسامح فى حقوقهم ومطالب القومية كاللغة العربية ، فنشر الدكتور شبلى شميل مقالا طالب فيه الحكومة العثمانية الجديدة بأن تفرض على أقطار الإمبراطورية لغة واحدة مشتركة تكون اللغة التركية[٤] ، كما أيد سليمان البستانى هذا

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (١٩٦٠) ص ١٠٩ ، ثورة العرب (١٩١٦) ص ٤٩ .

(٢) Correspondence d' Orient, 1 ere Année, no. 4, p. 149.

(٣) كركوكلى عمر فوزى : أرج الطيب فى مآثر السيد النقيب ص ٢٣ .

(٤) الأهرام ـ العدد ٩٤١٦ فى ٨-٣-١٩٠٩

الاقتراح من أجل القضاء على التعصب الجنسى ، وتوثيق عرى الود والإخاء بين العرب والترك[1] .

وإن الابتهاج الذى عم العرب خلال الفترة التى أعقبت إعلان الدستور ليدل على أن القوميين العرب عند قيام ثورة الاتحاد والترقى كانوا لايزالون يخلطون بين حقوقهم القومية وحقوقهم الدستورية ، إذ صاروا يعتقدون أنه لم يعد فى الدولة عرب ولاترك ، بل صاروا كلهم عثمانيين متساوين فى الحقوق والواجبات . وكانوا ـ شأنهم شأن القوميات الأخرى ـ يحدوهم الأمل فى أن يؤدى النظام الجديد إلى منحهم نصيباً كبيراً من الحكم الذاتى ، متأثرين بتصريحات بعض الترك ، فإنه إثر إعلان الدستور أذاع أنور باشا فى حماس بالغ أن « الحكومة الاستبدادية قد انتهت وأصبحنا جميعاً إخواناً ، لم يعد هناك بلغار أو يونانيون أو يهود أو مسلمون ، فتحت السماء الزرقاء كلنا متساوون نفخر بأننا عثمانيون »[2] .

وهذا جلال الدين عارف ـ الذى كان لاجئاً لمصر فى عهد عبد الحميد ـ يقف خطيباً فى مصر يوم الاحتفال بإعلان الدستور ليعلن « إننا اليوم تنازلنا عن كلمة ترك ، وهى محبوبة لدينا ، فكلنا عثمانيون . لافرق عندنا بين الترك والعرب والروم وغيرهم »[3] .

كما نشطت جمعية الاتحاد والترقى ، فانتهزت ذلك الحماس الذى غمر العرب لكى تضم إليها أكبر عدد ممكن منهم ، فأوفدت مندوبين إلى سائر المدن العربية لافتتاح فروع للجمعية وبادر الناس إلى قيد أنفسهم فيها ، ولم يمض شهران حتى كان قد انتظم فيها كثيرون من زعماء العرب وضباطهم مثل رفيق

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٧٧ .
(٢) رامزور : مرجع سبق ذكره ص ١٤٩ .
(٣) المنار ، مجلد ١٢ ج ١٢ ص ٩١٥ .

بك العظم وحق بك العظم ومحسن السعدون وياسين الهاشمى وطالب النقيب وعزيز على المصرى وعبد الرحمن شهبندر وسليم الجزائرى[١] .

ومن مظاهر إخلاص العرب للدولة فى هذه الفترة من الوئام مع حكومة الاتحاديين استنكار العرب لتلك الدعوة التى قادها نخلة باشا مطران ورشيد بك مطران ، بعد شهور قلائل من إعلان الدستور ، حين أذاعت (الجمعية السورية) فى باريس برئاسة نخله ورشيد مطران بيانا تدعو فيه إلى استقلال سوريا استقلالا إدارياً ، وعلى الرغم من أن رشيد مطران لم يطالب الاستقلال التام لسوريا بل واحتج على وصف هذه الحركة بالانفصالية مؤكداً أن دعوة جمعيته لاتخرج عن مبادىء البرنس صباح الدين فى اللامركزية الإدارية ، التى لايلائم الدولة غيرها[٢] . فقد تعرضت هذه الدعوة إلى هجوم شديد من جانب شكرى غانم وسليمان البستانى على صفحات إحدى المجلات الفرنسية فى باريس[٢]، ومن جانب رفيق العظم وحق العظم على صفحات جريدة الأهرام فى القاهرة ، كما أبرق عدد من أعضاء الجالية السورية بباريس إلى رئاسة مجلس المبعوثان فى الآستانة وإلى جمعية الاتحاد والترقى فى سالونيك ، يستنكرون ماجاء فى المنشور ، ويعربون عن ولائهم للدولة العثمانية والجمعية[٣] كما أرسلت برقية إلى مجلس المبعوثان وقعها ثلاثمائة من دمشق ، تصف المنشور بالهذيان ، بل إن ندره مطران شقيق رشيد مطران تبرأ - فى برقية منه إلى جريدة استانبول فى الآستانة - من دعوة شقيقه واستنكر « ضلاله السياسى المشئوم » معلنا تمسكه بالدولة العثمانية[٤] . أما رفيق العظم فإنه لم ير فى دعوة

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٧٩

(٢) Correspondence d'Orient — 2 eme Année, no. 9 1. 2. 1909, p. 268 .

(٣) Ibid, no 8, 15. 1. 1909, p. 220 .

(٤) Ibid, no, 9, pp. 268—6 .

نخله ورشيد مطران إلا بذرة للتفريق بين صفوف الأمة العثمانية ، وحركة تجنح بسوريا إلى الانفصال عن تركيا انفصالا تاماً[١] .

جمعية الأخاء العربي العثماني :

وليس أدل على شعور العرب فى هذا الدور ، دور الوفاق مع الحركة القومية التركية ، من تكوين جمعية الإخاء العربى العثمانى .

فقد اجتمعت الجالية العربية فى الآستانة فى الثانى من سبتمبر (أيلول) ١٩٠٨ وحضر الاجتماع عدد من أعضاء جماعة الاتحاد والترقى ، وكان هدفها - كما جاء فى المادة الأولى من قانونها الأساسى - معاونة جماعة الاتحاد والترقى فى سبيل المحافظة على أحكام الدستور وتمكين الرابطة الجامعة بينهم من أجل خدمة الدولة العثمانية بتوحيد جميع القوميات والأجناس فى الولاء للسلطان ، وقد ركزت الجمعية اهتمامها على الأمة العربية . فأعلنت عزمها على العمل على رفع مستوى الأمة العربية على أساس المساواة مع القوميات الأخرى فى الإمبراطورية ونشر التعليم باللغة العربية ومراعاة العادات العربية وتنمية الثروة فى البلاد العربية بإرشاد المواطنين العرب إلى إقامة المصانع ، كما تعهدت الجمعية بمساعدة أى عربى له مطلب قيد البحث لدى حكومة الآستانة[٢] .

وعلى الرغم من اعتدال هذه الجمعية وعدالة مطالبها ، فإن بعض العرب

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٩٣ .

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٧ ؛

Antonius, G. : Ouv. Cit., pp. 102 — 103.

وفى التقرير الذى أصدرته قيادة الجيش الرابع العثمانى تبريراً لإعدام الزعماء الوطنيين العرب فى العام التالى لنشوب الحرب العالمية الأولى ، كانت جمعية الإخاء — شأنها شأن الجمعيات الأخرى - متهمة بأن لها برنامجاً ذا وجهين ، وجه شرعى علنى ووجه سرى غير مشروع ، وأن الإخاء العثمانى كان هدفها الظاهر بينما هدفها الحقيقى هو نشر فكرة انفصال العنصر العربى ، وأنها استخدمت بعض الصحف فى الآستانة ودمشق والقاهرة لترويج هذه الفكرة ، ويذكر تقرير الجيش الرابع أن جمعية الإخاء تعاونت مع الحزب المعارض للاتحاد =

الذين غالوا فى إخلاصهم للدولة العثمانية على حساب بعض حقوقهم القومية المشروعة ، رفضوا الانضمام إلى هذه الجمعية بدعوى الحرص على الإخلاص للدولة وعدم التشويش على جمعية الاتحاد والترقى بكثرة الجمعيات التى تؤلفها العناصر المختلفة ، رغم أن جمعية الإخاء العربى العثمانى نصت صراحة فى برنامجها السياسى على تأييد خطة جمعية الاتحاد والترقى ، ونصت المادة الأولى على أنها ستعمل على معاونة جمعية الاتحاد والترقى فى سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسى وجمع كلمة الملل العثمانية المختلفة وتمكين الرابطة الجامعة بينهم خدمة للدولة العثمانية ، مع عدم إهمال شأن العرب .

وكما يبدو من اسم الاتحاد والترقى كان الحكام الجدد فى الآستانة يهدفون إلى إقامة عهد جديد من الاتحاد والتقدم للإمبراطورية ، الاتحاد أى تحقيق الانسجام بين جميع العناصر على أساس المساواة ، بحيث يتمتعون بنفس الحقوق ، ويتحملون نفس الأعباء بغض النظر عن اللغة والجنس والدين[1] أما التقدم أو الترقى فهو يعنى تجديد وإصلاح الإمبراطورية بعد تحريرها من السيطرة الأجنبية واستبداد عبد الحميد على يد حكومة قوية قادرة ، تقتبس من الغرب نظمه ووسائله فى المركزية ، وعلى الرغم من أن العناصر القيادية بين الاتحاديين كانوا من الترك ، فقد ضمت الجماعة عناصر من مختلف القوميات فى الامبراطورية ، حتى لقد صار من المعترف به أن العرب والأكراد والألبان قد أسهموا فى إنجاح حركة تركيا الفتاة .

وبنجاح ثورة ١٩٠٨ انتصرت جماعة القائلين بسياسة إدماج عناصر الدولة

= والترقى وساهمت فى الانقلاب ضد الدستور عام ١٩٠٩ (٣١ مارس ـ آذار) ولذلك أمر الاتحاديون بحل الجمعية وفروعها .

Saab, H. : ouv. cit., pp. 226 — 227 : La Verité sur la Question Syrienne (1916), p. 5.

(١) Tekin Alp : The Turkish and pan — Turkish Ideal (1915), p. 2 (National Archives, Washington).

عن طريق الحكم المركزى على الجماعة التى كانت تنادى باللامركزية ، ومع ذلك فإن فكرة القومية التركية لم تكن بعد قد خطت خطواتها المتطرفة الجريئة ، أو اتسمت بطابع التعصب العنصرى . فإن جمعية الاتحاد والترقى كانت تهدف إلى عثمنة كافة القوميات ، وهذا ما كان يسمى (بالجامعة العثمانية) إلا أن هذا لم يكن ممكنا فى عصر تحركت فيه القوميات ، ومع أن الغرض الذى تقدم به النظام الجديد ـ وهو حقوق المواطن المتساوية مع الترك ـ كان مغريا ، إلا أنه كان نظريا فقط ، ولذلك فإنه على الرغم من موجة الحماس التى شملت أنحاء الإمبراطورية والأقطار العربية على وجه الخصوص ، فإن فريقاً من المستنيرين العرب كانوا يشكون فى حقيقة هذه التجربة الديمقراطية الجديدة(١)

ويذكر توينبى أن الاتحاد والترقى كانا هدفين متناقضين ، وأنه عند ما أرغمت الأحداث الحزب على الاختيار والمفاضلة بينهما ضحوا بالترقى على أمل إنقاذ الوحدة ، وفى هذه الظروف كان لا بد من استخدام القوة من أجل تماسك الإمبراطورية وتعنى القوة العودة إلى استبداد من النوع الحميدى ، يفرضه الترك وحدهم على باقى العثمانيين من غير الترك ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين(٢) .

وكان فرض الاستبداد التركى ، وما صحبه من إحياء الروح القومية التركية من الأسباب الرئيسية للانشقاق بين أحرار العرب وأحرار الترك .

---

(١) Saab. H, : Ouv. cit. pp. 215—216.

(٢) Toynbee. A. ; Study of History. Vol. VIII. pp. 261 — 2

الفصل السابع

مرحلة النفور العربي التركي

إلا أن فترة الوئام العربي التركي لم تطل . إذ لم يلبث أن حل محلها النفور والتباعد والخصام ، وقد تجمعت عوامل شتى أدت إلى هذا التحول فى مشاعر العرب نحو الترك ، وكان الترك أنفسهم مسئولين عن ذلك النفور .

عوامل نفور العرب من الترك

ومن العوامل التى أدت إلى هذا النفور تفضيل العنصر التركى على بقية العناصر التى تتكون منها الامبراطورية وفى مقدمتها العرب ، وعلى الرغم مما كان يدعيه الزعماء الجدد من الرغبة فى تحقيق المساواة ، فقد اتضح أن هذه المساواة كانت ظاهرية ، وأن ما يتخذونه من إجراءات تبين تحيزهم للعنصر التركى ، وقد كتب حسين جاهد فى صحيفته (طنين) فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩٠٨ أن الأمة التركية كانت وستظل هى الأمة الحاكمة فى السلطنة العثمانية ، وأن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين ، وأنه لا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى ، وأن الدستور العثمانى لا يمكن أن يكون فى شكله النهائى سوى دستورا تركياً[1] .

وعلى الرغم من أن كثيرين من رجال تركيا الفتاة انتقدوا بشدة تصريحات حسين جاهد ، فإن التصرفات التالية إنما كانت تأييدا لكلامه ، ويتجلى هذا عند ما كون الاتحاديون لجانا لإعادة النظر فى الموظفين من العناصر غير التركية ، فعزلوا بضعة عشر متصرفا منهم ، ولم تعد وزارة الخارجية تضم إلا واحداً من العرب بعد أن كانت تضم اثنى عشر منهم .

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٩٦ .

وإلى جانب ذلك أخذ شباب تركيا الفتاة يذيعون الشائعات بقصد الطعن في ولاء العرب للسلطنة العثمانية ، بدعوى أن العرب يسعون من أجل إقامة خلافة عربية .

وكان من أهم عوامل نفور العرب أن الترك كانوا يظهرون الميل إلى فرض اللغة التركية على مختلف عناصر وأجناس الدولة بما فيهم العرب على حساب لغاتها القومية ، فلم يسمحوا بفتح مدارس أهلية تعلم دروسها باللغة العربية ، أما مدارس الحكومة فإنها كانت تدرس البرامج التي وضعتها الحكومة والتي تهدف إلى التتريك ، كما صدرت التعليمات إلى رؤساء المحاكم بأن تكون المرافعات باللغة التركية ، وأبلغت لجان الاتحاد والترقي في الولايات العربية بأن تكون مخابراتها مع اللجنة المركزية في سالونيك باللغة التركية . وفرض على التجار العرب تقديم البيانات إلى دوائر الجمارك باللغة التركية ، ومنع قبول الشكاوى المكتوبة باللغة العربية في مجلس المبعوثان ، وأهمل تعليم العرب حتى أن بعثة قوامها أربعمائة طالب أوفدت إلى أوروبا لتحصيل العلوم المالية لم يكن بينها إلا اثنان من العرب .

ومما يدل على تعصب الترك للغتهم ومحاربتهم للغات الأخرى تلك الحادثة التي جرت في البرلمان قبل مضى شهر واحد على افتتاحه ، فقد وقف وزير الأوقاف - وهو عربي - ليلقي بياناً عما قامت به وزارته ، وبعد أن ألقى بيانه باللغة التركية اختتمه بدعاء في كلمات عربية ، فهب النواب الترك محتجين على استعمال لغة غير اللغة التركية في المجلس ، ولم يستطع رئيس المجلس تهدئة هذه العاصفة من الاحتجاج على الوزير إلا عندما أكد للنواب أن ما قاله الوزير ليس إلا دعاء تقليديا ليس من صلب الخطاب وإنما هو دعاء خاص بين الوزير وبين الله(١) .

---

(١) Saab. H : Ouv. cit. pp. 219 — 220.

وقد اتخذت هذه المشكلة اللغوية طابعاً دينياً وقومياً ، فإن العربية كانت لغة القرآن وبمنعها اتهم الترك باحتقار الإسلام والعروبة ، فقد أقدموا على على شيء لم يقدم عليه سلاطين العثمانيين وهم فى أوج قوتهم ، ألا وهو ترجمة القرآن إلى اللغة التركية . وفرض هذه اللغة كلغة تعليم حتى فى الأقاليم العربية ، وقد صار هذا الإجراء فى نظر العرب جميعاً الأحرار التقدميين والتقليديين أنصار الوحدة الإسلامية على السواء ، يعتبر مظاهرة عدائية ضد الإسلام والعروبة ، وكان هذا يعنى أن سياسة العثمنة تحولت إلى سياسة تتريك[١] .

ومما تجدر ملاحظته أنه قبل ذلك سعى جمال الدين الأفغانى لدى السلطان عبد الحميد من أجل إحلال اللغة العربية محل التركية على أساس أن هذا الإجراء من شأنه زيادة هيبة تركيا كدولة إسلامية ، وهيبة السلطان كخليفة على المسلمين فى العالمين العربى والإسلامى ، وأيقن جمال الدين أن الأتراك يقترفون خطأ فاحشاً بمحاولة تتريك العرب[٢] .

كما أن الإجراءات التى كانت تهدف إلى تركيز كل السلطة فى الآستانة كانت من ضمن الأسباب التى أغضبت العرب ، فقد كان العثمانيون الأحرار الذين كانوا ينادون باللامركزية يسعون إلى إقامة حكم ذاتى على أساس تعاون كل العناصر على قدم المساواة ، ولكن زعماء الاتحاد والترقى رفضوا هذا الاتجاه واتضح للعرب والقوميات الأخرى غير التركية أن العثمانيين يريدون مركزية على أساس سيادة العنصر التركى[٣] .

وهكذا نرى أن بذور الحركة الانفصالية العربية بدأت تنبثق من تربة القومية التركية منذ عام ١٩٠٩[٤] .

---

(١) Saab : Ouv. cit. pp. 219 - 220

(٢) المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ص ٢٣٦ـ٢٣٧ .

(٣) Saab : Ouv. cit. d. 221

(٤) Zeine : Ouv. cit. p. 77

ومن الأمور الهامة التى باعدت بين العرب والترك سياسة الاتحاديين فى الانتخابات ، إذ صمموا على أن تكون أكثرية المبعوثين من الترك أولا ، ومن المنتسبين إلى جمعية الاتحاد والترقى ثانياً . وعلى الرغم من أن المادة ٧٢ من الدستور تنص على أنه من الواجب على الناخبين أن ينتخبوا المبعوثين من أهالى دائرة الولاية التى هم منها ، فإن الاتحاديين لم يتقيدوا بهذه المادة بدعوى أنها لا تفيد الحتمية : ولذلك عمدوا إلى ترشيح مبعوثين من الترك فى مختلف الولايات العربية ، وقد فاز منهم خمسة عشر نائباً تركياً ليمثلوا الشعب العربى[١]

وكانت الانتخابات تتم على درجتين ، ويسمى من يشترك فى المرحلة الأولى ناخباً من الدرجة الأولى ، ومن يشترك فى المرحلة الثانية ناخبا من الدرجة الثانية وكان ناخبو المرحلة الأولى ينتخبون عددا من المرشحين يكونون بدورهم ناخبين للدرجة الثانية فيقوم هؤلاء بدورهم بانتخاب مبعوثى الأمة .

واهتم الاتحاديون بتكوين جماعات تطوف على المنازل لتسليم الناخبين من الدرجة الأولى جداول بأسماء من يجب عليهم انتخابهم ، وكان هؤلاء بطبيعة الحال من جمعية الاتحاد والترقى ، بحيث إذا ما تقدم ناخبو الدرجة الثانية لانتخاب مبعوثى الأمة لم يختاروا إلا أعضاء اتحاديين .

وقد اتخذ الاتحاديون من الإجراءات فى تقسيم الدوائر الانتخابية ما يضمن فوز الترك بأكثرية المقاعد وإغفال حقوق بقية العناصر فى اختيار عدد من النواب مناسب لتعدادها وعلى الرغم من أن العرب كانوا يشكلون نحو خمسى ($\frac{2}{5}$) سكان الدولة[٢] وتعدادهم يزيد عن تعداد الترك فيها ، فقد صار يمثلهم

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ١٠١ .

(٢) كان الاتحاديون يحددون عدد نواب كل منطقة حسب تقديرهم لتعدادها ، ولم يكن للأقطار العربية تعداد صحيح فى ذلك الوقت .

وقد ذكر جورج انطونيوس أن تعداد الدولة كان ٢٢ مليوناً منهم ٥ر١٠ من العرب و٥ر٧ من الترك Arab Awakening, p. 104

رسمياً خمسة وستون نائبا ، وفى الحقيقة خمسون نائباً فقط (لأن خمسة عشر من النواب عن الأقاليم العربية كانوا من الترك[١]) من جملة عدد أعضاء المجلس وهم ٢٧٥ أى أقل من الخمس ، بينما كان يجب أن يمثل العرب بمالا يقل عن مائة من أعضاء مجلس المبعوثان . وكذلك كان الحال فى مجلس الشيوخ حيث لم يكن يمثل العرب سوى ثلاثة من أعضائه الأربعين ، فكان ذلك صدمة كبرى للتفاهم العربى التركى ، وكشفت هذه الإجراءات عن الهوة التى تفصل بين مايدعيه الترك من المساواة بين مختلف العناصر ، وما يفعلونه فى الواقع ، مما أيد مخاوف المتشككين فى حقيقة نوايا رجال الاتحاد والترقى .

ومع ذلك فقد ظل بين العرب من كان لا يزال يتمسك بالوفاق مع الترك ، مثل رشيد رضا ورفيق العظم وشكرى غانم ، فاستمروا فى الدعوة إلى الاتحاد بين العناصر والتمسك بالجامعة العثمانية ، بل وذهب شكرى غانم إلى حد القول بأن عمل الحكومة هذا وإن يكن خاطئاً إلا أنه لم يكن فى الإمكان عدم اقترافه لعدم إمكان تطبيق المساواة المطلقة خوفاً من نشوب الاضطرابات فى الأوساط الإسلامية[٢] بل وذهبت مجلة الهلال إلى حد القول إلى أنه « نعم الاستبداد استبداد العاقلين العادلين ، وأن العقلاء أجمعوا على أن الشرق لا ينهض به إلا حاكم مستبد عاقل[٣] » . وأخذ الشيخ رشيد رضا يهاجم السيد طالب النقيب لمنافسته الاتحاديين فى انتخابات البصرة .

إلا أن بعض أحرار العرب لم يرغبوا فى السير فى ركاب الاتحاديين ويتجلى هذا فى موقف بعضهم فى أثناء الانتخابات النيابية فى دمشق فقد أرادوا أن يكون مرشحوها يمثلون دمشق حق التمثيل .

---

(١) مثل فؤاد خلوصى التركى الذى انتخب نائباً عن طرابلس الشام .

(٢) Corresp. d'Orient, 2 eme Annee, no. 7, Janvier 1909, pp. 205 - 208 .

(٣) المنار مجلد ١١ ، ج ٨ ، ص ٥٦٨ .

الانقلاب المضاد وموقف العرب منه :

ولكن الموقف لم يلبث أن تلبد ، وتعرض العهد الجديد لمشكلات عديدة داخلية وخارجية ، إذ أن جمعية الإتحاد والترقى - بعد أن سيطرت على مقاليد الأمور - لم تلبث أن وجدت نفسها تواجه حزباً معارضاً ، هو حزب الاتحاد الحر الذى كان ينادى باللامركزية ، وهى دعوة تتعارض مع الاتحاد والترقى الذى كان يدعو إلى المركزية ويتمسك بها ، وبدأ الاحتكاك بين الفريقين حين قتل حسين فهمى محرر جريدة (الاتحاد الحر) ، وأعقبت ذلك اضطرابات فى العاصمة فى أبريل (نيسان) عام ١٩٠٩ : وتحالفت العناصر (الرجعية) من أنصار عبد الحميد مع جمعية الاتحاد الحر وقام فريق من الجنود بقيادة أحمد الألبانيين باحتلال البرلمان وفى أثناء هذا الالتحام قتل وزير العدل [١] . ولما كانت الثورة (المضادة) مقصورة على العاصمة فقد قررت جمعية الاتحاد والترقى تحريك جيش من سالونيك فى مقدونيا نحو العاصمة لتأديب العصاة والقضاء على (الرجعية) ، ووصل الجيش بقيادة محمود شوكت - وهو من العرب - إلى العاصمة واحتلها ، واجتمع المبعوثون مع أعضاء مجلس الأعيان فى هيئة جمعية وطنية وقرروا خلع عبد الحميد مستندين إلى فتوى من شيخ الإسلام ، وأعلن فى الوقت نفسه تولية أخيه محمد رشاد على العرش باسم السلطان محمد الخامس [٢].

ولم يؤثر فشل الانقلاب المضاد على العرب ، فلم يتأثروا بالإجراءات التى اتخذها الاتحاديون عقب إحباطه ، فقد وقف العرب على الحياد أثناء الثورة المضادة ، وأكثر من ذلك كان محمود شوكت بطل الزحف على الآستانة

---

(١) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٥٥ .

(٢) الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٢ .

Samné G : La Syrie (1929) p. 66 .

عربياً عراقياً ، كما اشترك فى الجيش الزاحف كثير من الضباط العرب مثل عزيز على المصرى ، الذين كانوا متحمسين للقضاء على الحكم المضاد للاتحاديين فى الآستانة ، إما لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للاتحاديين ، وإما لأنهم توهموا أن الدستور صار فى خطر من جانب الرجعية[1].

وبعد القضاء على الانقلاب المضاد أصبح زمام الأمور فى قبضة الاتحاديين، فأقاموا دكتاتورية - وإن كانت تختلف عن دكتاتورية عبد الحميد - إلا أنها لم تكن أقل وطأة منها ، وصارت السلطة فى أيدى الوزراء الذين انتقوهم من أقوى شخصيات الحزب مثل طلعت بك وجاويد بك وخليل بك وإسماعيل حقى بابان بك ، ولم يعد للسلطان محمد رشاد أى سلطة فعلية .

سياسة الاتحاديين بعد الانقلاب المضاد :

وقد بدأ الاتحاديون عهدهم الجديد بعد إحباط الانقلاب المضاد بإظهار بعض التساهل مع القوميات الأخرى ،بتعيين حسين حلمى باشا صدراً أعظم، وكان من الشخصيات المعروفة بالاعتدال ،وخاصة فيما يتصل بالقضايا العربية ، حيث أمضى شطراً كبيراً من حياته والياً على اليمن ، كما كان يجيد اللغة العربية، كما عين خليل باشا حمادة اللبنانى الأصل وزيراً للأوقاف ، كما أدخل الاتحاديون فى برنامج جمعيتهم أن يكون التدريس فى المدارس الابتدائية باللغة المحلية بدلا من اللغة التركية ، على أن يكون تدريس اللغة التركية إجبارياً فى هذه المدارس ، أما المدارس الثانوية والعالية فيبقى التدريس فيها باللغة التركية ،أما لغة الدولة الرسمية فقد تقرر أن تظل هى اللغة التركية .

وإلى جانب ذلك اهتم الاتحاديون (بتوسيع المأذونية الإدارية)فقرروا

---

(١) لوثيق بهو : مرجع سبق ذكره ص ١٣١ .

الاهتمام بالمؤسسات الإدارية المحلية ، على أن تؤخذ فى الاعتبار احتياجات الأهـالى .

إلا أن هذه المظاهر لم تكن إلا سراباً خداعاً ، إذ سرعان ما بدأ الاتحاديون يظهرون على حقيقتهم ، عندما أخذ التطرف يحل محل الاعتدال مما أوغر صدور العرب ، مثال ذلك أنهم بدعوى الحفاظ على العهد الدستورى منعوا صدور بعض الصحف متعللين بأن حوادث ١٣ أبريل (نيسان) أثبتت أن الدولة غير مهيأة تماماً للحرية المطلقة . كما شرعوا فى حل الجمعيات التى أنشأتها العناصر غير التركية ومن بينها جمعية الإخاء العربى العثمانى ، التى حضر افتتاحها ـ قبل ثمانية شهور ـ زعماء الاتحاديين فى فترة الوئام والانسجام بين العرب والترك[1] بدعوى أن أعضاءها كانوا ضالعين فى الانقلاب المضاد .

كما أخذ الاتحاديون يستبدلون بالوزراء المعتدلين وزراء متطرفين من أعضاء جمعية الاتحـاد والترقى ، متذرعين ببعض الحجج الواهية التى كانت تسوقها جريدتهم (طنين) ، مثلما اتهموا فريد باشا الألبانى ووزير الداخلية بأنه كان من جواسيس السلطان عبد الحميد تمهيداً للتخلص منه ، كما تخلصوا من خليل باشا حماده وزير الأوقاف بدعوى بطء الأعمال فى وزارته ، بينما كان السبب الحقيقى لإبعاده هو أنه عين الأربعة من المثقفين العرب فى وزارته مما أثار عليه ثائرة الصحف التركية[2] .

وعلى الرغم من أن وزارة الأوقاف أسندت بعد ذلك إلى شخصية عربية وهى شخصية الشريف على حيدر إلا أن هذا كان من الاتحاديين ، ولم يلبث هو الآخر أن استقال . الأمر الذى دفع أحد النواب العرب من الاتحاديين فى

---

(١) Autonius, G. Ouv, Cit, p. 103.

(٢) المؤيد ، العدد ٦٠٤٣ الصادر فى ١٩١٠/٤/٢٠ .

اجتماع الحزب إلى طلب تفسير سبب استقالة الشريف على حيدر من وزارة الأوقاف . وطالب بأن يكون خلفه عربياً على أساس أن هذه الوزارة كانت من نصيب العرب لفترة ما ، إلا أن حزب الاتحاديين لم يعر هذا الأمر التفاتاً ، وظل العنصر العربي غير ممثل في الوزارة العثمانية على الإطلاق إلى أن وقع الهجوم الإيطالي على طرابلس الغرب ، وعندئذ عين سليمان البستاني وزيراً للزراعة والتجارة [١].

الاتحاديون وقضية اليمن :

ومن الأمور التي أثارت العرب على الترك موقف هؤلاء من قضية اليمن، التي كانت الثورة فيها لا تنقطع ، واستبشر الإمام يحيي بالعهد الدستوري ؛ ودخل في مفاوضات للصلح مع الترك وكاد الصلح أن يتم بفضل وساطة عزيز على المصري لولا انقلاب أبريل المضاد ، وبعد فشل الانقلاب اختار مجلس المبعوثان لجنة من أعضائه لوضع مشروع لتسوية مشكلة اليمن. وفعلا تم وضع مشروع معقول يقوم أساساً على تقسيم اليمن إلى ولايتين :إحداهما على الساحل والأخرى في المنطقة الجبلية في الداخل ، على أن تعهد الولاية الجبلية إلى الإمام يحيي ، وعلى الرغم من موافقة مجلس الوزراء على المشروع ورفعه إلى مجلس المبعوثان لإقراره ، وإعلان نصوصه في الصحف فإنه ما كاد طلعت بك يتولى وزارة الداخلية حتى استرد المشروع من المجلس وطلب أن يعهد إليه شخصياً بحل هذه المسألة، مدعياً أن الحال قد تغيرت في اليمن بعد هجوم أشياع الإدريسي على إحدى القوافل ومصرع بعض العسكريين الترك بحيث صار طلعت بك يرى أن الأمر يستدعى استخدام القوة [٢] كما أشاع الاتحاديون أن المشروع

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ١٤٨ .

(٢) المؤيد : العدد ٥٩٩٤ الصادر في ٢١-٢-١٩١٠ .

المقترح يتضمن شبه تقسيم للدولة ومنح امتيازات خاصة لولاية معينة ، وكان الترك يخشون أيضاً أن يطالب الإدريسى فى عسير بمثل ما سيحصل عليه الإمام يحيى من امتيازات ، بل وخشوا أن تطالب الأقطار العربية بامتيازات مماثلة ، وقد أدى العدول عن تنفيذ مشروع الاتفاق إلى اندلاع نيران الثورة فى اليمن مرة أخرى .

كما أخذت الصحف التركية عموماً والاتحادية على وجه الخصوص تشن الهجمات الصحفية العنيفة على العرب عامة ، واليمن خاصة ، فطالبت (طنين) باستخدام الأسلوب الاستعمارى الانجليزى فى اليمن ، كما نشرت (إقدام) فى فبراير (شباط) سنة ١٩١٠ مقالا بتوقيع « خليل حامد » ، ويقال إنه اسم مستعار لأحد ضباط الترك[1] اتهم فيه أهل اليمن بأنهم «يعبدون المال ، وأنهم فى سبيل المال يضحون بكل شيء حتى بأعراض نسائهم[2]» ، مما أدى إلى ثورة العرب فى الآستانة : من ضباط ونواب وطلاب ، واندفع الشباب العربى إلى مقر جريدة (إقدام) وحطم مكاتبها ، كما أخذت الصحف العربية فى الأقطار العربية ترد الهجوم ونظم الشعراء العرب القصائد فى هجاء الاتحاديين[3] .

* * *

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ١٥٧ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٣٠ الصادر فى ١٧ـ٣ـ١٩١٠ .

(٣) من ذلك قول الشاعر يوسف حيدر البعلبكى :

قال لجهول راح يلثم عرضهم ... ولم يدر أن الويل من جلهم طرا

لهل أمة الأتراك أضحت غيورة ... عليهم وكل الأرض من فعلهم غبرا

ولم يبعث الرحمن فيكم محمدا ... وفى لغة الأتراك لم تنزل الذكرى

خلافتكم كانت بقايا فخارهم ... ونلتم هدى الإيمان من فضلهم طرا

سخط العرب على ادارة الاتحاديين :

وقد تضافرت عوامل أخرى أدت إلى تزايد سخط العرب على إدارة الاتحاديين فى الأقطار العربية ، ومن الأمور التى أغضبت العرب عامة والعراقيين خاصة ذلك الاتفاق الذى عقدته حكومة الاتحاديين مع شركة لينش Lynch ، والذى بمقتضاه انضمت البواخر العثمانية العاملة فى أنهار العراق إلى البواخر الإنجليزية فى شركة واحدة تحتكر النقل النهرى فى العراق لمدة خمسة وسبعين عاماً ، على أن تكون نصف أسهم الشركة الجديدة ملكا للحكومة العثمانية والنصف الآخر لشركة لينش والماليين الإنجليز ، وأن يكون مجلس الإدارة من ثمانية أعضاء نصفهم من العثمانيين والنصف الآخر من الإنجليز ويكون رئيسها إنجليزياً[1] ، وقد عم السخط بين العرب وخاصة فى العراق خوفاً من تزايد النفوذ البريطانى فى المنطقة ومع ذلك فقد صدر الامتياز رغم المعارضة له فى مجلس المبعوثان .

وإلى جانب ذلك فقد عينت الدولة العثمانية الفريق ناظم باشا وزير الحربية السابق والياً عاماً ذا صلاحيات واسعة وسلطات مطلقة على العراق ، وكان العراق فى ذلك الوقت يموج باضطرابات وخاصة فى منطقة البصرة ، وقد استطاع ناظم باشا - وقد جمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية - أن ينجز الكثير من الاصلاحات ، فقضى على الاضطرابات وأخضع القبائل ؛ هذا إلى جانب المنشآت العامة التى أقامها ، مما جعل له سيرة محمودة بين العراقيين ؛ إلا أن الحكومة العثمانية لم تلبث أن عزلته دون تفكير ، وذلك بتأثير الوشاة والحاقدين عليه ، وقد أدى عزله إلى اضطراب الأمن ، وعودة الثورة فى العراق تلك الثورة التى أخذ الشعور القومى يغذيها[2] .

---

(١) الأهرام : العدد ٩٦٥٤ فى ١٥-١٢-١٩٠٩ .

(٢) محمد المهدى البصير تاريخ القضية العراقية ، ص ٩ .

ومن الأمور التى أدت إلى سخط العرب على سياسة الاتحاديين فى بلادهم موقف حكومة الاتحاديين من الأحداث التى جرت بين الدروز فى حوران وجبل الدروز ، فقد ثار الشعور بين الدروز بسبب ارتفاع الأسعار وانتشار الرشوة بين الموظفين ، وتزايد الضرائب والتجنيد ، هذا إلى ما كان يعتور الشعور بين العرب والترك عامة فى ذلك الوقت من نفور بدت مظاهره على صفحات الجرائد ، وداخل مجلس المبعوثان .

ولمواجهة هذه الفتنة جهزت الدولة حملة بقيادة اللواء سامى الفاروقى باشا وهو عربى من أهل العراق ـ لتأديب الدروز وتجريدهم من سلاحهم ، وكان أسلوب الاتحاديين فى ذلك أسلوباً إنجليزياً ، لأنها توفد قائداً عربياً لإخماد ثورة عربية حتى تظهر أمام الملأ بنوايا حسنة ، بينما كان يحيط بالقائد العربى عدد من الضباط الترك المتطرفين الذين كانوا ينفذون خطة الدولة باسمه ثم تلصق الدولة هذه الأعمال بالقائدة العربى ، ويتخلى هذا فى الغدر بزعيم الدروز يحيى باشا الأطرش والقبض عليه بعد إعطائه الأمان .

وقد آثار المبعوثون العرب هذه التصرفات فى مجلس المبعوثان وانتقدوا موقف الحكومة مما اضطرها إلى إيفاد لجنة للتحقيق فى الفظائع التى ارتكبت[١].

الاتحاديون ومسألة فلسطين :

ومن الأمور التى أدت إلى استياء العرب من الاتحاديين موقف هؤلاء من مسألة فلسطين والأطماع الصهيونية فيها ، وهو موقف يتسم بالتراخى إذا ما قورن بسياسة الدولة على عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، خصوصاً وأن اليهود فى فلسطين انتهزوا فرصة ثورة ١٩٠٨ وشعارات الحرية التى كانت ترددها

---

(١) توفيق برو . مرجع سبق ذكره ص ٣١٨ .

لكى يطالبوا بانتخاب الصهيونيين للبرلمان العثمانى حتى يتمكنوا من عرض مطالبهم الخاصة بحصول فلسطين على الحكم الذاتى(١).

كما أنه عقب الثورة التركية مباشرة عين دكتور فيكتور جيكبسون — وهو صهيونى روسى المولد وكان يدير فرع الشركة الإنجليزية الفلسطينية فى بيروت — ممثلا للمنظمة الصهيونية فى الآستانة ، الذى أخذ يتعاون مع كبير الحاخامات واليهود الخمسة الذين كان يضمنهم البرلمان العثمانى على أساس عدم معارضتهم للجهود الصهيونية فى فلسطين(٢) .

وعندما انتشرت القلاقل فى فلسطين بسبب نمو النفوذ اليهودى سمح قائمقام طبرية لليهود بتكوين حرس خاص بهم بدعوى الخوف من أن تنزل بهم مذابح مماثلة لما نزل بالأرمن(٣).

ولذلك فإن صحيفة عربية كانت تظهر فى باريس وتسمى (نهضة العرب) أخذت تتهم الاتحاد والترقى بالتفاهم مع اليهود ، وذهبت إلى حد القول بأن اليهود يسيطرون على هذه الجمعية وأنهم هم الذين خططوا للثورة ، وإن هدفهم النهائى هو التعجيل بانهيار الإمبراطورية حتى يمكنهم الفوز بفلسطين لإقامة

---

(١) CZA (Central Zionist Archive) W/198 11 (25. 8. 1903).
Levontin (Jaffa) to Wolffsohon (cologne) cités dans : St. — Antony's papers, no. 17 (ed Alb Hourany) Oxford Univ. Press. 1965 'Turks Arabs & Jewish Immigration into Palestine (1882 — 1914) by Neville Mandel, pp. 77 — 108,

(٢) Ibid Z2/7 (Several letters, Oct. 1908 — Feb 1909) V. Jacobson (Constantinople) to Dr. Wolffsohn (Cologne).

(٣) J.C.A. (Jewish Colonization Association, no. 294 (7. 6 1907). E. Krause (Sejera) to J C A (Paris) citée dans : Neville Mandel ; Ouv. Cit.

دولة يهودية[١] .

وفى حيفا أصدر نجيب نصار صحيفة (الكرمل) منذ أواخر عام ١٩٠٨، وفيها أخذ يحمل على الصهيونية والمستوطنين اليهود ، وفى عام ١٨٠٩ عطلت السلطات صحيفة (الكرمل) مرتين ، وفى عام ١٩١٠ قدم نصار للمحاكمة بتهمة سب اليهود . ولو أنه أفرج عنه على أساس أن كتاباته تهدف إلى خدمة الإمبراطورية عن ضمير مخلص .

وإزاء ما كان يشاع عن حصول اليهود على أراض فى فلسطين توالت برقيات الاحتجاج من حيفا والناصرة على الآستانة فى مايو (أيار) ١٩١٠م ، ونشرت البرقيات فى الصحف، وأخذ النواب العرب يطالبون الحكومة العثمانية، وطالبت بك وزير الداخلية على وجه الخصوص ، باتخاذ إجراءات أكثر صرامة لمنع دخول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ووقف بيع الأرض لهم[٢]. كما وجه شكرى بك العسلى قائمقام الناصرة خطاباً بتوقيع مستعار (صلاح الدين الأيوبى) إلى سامى باشا الفاروقى القائد الذى أرسلته الحكومة العثمانية إلى الشام فى أواخر عام ١٩١٠ لإخماد اضطرابات حوران وقد شرح العسلى للقائد ازدياد إمكانيات اليهود فى فلسطين بحيث صار لهم علمهم الأزرق الذى تتوسطه نجمة داود ، وكيف يعلمون أبناءهم المصارعة والمبارزة ، ويملأون بيوتهم بالأسلحة وجعلوا لأنفسهم خدمة بريدية خاصة[٣] .

كل هذه الشواهد جعلت سخط العرب على الحكومة المركزية فى الآستانة يزداد، وصاروا يعتقدون أن الوطن العربى سيضيع لليهود بموافقة الاتحاديين الضمنية .

---

(١) P·blic Rec rd Offic·. F O. 371/992 File 177, no, 992 (27. 12. 19 9), C. Tarling (Constantin·ple) to Sir. Ed. Grey (F. O); The Tim·es (14, 4. 1911) etc. citée dans Neville Mandel : Ouv. Cit.

(٢) Ibid 195/ 3351 minute (13, 6. 1910), by G. H. Fitzmaurice (Cous·antinople): no. 25 (21. 5 1910). H. E. Satow (Je.usalem) to Sir G. Lowther (Cansta·tinople).

(٣) عن الكرمل فى ١٩١٠/١٢/٨ .

وفى خريف ١٩١٠ باع إلياس سرسق (من بيروت) للصهيونية مساحة غير قليلة من الأرض الزراعية الجيدة فى فلسطين بين الناصرة وجنين ، فقامت ضده حملة قوية فى الصحافة العربية ، وحاول شكرى بك العسلى الذى تقع الأرض المباعة فى منطقته أن يحول دون إتمام البيع دون جدوى وتم البيع فى يناير (كانون أول) ١٩١١ ، ولذلك فإنه فى نفس الشهر عندما صار شكرى العسلى نائبا عن دمشق فى البرلمان العثمانى أخذ على عاتقه بحث المسألة الصهيونية وعاونه فى ذلك روحى بك الخالدى مبعوث القدس .

وقد وزع العسلى على أعضاء مجلس المبعوثان طوابع بريد أصدرها الصهيونيون فى فلسطين ، تحمل اسم هرتزل ونورداو وأوضح مايحيطون به أنفسهم من نفوذ ، وأنهم يريدون شراء الأرض المشرفة على سكة حديد الحجاز بغية التوسع فى سوريا حتى العراق . ثم تحدث روحى بك الخالدى مردداً ماجاء فى التوراة عن أمانى اليهود فى استعادة ملك فلسطين ، منبها إلى ازدياد عددهم حتى أصبح فى متصرفية القدس وحدها ـ على حـــد قوله ـ مائة ألف يهودى ، وأن القوانين التى سنتها الحكومة لهجرتهم وتخصيص جواز السفر الأحمر الأجانب منهم لم تنفع فى منع هجرتهم لأنها لم تنفذ ، وكيف أسسوا بنك الاستعمار اليهودى .

وعندئذ قام النائب اليهودى اسيم مزلياح أفندى[1] وطالب التحقيق دفعاً للشكوك ، معلناً تمسك اليهود العثمانيين بعثمانيتهم ، وحاول أن يؤلب الحكومة على النواب العرب الذين أثاروا هذه المسألة ، مدعياً بأنهم لم يثيروها إلا من أجل معارضة الحكومة . ثم قام خليل بك وزير الداخلية ليعلن أن اليهود العثمانيين ليسوا من دعاة الصهيونية ، أما اليهود الأجانب فإن الحكومة

---

(١) تولى منصبا وزاريا فى عام ١٩١٣ فى الوزارة التركية عقب سقوط حكومة الائتلافيين ، بينما لم يكن فى هذه الوزارة عربى واحد (توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٢٨٣) .

سوف تتخذ الوسائل حتى لا يجتمعوا فى مكان واحد[١] ، مؤكدا أن الحكومة ستبحث تنفيذ القيود القائمة وكان هذا هو كل ماوعدت به الحكومة .

ولذلك فقد استمرت معارضة العرب للاتحاديين ، الأمر الذى دفع هؤلاء إلى التفكير – فى أواخر عام ١٩١١ – فى إصدار تشريع جديد ضد الهجرة اليهودية ، من أجل تهدئة العرب[٢] .

وبعد مؤتمر باريس حاولت حكومة الاتحاديين تهدئة العرب مؤقتاً بأن وعدت بتلبية مطالبهم الخاصة بمواجهة الأطماع الصهيونية فى فلسطين ، ولكن من ناحية أخرى أبلغ الاتحاديون الصهيونيين عن طريق كبير الحاخامات فى الآستانة (حاخام باشى) بأنهم إذا استطاعوا التفاهم مع العرب فإن الاتحاديين كفيلون بمعالجة الموقف أى القضاء على القيود المفروضة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٣] .

فقد كان الاتحاديون يريدون الحصول على أموال يهودية .. فى مواجهة حرب البلقان – وفى سبيل ذلك فكر الاتحاديون فى تقديم تسهيلات للصهيونية ، ولذلك فإنه قبيل نهاية عام ١٩١٣ ألغيت مهلة الثلاثة أشهر المحددة لإقامة الحجاج اليهود فى فلسطين بدعوى أن حكام القدس وبيروت قررا أنها لم تحقق الغرض منها[٤] .

---

(١) الأهرام : العددان رقم ١٠٠٩١ ، ١٠٠٩٢ فى ٢٤ ، ١٩١١/٥/٢٥ .

(٢) Central Zionist Archive, Z3/43 (30. 12. 1911 & 4. 1. 1912). V, Jacobson & Auerbach (Constantinople) to Smaller (Zionist) Actions Committee (Cologne), in Nevil'e Mandel, Our. Cit.

(٣) Ibid, Z3/47 (25 9. 1913) V, Jacobson (Berlin) to R. Leichtheim (Constantionple).

(٤) Public Record Office, F. O. 195/2152, file 1254, no. 67 (27. 10. 1913). W. Hough (Jaffa) to, Mc Gregor (Jerusalem) in-Neville Mandel.

كما أن ثلاثة من أشد الصحف العربية عداء للصهيونية عطلت لمدد متفاوتة وهى : المقتبس فى دمشق ، والكرمل فى حيفا ، وفلسطين فى يافا ، وسمح بافتتاح جمعية صهيونية فى الآستانة ، وعلى الرغم من تحذيرات رجال الإدارة فى فلسطين من النتائج التى قد يحدثها على الرأى العام العربى إلغاء القيود المفروضة على شراء الأرض ، فقد استمر انتقال الأرض فى فلسطين إلى الصهيونيين دون صعوبة كبيرة[1] .

سخط العرب على موقف الاتحاديين من الاعتداء الايطالى على طرابلس الغرب :

بعد أن حققت إيطاليا وحدتها عام ١٨٧٠ سعت لكى تتخذ لنفسها « مكاناً تحت الشمس » . وتشارك الدول الأخرى فى تكوين إمبراطورية استعمارية فى إفريقية ، تلك القارة التى أخذت الدول الأوروبية تتسابق — فى القرن التاسع عشر — من أجل الاستحواذ على أقاليمها المختلفة وتطلعت أنظار إيطاليا — بادىء ذى بدء — إلى تونس ، إلا أن فرنسا كانت هى الأخرى تطمع فيها ، وقد أدت الظروف الدولية فى أوروبا وقتئذ إلى جعل فرنسا تسبق جارتها الكاثوليكية إيطاليا إلى تونس عام ١٨٨١ ، بينما الدول الأوروبية تغض الطرف بل وتشجع فرنسا .

ونتيجة لذلك تحولت أنظار إيطاليا إلى شرق إفريقية لكى ترث الإمبراطورية المصرية فى تلك الأصقاع ، إلا أن هزيمة القوات الإيطالية على أيدى الأحباش فى واقعة عدوة جعل إيطاليا تتخلى عن أحلامها فى إمبراطورية واسعة فى شرق إفريقية مكتفية بالصومال وإرترية لكى توجه أنظارها مرة أخرى إلى الشمال الإفريقى وإلى طرابلس الغرب هذه المرة .

(١) Neville Mandel : Turks, Arabs & Jewish Immigration into Palestine (1882 - 1913) in St. Antony's Papers no. 17. (Oxford Univ. Press 1965), pp. 77 — 108.

وأخذت إيطاليا — بعد أن اطمأنت إلى عدم معارضة الدول الأوروبية لها — فى تدعيم نفوذها فى طرابلس الغرب بإنشاء المدارس والبنوك والشركات وتوظيف رءوس الأموال ، وإيفاد البعثات التبشيرية والحصول على امتيازات مختلفة[١] .

وعلى الرغم من اتضاح مطامع إيطاليا فى طرابلس الغرب ، فإن الدولة العثمانية صاحبة السيادة على الإقليم لم تتخذ ما يلزم من إجراءات لدعم الدفاع عنها بل أهملتها فى مختلف نواحى النشاط والعمران ؛ بل وسحبت منها معظم قواتها لمواجهة الثورات ضد الدولة فى ألبانيا واليمن ، وقد بلغ من إهمال الترك أنه بعد عزل والى طرابلس الغرب فى سبتمبر (أيلول) ١٩١١ لم يعينوا والياً آخر ، ولذلك كانت البلاد بدون وال عندما بدأ العدوان الإيطالى عليها .

وإذ أيقنت إيطاليا أن الظروف مواتية للاستحواذ على طرابلس الغرب وجهت قواتها البرية والبحرية إليها فى أواخر سبتمبر (أيلول) ١٩١١ بعد أن وجهت إلى حكومة الباب العالى إنذاراً بعدم مقاومة الاحتلال الإيطالى .

وقد أثار العدوان الإيطالى على طرابلس الغرب الكتاب العرب فهاجموا حقى باشا الصدر الأعظم لإهماله ، بل واتهموه بالتواطؤ مع إيطاليا[٢] وطالبوا بتقديمه ووزرائه إلى محاكمة عسكرية ، وعلى الرغم من استقالة حقى باشا وتنصل الاتحاديين من المسئولية بإلقاء تبعة ضعف الأسطول العثمانى

---

(١) د . نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال إلى الاستقلال ص ٨٥ .

(٢) كان حقى باشا قبل ذلك سفيرا للدولة فى إيطاليا .

على عاتق العهد البائد ، فقد استمرت المعارضة سواء من جانب العرب أو من جانب الترك أعداء الاتحاديين .

وعلى الرغم من تدهور العلاقات بين العرب والاتحاديين بسبب هذا الإهمال ، فإن شعور العالم العربي اتجه إلى مساعدة الدولة مادياً وأدبياً لدفع غائلة هذا الخطر الأجنبي النصراني ، فانهالت التبرعات ، وتدفق المتطوعون من مختلف الأقطار العربية وفى مقدمتها مصر ، وبدا كما لو كانت الرابطة الدينية ستجمع ما بين العرب والترك مرة أخرى .

كما أن العدوان الإيطالى على طرابلس الغرب جعل العرب يدركون مزية اللامركزية ، وأيقنوا أن الاتحاديين لو تركوا شئون طرابلس الغرب لأهلها لما وقع العدوان ، خصوصاً وأن التجربة التى خاضها القادة : أنور ، وعزيز على المصرى ، ومصطفى كمال الذين تطوعوا للذهاب إلى طرابلس الغرب لتنظيم أمر الدفاع عنها على رأس الضباط العرب المتطوعين والذين انضم إليهم الطرابلسيون والمتطوعون المصريون ، والسودانيون . هذه التجربة نجحت فى إيقاف الغزو الإيطالى عند الشواطىء مما زاد من اقتناع الساسة الوطنيين العرب بأفضلية اللامركزية[١] .

وعندما علم المبعوثون العرب أن حكومة الاتحاديين — قبل سقوطها فى يوليو (تموز) ١٩١٢ — كانت تنوى عقد صلح مع إيطاليا على أساس ترك السواحل الطرابلسية للإيطاليين مع بقاء برقة وداخلية البلاد تحت السيادة العثمانية[٢] ، انبرى المبعوثون العرب لفضح نوايا حكومة الاتحاديين، نوقف

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٩ .

(٢) Documents Diplomatiques Francaises-8 eme Serie, Tome III, no. 47 .

النائب العربي خالد البرازي مبعوث حماة ليعلن أنه إذا استصدرت الحكومة فرماناً بإلحاق طرابلس الغرب بإيطاليا ، فإنني أقول باسم الأمة العربية أننا نمحو هذا الفرمان بدمنا ولو لم يبق عربي على وجه الأرض . . . » .

ومع ذلك فإنه بعد تخلى الاتحاديين عن الحكم حملوا لواء المعارضة ضد وزارة مختار باشا الغازى (الائتلافية) فى محاولة التوصل إلى اتفاق مع إيطاليا ، وخصوصاً بعد أن بدت فى الأفق نذر حرب البلقان ، وكان أن توصلت حكومة الائتلافيين إلى عقد صلح أوشى فى ١٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٢ على أساس انسحاب القوات والموظفين العثمانيين من طرابلس الغرب وبرقة تحت ستار منح هذه البلاد الاستقلال الداخلى مقابل انسحاب إيطاليا من الجزر التركية التى كانت قد احتلتها فى بحر إيجة ، أما إيطاليا ، فقد استمرت فى العمل بالمرسوم الذى كانت قد أصدرته منذ ٢٥ فبراير (شباط) ١٩١٢ وبمقتضاه صارت طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين للسيادة الإيطالية[1] .

وقد كان لعقد هذا الصلح أثر سيء على العرب أهالى طرابلس الغرب ، فقد ترتب عليه حرمانهم من معونة الضباط العثمانيين ، والمساعدات المالية والأسلحة التى كانت ترسلها الدولة ، كما كان لهـذا الصلح أثره السيء على العرب فى الأقطار العربية الأخرى ، لأنه كان دليلا على تهاون الدولة ، واعتبروا هذا التصرف بمثابة تسليم العرب لأعدائهم ، الأمر الذى اضطر عزيز على المصرى — الذى ظل يدير دفة القتال بعد انسحاب الضباط الترك — إلى العودة إلى القاهرة ، ومنها إلى الآستانة بعد أن أيقن من استحالة مواصلة القتال .

---

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٤٠٣ .

المعارضة العربية فى مجلس المبعوثان :

ولم يقتصر نضال العرب ضد الاتحاديين على صفحات الجرائد ، بل اتخذ من ساحه مجلس المبعوثان ميداناً كان أفضل من ميدان الصحافة ، لأن مجلس المبعوثان كان المكان الوحيد الذى لم يقع تحت طائلة الأحكام العرفية فى العاصمة التركية ، هذا إلى جانب أن الصحافة كانت تقيدها القرارات التى تحد من حريتها ، وهى القرارات التى أصدرها مجلس المبعوثان بعد الانقلاب المضاد ، والتى تعطى للصدارة العظمى صلاحية ، اتخاذ ما يجب ضد المطبوعات التى تجرأ على نشر مواد مخالفة للمنافع العثمانية وماسة بكرامة الأمة وبالشرف العسكرى ، أو تشيع الفرقة والخلاف » (١) .

ومن الموضوعات التى أثيرت فى مجلس المبعوثان ووقف فيها العرب موقف المعارضة ، موضوع تسويف حكومة الاتحاديين فى اعتماد إعادة انتخاب جامى بك وهو تركى مبعوثا عن فزان بطرابلس الغرب ، ورغم احتجاج نواب العرب ، فقد أغلق باب المناقشة .

وفى مناسبة أخرى نوقشت المادة ٤ من نظام الاجتماعات العامة ، وهى المادة التى وضعها الاتحاديون بقصد منع تشكيل الجمعيات السياسة ذات الأهداف القومية ، ولكن القوميات الأخرى فى الإمبراطورية العثمانية رأت فى هذه المادة إضعافاً لها دون القومية التركية . فعارضها مندوبوها بما فيهم العرب ، وإن كان البعض قد لاحظ أن معارضة عبدالحميدالزهراوى المبعوث العربى كانت تتسم بروح الاعتدال (٢) .

ومع ذلك صدرت موافقة المجلس على هذه المادة بأغلبية ٩٠صوتاً ضد٦٩ مما يدل على تكتل مبعوثى القوميات الأخرى ضد هذه المادة .

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

كما تنكر المبعوثون العرب لا نتخاب مبعوث بيروت سليمان البستاني نائبا لرئيس المجلس النيابي . وفي أبريل (نيسان) ١٩١٠ اشترك مبعوث دمشق شفيق بك المؤيد العظم في مناقشة الميزانية ، وكان حديثه ذا صبغة موضوعية إذ تناول الميزانية بالتعليق كما تحدث عن الضرائب .

وإلى جانب ذلك فقد هاجم شفيق المؤيد حكومة الاتحاديين بسبب قيودها على حرية الرأى، وخاصة فى أثناء إثارة مسألة مقتل الصحفى أحمد صميم محرر جريدة (صداى ملت) — أى صدى الشعب ، واتهام جمعية الاتحاد والترقى بتدبير الجريمة فانتقد النائب العربى رضا بك الصلح مبعوث بيروت الحكومة الاتحادية لعدم إظهار الجناة .

وهنا نتساءل : إلى أى مدى كانت المعارضة العربية فى مجلس المبعوثان ذات صبغة قومية ؟

إننا باستعراض هذا النشاط العربى نجد أنه يكاد ينحصر فى مجرد المطالبة بإصلاحات فى البلاد العربية، ومن أهم الإصلاحات التى كان يطالب بها العرب التوسع فى نظام اللامركزية الإدارية، وتمثيل العرب فى وظائف الدولة تمثيلا يتناسب مع نسبتهم العددية بين سكان الإمبراطورية العثمانية ، ويتجلى هذا فى موقف شكرى العسلى النائب الدمشقى فى مجلس المبعوثان أثناء شهر مارس (آذار) سنة ١٩١١ ، عندما أعلن أنه باستقصاء أسماء الموظفين المنشورة فى (السالنامة) أى حولية الحكومة لم يجد بينها إلا أسماء قليلة جداً من العرب « الذين منهم نصف السلطنة، كما أننا نشترك مع بقية العناصر فى دفع الضرائب ، والقيام بالتكاليف . وهناك من أبناء العرب شبان أكفاء تخرجوا من المدارس العليا » ، وطالب بإصدار قانون عادل لترقية الموظفين . . . وهذا ما نطالب به بلسان الأمة العربية وبالنيابة عنها [1] » .

(١) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

وقد وجه الاتحاديون اللوم للنائب العربي لإثارته هذه المسألة التي اعتبروها من قبيل النعرة الجنسية ، وانهالت الصحف التركية تهاجم شكري العسلي ، كما حاول الاتحاديون بذر الفرقة والانقسام في صفوف العرب ، فأوعزوا إلى بعض النواب العرب الموالين لهم[1] بإرسال برقيات إلى الصحف يطلبون منها عدم التعرض للأمور التي أثارها شكري العسلي ، ويهيبون بها للتمسك بالجامعة الإسلامية العثمانية ونبذ النعرة الجنسية ، وتحاشي الضرب على نغمة (العرب والترك) ، وقد أثارت هذه البرقية معارضة المسيحيين الذين عبروا عن مخاوفهم من ترديد عبارة الجامعة الإسلامية العثمانية .

ولما كان العرب - حتى ذلك الوقت - لم يتطلعوا إلى أكثر من تطبيق الحكم اللامركزي في إدارة أقاليمهم ، وتوسيع صلاحيات هذه الإدارة اللامركزية فقد انضم كثير من العرب إلى حزب الحرية والائتلاف الذي تشكل في نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١١ ، وانضم إليه الحزب الحر المعتدل ، وانضم إلى الحزب الجديد النواب العرب المنشقون على حزب الاتحاد والترقي ، خصوصاً وأن برنامج الحزب الجديد كان ينص على « توسيع المأذونية وتفريق الوظائف ، إلا في مسائل الدفاع عن الوطن ، أو المنافع المشتركة بين الولايات ، مع بقاء مبدأ الرابطة العثمانية وشجب الاعتماد على الفكرة القومية والإسلامية التي تمنع الائتلاف الحقيقي واتحاد العناصر ، مع تسليم أعمال الولايات المحلية كالتعليم والأشغال العمومية والتجارة والصناعة والزراعة للإدارات المحلية »[2] .

ولم يستطع العرب في ذلك الوقت تشكيل حزب عربي صرف نظراً

(١) منهم فؤاد خلوصي نائب طرابلس الشام (وهو تركي) وعبد الوهاب قرطاس (البصرة) وسليمان الباروني (طرابلس الغرب) .
(٢) توفيق برو مرجع سبق ذكره ص ٣٠٢ .

لأن المادة الرابعة من قانون الجمعيات — كما سبق وأشرنا — كانت تمنع تشكيل الأحزاب أو الجمعيات السياسية على أساس قومى ، إذ كان ذلك العمل يعتبر خروجاً على الدستور والجامعة العثمانية ، وتسم القائمين به بالخيانة وإثارة النعرة الجنسية .

* * *

ولم تقتصر متاعب الاتحاديين على الأحداث الداخلية ، بل اقترنت ببعض الكوارث الخارجية بسبب اهتمام حركة الاتحاد والترقى بالمحافظة على الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها أمام ضغط بعض الدول الأوروبية ، وكان مما أثار هذه الدول أن ظلت الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت محتفظة ببعض الأقاليم المهمة فى أوربا مثل البوسنة والهرسك وكريت ومقدونيا ، وحتى بلغاريا ، ومن ثم لم ترحب روسيا والإمبراطورية النمسوية والمجرية بحركة تركيا الفتاة خشية أن تنجح فى أن تخلق من تركيا دولة كبرى قوية ، وبذلك يصير من الصعب على هذه الدول تحقيق أطماعها الاستعمارية ، ولذلك قررت الدول الأوروبية تغيير سياستها السابقة[1] . فسحبت ممثليها من هيئات المراقبة الدولية فى مقدونيا ، وبعد بضعة أشهر من إعلان المشروطية الثانية (٥ أكتوبر — تشرين أول ١٩٠٨) — أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة بصورة رسمية ، ولم تلبث أن أعلنت النمسا فى السابع من الشهر نفسه ضم مقاطعتى البوسنة والهرسك (ولربما بتشجيع ألمانيا التى فقدت نفوذها فى تركيا بعد الثورة مباشرة[2]) .

وفى خلال السنة الثانية من المشروطية اتحدت كريت مع اليونان ، وفى

---

(١) Emin : Turky in the World war (1930) p. 42

(٢) Emin : Ouv. Cit. p. 6.

Fisher. Sidney - The Middle East (19?0) pp. 312 — 3.

عام ١٩١١ قامت إيطاليا بالاستيلاء على طرابلس الغرب ، كما تحركت روسيا وحاولت أن تقنع الدولة بالسماح للسفن الحربية الروسية بالمرور فى المضايق ، وعندما رفضت — بتحريض بريطانيا وألمانيا — عمدت روسيا إلى تشجيع شعوب البلقان على التكتل بزعامة الصرب للعمل على تصفية ما تبقى من الممتلكات التركية فى البلقان ، فقامت حربا البلقان الأولى (١٩١٢) ، والثانية (١٩١٣) وكان من أهم نتائجهما انكماش الدولة العثمانية فى أوروبا بعد انهزاماتها المتكررة أمام الدول الأوروبية مما حدا بالأتراك إلى التركيز على ممتلكاتهم فى الشرق الأدنى وخصوصاً الولايات العربية[١].

تطور سياسة الاتحاديين تجاه القوميات فى الامبراطورية :

ولقد مرت سياسة الاتحاديين تجاه القوميات فى الامبراطورية عموماً وتجاه العرب على الخصوص فى الفترة ما بين توليهم الحكم وقيام الحرب العالمية الأولى بعدة أطوار ، أملتها الحوادث والظروف التى كانت تمر بها حكومة الاتحاديين ، والتى أشرنا إلى بعضها .

أما الطور الأول فقد كان طور العثمانية أو الجامعة العثمانية ، فإن أهم اتجاه لرجال الاتحاد والترقى عقب توليهم الحكم كان تحويل الإمبراطورية إلى أمة عثمانية يتساوى فيها رعايا السلطان على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم ومعتقداتهم مواطنين متساوين فى الحقوق والواجبات[٢] .

وعلى الرغم من هذه المساواة فإن هذا المبدأ لم يكن مقبولا لدى القوميات الأخرى غير التركية التى كان معنى تمسكها بالعثمانية تخليها عن قوميتها الأصلية

---

(١) د محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(٢) Tekin Alp : The Turkish and Pan-Turkish Id-al, 1915 p. 2, National Archives ; Washington .

ومن ثم كانت فكرة العثمانية فكرة غير طبيعية ليست لها جذور متأصلة بين شعوب الإمبراطورية ، ولذلك لم يكن مقدراً لها أن تكسب ولاء أحد ، ويشبه أحد المؤرخين الإنجليز هذه المحاولة ببنيان يشيد على الرمال[١] ، ولم يلبث أن عصف الاتحاديون بمبدأ المساواة بين مختلف العناصر والطوائف إذ اتجهوا نحو مراعاة مصالح الترك على حساب إخوانهم العثمانيين واتجهوا إلى حكم الإمبراطورية على أساس سيادة العنصر التركى ، وقد كان من العسير على الاتحاديين المضى قدماً فى سياستهم على أساس المساواة بين الأتراك وبين غيرهم من رعايا الدولة ، لأن حركة القومية التركية بدأت تشتد فى الأفق وكانت تهدف إلى إعلاء القومية التركية ، وكان هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ العثمانية ، ولم يفطن رجال الاتحاد والترقى إلى هذا التعارض ، وإذا كانوا قد فطنوا إليه فقد حاولوا التوفيق بينهما ، وهو أمر لا رجاء فيه لأنهم باتجاههم إلى هذا السبيل قد أثاروا القوميات الأخرى وخصوصاً العرب الذين طلب إليهم أن يخلصوا لمبدأ العثمانية . ثم اتضح لهم بعد ذلك أن الأمر مجرد إدعاء وأنه لا يعنى سوى أن يتخلوا عن قوميتهم وأن يستسلموا لسياسة التتريك من أجل الإبقاء على الوحدة[٢] .

وعلى الرغم من أن الاتحاديين فى بداية عهدهم كانوا ينادون بفكرة الجامعة العثمانية إلا أنهم من أجل المحافظة على كيان الإمبراطورية رسمياً وراء مصلحتهم كانوا يتمسكون بفكرة الوحدة الإسلامية أيضاً ويتشبثون بها كلما أحوجتهم الظروف واستخدموها فى حروبهم كالحرب الطرابلسية مع إيطاليا وحروب البلقان .

---

(١) Kedourie ; England and the Middle East. (1956) p. 59

(٢) Antonius : Op. Cit. pp 106 — 7.

ثم ظهر الاتجاه نحو التتريك على وجه الخصوص إثر فشل الانقلاب المضاد عام ١٩٠٩ إذ أصبحت مقاليد الأمور فى يد الأتراك الأحرار لا ينازعهم فيها منازع ، ومنذئذ عمدوا إلى سياسة تتريك الامبراطورية العثمانية فأصبحت اللغة الرسمية فى كل الولايات العثمانية هى التركية وأصبحت معاهد التعليم تركية محضة ، كما اقترن التتريك بمركزية فى الحكم ، وقوى هذا الشعور ، إذ أن الحركة القومية التركية الصرف بدأت تظهر فى الأفق ويرجع أساسها إلى توكيد الأصل الطورانى للشعب التركى مما أدى إلى الاعتقاد بأن وسيلة إحياء الشعب التركى إنما تكمن فى توحيد الشعوب المتشابهة والتى من أصل طورانى والتى كان معظمها تحت الحكم الروسى ، هذه هى فكرة الجامعة الطورانية وهدفها إعلاء القومية التركية وتأكيد الصلة بين الترك فى الامبراطورية العثمانية وإخوانهم فى وسط آسيا ، ومما قوى الاتجاه الطورانى لدى الاتحاديين أن فكرة الجامعة العثمانية لم تمنع روسيا من احتضان رعايا الدولة فى البلقان استناداً إلى الجامعة الصقلبية فكان هذا دليلا على أن رابطة القومية المشتركة أقوى من أى رابطة أخرى [١] .

والحركة الطورانية حركة تركية بحتة تقوم دعوتها على اعتبار أن الأتراك عنصر نقى ممتاز يكون قومية على غرار القوميات الأخرى ، فهى دعوة إلى الوطنية المتطرفة ، دعوة إلى تفوق قومية معينة على غيرها من القوميات وقد دعم زعماء هذه الحركة وجهة نظرهم بأساليب علمية دخلها كثير من المغالطة والتضليل شأنها شأن الحركة القومية القائمة على أساس جنسى كالنازية الألمانية [٢] ، وهدف هذه الحركة تكوين دولة تركية خالصة تضم شتات العناصر التركية المبعثرة ، وقد ظهر هذا الاتجاه الجديد نحو الطورانية فى أثناء الحرب البلقانية التى أثارت فى الترك نعرة القومية التركية وجعلتها تطغى

(١) Linczowski : The Middle East in world Affairs. (1957).

(٢) د . محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ١١٦/١١٨ .

على الوحدة العثمانية ، فقد أثارت كارثة البلقان فى الترك شعوراً جديداً ، إذ جعلهم يشعرون بأنهم يختلفون عن القوميات الأخرى فى الإمبراطورية ، كما أن تدفق الأعداد الكبيرة من اللاجئين الترك ، الهاربين من وجه المذابح التى نزلت فى البلقان ، على الآستانة والأناضول يروون قصص الاستشهاد وما عانوه على يد مسيحيى البلقان أثار شعوراً بالعطف على كل ما هو تركى والتعلق به ، وبذلك صار الترك الأحرار يعتقدون أن المعونة الحقة للامبراطورية المتداعية إنما يمكن أن تأتى من الشعوب التركية فقط (١).

وفى أواخر حرب البلقان (يوليو — تموز — ١٩١٣) استولى الترك على أدرنه عاصمتهم القديمة قبل القسطنطينية ، مما أثار ذكريات الانتصارات التركية القديمة وبعث الشخصية العسكرية للامبراطورية ، مما أدى إلى تدعيم دكتاتورية العناصر العسكرية فى جماعة الاتحاد والترقى بزعامة أنور باشا ، الذى كان متأثراً إلى حد كبير بالمدرسة العسكرية الألمانية . وقد اتجهت الحركة الطورانية إلى إحياء أمجاد الترك الأوائل وربط الأتراك المحدثين بتراثهم الحضارى القديم ، وتخليص الفكر التركى وآدابه من المؤثرات الفارسية والعربية ، وقد تمخض هذا الاتجاه عن تأسيس الأكاديمية التركية عام ١٩١٢ وترجمة القرآن إلى التركية ، وظهرت الدعوة إلى إنشاء لغة جديدة وأدب جديد فأنشىء اتحاد (يني لسان) أى اللغة الجديدة ، وتبعه اتحاد (يني حياة) أى الحياة الجديدة اللذين لم يلبثا أن أندمجا فى اتحاد واحد (٢) .

وقد ظهرت مقالات شديدة اللهجة حافلة بالشعور المعادى للعرب وذلك فى الصحيفة التركية المشهورة (إقدام) مما أثار شباب العرب وخاصة الطلبة الذين كانوا يعيشون فى الآستانة حتى نظموا مظاهرة اتجهوا بها إلى دار

---

(١) Saab : Ouv. Cit. p. 224 .

(٢) Tekin Alp : Ouv . Cit. pp. 6 – 7.

الجريدة وهاجموها بالحجارة ، ثم ذهب وفد منهم إلى رئيس الوزراء محتجين على نشر مثل هذه المقالات التي كان لها أيضاً صدى سيء في الأقطار العربية من الإمبراطورية إذا انبرت الصحف السورية والعراقية تدافع عن العرب وتهاجم الترك[١] .

وقد أساءت هذه الحركة الطورانية إلى الشعور القومي لدى القوميات غير التركية داخل الإمبراطورية ،وخاصة العرب والأرمن ،خصوصاً أنه في الوقت نفسه نما التيار القومي العربي .

فظهور الحركة الطورانية من ناحية والحركة القومية العربية من ناحية أخرى يحدد بداية انفصام عرى الوحدة الإسلامية في الشرق الأوسط[٢] .

ولقد لقي الاتجاه الجديد معارضة شديدة من كثير من كتاب الترك ومفكريهم وكذلك من رجال الدين ، وقد استخدمت الطائفة الأخيرة صحفها مثل (الصراط المستقيم) ، (سبيل الرشاد) واسمتي الانتشار من أجل معارضة الحركة التركية[٣] .

وبينما الزعماء الترك في جماعة الاتحاد والترقي يتجهون نحو التركية كان الزعماء غير الترك يتطيرون إلى خطتهم في الخط السابق بين الحقوق الدستورية والحقوق القومية ،وقد وصلت الخصومة مع القوميات الأخرى إلى ذروتها عندما أوعز زعماء الاتحاد والترقي الترك إلى البرلمان لمنع أي نشاط سياسي وثقافي يزاول على أساس قومي[٤] .

وهكذا نرى أن رجال الاتحاد والترقي في علاقتهم بشعوب الإمبراطورية

---

(١) Zeine : Ouv. Cit. p. 94.

(٢) د . محمد أنيس مرجع سبق ذكره ص ١١٦/١١٧ .

(٣) Tekin Alp : Ouv. Cit. p. 20-21.

(٤) Saab : Ouv. Cit. p. 225.

قد مروا بأدوار ثلاثة حسب احتياجات الدولة . أولها الاتجاه العثمانى أو الجامعة العثمانية لكسب العناصر غير الإسلامية فى الدولة إلا أنهم لم يلبثوا أن تحلوا عنها بعد قليل حين تجددت الاضطرابات القومية فى البلقان وفى أرمينية، فلجأ الاتحاديون إلى فكرة الجامعة الإسلامية لكسب المسلمين عامة، وخاصة لمواجهة مسيحى البلقان . إلا أن أملهم فى هذا الاتجاه لم يلبث أن تزعزع بسبب الثورات التى اشتعلت فى ألبانيا واليمن وحوران[١] ، ثم الحركة الطورانية ـ بعد حروب البلقان ـ لكسب التتر الواقعين تحت حكم الدول الأخرى والذين كانوا يعطفون على إخوانهم فى الجنس وهم فى محنتهم .

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد أظهرت إفلاس فكرة الجامعة الإسلامية حين وقف العرب ضد الترك وحالفوا بريطانيا، فإن الاتجاه الوحيد الذى بقى هو الاتحاد الطورانى الذى خرجت منه القومية التركية الحديثة .

ويحمل بعض الكتاب العناصر غير التركية مسئولية اتجاه الاتحاديين نحو الجامعة الطورانية لتمسك هذه العناصر باتجاهاتها الانفصالية رغم سعى الاتحاديين لاقامة (قومية محايدة) عن طريق عثمنة القوميات المختلفة فى الامبراطورية مما دفع الأتراك من ناحيتهم للشعور بأنهم يشكلون مجموعة متميزة فى الأصل واللغة والآمال[٢] مستندين إلى أن اليونان والبلغار والعرب الذين نزلوا من الجبال وألقوا السلاح يحتفلون بميلاد الدستور ويشاركون الترك الأحرار فى سالونيك ، لم يلبثوا أن عادوا تدريجياً إلى الجبال وإلى حمل السلاح لاستئناف النضال ضد السلطات التركية[٣] .

---

(١) Tekin Alp. Ouv. Cit p. 3.

(٢) Emin : Ouv. Cit, p. 188.

(٣) Tekin Alp. Ouv. Cit p. 3.

وحتى من تبنوا مبدأ التركية أو الطورانية من ساسة الدولة ومفكريها لم يتفقوا على اتجاه واحد ،فبعضهم كان يرى أن السياسة الطورانية السليمة تستلزم التخلى عن الأقطار غير التركية ، ولكن هذه الفئة كانت أقلية ضئيلة تكاد تنحصر فى (يوسف أقجورا) الذى كان يقول : إن الدولة العثمانية لا يمكن أن تعيش لأنها مؤلفة من عناصر وقوميات مختلفة وأنها ستموت لا محالة ، ولكن بعد موتها ستقوم دولة تركية لا تضم غير الأتراك ، وكان يتمنى أن تنفصل البلاد العربية بسرعة حتى لا يتأخر تحول الدولة العثمانية إلى دولة تركية قومية بكل معنى الكلمة .

ولكن أكثرية الاتحاديين — ولا سيما بعد انتهاء الحرب البلقانية وانفصال الولايات الأوروبية — كانوا يدعون إلى القومية التركية والسياسة الطورانية دون أن يعترفوا بحقوق القوميات الأخرى ،ولذلك كانوا يستنكرون حركات القومية العربية[١] .

تطور العلاقات بين العرب والدولة العثمانية بعد المشروطية :

وإزاء ما شهدناه من تطور أفكار ساسة الاتحاد والترقى كان لا بد وأن تكون اتجاهات هذه الحركة القومية العربية صدى لهذه الأفكار .

ويمكن تقسيم الحركة القومية فيما بين إعلان المشروطية عام ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية الأولى إلى دورين من عام ١٩٠٨ حتى ١٩١١ ، والثانى من عام ١٩١١ حتى ١٩١٤[٢].

---

(١) الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص١٢٣/١٢١

(٢) رامزور : مرجع سبق ذكره ص٢٤ (من مقدمة قولا زيادة) .
La verite Syrienne. p. 1, 13.

أما الدور الأول ، فهو دور الوفاق مع الحركة التركية القومية ، ذلك أن استبداد عبد الحميد كان قد شمل الولايات العربية فى الدولة كما شمل غيرها من أقاليم الامبراطورية ولذلك كان من الطبيعى أن يولد سقوط الاستبداد وإعلان الدستور فى جميع الولايات العربية موجة من السرور والإبتهاج وصار يحدو الجميع أمل قوى فى التقدم السريع فى ظل العهد الجديد وفق شعار الحرية والعدالة والمساواة الذى صارت تردده ألسنة الجميع وليس أدل على الوفاق فى هذه الفترة من تكوين جمعية الإخاء العثمانى .

أما الدور الثانى فيبدأ من عام ١٩١١ تقريباً ، وفى هذا الدور بدأت الحركة القومية العربية تتخذ لها موقفاً متميزاً بل ومعادياً للدولة العثمانية وللاتحاديين إذ اتضح لرجالات العرب بين ١٩٠٩ - ١٩١١ أن استمرار التعاون مع الاتحاديين مستحيل ، وأنه يجب عليهم أن يتخذوا الخطوات اللازمة للدفاع عن حقوق بلادهم والمحافظة على مصالحهم .

ولقد كانت سياسة الاتحاديين مسئولة عن ذلك الموقف إلى حد كبير ، فقد رأينا كيف دعوا إلى عثمنة الولايات التابعة للدولة ، وكان معنى ذلك أن القوميات الأخرى تذوب وتفقد ذاتيتها فى الدولة العثمانية ، ثم أصبح موقف العرب عدائيا صريحا حين تطورت حركة الجامعة العثمانية إلى الجامعة الطورانية وهى كما رأينا دعوة إلى تفوق واستعلاء الجنس التركى وطمس معالم المقومات العربية الأساسية وأمعن الاتحاديون فى سياستهم المركزية وفى حركة التتريك. ومن مميزات الحركة القومية العربية فى هذه الفترة أن التفكير القومى العربى أخذ يتضح ويتخلص إلى حد كبير مما كان قد عاق به من تفكير دينى إسلامى

سيطر على عقول العرب حتى نشوب الحرب العالمية ، و يتجلى ذلك فى الكلمات التى ألقيت فى مؤتمر الطلبة العرب فى باريس سنة ١٩١٢ عندما أعلن عبدالغنى العريسى أنه استناداً إلى تعريف علماء السياسة لمقومات الأمة من حيث وحدة اللغة والعنصر والتاريخ والعادات والمطمح السياسى فإن العرب على هذا الأساس يكونون أمة .

الفصل الثامن

الجمعيات العربية فى الشام والعراق

ولقد اتخذت الحركة العربية فى هذه المرحلة شكل جمعيات بعضها علنية وبعضها سرية ، وكان من أهمها :

المنتدى الأدبى :

وأول هذه الجمعيات ظهوراً كانت جمعية (المنتدى الأدبى) التى أسسها فى الآستانة منذ صيف عام ١٩٠٩ عدد من الموظفين والنواب والأدباء والطلبة ، لتكون ملتقى العرب الذين يقيمون فى عاصمة الدولة أو يزورونها ، فصارت بذلك مركزاً للوطنيين العرب يستطيعون فيه الاجتماع لتبادل الآراء ، وقد احتملت حكومة الاتحاديين وجودها لأن أهدافها الظاهرة كانت ثقافية وليست سياسية ، ومع هذا فقد كان لها بعض النشاط السياسى عندما كانت تقوم بالوساطة لتسوية الخلافات بين العرب وجماعة الاتحاد والترقى ، وقد انضم إليها كثيرون ، وكان لها فروع فى مختلف مدن الشام والعراق ، ولها نشاط فى القاهرة كذلك ، وظلت حتى عام ١٩١٥ حين أغلقتها الحكومة التركية[1]

وقد نظمت الجمعية محاضرات وتمثيليات قدمت فيها موضوعات من التاريخ العربى ، كما أنشدت فيها قصائد قومية حماسية ، وبذلك كان نشاطها أنموذجاً للأندية الثقافية القومية فى الوطن العربى . ويمكن أن نتعرف على الموضوعات التى تناولتها الأحاديث فى المنتدى من التقرير الذى وضعته قيادة الجيش الرابع التركى ، وجاء فيه أن مؤتمرات عقدت تناول فيها بعض الشخصيات مثل

---

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٩

Antonius : Ouv, Cit, pp. 108—9.

عبد الحميد الزهراوى وعزيز على وسليم الجزائرى والشيخ رشيد رضا موضوعات تاريخية تعالج بطريقة تساعد على خلق فكرة الاستقلال السياسى.

وقد انزعجت السلطات التركية على وجه الخصوص من قصيدة نشرت فى الصحيفة الناطقة بلسان المنتدى (وكانت تسمى لسان العرب ، ثم صار عنوانها المنتدى الأدبى) حول (الليل والنهار) ويذهب تقرير الجيش الرابع إلى أن القصد من هذه القصيدة هو تحريض العرب على الثورة ضد الترك[١].

حزب اللامركزية الادارية العثمانى :

أما الجمعية العلنية الأخرى فهى (حزب اللامركزية الإدارية العثمانى) وقد تأسس فى القاهرة قبيل نهاية عام ١٩١٢ . وكان هدف هذا الحزب إقامة نظام لامركزى فى الولايات العربية داخل إطار الدولة العثمانية ، وتعبئة الرأى العام العربى لتأييد هذا المطلب . وكان مؤسسو هذا الحزب من المهاجرين السوريين فى مصر مسلمين ومسيحيين ، وكان للحزب فروع فى مدن الشام كما كان على اتصال بالجمعيات الأخرى فى الشام والعراق ، ومع المنتدى الأدبى فى الآستانة[٢]

أما سبب اختيار القاهرة مقراً لهذا الحزب فيرجع إلى أن مصر رغم تبعيتها الرسمية للدولة العثمانية كانت خاضعة من الناحية الفعلية لسلطات الاحتلال البريطانى . ولذلك لم يكن من السهل على السلطات العثمانية أن تتعقب نشاط هذا الحزب . كما أن العلاقات (السيئة) فى هذا الوقت بين الدولة العثمانية وبريطانيا جعل الأخيرة ترحب بهذا النشاط الموجه ضد الدولة العثمانية ، شريطة ألا يمتد إلى القضية المصرية ، وأن يظل محصوراً فى قضية العرب فى الولايات العثمانية ، حتى ليؤكد البعض أن المعتمد البريطانى كتشنر كان على علاقة طيبة بهذا الحزب[٣] .

---

(١) Saab : Ouv, Cit p. 229.

La verité sur la Question Syrienne, p. 19.

(٢) Antonius Ouv. Cit, pp 109 – 110.

(٣) د. محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٧٠/٢٧١ .

وقد اعتبر تقرير الجيش الرابع حزب اللامركزية مركز الانفصاليين العرب واتهم الحزب بالتعاون مع الجبهة المعارضة للاتحاد والترقى ، بقصد الاستيلاء على الحكم . وقد كان من الطبيعى أن يتعاون حزب اللامركزية مع معارضى الاتحاد والترقى الذين كانوا ينادون باللامركزية أيضاً .

الجمعية القحطانية :

وفى تلك الأثناء قامت جمعيتان سريتان أولاهما الجمعية (القحطانية) التى أنشئت قبل نهاية عام ١٩٠٩ وبعد المنتدى الأدبى بقليل ، واشترك فى تأسيسها عزيز على (المصرى) ، وكان أعضاؤها من ذوى الجرأة ، وكذلك كان مشروعهم جريئا ، فقد كانوا يهدفون إلى تحويل الامبراطورية العثمانية إلى دولة ثنائية ، بحيث تتكون من الأقاليم العربية دولة واحدة ، لها برلمانها وحكوماتها المحلية ولغتها العربية ، ويتولى الملك فيها السلطان العثمانى ، إلى جانب حكمه الدولة التركية ، وذلك على نمط إمبراطورية النمسا والمجر ، واعتبروا أنه بذلك تقوم علاقات الترك والعرب على أساس أكثر ثباتاً لأنه أكثر واقعية[١] .

وقد اختير أعضاء الجمعية بدقة ممن كانوا موضع ثقة ولا يرقى الشك إليهم، وقد انضم إليها عدد من الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، وعندما وصل خبرها إلى السلطات التركية اختفت من تلقاء نفسها ، وانضم بعض أعضائها إلى جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد .

ولم يكن اتجاه القحطانية نحو الحكم الثنائى فى نطاق الامبراطورية العثمانية مقصوراً على أحرار العرب بل جاءت هذه الفكرة الثنائية فى أذهان

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. p. 110.

بعض القوميين الأتراك ، فهذا ضيا جوكالب ـ الذى يعتبر الأب الروحى للقومية التركية ـ كان يأمل أن يأتى يوم تستطيع فيه القوميات غير التركية فى الإمبراطورية أن تعيش متعاونة وفى وئام مع الترك ، وقد اقترح قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بقليل إنشاء دولة ثنائية تحت اسم الدولة التركية العربية تحت حكم الخليفة العثمانى . وفى عام ١٩١٨ اقترح إنشاء اتحاد من دولتين مستقلتين الأناضول التركية وعربستان وقال إن هذا الاتحاد أمر طبيعى لأسباب جغرافية ودينية وحيوية من أجل سلامة الأمتين ، ولو أنه أعلن أن مثل هذا النظام سيكون مفيداً للعرب الذين ينقصهم التنظيم المدنى والعسكرى لأنهم سوف يتعرضون لسيطرة الدول الأجنبية بمجرد أن ينفصلوا عن إخوانهم الترك[١].

جمعية العربية الفتاة :

أما الجمعية السرية الأخرى فكانت جمعية العربية الفتاة التى أنشئت فى باريس على يد دكتور أحمد قدرى وعونى عبد الهادى ورستم حيدر وتوفيق الناطور وغيرهم من شباب العرب فى أثناء دراستهم فى باريس ، وكان اسم الجمعية بادىء الأمر جمعية (الناطقين بالضاد) حين أسست فى باريس فى ١٤ نوفمبر (تشرين ثان) سنة ١٩٠٩ ثم أصبح اسمها (العربية الفتاة) منذ عام ١٩١١[٢].

وكانت الجمعية تهدف إلى النهوض (بالأمة) العربية وتمتعها بالحكم الذاتى، أى عدم الانفصال عن الترك ، ثم عدل البرنامج بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وأصبحت الجمعية تسعى إلى الاستقلال عن الترك تماما وإنشاء دولة عربية ذات

(١) Zeine : Ouv. Cit. pp. 81 — 2.
(٢) Ibid pp. 80 – 81.

سيادة فى المنطقة العربية غربى آسيا(١)

وهذه الجمعية ـ كما يقول انطونيوس ـ تعيد إلى الذاكرة جمعية بيروت السرية (١٨٧٥) مع فارق واحد وهو أن القيادة انتقلت إلى أيدي المسلمين، وكان يتبع فى قبول الأعضاء نظام دقيق فلا يقبل عضو إلا بعدالتأكد من أنه موضع ثقة ، وكان الأعضاء لا يعرفون بعضهم البعض . وظل مقر الجمعية فى باريس لمدة عامين ، وبعد أن تخرج أعضاؤها وعادوا إلى وطنهم انتقلت إلى بيروت١٩١٣ثم إلى دمشق ، وازداد عدد أعضائها وكان معظمهم من المسلمين. وظل نشاطها فى طى الكتمان حتى النهاية . وفى أثناء الحرب ، وعندما كان أحرار العرب يساقون إلى المشانق لم يبح أحدهم بسر الجمعية(٢).

وإلى جانب هذه الجمعيات كانت هناك أخرى ولو أنها أقل أهمية تتمثل فى جمعية (الجامعة العربية) التى أنشأها فى القاهرة السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار بعد عودته من رحلته إلى الآستانة عام١٩٠٩/١٩١٠إذا صار يعتقد بعدم إمكان التعاون بين العرب والترك ، وكان يهدف إلى إيجاد تحالف بين أمراء شبه الجزيرة العربية ، ثم التعاون على عمران البلاد وإيجاد صلة بين الجمعيات العربية فى الشام والعراق(٣) .

جمعية بيروت الاصلاحية :

وفى أواخر عام ١٩١٢ ظهرت فى الأفق حركة عربية أخرى تتمثل فى نشاط جمعية بيروت الإصلاحية، فقد كان الزعماء المسلمون يخشون أطماع فرنسا الاستعمارية متذرعة بسوء أحوال الدولة وعجزها ، فانتهزوا فرصة ما حل بالدولة من هزيمة فى حرب البلقان للتقدم بمطالبهم ، فاجتمع أعيان بيروت

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٩ .

(٢) Antonius : Ouv, Cit. pp, 111—112

(٣) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٤٩ — ٥٠

مسلمون ومسيحيون وكان عددهم ستة وثمانين[١] يمثلون كل الطوائف فى دار بلدية بيروت فى الحادى والثلاثين من يناير (كانون أول) عام ١٩١٣ . وفى هذا الاجتماع وضع المندوبون مشروعا من خمس عشرة مادة تحددت فيه مطالبهم ، وقد نصت المادة الأولى فى هذا المشروع على أن تظل الولاية خاضعه للقوانين الأساسية للامبراطورية فى المسائل ذات الطابع العام كالعلاقات الخارجية وشئون الدفاع والمالية والمواصلات الرئيسية التى تظل من اختصاص الحكومة المركزية ، أما المسائل والخدمات ذات الطابع الإقليمى المحلى فإنها تكون من اختصاص مجلس يمثل الولاية ، ويتكون ـ كما جاء فى المادة الثالثة ـ من ثلاثين عضواً ، منهم خمسة عشر من المسلمين والباقى من غير المسلمين .

ونصت المادة الثانية على أن الوالى يعتبر ممثلا الحكومة المركزية من ناحية ، ولذلك فعليه تنفيذ القوانين وتعليمات الآستانة ، إلا أنه من ناحية أخرى يعتبر ممثلا للولاية وعليه تنفيذ القرارات التى يصدرها مجلس الولاية ، ورسمت حدود معينة يستطيع فيها الوالى وقف تنفيذ قرارات المجلس .

كما كان من بين مطالب الجمعية أن يكون تعيين كبار الموظفين صادراً من الحكومة المركزية بشرط معرفتهم باللغة العربية ، أما بقية الموظفين فينبغى أن يكونوا من أهل البلاد . كما اشترطت الجمعية (المادة ١٤) أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للولاية تجرى بها كافة المعاملات . كما تعتبر لغة رسمية إلى جانب اللغة التركية وعلى قدم المساواة معها فى مجلسى المبعوثان والأعيان ،

---

(١) National Archives, Washington : The Desires of the Syrians (Report by E. H. Byrne — October, 7. 1918).

وفيما يختص بالخدمة العسكرية ، فقد اشترطت الجمعية أن يقتصر استخدام الوحدات المجندة من الولاية على بلادها فى وقت السلم(١).

وفى منتصف فبراير (شباط) سنة ١٩١٣ أذاعت جمعية بيروت الإصلاحية خطتها التى تضمنت المبادىء السابقة وحظيت بتأييد شعبى كبير فى أقاليم الشام وبغداد والبصرة والقاهرة ، كما أرسلت البرقيات إلى حكومة الآستانة تعتبر البرنامج تعبيراً عن الأمانى فى كافة الأقاليم العربية . وفى مارس (آذار) قدمت الجمعية إلى الوالى مذكرة بهذه الإصلاحات ، ولما كانت جماعة الاتحاد والترقى - التى عادت إلى الحكم بعد وزارة كامل باشا - تعارض أى اتجاه نحو اللامركزية ، فقد اتخذت الإجراءات لإخماد الحركة ، وفى ٨ أبريل (نيسان) تدخلت الشرطة لفض أحد الاجتماعات ، كما صدرت التعليمات من حكومة الآستانة إلى الوالى بإغلاق نادى الإصلاحيين وحل الجمعية ، كما اعتقل ثلاثة من أعضائها واثنان من التجار المتصلين بها وقدموا للمحاكمة العسكرية ، وقد عبر الشعب عن غضبه وخيبة أمله وأغلق التجار متاجرهم احتجاجا إلى أن يتم الإفراج عن المعتقلين وظهرت الصحف مجللة بالسواد ،وأرادت الحكومة أن تواجه هذا التحدى بتنظيم مظاهرة فى مدينة بيروت ضد الإصلاحيين ، مما دعا القنصل الأمريكى إلى التلميح للوالى بأنه فى حالة اشتداد الاضطرابات. فإن السفينة الحربية الأمريكية مونتانا الراسية وقتئذ فى بيروت سوف تنزل بعض القوات من أجل المحافظة على الرعايا الأمريكيين .

وقد لاحظ القنصل الأمريكى فى تقريره هذا بتاريخ ١٤ أبريل (نيسان)

---

(١) أمين سعيد مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢٠ — ٢٣ ، ثورة العرب ص ٦٢/٦٧ بقلم أحد أعضاء الجمعيات العربية .

سنة ١٩١٣ أن التصميم الهادىء المنظم بين سكان بيروت ، وكذلك الوحدة بين المسلمين والمسيحيين أمران لم يسبق لهما مثيل ، وأعرب عن اعتقاده بأن بأى إجراء رجعى من جانب الحكومة سيعجل بنشوب أزمة خطيرة ، ويزيد من وحدة كل العناصر العربية ضد الترك بينما إذا منحت بعض الامتيازات ونفذت ، فإن ذلك يدعم حركة الإصلاح ، وأضاف القنصل الأمريكى أن الدلائل تشير إلى أن الحكومة سوف تقتصر على الوعود كما كان الحال فى الماضى إلى أن يهبط تدريجيا الحماس الذى وحد بين كافة العناصر[١].

وفى عدد صحيفة الاجيشان جازيت Egyptian Gazette الصادر فى القاهرة فى ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٣ ظهر مقال بعنوان (ترك وعرب) شبه موقف العرب داخل الدولة العثمانية بموقف الصقالبة داخل إمبراطورية النمسا ، وأشار إلى أنه إذا كانت رابطة الآلام ربطت حتى ذلك الوقت العرب بالترك فلا بد وأن تنتهى هذه الحالة ويشب الصراع بينهما ، وعرضت الصحيفة لما بعث به مراسلها فى بيروت عن الوئام والتعاون بين المفكرين العرب على اختلاف نزعاتهم سواء الوطنيين المتطرفين أو أنصار الجامعة الإسلامية[٢] .

وإزاء برقيات الاحتجاج التى انهالت على الحكومة العثمانية من كافة الأقطار العربية والمظاهرات الصاخبة التى قامت احتجاجا على إجراءاتها لجأت الحكومة إلى سياسة الملاينة بإطلاق سراح الزعماء المعتقلين وإصدار الوعود بالإصلاح ، وفى ٥ مايو (آيار) ١٩١٣ صدر قانون جديد للولايات

---

(١) National Archives (Washington) : Political Affairs in Turkey, Report no. 523: from Beirut (April 14, 1913)

(٢) Ibid. Report no. 527, from vice — American consul in Beirut to Secretary of State (April 21, 1913).

لكنه لم يحقق أهداف جمعية بيروت ، بل كان يمتهن إجراء مقنعاً نحو إحكام المركزية وتقوية قبضة العاصمة على الأقاليم العربية وخنق الحريات فيها[١] .

وبعد أن رفضت حكومة الاتحاديين مطالب الإصلاحيين بدأ الاتحاديون حملة فى الصحافة الموالية لهم ، فنشرت صحيفة (الحق يعلو) التى كانت تصدر فى الآستانة تحت إشراف الشيخ عبد العزيز جاويش المقالات ، محاولة إثارة تعصب المسلمين باتهام المسيحيين فى الدولة العثمانية بأنهم عملاء سريون لأوروبا وخونة للوطن الإسلامى ، كما أرسلت جمعية الاتحاد والترقى العملاء إلى الشام لبذر الشقاق بين المسلمين والمسيحيين ، كما حاول حازم بك الوالى العثمانى كسب زعماء المسلمين بإغرائهم بالوظائف وزعماء المسيحيين بالامتيازات الاقتصادية ، ولكنهم — كما جاء فى مقال الإجبشيان جازيت الذى نشر فى عدد ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩١٣ — فطنوا إلى هذه المحاولة « ومن العدل والإنصاف لهم الإقرار بأن حماسهم الوطنى ارتفع فوق الاعتبارات والمصالح الشخصية ، بل إنه بعـــد أن رفضت الحكومة العثمانية الاستجابة لمطالب الإصلاحيين فى بيروت اعتقال الموظفون احتجاجاً ، وتعاونت الصحف المعبرة عن رأى المسلمين والمسيحيين على السواء ، وعندما احتشدت جماهير الشعب فى ساحة المعتقل مطالبين بإطلاق سراح أعضاء لجنة الإصلاح المعتقلين خاطب هؤلاء الجماهير يطالبونهم بالثبات وعدم الاستسلام فلم يتمالك الضباط العرب أنفسهم فعبروا بصراحة عن مشاركتهم لمواطنيهم فى مشاعرهم ، والأمر الذى لا مراء فيه أن الشعور الدينى الذى كان يتملك العرب المسلمين منذ قرون فى ظل الحكم العثمانى قد حل محله الشعور القومى[٢] ، ولو أن الترك

---

(١) Antonius : Ouv, Cit. pp. 113 – 114

(٢) National Archives (Washington) : Politcal Affairs in Turkey, Report no. 539 from American Vice-consul in Beirut =

ظلوا يعتقدون أن فكرة الاستعانة بمستشارين أوربيين التي وردت ضمن برنامج جمعية بيروت الإصلاحية قد أدخلتها العناصر المسيحية الكاثوليكية التي كانت تحاول تمهيد الطرق لإقامة حماية فرنسية على الشام ، وأن بعض هؤلاء الزعماء المسيحيين كتبوا لقنصل فرنسا في بيروت يؤكدون ذلك .

ومع ذلك فإنه إذا كان بعض مؤسسي جمعية بيروت من المسيحيين يعتزمون أن تكون جمعيتهم ستاراً للسيطرة الفرنسية ، فإن الأعضاء المسلمين لم يكونوا مقتنعين بضرورة الحاجة إلى سيطرة أجنبية ، فأعلنوا في كل مناسبة أنهم إنما يسعون من أجل الإصلاح أو الاستقلال ، وليس من أجل الاحتلال الفرنسي ، وقد وجه وفد من جمعية الإصلاحية نداء إلى وزير خارجية فرنسا ، وكان أحد أعضاء الوفد المسلمين هو (مختار بيهم) الذي أعلن للوزير الفرنسي « إننا نحترم الفرنسيين ، ولكننا لا نريدهم سادة علينا ، إننا سننشد مساعدة فرنسا لتحسين حالتنا بشرط أن نظل عثمانيين، ولن يرحب السوريون بالفرنسيين كما قيل لكم »[1] .

الحركة القومية في العراق :

أما العراق فقد تأثر — كما تأثر غيره من أقطار المشرق العربي — بما كان يجري في أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، فقد شمله المرح أيضاً لثورة عام ١٩٠٨ وصار له نواب في البرلمان العثماني وفي الآستانة إلتقى النواب العراقيون بزملائهم السوريين وكونوا جبهة واحدة في المجلس واشتركوا في المنتدى الأدبي ، وعندما كانوا يعودون إلى العراق كانوا ينشرون الأفكار

(May 6, 1913) enclosure : extracte from « Egyptian Gazette »= of April 26, 1913.

(1) La Verite Sur la Question Syrienne p. 82.
Saab : Ouv, Cit. p, 232.

الجديدة التى صاروا يؤمنون بها خاصة إزاء اتساع الهوة بين الترك والأماني العربية ، فاتصل العراقيون بالجماعات السرية العربية مثل القحطانية والفتاة وحزب اللامركزية الذى انتشرت مبادئه فى بغداد والبصرة كما شهد العراق بين عامى ١٩١٠ — ١٩١٤ تطوراً ملحوظاً فى الصحافة ، فقد توالى ظهور الصحف العربية والتركية تدعو إلى القومية العربية ، وتعبر عن شكوكها ومخاوفها إزاء أطماع الأجانب(١) .

وهكذا كانت فى العراق فى ذلك الوقت حركة مماثلة للحركة فى الشام ، وإن اختلفت فى قوتها بسبب اختلاف المستوى الثقافى ، فقد كتب القنصل الأمريكى فى بغداد إلى حكومته تقريراً بتاريخ ١٧ مارس (آذار) ١٩١٣ ذكر فيه أن « عرب العراق يشتركون فى الحركة التى تهدف إلى إقامة حكم ذاتى إن لم يكن الاستقلال التام عن الدولة العثمانية ، وأنهم انضموا إلى جمعية سرية (اللامركزية) مقرها القاهرة ، ولها فروع فى ولايات بغداد والبصرة والموصل وهدفها الحصول على الاستقلال لهذه الولايات الثلاث . وثمة شائعة بأنهم يهدفون إلى إقامة دولة عربية تكون عاصمتها دمشق » واستطرد القنصل الأمريكى فى تقريره ، فذكر أن الوطنيين فى البصرة بعثوا بذكرة إلى حكومة الآستانة ، يطالبون باستقلال ذاتى واسع وخاصة احتجاز الضرائب التى تجمع من الولاية لكى تنفق عليها ، وأن الحكومة العثمانية وعدت ببحث ما جاء بهذه المذكرة ، ولكن الوطنيين فى البصرة مصممون على نيل الاستقلال ، وأن السيد طالب (النقيب) يتزعم هذه الحركة ويتجول بين مختلف جهات العراق محاولا جمع شمل المشايخ والرؤساء .

أما فى بغداد — كما جاء فى تقرير القنصل الأمريكى ذاته — فإن الشرطة

---

(١) Longrigg "Iraq" from : 1900—1950 (1956) pp. 48-4.

وضعت يدها على أحد المنشورات التى أصدرتها الجمعيات السرية ، وكان المنشور بعنوان : « الصرخة الأولى » . وأن الوطنيين فى بغداد طلبوا من الوالى العثمانى أن يغادر هو وهيئة الإدارة العثمانية البلاد ، وذكر القنصل الأمريكى أن قوة الحركة القومية فى العراق غير معروفة تماما بسبب السرية التى تحيط بها ، ولكنه سمع أن الجمعية تضم بين أعضائها عدداً من الضباط العرب ، وأن ذلك يعطيها ولا شك قوة .

ويشير القنصل الأمريكى كذلك إلى أنه التقى بأحد الوطنيين فى بغداد الذى ذكر له أن الإمبراطورية العثمانية على وشك الانهيار ، وأن عرب العراق يكرهون الحكم العثمانى نظراً لأنهم يؤدون ضرائب فادحة ولا ينالون شيئاً مقابلها ، وقد سأله القنصل عما إذا كان عرب العراق يفضلون الخضوع لبريطانيا ، فأجاب بأنهم يفضلون الاستقلال[1] .

وكما فعلت فى الشام حاولت السلطات التركية أن تخمد هذا الصوت بشتى الوسائل بيذر الخلاف بين عرب العراق ، ففى صحيفة (الزهور) الصادرة ببغداد فى الحادى والعشرين من أبريل (نيسان) سنة ١٩١٣ ظهر مقال افتتاحى يتهم اللامركزية بأن مطالبها تتعارض مع العقيدة الإسلامية التى تدعو إلى الوحدة بينما اللامركزية تؤدى إلى تفكك الإمبراطورية الإسلامية ، كما أشار المقال إن أن سكان العراق أجهل من أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وأن دعوة المستشارين الأجانب سوف تؤدى إلى زيادة التدخل الأجنبى . كما تضمن عدد الزهور الصادر فى الثامن والعشرين من أبريل (نيسان) حديثاً

---

(١) National Archives (Wahsington) : Political Affairs in Turkey, Doc, no. 517, from American Consulate in Baghdad to Secretary of State (March 17, 1913).

لأحد العلماء فى اجتماع لهم بالنجف دعا فيه إلى حرب دينية مقدسة للوقوف فى وجه النفوذ الأجنبى « الذى سيؤدى إلى تحويل المساجد إلى كنائس »[١] .

وقد استغل الترك احتلال (عبد العزيز آل سعود) أمير نجد لإقليم الحسا لزيادة مخاوف أنصارهم فى العراق من النفوذ الأجنبى ، ففى مقال فى صحيفة (الزهور) فى عددها الصادر فى السادس والعشرين من مايو (آيار) أشار إلى أن البريطانيين هم الذين حرضوا ابن سعود على الاستيلاء على الحسا (وقد وقع عقب زيارة كابتن شيكسبير ممثل بريطانيا السياسى فى الكويت) « مما يجعل المحتمل وقوع العراق تحت النفوذ البريطانى قريباً[٢] .

جمعية البصرة الاصلاحية :

ومع ذلك فقد استمر أنصار اللامركزية فى نشاطهم ، فأخذت جمعية البصرة الإصلاحية تدعو إلى الحكم الذاتى الكامل لولايات الإمبراطورية العثمانية جميعاً ، ووضعت لذلك برنامجا ولو أنه كان من أجل جميع الولايات العثمانية إلا أنه وضع خصيصاً لولاية البصرة . وفى الخامس والعشرين من سبتمبر (أيلول) ١٩١٣ بعث القنصل الأمريكى ببغداد إلى حكومته بترجمة لبرنامج جمعية البصرة الإصلاحية التى كان يرأسها السيد (طالب النقيب) جاء فيها نص على أنه لن يعطى أى امتياز للأجانب فى البلاد ، وأن الأمور العامة مثل السياسة الخارجية والجيش وغيرها ستكون من اختصاص الحكومة

---

(١) Ibid, Doc, no. 548. from American consulate, Baghdad to American Embassy constantinople (May 3, 1913)

(٢) Ibid, Doc, no. 566 from American Consulate, costantinople to Secretary of state (July 31, 1913, enclosed: Report from American consul in Baghdad to American Embassy, Constantinople (June 9, 1913).

المركزية ، أما الشئون المحلية فستكون تحت إشراف المجلس العمومى الذى يتكون فى كل ولاية من أعضاء يختارون لمدة أربع سنوات بحيث يمثل كل عضو ١٢٫٥٠٠ من السكان ، وكانت مهمة الوالى — كما حددها البرنامج — هى لتنفيذ تعليمات الحكومة المركزية والمجلس العمومى على السواء .

وقد كان للمجلس العمومى المذكور أهمية فى برنامج جمعية البصرة إذ وضعت فى يده السلطة العليا فى الشئون الداخلية المتصلة بتقدم الولاية ورفاهيتها ، ولما كان المجلس لا يضم بين أعضائه أحداً من موظفى الولاية ، فإنه لذلك كان يتمتع باستقلال ونفوذ كبيرين بحيث يتمكن من متابعة تنفيذ القرارات والتفتيش على الأعمال العامة فى الولاية

ونص البرنامج على أن تعين الحكومة المركزية الوالى على أن يكون من أبناء العراق كما يجب أن تستشير الحكومة المركزية المجلس العمومى فى فى تعيين القضاة والمتصرفين ومديرى الجمارك وغيرهم على أن يكون هؤلاء جميعاً على معرفة تامة باللغة العربية .

وأجاز البرنامج للمجلس العمومى الحق فى عزل الوالى بشرط موافقة أغلبية الثلثين من الأعضاء ، كما نص على أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الإدارات الحكومية والمحاكم ولغة التعليم فى المدارس مع التوصية بتشجيع دراسة اللغة التركية(١) .

إلا أن المجلس العمومى الذى أنشىء لولاية بغداد لم يكن يتمتع بالسلطة

---

(١) National Archives (Washington) : political Affairs in Turkey, Doc. no, 586 from American consultate, Baghdad to Secretary of state (Sept. 25, 1913).

المرجوة ، ففى تقرير لنائب القنصل الأمريكى فى بغداد بتاريخ ١٥ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٣ أن المجلس العمومى الذى أنشىء مؤخراً بأمر حكومة الآستانة كان عمله عديم الجدوى ولم تكن له أية فائدة ، فقد كان الوالى هو المسيطر على ما يجرى فيه من مناقشات ، إلا أنه من المهم أن نشير إلى ما ورد فى تقرير نائب القنصل الأمريكى — من أنه فى إحدى جلسات هذا المجلس قام أحد الأعضاء ويدعى (فؤاد أفندى) وأعلن أن العراق كان ويجب أن يكون ملكا للعراقيين على غرار مبدأ (مصر للمصريين) ولم يصدق الوالى أذنيه فاستعاد ما قاله العضو العراقى الذى لم يتردد فى إعادة ما قاله على مسامع الحاضرين[1] .

وإزاء عدم تنفيذ مطالب الجمعيات الإصلاحية فقد صار الأحرار العرب حتى المعتدلون منهم يعتقدون باستحالة التعاون مع رجال الاتحاد والترقى .

مؤتمر باريس :

لذلك فإنه عندما دعا حزب اللامركزية والعربية الفتاة إلى عقد مؤتمر فى باريس فى يونيو (حزيران) ١٩١٣ اشترك فيه ممثلون عن كافة الجماعات الوطنية العربية وحضره مندوبون عن الشام والعراق (وكان يمثله عضوان) وكذلك بقية الأقطار العربية (على نطاق ضيق) كما حضر بعض الأعضاء ممثلين للجاليات العربية فى الولايات المتحدة .

وقد جاء فى الدعوة لعقد المؤتمر أنه فى مقدمة الأسباب التى دعت إليه حالة الفوضى والاضطراب التى شملت الأقاليم العربية نتيجة إنكار مطالبها مما يعرضها للتدخل الأجنبى ، وأعلن أن المسائل التى سيدور حولها البحث

---

(١) Ibid, Doc, no, 592 from American Vice – Consul Baghdad to Secretary of State (Nov. 15, 1913).

فى المؤتمر هى : حقوق العرب فى الدولة العثمانية ، وضرورة الإصلاح على أساس اللامركزية ، الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .

وفى الثامن عشر من يونيو (حزيران) ١٩١٣ بدأ المؤتمر أول جلساته التى بلغت أربعاً على مدى ستة أيام (١٨ — ٢٣ يونيو حزيران) عقدت فى قاعة الجمعية الجغرافية بشارع (سان جرمان) وكانت المناقشات تدور بالفرنسية .

وقد اتسمت قرارات المؤتمر بالصراحة والاعتدال . فقد أكد الرغبة فى تمتع العرب بالحقوق السياسية كاملة والاشتراك فعليا فى إدارة شئون الإمبراطورية ، كما طلب بأن تنشأ فى كل ولاية عربية إدارة محلية ، وأن تصبح العربية لغة رسمية إلى جانب التركية فى البرلمان العثمانى - وأن تكون رسمية فى الولايات العربية ، وأن تكون الخدمة العسكرية محلية تقتصر على الأقاليم العربية إلا فى حالة الضرورة القصوى .

وقد أكد المتحدثون رغبتهم فى المحافظة على كيان الدولة العثمانية شريطة الاعتراف بحقوق العرب فى نطاق حكومة لا مركزية ، ولم يطالب أحد بالانفصال عن الدولة العثمانية ، وقرر المؤتمر إبلاغ قراراته إلى الحكومة العثمانية والحكومات الأوربية وشكر الحكومة الفرنسية لترحيبها بهم[1] . إلا أنه فى الوقت نفسه أعلن أحد الأعضاء وهو أحمد مختار بيهم أن الوطنيين العرب لا يرضون أن تكون فرنسا أكثر من معضدة لهم فى إصلاح شئونهم مع بقائهم عثمانيين ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إسكات أولئك الذين أشاعوا أن المؤتمر عقد لخدمة السياسة الفرنسية وأن غايته طلب المساعدة الفرنسية[2] .

وكان من الطبيعى أن تعارض حكومة الاتحاديين هذا الاتجاه نحو اللامركزية وبذلت مساعيها لبذر بذور الشقاق والخلاف بين زعماء المؤتمر ، وحاولت إقناع الحكومة الفرنسية بمنع عقد المؤتمر فى الأراضى الفرنسية ، ولما ذهبت

(١) Samné, G, La Syrie, pp, 89—91

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٣١/٢٩ .

كل هذه المحاولات سدى لم يجد الاتحاديون مفراً من تغيير وسيلتهم فبعثوا بسكرتير جماعة الاتحاد والترقى وهو مدحت شكرى بك إلى باريس للتفاوض مع زعماء المؤتمر وأمكن التوصل الى اتفاق على أسس اعتقد قادة العرب أنه يمكن قبولها كمقدمة لمفاوضات تالية ، وسافر ثلاثة من العرب إلى الآستانة لبدء المفاوضات الرسمية ، وقد بعث هذا الاتفاق آمالا عذبة فى نفوس الوطنيين العرب حتى أن أحدهم وهو أحمد طوبارة أعلن من بيروت مؤكداً ولاء العرب للإمبراطورية العثمانية[1] .

ورغم استقبال الوفد العربى استقبالا طيباً فإن الاتحاديين لم تكن لديهم نية تنفيذ الاتفاق ، وإنما كانت غايتهم تهدئة مشاعر العرب الثائرة ، ولذلك فإنه فى الثامن عشر من أغسطس (آب) ١٩١٣ صدر أمر سلطانى بتنفيذ اتفاقية باريس ، ولكن بعد تعديل كبير بحيث طمست كل معالمها ، ففيما يختص باللغة العربية نص القرار على استخدامها كأداة للتعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية مع إضافة نص على أن تستمر المدارس الثانوية فى عواصم الأقاليم ، فى التعليم باللغة التركية ، وقد كانت كل المدارس الثانوية تتركز فى عواصم الأقاليم ، ولم يرد ذكر استخدام اللغة العربية كلغة رسمية أو اعتبارها إحدى اللغات الرسمية فى الأقاليم العربية ، ولم يرد ذكر شىء عن الوظائف التى تقرر حفظها للعرب فى إدارة الولايات والوزارة ، وقد أحس العرب بخيبة أمل كبيرة ويأس ، وفى الوقت نفسه سعى الاتحاديون إلى التقرب إلى بعض الشخصيات العربية وإغرائهم بالوظائف ، من ذلك تعيين خمسة من العرب أعضاء فى مجلس الأعيان فى ٤ يناير (كانون ثان) ١٩١٤ كان أحدهم عبد الحميد الزهراوى الذى كان يرأس مؤتمر باريس[2] ، مما جعله موضعاً

---

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٣٦ .
Saab : Ouv. Cit. p. 234

(٢) أمين سعيد : المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨/٣٩ ، ثورة العرب ص ٩٩ .

لنقد معظم الوطنيين العرب لموافقته على التعاون مع الاتحاديين ، وأرسل إليه عزيز على المصرى رئيس حزب العهد ثلاثة من العرب هم جميل المدفعى ويوسف العزاوى وسعيد التكريتى لإثنائه عن التعاون مع الحكومة التركيه[١].

وحاول الزهراوى فى خطاب منه إلى السيد محمد رشيد رضا فى القاهرة مؤرخ فى السادس عشر من يناير (كانون ثان) ١٩١٤ أن يدافع عن نفسه ، ويبرر موقفه وسياسته . فذكر أنه استطاع أن يفطن إلى إمكانيات الحركة العربية ، وأن أهم فئة هى الضباط ولكنهم - كما يقول - ليس لديهم خبرة بالمسائل السياسية « ومن الأفضل لو كفوا عن التدخل فيها » ، وأن (عزيز المصرى) يحقد على الحكومة العثمانية ، ولذلك فهو يعارض التفاهم معها ، واعتبر الزهراوى أنه فى مركزه كعضو فى مجلس الأعيان قد يستطيع تحسين العلاقات التركية العربية وإقناع الاتحاديين باتباع سياسة تحررية نحو الأقاليم العربية[٢] .

عزيز على (المصرى) وجمعية العهد :

وبهذا الموقف من جانب حكومة الاتحاد والترقى أيقن العرب أنه لا أمل فى التفاهم ، ومن ثم بدأ بعض القوميين بزعامة عزيز على المصرى فى تنظيم جمعية سرية عربية ثورية بين الضباط العرب فى الجيش العثمانى هى جمعية العهد ، التى أقسم أعضاؤها على التضحية بحياتهم من أجل تحقيق أهدافهم .

وكان عزيز على قد آثر تلقى العلوم العسكرية فى الآستانة مفضلا إياها على باريس ، بسبب ما كان يتمتع به الخبراء العسكريون الألمان من سمعة طيبة فى العاصمة العثمانية ، حتى لقد كان التعليم العسكرى فى الدولة العثمانية أرقى

---

(١) Kedourie : Ouv. Cir p. 61.

(٢) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٤٥ ، ثورة العرب ص ١٠٠ – ١٠١ ، Anintous : Ouv. Cit., pp. 116 — 8

أنواع التعليم وقد أظهر عزيز تفوقاً فى أثناء دراسته فى الكلية الحربية بالآستانة ثم فى كلية أركان الحرب .

وعقب تخرجه من كلية أركان الحرب أرسل عزيز للعمل فى مقدونيا حيث أظهر كفاءة ملحوظة فى تتبع العصابات البلغارية ، وفى القتال على طول الحدود اليونانية والبلغارية والألبانية. وفى أثناء خدمته انضم إلى جماعة الاتحاد والترقى السرية وكانت تضم بعض زملائه فى الدراسة ، وعندما زحفت قوة من الجيش العثمانى على الآستانة فى أبريل (نيسان) ١٩٠٩ لإحباط الانقلاب المضاد كان عزيز على يقود إحدى الفصائل فى القوة الزاحفة وأظهر مقدرة فى تطهير المنطقة من الثوار(١) .

وقد لمس عزيز علي — وهو عضو بارز فى جماعة الاتحاد والترقى ومن أنصار الوحدة العثمانية ـ خطراً شديداً تنطوى عليه سياسة التتريك ، فدعا إلى الاعتدال ، وكان على علاقات طيبة بعدد من زعماء القوميات ، وحاول أن يقيم تفاهما بينهم وبين الاتحاديين لأنه أيقن بأنه فى مجتمع مركب كالامبراطورية العثمانية فإن أفضل وسيلة للحفاظ على كيانها لا تكون بمحاولة إخماد أنفاس هذه القوميات وإخضاعها ولكن بالاعتراف بها كوحدات لها شخصيتها وكيانها ، وتتمتع بالحكم الذاتى داخل البناء العثمانى الكبير ، ويبدو أنه صارح بعض رفاقه برأيه ودعاهم لبحثه فى اجتماع عقد فى منزله .

إلا أن صدور هذه الفكرة من رجل غير تركى الأصل أثارت شكوك منافسيه من الاتحاديين ، وجعلتهم يتصورون أنه منحاز إلى جانب القوميات الساخطة ، بما فيهم العرب .

---

(١) Djemal Pacha : Memoires of a Turkirh Statesman. pp. 60 — 61 .

وقد استطاع عزيز على أن يكسب محبة الجيل الصاعد من ضباط الجيش . كما كان لشخصيته وجرأته ووطنيته ما جعله موضع إعجاب واحترام حتى من كانوا أكبر منه سناً ، وقد سبقت الإشارة إلى الجمعية القحطانية التى اشترك فى تأسيسها . والتى كانت تهدف إلى إقامة مملكة ثنائية . وقبل أن يذهب إلى اليمن ضمن الحملة العثمانية بقليل عارض — فى حديث له مع جمال باشا — سياسة رجال تركيا الفتاة إزاء العرب ، وحذر من عواقبها الوخيمة ، وقد لفت جمال باشا نظره إلى الأثر السىء الذى قد يحدثه هذا النقد على الوحدة العثمانية[1] .

ثم استطاع عزيز على فى عام ١٩١١ أن يقنع إمام اليمن بتسوية خلافاته مع حكومة الباب العالى ، وقد زادت هيبة عزيز على فى أعين العرب نتيجة لتوسطه ، ليس فقط لأنه أنهى نزاعاً قديماً بإبرام إتفاقية بين الطرفين فى ٩ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١١ ، ولكن لأن الاتفاقية بين عزت باشا والإمام يحيى اعترفت بالاستقلال الداخلى للإمام .

وبتوسطه فى هذا النزاع وإنهائه هذه النهاية السعيدة أرضى عزيز على عاطفته الإسلامية ونزعته القومية على السواء .

وقد قام عزيز على بدور إيجابى فى الدفاع عن برقة عقب نزول الإيطاليين إلى البر عند درنة فى سبتمبر (أيلول) ١٩١١ ، وأظهر مقدرة فائقة فى إنزال خسائر فادحة بالعدو ، وعندما عاد أنور باشا قائد القوات العثمانية فى برقة إلى الآستانة عهد بالقيادة إلى عزيز على ، رغم ما كان بينهما من جفاء ، إلا أن أنور لم يستطع أن ينكر كفاءة عزيز على ، وظل عزيز فى قيادة القوات العثمانية إلى أن أبرمت معاهدة الصلح بين إيطاليا وتركيا فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٢ ،

(١) Djemal Pacha : Ouv. Cit., pp. 61 — 62

وبعد إنسحاب القوات العثمانية طبقاً لهذا الصلح ، استمر عزيز على تسعة أشهر يقود المقاومة الوطنية فى طرابلس الغرب ، إلى أن أدرك تعذر مواصلة القتال ، فعاد إلى الآستانة فى صيف عام ١٩١٣ ليرى انهيار آمال العرب فى الشهور التى تلت مؤتمر باريس ، واتجاه حكومة الاتحاديين إلى نقل جميع الضباط العرب — بما فيهم هو — إلى الحاميات العثمانية فى الأقاليم النائية فاعتزل وظيفته ، ومنذئذ بدأ فى تنفيذ خطة كانت قد اختمرت فى ذهنه أولا وهى تحويل القحطانية إلى جمعية سرية تقتصر على الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، وكان التنظيم الجديد منفصلا عن القحطانية ولكن البرنامج متشابه ، وقد ضم إليه عددا من الضباط العرب مثل سليم الجزائرى ونورى السعيد وياسين الهاشمى وجميل المدفعى ومولود مخلص وصارت جمعية العهد بالنسبة للعسكريين كجمعية الفتاة بالنسبة للمدنيين ، ولم تكن كل منهما تعلم بوجود الأخرى حتى عام عام ١٩١٥ حين تم الاتصال بينهما فى دمشق ووحدتا جهودهما لإشعال الثورة العربية[١] .

وكانت أهداف جمعية العهد هى السعى للحصول على الاستقلال الداخلى للبلاد العربية على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحادا يشبه اتحاد المجر مع النمسا مع بقاء الخلافة الإسلامية فى آل عثمان[٢] .

وكانت مكانة عزيز على المصرى فى الآستانة ، وتنظيمه للمقاومة العربية فى ليبيا ضد الغزو الإيطالى ونجاحه فى التوفيق بين الإمام يحيى فى اليمن

---

(١) Antonius ; Ouv. Cit. pp. 188 — 189.

احتلفت الآراء فى تحديد تاريخ نشأة جمعية العهد فيذكر أمين سعيد أنها أسست فى ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٣ وانطونيوس يذكر أنها أنشئت فى عام ١٩١٤ ، يذكر عزيز على نفسه فى صحيفة الجريدة (عدد ١٨ أغسطس آب ١٩٥٥) أنه أنشأها منذ عام ١٩١٢

Saab : Ouv. Cit, p. 234.

(٢) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٤٦ .

وبين حكومة الاتحاديين ، كل هذه الأعمال جعلت له شهرة عظيمة حتى خشى بعض زعماء الاتحاديين أن يكون هدفه أن يصير إمبراطوراً على العرب(١) .

وقد كانت علاقة عزيز على الشخصية بأنور سيئة ، فقد كان عزيز لا يفتأ يوجه النقد إلى أنور ، وعندما كان الإثنان فى برقة كان عزيز - رغم أنه مرءوس لأنور - فقد كان يوجه إليه ملاحظات تحط من قدره أمام الترك والعرب على السواء ، وظل عزيز يهاجم أنور حتى بعد عودة هذا إلى الآستانة وتوليه وزارة الحربية .

وبعد ما عاد عزيز من برقة إلى الآستانة أراد أنور إبعاده عنها (بسبب عدائه الشخصى ، ولعل أخباراً عن جمعية العهد وصلت إلى السلطات التركية) ، فأصدر أنور قرارا بنقل عزيز على رئيساً لأركان قطاع أنقرة ، فرفض عزيز تنفيذ النقل وقدم استقالته من الجيش . مما أدى إلى ازدياد ريبة أنور وجباله فى نواياه ، وخشيا أن يكون قد قدم استقالته ليتحرر من قيود الوظيفة ، ليمارس نشاطه القومى متحرراً من كل قيد(٢) .

وبعد أسبوعين ، وفى التاسع من فبراير (شباط) ١٩١٤ أمر أنور باشا بالقبض على عزيز على ، بتهمة إساءة التصرف فى مبلغ من أموال الدولة كان أنور باشا قد سلمه إليه قبل مغادرته طرابلس الغرب .

وسواء كان الترك على علم بنشاطه السرى أو لم يكونوا على علم بهذا النشاط فإن التهم التى وجهت إليه خلت من ذكر صلته بالجمعيات السياسية وإنما جاء فى عريضة الاتهام فى أثناء محاكمته السرية التى بدأت فى الخامس والعشرين من مارس (آذار) ١٩١٤ أمام المحكمة العسكرية أنه أساء التصرف

---

(١) Saab : Ouv. Cit. p. 235.

(٢) أحمد عزة الأعظمى : القضية العربية ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ .

فى أموال الجيش ، وترك برقة للإيطاليين مقابل رشوة ، وحاول إقامة دولة عربية فى شمال أفريقية ولا شك أن نشاطه السياسى كان هو السبب ، فقد ذكر سير لويس مالت Mallet سفير بريطانيا فى الآستانة فى الرابع والعشرين من فبراير (شباط) ١٩١٤ أن سبب اعتقال عزيز على المصرى سياسى ، لأنه لا شك فى أن عزيز المصرى أحد القوى المحركة فى جماعة شباب العرب المدنيين والعسكريين الناقمين على الحكومة العثمانية الحالية ، ومن الصعب تقرير قيمة هذه الجماعة ولكن وصل إلى علمى أن بعضهم على الأقل معروفون بخططهم لتنظيم حركة تهدف إلى تخليص كل المنطقة من الموصل إلى الخليج (الفارسى) من السيطرة العثمانية [1] .

وقد أدى اعتقال عزيز المصرى إلى إثارة المشاعر بين العرب فى الأقطار العربية عامة وفى مصر خاصة، فعقدت اجتماعات شعبية ، وقامت حملة صحفية ، وسارت المظاهرات فى الشوارع ، وتوالت برقيات الاحتجاج على الآستانة ، وسارت فى شوارع القاهرة مظاهرة كبرى اشترك فيها الحزب اللامركزى ، ورفعت العرائض إلى السلطان مطالبة بإنقاذ بطل برقة وبنغازى كما قصد أحد الضباط العرب منزل الزهراوى وأبلغه استياء العرب ، وطلب منه التحرى عن أسباب اعتقال عزيز على ، وزارت بعض الوفود لورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر يطلبون تدخل بريطانيا دبلوماسيا ، وكما ذكر كتشنر فى خطابه إلى جراى فى ٤ أبريل (نيسان) أنه كتب أكثر من مرة إلى السفير البريطانى فى الآستانة يسأله السعى لدى الحكومة العثمانية من أجل عزيز على

---

(١) Gooch and Temperley : British Doc. on the Origins of the war (1936) Vol X part II pp. 833–4.

وقد علق عزيز على الحكم عليه مؤكداً زيف الاتهامات التى وجهت إليه وذكر أن الحقيقة أنه كان يدعو إلى إقامة اتحاد فيدرالى من البلدان العربية .

المصرى وعلل كتشنر ذلك بأن اعتقال ومحاكمة عزيز المصرى قد أثارا الرأى العام فى مصر [١] .

وفى أوائل أبريل (نيسان) علم أنه قد حكم عليه بالإعدام فازداد الغضب بين الضباط العرب ، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما وأخيراً صدر العفو عنه فى ٢١ أبريل (نيسان) نتيجة استمرار الضغط على الحكومة العثمانية وأطلق سراحه على الايقيم فى الآستانة فجاء إلى مصر حيث استقبل استقبالا حماسياً ، واعتبرت محاكمته حدثا هاما هز العالم العربى هزاً عنيفاً كما قوى عزيمة العرب فى طلب الحرية ، ولم يؤد العفو عنه إلى إرضاء الشعور العربى بل على العكس فطن الوطنيون العرب إلى أن الانفصال التام عن الإمبراطورية أمر لا مناص منه وهكذا مهدت جماعة الاتحاد الترقى لثورة ١٩١٦ [٢] .

ولما كانت العهد جمعية سرية فقد كان من العسير الوقوف تماماً على الاتجاه الذى سارت فيه من أجل تحقيق أهدافها . إلا أنه لما كان بعض زعماء الترك المعارضين للاتحاد والترقى ينادون بإقامة الامبراطورية على أساس فيدرالى أو اتحاد فيدرالى تركى عربى ، فإن هؤلاء الزعماء الترك المعارضين كانوا يميلون إلى التفاهم مع العرب وإقامة مملكة ثنائية ، لكل منها برلمانها وكلاهما تحت حكم الخليفة السلطان على غرار إمبراطورية النمسا والمجر ، حتى لقد فكروا فى اختيار عاصمة جديدة وكانت النية متجهة نحو حلب باعتبارها فى موقع متوسط بين الترك والعرب [٣] . وحتى (جو كالب) فيلسوف

(١) Gooch and Temperley : Ouv . Cit p. 831.
(from Kitchener to Grey, April 4, 1914).
فرنان وبليه : الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط . ترجمة نجدة هاجر وطارق شهاب (١٩٦٠) ص ٥٩ .

(٢) أمين سعيد : المصدر السابق ج ١ ص ٤٨ .

(٣) Saab : Ouv. Cit. p. 237.

القومية التركية نفسه يذكر — كما كتب فى مقاله فى (ينى مجموعة) فى ١٥ مارس (آذار) ١٩١٨ — أنه نادى صراحة باستقلال العرب وتكوين اتحاد فيدرالى جديد يشترك فيه الترك والعرب كدولتين مستقلتين ، إلا أن ذلك جاء متأخراً (١) .

وعلى هذا الأساس فلا بد أن العهد وزعماءه حاولوا أولا التعاون سراً مع الزعماء الترك المعارضين للاتحاد والترقى والمنادين بحل مشكلة الامبراطورية عموما والمشكلة التركية العربية على وجه الخصوص على أساس فيدرالى ، وهذا يفسر كراهية زعماء الاتحاديين لعزيز على ، ويذكر تقرير الجيش الرابع أن عزيز على كان على صلة بجمعية اللامركزية التى كانت تتعاون مع المعارضة التركية (٢) .

وإلى جانب التعاون مع المعارضة التركية فقد اتجه نشاط جمعية العهد إلى محاولة بث الدعوة بين الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، ويقدر أمين سعيد عدد الضباط العرب الذين انضموا إلى العهد بثلاثمائة وخمسة عشر من مجموع الضباط العرب فى الجيش العثمانى البالغ عددهم أربعمائة وتسعين ضابطا . ويذكر تقرير الجيش الرابع أن جمعية العهد كانت تهدف إلى حشد الضباط السوريين والعراقيين فى بلادهم حتى يكون تحت تصرف الجمعية قوة على أهبة الاستعداد للثوره عندما يحين وقت العمل وبذلك تفاجأ الحكومة العثمانية وتصبح أمام الأمر الواقع (٣) .

---

(١) Emin, A. Ouv. cit. pp. 185–208

(٢) La Verité sur la Question Syrienne, p. 27.
Saab : Ouv. cit. p. 237 .

(٣) La Verite ... p. 27.
Saab : Ouv. cit. p. 238.

وخوفا من احتمال نشوب مثل هذه الثورة فقد قررت حكومة الاتحاديين إبعاد الضباط العرب للخدمة فى أماكن نائية بعيداً عن بلادهم .

وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر جمعية العهد إحدى المحاولات العربية لتجديد الإمبراطورية على أساس فيدرالى تركى عربى ، وكذلك فهى محاولة مبكرة لخلق كيان للشرق العربى الحديث ، فقط كانت جمعية العهد تنادى بدولة عربية ولكن ضمن نطاق الإمبراطورية العثمانية وبذلك يمكن أن نعتبر أن جمعية العهد حملت لواء الوحدة الإسلامية العثمانية والقومية على السواء ، ولاشك أن عزيز على كان مخلصا فى الرغبة فى التوفيق بين الترك والعرب ، وكان يعتبر أن هذا التوفيق فى مصلحة الترك والعرب والإسلام ولذلك فإننا لا نستطيع أن نؤيد ما ذهب إليه تقرير الجيش الرابع العثمانى من أن الجمعيات العربية ومنها العهد كان لها برنامج ذو وجهين ، إذ أن عزيز على وزملاءه كانوا مخلصين فى رغبتهم تجديد الإمبراطورية ولكنهم عندما فشلوا فى تحقيق هذا الهدف اتجهوا إلى العمل من أجل خلق كيان عربى مستقل تمام الاستقلال .

ولعل من الأسباب التى أوحت للعهد باختيار النظام النمساوى المجرى أنه يشبه الخلافة من حيث أنها كانت نظاما مركزيا من الناحيه النظرية ولامركزيا من الناحية العملية ، كما أن إمبراطورية النمسا والمجر كانت أقرب الدول شبها بالامبراطورية العثمانية من حيث تعدد اللغات والأجناس (القوميات) داخل كل منهما (١) .

ورغم أن جمعية للعهد نادت بقيام مملكة عربية فى نطاق الخلافة العثمانية فإن برنامجها لم يعين حدود هذه الدولة العربية ، إلا أنه بالنظر إلى عضوية العهد وإلى بروتوكول دمشق فى مايو (آيار) ١٩١٥ الذى وضعته العهد والفتاة عن الأمانى العربية ، ومن تقرير الجيش العثمانى الرابع ، يمكن أن نستنتج أن

---

(1) Saab : Ouv. cit. pp 240 — 5

هذه المملكة كان مقدراً لها أن تشمل بوجه عام كل الأقاليم التى تتكلم العربية فى الشرق العربى الآسيوى ومنطقة الهلال الخصيب على وجه الخصوص. فإن معظم أعضاء العهد إن لم يكن كلهم كانوا من الهلال الخصيب وخاصة من العراق، باستثناء عزيز على المصرى الذى كان المصرى الوحيد فى العهد.

وبمطالبة العهد بإقامة الدولة على نمط إمبراطورية النمسا والمجر وأن يكون للعرب كيان سياسى، تكون الجمعية قد ذهبت إلى أبعد مما ذهب إليه أولئك الذين نادوا بكيان إدارى وأقل من أولئك الذين طالبوا بكيان عربى منفصل تماما.

ولا شك أن هذا التقدم كان نتيجة لنمو الوعى العربى وازدياد وطأة حكم الاتحاديين الذين أمعنوا فى سياسية المركزية والتترك، ولو أن هذا الوعى القومى العربى كان وعى الصفوة لا وعى الجموع فكان يؤثر فى سلوك العرب المثقفين مدنيين وعسكريين، وكان معظم المثقفين فى الشام والعراق يسمو وعيهم القومى فوق مستوى الطائفية، واعتبروا أنفسهم عربا أولا وقبل كل شيء.

ومن المهم أن جمعية العهد لم تطالب بإقامة وحدة قومية عربية سياسية مستقلة تمام الاستقلال، ولعلها كانت متأثرة بالوحدة الإسلامية التى تربط العرب بالترك أو أن الجمعية كانت ترى التدرج فى الوصول إلى أهدافها، أو لعله الخوف من الوقوع تحت سيطرة الدول الأوروبية التى تطمع فى الاستحواذ على ما تبقى من ممتلكات فى المشرق العربى. وهذا يجعل مطالب العهد معتدلة ومع ذلك فإن العهد لم تنجح فى تحقيق أغراضها بسبب تعارض خطتها مع سياسة الاتحاديين فى المركزية والتتريك [1].

---

(1) Ibid, pp. 250 — 3.

ومن نواحى الأهمية فى جمعية العهد إشراك الضباط العرب فى هذا التنظيم ومزاولتهم للنشاط السياسى ، ولم تكن هذه هى المحاولة الأولى فى تاريخ الشرق العربى إذ سبقتها محاولة عرابى فى مصر إلا أن الظروف لم تسمح لحركة عرابى بالاستمرار وبذلك لم تتح الفرصة للأعضاء العسكريين مثلما أتيحت لجمعية العهد ، لأن الأعضاء العسكريين فى جمعية العهد لم يشتركوا فقط فى الدفاع عن الأمة بل أسهموا كذلك فى البناء السياسى ، ولم يقتصر اشتراكهم على الثورة العربية ، بل كذلك فى الثورات العراقية والسورية ، وبعد أن كانوا قادة عسكريين لهذه الثورات لم يلبثوا أن أصبحوا زعماء سياسيين مدنيين فى دولهم الجديدة (١) .

* * *

وثمة أمران يلفتان النظر فى الحركة القومية العربية خلال صدامها مع الاتحاديين ، أولهما أن معظم أحرار العرب كانوا لا يزالون متمسكين بالبقاء ضمن الإمبراطورية . وانحصرت مطالبهم فى الاصلاح واللامركزية أو الاستقلال الذاتى ، وكما قال توفيق الناطور إن فكرة القومية العربية لم تكن قوية بين جموع العرب ، وإن كل ما كانوا يطالبون به المساواة مع الترك فى الحقوق والواجبات داخل نطاق الإمبراطورية وأقصى ما طالبوا به الاستقلال الذاتى مع استمرار الخضوع للخليفة العثمانى .

والأمر الثانى أن بعض العناصر العربية المسيحية وخاصة فى لبنان كانت تكره السيادة التركية ، وتتطلع نحو التحرر من حكم الترك لا بقصد تأليف دولة مستقلة فى الشام لأنهم فى هذه الحالة يكونون مضطرين للخضوع لحكم الأكثرية المسلمة ، وبذلك يتعرضون — حسب اعتقادهم — إلى الاضطهاد

(1) Ibid, p. 260.

والظلم ، وعليه كانوا يتطلعون نحو التحرر من السيادة الإسلامية بمساعدة دولة أوربية . وهى فرنسا تطرد الترك من البلاد وتحكم الشام بدلا منهم .

وفى مذكرة رفعها الأعضاء المسيحيون فى اللجنة التنفيذية للمجلس العمومى إلى مسيو كوجا Gougat قنصل فرنسا العام فى بيروت فى السادس والعشرين من فبراير (شباط) ١٩١٣ طالبوا بحماية فرنسا على كل الشام مع تمتع ولاية بيروت بعد ضمها إلى لبنان بحكم ذاتى تحت حماية وسيطرة فرنسا .

وقد رفع الوثيقة كل من د . أيوب ثابت وميشيل تويني ويوسف هانى وبيير طراد ورزق الله أرقش وخليل زينى . وقد وقعت هذه الوثيقة فى يد الترك مما أدى إلى صدور حكم المجلس العرفى عليهم بالإعدام ١٩١٦ إلا أن الحكم لم ينفذ إلا فى يوسف هانى ، أما توينى فقد كان فى باريس وزينى وأرقش فى القاهرة وطراد فى الإسكندرية وأيوب ثابت فى نيويورك [١] .

ولم يكن الموارنة يعتبرون ذلك خضوعا لدولة أجنبية طالما أن الدولة التى تحكمهم من نفس دينهم ، وقد تجلى شعور الموارنة إزاء الفرنسيين فى أثناء زيارة المدرعه الفرنسية (Jules Ferry) لميناءى بيروت وجونيه فى أواخر عام ١٩١٢ إذ خفت جموع الموارنة إلى الميناء ، وعندما عزف البحارة الفرنسيون نشيد المارسيليز انطلقت الهتافات بحياة فرنسا حامية المسيحيين [٢] .

وقامت مجموعة من ضباط السفينة بزيارة رسمية للبطريرك المارونى ، ورأى الموازنة فى هذه الزيارة تعبيراً عن عطف فرنسا إلا أن حفاوة الموارنة بضباط السفينة الفرنسية كانت موضع انتقاد الصحف التركية ، ونقمة الاتحاديين على السوريين وعلى الحركة الإصلاحية فى الشام .

---

(1) National Archives (Washington) , Djemal Pasha: Memories of a Turkish Statesman (N D.) pp. 228 — 231.

(٢) توفيق برو : مرجع سبق ذكره ق ٤٣٢/٤٣٣ .

وعلى الرغم من أن هذا يعتبر انحرافاً شوه الحركة القومية العربية ، إلا أن هذا لم يكن شعور جميع مسيحيي الشام ، وفى تقرير القنصل الأمريكى فى بيروت مؤرخ فى التاسع من ديسمبر (كانون أول) ١٩١٣ تعليقاً على زيارة بعض قطع الأسطول الفرنسى للساحل السورى جاء على أنه على الرغم من أن زعماء الموارنة والجزويت يميلون إلى فرنسا ويسعون إلى زيادة هيبتها فى الشام ، وقد يرحبون باحتلال فرنسا للبلاد ، فإن عامة هذه الطوائف ، وكذلك أعضاء الكنيسة اليونانية إلى جانب المسلمين والدروز والآلاف ممن تخرجوا فى الجامعة الأمريكية ومدارس البعثات الأمريكية يعارضون بشدة إقامة النفوذ الفرنسى فى الشام ، وأضاف التقرير الأمريكى أنه إذا جرى استفتاء ، فإن ٧٥ ٪ من الأصوات بل ولربما ٩٠ ٪ سيكون ضد سيطرة فرنسا [1] .

ومما يلفت النظر أيضا ما أثير حول مقدرة الشام على حكم نفسه ، وما إذا كانت فرنسا على صواب فى التطلع للسيطرة عليه ، فقد كتب القنصل الأمريكى فى بيروت عن الأحوال السياسية فى الشام معلقا على ما جاء فى المجلة الأمريكية للقانون الدولى من أن فرنسا قد وصلت إلى ذروة توسعها ولم يعد هناك إقليم يمكنها أن تضع يدها عليه ، وأن الشام — الذى يطمع فيه المتعصبون الفرنسيون — راغب وقادر تماماً على أن يعنى بأموره فى حالة تفكك الإمبراطورية العثمانية .

وعلى الرغم من أن القنصل الأمريكى — استناداً إلى آراء من استطلع رأيهم من الأمريكيين الذين أقاموا فى الشام مدة طويلة — أكد أن الشام ليس قادراً على القيام بشئون نفسه بسبب عدم الانسجام بين الطوائف

---

(1) National Archives (Washington) : Political Affairs in Turkey, doc. no. 594, from American consulate, Beirut to secretary of state (Dec. 9, 1913).

المسيحية بعضها وبعض وبين المسيحين ، إلا أنه من ناحية أخرى عبر عن اعتقاده بأنه ليس من مصلحة فرنسا السيطرة السياسية على الشام إذ تكفيها الصعوبات التى تواجهها فى إمبراطوريتها فى شمال أفريقيا ، وأضاف أنه فى حالة قيام حرب ، فإن فرنسا سوف تحشد كل جهودها ومواردها السياسية والعسكرية من أجل حماية مصالحها المتشابكة فى أوروبا وشمال أفريقيا ، ولن تستطيع أن ترسل قوة كافية إلى الشام البعيدة ، بينما فرنسا ذاتها معرضة للغزو، وقد أطلق القنصل الأمريكى هذا القول على أساس أن فرنسا ستستولى على الشام بقوة السلاح قبل الحرب العالمية ، أو فى أثنائها ولم يدر بخلد القنصل الأمريكى ما وقع فعلا عندما استولت فرنسا على الشام عقب الحرب العالمية الأولى وزوال أخطارها عن فرنسا مع الحصول على تأييد حليفتها بريطانيا فى الوقت الذى انسحبت فيه الولايات المتحدة بأفكارها ومبادئها المثالية من الميدان .

ويرى بعض من استرشد القنصل الأمريكى برأيهم أن على فرنسا - إذا تغلبت الحكمة على تصرفاتها - أن تقنع بالامتيازات الاقتصادية لرعاياها فى الشام وبهيبتها الاجتماعية والثقافية فى البلاد لأن الأغلبية المسلمة فيها وفى شبه الجزيرة العربية تعارض فرنسا وسوف تسبب لها المشاكل إذا حاولت أن تسيطر على الشام سياسيا ، وأنه إذا أتيحت الفرصة لأهالى الشام فإنهم سينظمون مقاومة مسلحة ضد السيطرة الفرنسية ، وسوف يجدون التأييد الأدبى من مصر أيضاً ، لأن العالم لن يرضى بانتزاع شعب الشام سياسيا من إخوانه فى مصر وشبه الجزيرة العربية .

وفى رأى أمريكى آخر مقيم فى الشام أنه إذا ترك وشأنه ، فلا يحتمل أن يظهر فى البلاد فوضى واضطرابات ، ذلك أن الزعماء الوطنيين — من

أجل كسب تأييد الدول الأجنبية — سيبذلون كل ما فى وسعهم من أجل المحافظة على الهدوء [١] .

وليس أدل على حقيقة شعور أهالى الشام نحو فرنسا وأطماعها فى بلادهم من أنه عندما أخذ القنصل الفرنسى فى لبنان يقوم بزيارات من أجل زيادة هيبة فرنسا وتقوية نفوذها وتدخل القنصل الإيطالى مطالباً بضرورة استشارته فى شئون لبنان حيث كانت إيطاليا مصممة على مقاومة محاولة فرنسا إعلاء نفوذها فى لبنان فإن الكثيرين من الأهالى رحبوا بهذا التطور الجديد بعد أن صاروا يملون ما تردده فرنسا عن حقوقها فى الشام ، ويبدو ذلك فى ازدياد الإقبال على المدارس الإيطالية بقصد موازنة النفوذ الفرنسى [٢] .

---

(1) National Archives (Washington) : Political Affairs in Turkey, Doc. no, 616 (From American consulate, Beirut to Secretary of State, April 11, 1914),
« Political conditions in syria, Frensh influence and claims»

(2) Ibid, Doc, no, 631 (from American consulate in Beirut te Secretary of State, June 19, 1914) « Political conditions in Syria, Italian Opposition to French claims »,

الفصل التاسع

الأحوال فى شبه الجزيرة العربية

وبينما هذا النشاط السياسى القوى يجرى فى النطاق الشمالى من الشرق العربى الآسيوى فإن أحداثا أخرى مختلفة تماما كانت تجرى فى النطاق الجنوبى منه ونعنى به شبه الجزيرة العربية التى كانت ظروفها تختلف كل الاختلاف عن الشام والعراق بحكم بعدها عن المؤثرات التى خلقت النشاط القومى فيهما.

ولقد شهدنا فى فصل سابق كيف أن السيطره العثمانية على مختلف أنحاء شبه الجزيرة كانت سيطره إسمية، ولكن القرن التاسع عشر شهد تغيراً فى سياسة الدولة العثمانية تجاه تلك البقاع سواء كان هذا التغير تطبيقا لحركة التنظيمات التى كانت تهدف إلى تقوية قبضة الدولة على ولاياتها ورعاياها أو إستجابة لمصالح ألمانيا التى صارت حليفة للدولة العثمانية منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تلك المصالح التى تهتم بهـــذه المنطقة لخطورة موقعها الجغرافى.

ولذلك نجد أن الدولة العثمانية بدأت تتبع إزاء هذه المناطق سياسة تهدف إلى إثبات ملكيتها لها، وتدعيم سيادة الدولة عليها ماديا وأدبيا، ولكنها فى كثير من أجزاء شبه الجزيرة العربية وبخاصة فى منطقة الخليج كانت الجهود العثمانية تصطدم بالسياسة البريطانية، تلك السيـاسة التى كانت تقدر هى الأخرى أهمية هذه المنطقة باعتبارها طريقا حيويا يؤدى إلى الهند ومن هنا وقفت بريطانيا بالمرصاد لأية محاولة من جانب الدولة العثمانية لإعلاء نفوذها فى المنطقة، واستخدمت بريطانيا فى ذلك شتى الوسائل التى تتيحها لها الظروف سواء القوة اذا استطاعت، أو الخلافات المحلية بين أمراء حكام الاقاليم، والمنازعات القبلية داخل الإقليم الواحد.

الحجاز :

لقد كان من أهم اختصاصات شريف مكة تأمين قوافل الحج ولذلك صار للأشراف مركز ممتاز باعتبارهم سدنة الأماكن المقدسة الإسلامية .

وحيث أن الدولة العثمانية كانت ترسل من مصر إلى الحجاز مبلغاً محدداً من المال سنوياً وبانتظام إلى جانب الأوقافات على الحرمين وأهل مكة والمدينة فقد ظل الأشراف فى الحجاز على ولائهم للدولة العثمانية ، فكان شريف مكة يتسلم براءة منصبه فى كل عام ويعترف بالقاضى الذى يعينه السلطان ويفخر بأنه خادم الدولة والخليفة العثمانى [١] . هذا على الرغم من أن نفوذ الدولة العثمانية قد أخذ فى الضعف فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة منذ بداية القرن الثامن عشر .

وبعد ما استخلص محمد على الحجاز من السلفيين (الوهابيين) فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨١١ — ١٨١٩) صار منصب شريف مكة تحت سيطرة (عزيز مصر) الذى أخذ يتدخل فى اختيار الشريف وفق رغبته ، فعين الشريف محمد بن عون بدلا من الشريف عبد المطلب بن غالب من آل زيد (وكان التنافس على الشرافة شديداً بين آل عون وآل زيد) وقد ساعد الحكم المصرى فى كسر شوكة القبائل الأمر الذى عاون الأتراك فى تقوية قبضتهم عقب انسحاب الحكم المصرى سنة ١٨٤٠ ، فأخذ الأتراك يستبدلون شريفا بشريف وفق مصالحهم وعواطفهم . وكان مما ساعد العثمانيين على تشديد قبضتهم على الحجاز افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية منذ سنة ١٨٦٩ مما أتاح للدولة السيطرة على المناطق الغربية من شبه الجزيرة العربية .

ولذلك فقدت شرافة مكة خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الكثير من نفوذها السابق وخسر الحجاز بالتالى ذلك الاستقلال الذاتى

---

(١) د . السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ص ١٠٢ .

الذي كان يتمتع به من قبل . وأصبح زمام الأمور في الحجاز يجرى وفق مشيئة الوالي التركي ، وذلك بسبب التنافس الشديد بين آل عون أنفسهم ، ثم بينهم جميعا وبين آل زيد .

وعندما خلا منصب الشرافة سنة ١٩٠٨ تنافس عليه اثنان هما الشريف حسين بن علي والشريف علي حيدر ، وقد مال الاتحاديون إلى تعيين الشريف حسين بن علي بسبب الوعود التي بذلها لهم بمساعدة الدولة في القضاء على الأمراء الثائرين ضدها في عسير ونجد واليمن ، فعين في سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٠٨ ، وكان في سياسته حريصا على اظهار ولائه لحكومة الاتحاديين ، وفعلا استجاب لطلبهم فوجه في سنة ١٩١٠ الحملات للقضاء على ثورة السيد محمد على الأدريسي في عسير ، كما أرسل الحملات إلى إقليم القصيم وكاد يشتبك في قتال مع عبد العزيز آل سعود أمير نجد ، واستمرت مضايقاته لابن سعود طوال عامي ١٩١١ - ١٩١٣ :

ويقال إن الحسين ابن علي أراد — بولائه الظاهر للأتراك — أن يخفى أطماعه الحقيقية التي كانت تهدف إلى توسيع سلطة شرافته .

وعلى كل حال فان الخلاف لم يلبث أن دب بين الشريف حسين وحكومة الاتحاديين بسبب سياسة المركزية التي أخذ الاتحاديون في اتباعها ، وهي السياسة التي كانت تهدف إلى ربط الولايات العثمانية التي تتمتع بقدر من الاستقلال ربطا محكما بعاصمة الدولة ، وكان معنى هذا الحد من نفوذ شريف مكة ، وقد ساءت العلاقات بين الشريف حسين بن علي وحكومة الاتحاديين ، خصوصا عندما عين هؤلاء وهيب باشا واليا على الحجاز على أن يجمع في يده كل السلطة ، وبذلك يتضاءل نفوذ الشرافة بجانب نفوذ الوالي العثماني ، كما أخذ العثمانيون يفكرون في مد خط سكة حديد الحجاز — والذي كان فيه

---

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٢٧٥ .

عام ١٩٠٨ يربط الشام بالمدينة - من المدينة إلى مكة ولذلك يصبح الحجاز كله فى متناول أيديهم وتحت سيطرتهم .

ولا شك أن هذه المشروعات والمخططات أقلقت بال الشريف حسين الذى أيقن أنه لامفر من وقوع صدام بينه وبين الاتحاديين، وهذا ماسيدعوه إلى التطلع إلى دولة كبرى يستطيع أن يعتمد عليها وعلى معونتها فى حالة وقوع هذا الصدام فعلا [١] .

* * *

نجد :

تركز الحكم العثمانى فى شبه الجزيرة العربية على سواحلها الغربية ولم يتوغل فى قلبها ، وحاولت الدولة فى عهد السلطان سليمان المشرع غزو وسط شبه الجزيرة فى عام ١٥٥٠ لإخضاع نجد وشمر ولكن هـــذه الحملة لم تصل إلى تحقيق هدفها .

ولقد أهملت قبائل شبه الجزيرة شعائر الدين الإسلامى وانتشرت كثير من البدع التى كانت قائمة فى الجاهلية وقبل ظهور الإسلام الأمر الذى أدى إلى ظهور الدعوة السلفية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب لتنقية تعاليم الدين الإسلامى مما شابها من ضلال ، داعياً للعودة بالدين إلى سيرته الأولى .

ولجأ محمد بن عبد الوهاب إلى محمد بن سعود أمير الدرعية من مدائن نجد ومنذ منتصف القرن الثامن عشر اعتنق ابن سعود الدعوة السلفية وتعهد بنشرها فى شبه الجزيرة العربية ، بل وأراد توسيع نطاقها فى البلاد العربية المحيطة بها الأمر الذى أدى إلى الصدام مع العثمانيين .

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٥ .

وأخذ آل سعود يعملون لأداء هذه المهمة فى شبه الجزيرة شرقاً وغرباً وجنوباً ، فسيطروا على الحسا وشرعوا فى غزو المدن العراقية الجنوبية ، ثم اتجهوا إلى الحجاز ومنه تطلعوا إلى الشمال فوصلوا إلى حوران والكرك ووقفوا على مشارف فلسطين والشام، بل وهزموا قوات الدولة التى خرج بها والى الشام عبد الله العظم للحج سنة ١٨٠٥ (١) .

وعندما تقلص نفوذ العثمانيين من شبه الجزيرة وضاع منهم الحجاز على وجه الخصوص بل وأصبح العراق والشام مهددين وعجزت جيوش الدولة عن كسر شوكة السعوديين واخضاعهم لجأت الدولة إلى واليها على مصر محمد على لاسترداد سلطتها فى شبة الجزيرة العربية . وتوالت حملات محمد على (١٨١١ - ١٨١٩) حتى استطاع دخول الدرعية والقضاء على الامارة السعودية الأولى ، وأصبحت نجد منذئذ تابعة لباشوية القاهرة ،واستمرت كذلك أكثر من عشرين عاما وأصبحت الرياض عاصمة جديدة لنجد .

وإزاء الفوضى التى سادت الإقليم بسبب اعتداءات القوات التركية والألبانية فقد سعى تركى بن عبد الله آل سعود لإعادة سيطرة السعوديين على نجد ، فدخل الرياض واستعاد الحسا ، ولكنه ظل يدين بالولاء والتبعية الباشوية القاهرة (٢) . وبعد اغتيال تركى سنة ١٨٣٤ اتجه ابنه فيصل تركيز حكومة القاهرة اهتمامها على السواحل وإهمال شئون نجد وشرق شبه الجزيرة فكف عن دفع الجزية لباشوية القاهرة فأرسلت حكومتها حملة سنة ١٨٣٨ هزمت فيصلا ونقلته أسيراً إلى القاهرة . ولكن القوات المصرية لم تلبث أن انسحبت سنة ١٨٤٠ من كافة أنحاء شبة الجزيرة ، فهرب فيصل من سجنه

---

(١) د . السيد رجب حراز : مرجع سبق ذكره ص ١٣٣ .
(١) د . السيد رجب حراز . مرجع سبق ذكره ص ١٣٥ .

بالقاهرة وعاد إلى نجد ودخل الرياض وظل يحكم من سنة ١٨٤٣ حتى آخر ١٨٦٥ وفى خلال هذه الفترة لم يكن لحكومة الآستانة أى سلطة أو نفوذ فى نجد، وحتى الحاميات العثمانية المتناثرة فى وسط شبه الجزيرة كانت قد انسحبت إلى الحجاز وتمركزت فى المدينة المنورة .

وفى هذه الفترة انصرف فيصل إلى الاهتمام بشئون نجد واستعادة الأملاك التى فقدتها الإمارة السعودية ، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير، فأخضع الحسا وامتدت سلطته إلى القصيم وحتى أطراف الحجاز وعسير كما دانت له إمارة جبل شمر حيث كان يحكم آل الرشيد فى حائل .

وقد بلغت الإمارة السعودية الثانية ـ منذ منتصف القرن التاسع عشر ـ درجة من القوة لفتت نظر حكومة الهند البريطانية وكذلك فرنسا ، حتى أوفدت بريطانيا الكولونيل لويس بلى Lewis Pelly المقيم البريطانى فى الخليج لمباحثة فيصل ويقال إن هذه الزيارة أسفرت عن توقيع اتفاق بين الطرفين لم يعثر على نصوصه [1] . كما أوفدت فرنسا فى سنة ١٨٦٢ وليم جيفورد بلجريف Palgrave ورغم أنه انتقد السلفية والسلفيين إلا أنه لم يستطع أن ينكر أن الأمن انتشرت ألويته فى ربوع نجد فى عهد فيصل [2] .

وبعد وفاة فيصل فى ديسمبر (كانون أول) ١٨٦٥ دب النزاع بين أبنائه واشتعلت نار الفتن والحروب فانتزع سعود من أخيه الأكبر عبد الله إقليم الحسا وأصبح يهدد الرياض فأراد عبد الله الالتجاء إلى آل الرشيد فى حائل . وبينما هو فى طريقه إليها راسل مدحت باشا والى بغداد طالبا المعونة لمواجهة ثورة أخيه وعارضا التبعية للدولة العثمانية ، إلا أنه سرعان ما ندم على هذا التصرف ؛ فعاد إلى الرياض ولكن أخاه سعوداً دخلها سنة ١٨٧١ .

---

(2) Philby, st J. ; Saudi Arabia, p. 216

(٣) د . السيد رجب حراز : مرجع سبق ذكره ص ١٣٩ .

ولما كان استنجاد عبد الله قد وصل إلى مدحت باشا ، كان هذا من ناحيته يفكر جدياً فى ضم الحسا ونجد فقد انتهز مدحت هذه الفرصة السانحة فأصدر بيانا أعلن فيه أن نجد خاضعة للدولة العثمانية وإن عبد الله ابن فيصل مفوض من قبل السلطان العثمانى (أو قائمقام) فى نجد ، وأن حملة عسكرية تركية سوف ترسل من بغداد لإقرار النظام ومساندة قائمقام الدولة ضد أخيه المتمرد [١] .

وفى ٢٠ أبريل (نيسان) تحركت الحملة العثمانية من البصرة واستولت على الحسا ، وقد أصدر مدحت باشا — عند تحرك الحملة — بيانا وجهه إلى سكان نجد أعلن فيه أن « نجد من الممالك المقدسة الراجعة إلى الدولة العثمانية وإذا كانت الدولة قد تغافلت عنها حينا من الزمان فقد كان ذلك لانشغالها عنها ونتج عن ذلك استحكام الفوضى فى داخلها ، وأن الدولة تتدخل الآن لإصلاح ما فسد » [٢] . وقد استطاع الترك إنزال الهزيمة بسعود فى معركة خويرة .

وقبل نهاية سنة ١٨٧١ أصدر مدحت باشا بيانا أعلن فيه أنه بسبب شكايات أعيان نجد صدرت الأوامر بعزل آل سعود من حكم هذه البلاد وإناطة حكمها إلى حاكم تركى وأن نافذ باشا قائد الحملة التركية قد عين متصرفا على نجد ، كما وصلت الإمدادات لتعزيز القوات التركية فى الحسا مما أثار شكوك عبد الله الذى فطن إلى أن الغرض من الحملة التركية على الحسا لم يكن حمايته من أخيه سعود بل إزالة الحكم السعودى كله وإدارة البلاد إدارة مباشرة كأى إقليم عثمانى ، ولذلك هرب من قبضة الترك ووصل إلى الرياض حيث رحب به أهلها .

ويبدو أن الأتراك أدركوا أن حكم نجد حكما مباشراً سيكون عبثاً ثقيلا

---

(1) Dickson : Kuwait and her Neighbours, p. 126.

(٢) د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربى (١٨٤٠ — ١٩١٤) ص ١٨٣ — ٤ .

بسبب ظروفها الطبيعية فدخلوا فى مفاوضات مع سعود ، إلا أن هذا لم يلبث أن توفى فى يناير (كانون ثانى) ١٨٧٥ ، فعاد الانقسام مرة أخرى بين أفراد البيت السعودى الأمر الذى أدى إلى إضعافه وانهيار الإمارة السعودية الثانية فى أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، فقد أتيحت الفرصة لآل الرشيد فى حائل لبسط نفوذهم على المناطق الشمالية من نجد وبخاصة القصيم وكانت الحكومة العثمانية تساعد آل الرشيد بالمال والسلاح للإطاحة بحكم آل سعود فى نجد ، وزحف أمير حائل على الرياض ودخلها ونقل عبد الله إلى حائل وأعدم ثلاثة من أبناء سعود وبذلك أصبح محمد بن الرشيد صاحب السيطرة فى المنطقة .

وبعد وفاة عبد الله سنة ١٨٨٩ عقدت البيعة لأخيه عبد الرحمن الذى عاد إلى الرياض تحت سيطرة آل الرشيد ولكنه أخذ يكافح من أجل الاستقلال عنهم ولكن محاولته لم تنجح واحتلوا الرياض فغادرها عبد الرحمن .

ويبدو أن الترك صاروا ينظرون بعين القلق إلى ازدياد نفوذ حليفهم ابن الرشيد ، فحاولوا الاتفاق مع عبد الرحمن آل سعود على أساس تمكينه من استرجاع الرياض شريطة اعترافه بسيادة الدولة العثمانية عليه ودفع الجزية السنوية لها ، ويقال إن ثمة شرطاً آخر وهو السماح لحامية عثمانية بالإقامة فى الرياض ، ولكنه رفض لعدم ثقته بالعثمانيين فإن ذاكرته كانت لا تزال تعى ما سمعه عن شنق الإمام عبد الله بن سعود فى الميدان المواجه لمسجد أيا صوفيا بالآستانة(١) .

وإزاء ازدياد شكوك العثمانيين فى نوايا ابن الرشيد قرروا مساعدة عبد الرحمن على استرداد ملكه ، فأوعزت الحكومة العثمانية إلى الشيخ محمد آل

---

(١) د السيد رجب حراز : مرجع سبق ذكره ص ١٠٤ .

الصباح أمير الكويت للاقامة عنده فانتقل إليها سنة ١٨٩٣ ، بل ويقال إن الحكومة العثمانية هي التي تكفلت بنفقات إقامته في الكويت دون علمه[١].

وفي سنة ١٩٠١ خرج عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من الكويت على رأس سرية ، وفي ١٥ يناير (كانون ثان) ١٩٠٢ هاجم حامية آل الرشيد في الرياض وانتزع المدينة من الأمير المعين من قبل ابن الرشيد .

واستدعى عبد العزيز إلى الرياض أباه عبد الرحمن الذي احتفظ بلقب الإمام رأس الأسرة المالكة ، بينما ظل ابنه عبد العزيز الرئيس الفعلي للحكومة وقائد جيشها وظل الأمر كذلك حتى قضى عبد الرحمن سنة ١٩٢٨ . وأخذ عبد العزيز يعمل على استعادة مركز أسرته في نجد وبناء الإمارة السعودية الثالثة .

إلا أن توسع عبد العزيز أزعج الترك وآل الرشيد في آن واحد فعاد التقارب بينهم وأمد الترك عبد العزيز بن متعب وارث إمارة حائل بالمساعدات العسكرية إلا أن عبد العزيز آل سعود هزمه في معركة البكرية . ولما كانت ثورة الإمام يحيى على أشدها في ذلك الوقت رأت الحكومة العثمانية أن تضيق من نطاق عملياتها العسكرية في وسط شبه الجزيرة ، فاستعانت بوساطة الشيخ مبارك أمير الكويت وتمسك الإمام عبد الرحمن بموقفه ولم تسفر المفاوضات إلا عن الاتفاق على جلاء القوات التركية التي جاءت لمساعدة ابن الرشيد وعودتها إلى بغداد والمدينة المنورة وفشلت محاولات الترك جعل القصيم منطقة حيادية تقيم بها حامية عسكرية تركية .

وفي الواقع فإنه منذ سنة ١٩٠٦ أصبح عبد العزيز آل سعود هو القوة

---

(١) Benoit - Mechin : Arabian Destiny. p. 69

المسيطرة فى وسط شبه الجزيرة ، ونجح فى سنة ١٩١٣ فى انتزاع الحسا من الترك وبذلك وصلت الإمارة السعودية إلى شواطىء الخليج .

ومن العوامل التى ساعدت عبد العزيز آل سعود خلال هذه الفترة على تدعيم سلطته وتوسيع رقعة ممتلكاته انشغال الترك بثورة الإمام يحيى فى اليمن والاضطراب فى إمارة حائل بعد مقتل عبد العزيز بن متعب آل الرشيد فى معركة مع عبد العزيز آل سعود ١٩٠٦ ، ثم انشغال الترك فى عاصمة الدولة ذاتها بالصراع الداخلى بين السلطان عبد الحميد الثانى والأتراك الأحرار ، ثم انشغال حكومة الاتحاديين بالحرب الطرابلسية ضد الطليان (١٩١١ — ١٩١٢ م) ، وبالحرب البلقانية (١٩١٢ — ١٩١٣ م) ، يضاف إلى ذلك معارضة انجلترا للتوسع العثمانى فى الخليج خصوصاً بعد ازدياد النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية بظهور مشروع سكة حديد بغداد .

واضطر الترك للاعتراف بالأمر الواقع وعقدوا اتفاقا مع ابن سعود وبمقتضاه اعترفوا بحكم آل سعود فى نجد والحسا وتعهدوا بعدم التدخل فى شئونه وفى مقابل ذلك وافق ابن سعود على الاعتراف بالسيادة التركية الاسمية[1] .

الخليج :

وعندما شرعت الدولة العثمانية فى أواخر الستينات من القرن التاسع عشر فى محاولة إخضاع الخليج لسيطرتها وجدت أن النفوذ البريطانى قد سبقها وتسلل إليه ، وصارت بريطانيا تجاهد فى مقاومة محاولات الدولة العثمانية ، وذلك باستخدام وسائل شتى منها استعراض قوة الأسطول البريطانى ، أو تكبيل مشايخ الخليج بمعاهدات تحت ستار محاربة تجارة الرقيق والقرصنة ، ولقد أرادت

---

(١) Ibid, pp. 111 - 113.

بريطانيا الانفراد بهذا العمل حتى أن حكومة الهند عارضت اقتراح حكومة الآستانة سنة ١٨٤٧ بمشاركة سفن الأسطول العثمانى فى تفتيش المراكب التى يشتبه فى أنها تحمل رقيقاً .

ومن المرجح أن الدولة العثمانية لم تفكر جديا فى إقامة نفوذها الفعلى على سواحل الخليج إلا بعد سنة ١٨٦٩ لأنه فى ذلك العام افتتحت قناة السويس للملاحة البحرية الأمر الذى جعل فى استطاعة الأسطول العثمانى الانتقال من البحر المتوسط إلى الأحمر ومنه إلى الخليج ، كما أنه فى السنة نفسها عين مدحت باشا والياً على بغداد وظل فى المنصب حتى سنة ١٨٧٢ ، وكان مدحت من زعماء الإصلاحيين الذين كانوا يدعون إلى تدعيم نفوذ الدولة الفعلى على ولاياتها الآسيوية التى لا تتمتع فيها إلا بسيادة إسمية وذلك لتعويض خسائرها فى أقاليمها الأوروبية ولتقوية الدولة فى مواجهة الأطماع الأوربية ، ولذلك أخذ مدحت يخطط ... لنفوذ العثمانى على الكويت وجزر البحرين وشبه جزيرة قطر .

الكويت

ظلت إمارة الكويت حتى الستينات من القرن التاسع عشر تخضع للسيادة العثمانية الإسمية ، وفى سنة ١٨٧٠ وجريا على سياسة استعادة نفوذ الدولة العثمانية فى الأقاليم العربية استصدر مدحت فرمانا سلطانيا يقضى بإعلان الكويت سنجقاً تابعاً لمتصرفية الحسا على أن يحمل شيخ الكويت لقب قائمقام ، ويستقل بإدارة شئونه الداخلية ، ولا يدفع أية رسوم للحكومة العثمانية [1] .

وقبل عبد الله بن صباح آل الصباح شيخ الكويت (١٨٦٦ - ١٨٩٢) لقب القائمقام ، ومنحته الدولة أيضاً لقب الباشوية وأنعمت عليه بأراض

---

(١) د . صلاح العقاد : الاستعمار فى الخليج الفارسى ص ١٦٩ — ١٧٠

واسعة على شاطىء الفرات قرب الفاو ، وأخذ يمد يد المساعدة للدولة فى إخماد الثورات التى قامت ضد الحكم التركى فى شرق شبه الجزيرة العربية .

وبعد وفاة عبد الله آل الصباح سنة ١٨٩٢ دب الخلاف بين إخوته إلى أن استطاع أخوه مبارك فى سنة ١٨٩٦ الاستيلاء على السلطة بعد قتل أخويه وبعد أن كانت الدولة تفكر فى عقابه استجابت لنصيحة رجب باشا والى بغداد بعدم التدخل وأصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى يناير ١٨٩٧ فرمانا بتعيين مبارك قائمقاما عن الكويت ، وقد قبل مبارك اللقب رغبة فى الاحتفاظ بممتلكات أسرته فى الفاو . ومع ذلك فقد حاول مبارك مقاومة جهود الترك لبسط سلطتهم على الكويت حتى أنه ـ فى سبيل ذلك ـ عرض على أحد مساعدى المقيم البريطانى فى الخليج رغبته فى وضع نفسه وبلاده تحت حماية بريطانيا [١] .

إلا أن الحكومة البريطانية لم تستجب لهذا العرض لأنها كانت تعترف بتبعية الكويت للدولة العثمانية ، ولأن مباركا نفسه قبل من الترك منصب قائمقام مما يجعل اعتراف بريطانيا باستقلاله أمرا صعبا ، كما أن بريطانيا لم تكن ترغب فى إثارة الاضطرابات والقلاقل فى الخليج [٢] ، ولعلها حتى ذلك الوقت لم تكن قد تبينت أن ثمة خطرا يتهدد مصالحها فى هذه المنطقة .

ولكن لم تلبث أن ظهرت عوامل دفعت السلطات البريطانية فى الهند إلى إعادة النظر فى عرض الأمير مبارك منها ما يتردد عن محاولات روسيا الحصول على منفذ لها على الخليج ، علاوة على المشروع الألمانى لمد خط سكة حديد برلين / بغداد .

---

(١) د . السيد رجب حراز : مرجع سبق ذكره ص ١٧٢ .

(٢) Wilson, A, T, : The Persian Gulf. p, 251, 2.

فقد كان الروس فى ذلك الوقت يزيدون من نشاطهم فى إيران ، وكان كروجلو Kruglo القنصل الروسى فى بغداد يسعى من أجل الحصول لروسيا على ميناء أو محطة للفحم على الخليج مع بسط النفوذ الروسى فى المنطقة ، وفى نفس الوقت تقريبا تقدم الكونت فلاديمير كابنيست Valadimir Kepnist فى سنة ١٨٩٨ وهو أحد رجال الأعمال الروس إلى السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى بمشروع لبناء خط حديدى من ميناء طرابلس على ساحل الشام إلى أحد موانى الخليج ، وقد أحال السلطان هذا المشروع إلى وزير الأشغال فى الدولة العثمانية لدراسته (١) .

وإلى جانب ذلك فإن ألمانيا - فى ذلك الوقت أيضاً - كانت قد أخذت تعمل على إعلاء نفوذها فى الدولة العثمانية ، وصارت سياسة ألمانيا تقوم على استغلال موارد تركيا المعدنية والزراعية بواسطة مد شبكة واسعة من الخطوط الحديدية تحت سيطرة الألمان ، وكان السلطان عبد الحميد من ناحيته - وقد استجاب للتقارب الألمانى - يؤمن بفائدة الخطوط الحديدية عموما لأنها تتيح له فرصة تقوية قبضته على أقاليم الدولة وإخضاع أى محاولة من جانبها للخروج على طاعة الدولة أو عدم القيام بالتزاماتها نحوها أو محاولة الانفصال عنها ، وخصوصا الخط الذى يربط البسفور ببغداد والخليج من ناحية ، ودمشق والحجاز من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٨٩٣ وصل الخط إلى أنقرة ، وسار المشروع الألمانى قدما بين سنتى ١٨٩٨ ، ١٨٩٩ حتى لقد أدى إلى وضع مشروع كابنيست الروسى (على الرف) حيث إن السلطان عبد الحميد لم يكن مرتاحا إليه لأنه يؤدى إلى

---

(١) Earle, E. M.: Turkey, the Great Powers and the Baghdad Railwey. p. 58.

توغل نفوذ روسيا فى الدولة العثمانية . وفى نوفمبر (تشرين ثان) ١٨٩٩ أصدر السلطان العثمانى قراراً بمنح البنك الألمانى امتياز مد خط حديدى من قونية إلى بغداد والخليج .

وفى البداية لم يساور الحكومة البريطانية القلق إزاء هذا المشروع طالما أنه لم يكن قد اتضح بعد أن الألمان يعملون على مد هذا الخط إلى الخليج ، كما كان البريطانيون يفضلون وجود الألمان فى الأناضول والعراق على وجود الروس.

ولكن لم يلبث أن اتضح لبريطانيا أن الألمان قد عقدوا العزم على جعل الكويت نهاية لهذا الخط الحديدى، وعندئذ استبد بها القلق خوفاً على مصالحها وسيطرتها فى الخليج وبالتالى فى الهند ، وكان كيرزون الذى صار منذ سنة ١٨٩٨ نائباً للملك فى الهند حريصاً على الوقوف فى وجه أى خطر يهدد مركز بريطانيا ومصالحها فى الخليج الذى كان يعتبره منطقة بريطانية مغلقة لا يمكن السماح لأى دولة بالحصول على مركز تجارى أو بحرى على سواحله ولذلك فإنه فى تقرير له إلى حكومته بتاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين ثان) ١٨٩٨ دعا إلى بسط الحماية البريطانية على الكويت فى أقرب وقت ممكن (وبنفس الطريقة التى بسطت بها الحماية البريطانية على البحرين فى سنة ١٨٩٢) ، وكان من رأيه أن هذا لا يستلزم بالضرورة التدخل فى الشئون الداخلية للكويت وإنما يكفى تخصيص سفينة حربية بريطانية لزيارة الكويت من حين لآخر ، وبذلك تحول بريطانيا دون إقدام أية دولة على رفع علمها على الكويت ، ودون محاولة الأتراك مهاجمة الكويت والاستيلاء عليها .

وعلى هذا الأساس عهد كيرزون إلى الكولونيل مالكولم جون ميد Meade المقيم السياسى فى الخليج بالتوجه إلى الكويت ومفاوضة شيخها من أجل وضع إمارته تحت الحماية البريطانية ، وفى ٢٣ أبريل (نيسان) ١٨٩٩ أبرم

عيد مع الشيخ مبارك اتفاقية تعهد فيها الأمير بألا يستقبل وكيلا أو ممثلا لأية دولة أو حكومة فى الكويت بدون إذن سابق من الحكومة البريطانية، كما تعهد بألا يتنازل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن أو يمنح بغرض الاحتلال أو أى غرض آخر أى جزء من أراضيه إلى حكومة أو رعايا أية دولة أخرى بدون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية(١). كما أن بريطانيا تعهدت مقابل ذلك بمنح شيخ الكويت مساعدة مالية مع الدفاع عنه وعن إمارته.

وهكذا وضعت هذه الاتفاقية الكويت من الناحية العملية تحت الحماية البريطانية.

وإذا كان الخوف من النشاط الروسى والنشاط الألمانى هو الذى دفع لورد كيرزون إلى التعجيل بعقد اتفاقية سنة ١٨٩٩ مع شيخ الكويت، فقد كان لدى هذا الأخير من الدوافع ما حفزه إلى الارتباط ببريطانيا وهى دوافع نتجت عن توتر علاقاته مع الدولة العثمانية من ناحية ومع بعض جيرانه من ناحية أخرى.

فقد كانت الدولة العثمانية تسعى لبسط سيطرتها على الكويت وترددت شائعات عن تجمع القوات العثمانية فى البصرة للزحف على الكويت لعزل الشيخ مبارك الذى لم تكن علاقته طيبة بوالى البصرة حمدى باشا الذى كان يساند إخوة مبارك ضده فى الادعاء بملكية الأراضى الزراعية فى منطقة البصرة، وحاول الزج بأمراء آل الصباح اللاجئين إلى البصرة فى مشروعات سياسية للتخلص من مبارك، وكان اشتراك الكويت مع العراق فى الحدود من شأنه أن يجعل الغزو سهلا ميسورا.

---

(١) Hurewitz : Diplomacy in the Near East, Vol. I. Doc. no. 100, pp. 218, 219

كما أن السلطان عبد الحميد الثانى ولو أنه كان قد اعترف بالأمر الواقع فى الكويت عندما أصدر فى يناير (كانون ثان) ١٨٩٧ فرمانا بتعيين الشيخ مبارك قائمقاماً على الكويت إلا أنه لم ينس أن مباركاً اغتصب حكم الإمارة من أخيه ممثل السلطان فى الكويت وتبوأ عرشها دون الحصول على موافقة الحكومة العثمانية .

لذلك أراد الأتراك معاقبة مبارك مستخدمين فى ذلك عبد العزيز بن متعب آل الرشيد أمير حائل الذى أفهموه أن من يمتلك الرياض وحائل لابد وأن يمتلك الكويت حتى يكون له منفذ على الخليج . وبذلك حرضوه على الشيخ مبارك ، لذلك كان هذا الأخير يشعر بالقلق على إمارته من ناحية أطماع ابن الرشيد التوسعية ، لذلك ومن أجل الحفاظ على الكويت من أطماع الأتراك وابن الرشيد لجأ الشيخ مبارك إلى عقد اتفاقية ١٨٩٩ مع بريطانيا ، ولو أن ذلك لم يضع حداً لمحاولات الحكومة العثمانية فرض سيطرتها على الكويت .

ففى أوائل عام ١٨٩٩ وبعد أن قامت الفرقاطة الألمانية أنقرة بدراسة منطقة رأس الخليج غادرت العاصمة التركية بعثة ألمانية برئاسة الهر ستمريخ Stamrieh مع الملحق العسكرى الألمانى لدراسة المناطق التى سوف يمر بها خط سكة حديد بغداد لمعرفة إمكانياتها الاقتصادية والاستراتيجية حتى يمكن تحديد مسار الخط وشراء المكان الذى يصلح نهاية له[1] .

وفى أوائل سنة ١٩٠٠ وصلت البعثة الألمانية إلى الكويت للبحث عن مكان مناسب ينتهى عنده خط سكة حديد بغداد ، وحاول الهر ستيمريخ مفاوضة الشيخ مبارك لاختيار موقع رأس كاظمة نهاية للخط ، ولكن

---

(١) Earle : Ouv. Cit, p. 34,
Jastrow : The war and the Bagdad Railway. p. 83.

الشيخ مبارك — بإيعاز من السلطات البريطانية — لم يحسن استقباله ورفض التنازل عن أية أراض حول رأس كاظمة استناداً إلى اتفاقية يناير (كانون ثان) ١٨٩٩ مع بريطانيا ، وعندما فكرت الحكومة العثمانية فى إخضاع أمير الكويت انبرت بريطانيا للدفاع عنه ففى صيف ١٩٠٠ ظهر عزم الترك على استعادة مصالحهم فى الكويت خصوصاً بعد الاصطدامات المسلحة بين الشيخ مبارك وابن الرشيد بسبب تأييد الأول للشيخ عبد الرحمن بن فيصل آل سعود فى الهجوم على نجد لانتزاعه من ابن الرشيد . وأخذت الحكومة العثمانية فى تدبير هجوم مزدوج على الكويت بحيث تزحف القوات التركية من البصرة من ناحية ، وقبائل شمر من حائل من ناحية أخرى ، إلا أن القوات البحرية البريطانية فى الخليج اتخذت الترتيبات اللازمة والعاجلة للدفاع عن الكويت مما اضطر كلا من ابن الرشيد والترك إلى الانسحاب إلى حائل والبصرة على التوالى ، كما لم تفلح محاولات الترك استخدام بعض منافسى الشيخ مبارك من آل الصباح بفضل تنبه الأسطول البريطانى فى الخليج واحتجاج السفير البريطانى فى الآستانة .

وفى مارس ١٩٠٢ منح السلطان العثمانى شركة سكة حديد الأناضول الامتياز الثانى لبناء خط سكة حديد بغداد ، ومنذ السنة التالية شرع الألمان فى بناء الخط ، وفى الوقت نفسه أخذت بريطانيا تدعم نفوذها فى الكويت ، ففى سنة ١٩٠٤ وافق الشيخ مبارك على عدم السماح لأية دولة غير بريطانيا بإقامة مكاتب للبريد فى الكويت ، وفى يونيو (حزيران) من نفس السنة عين أول وكيل سياسى لبريطانيا فى الكويت ، ولم تجد نفعا الاحتجاجات التى قدمتها الحكومة العثمانية .

ومع أن خط السكة الحديد إلى بغداد لم يمتد — فى سنة ١٩٠٤ — لأكثر من مائتى كيلو متر وراء قونية ، وتأخر عبور الخط جبال طوروس حتى سنة

١٩١٠ بسبب المصاعب المالية والسياسية ، إلا أن الإنجليز كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم من أجل عرقلة وصول الخط إلى الكويت ، ففى سنة ١٩٠٧ عقدوا مع الشيخ مبارك اتفاقاً وافق بموجبه على أن يؤجر بصفة دائمة إلى الحكومة البريطانية قطعة من الأرض فى بندر الشويخ ومدينة الكويت لتحصينها وتحويلها إلى قاعدة بحرية ومحطة للفحم لبريطانيا ، الأمر الذى يمكن بريطانيا من التحكم فى ثغر الكويت وبذلك يجعل الموضع المقترح لنهاية الخط الحديدى على الجانب الشمالى من خليج الكويت تحت رحمة المدفعية البريطانية ، واحتفظت الحكومة البريطانية لنفسها بحق إنهاء إيجار منطقة بندر الشويخ فى أى وقت تشاء[1] .

وبعد أن استأثر رجال الاتحاد والترقى بالسلطة فى الآستانة لم يكفوا عن محاولة إخضاع الكويت بإرسال الحملات إليها مستخدمين فى ذلك شيخ قبائل المنتفك سعدون باشا الأمر الذى دعا بريطانيا إلى التمسك بنفوذها السياسى والاقتصادى فى الكويت ، ففى أغسطس ١٩١١ تعهد الشيخ مبارك للكابتن شيكسبير Shakespeare الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت بألا يستجيب للطلبات التى تقدم إليه لبحث عن اللؤلؤ أو لصيد الإسفنج فى مياهه الإقليمية إلا بعد استشارة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج وموافقة حكومة الهند البريطانية ، وفى ٢٧ أكتوبر ١٩١٣ تعهد الشيخ مبارك بألا يمنح حق التنقيب عن النفط واستغلاله فى الكويت لأى شخص دون الرجوع إلى الحكومة البريطانية[2] .

ونظراً لرغبة الحكومة العثمانية فى تسوية خلافاتها مع بريطانيا بشأن

---

(١) Dickson : Ouv. Cit. p. 141

(٢) Hurewitz : Ouv. Cit., Vol. I, p. 272

الخليج بما فيه إمارة الكويت فقد دخلت فى مفاوضات مع حكومة اسكويث. وفى ٢٩ يوليو (تموز) و ١٢ أغسطس (آب) ١٩١٣ وقعت اتفاقيتا الخليج بين حق باشا المفوض العثمانى وإدوار جراى وزير خارجية بريطانيا ، وإلى جانب النص فى الاتفاقيتين على أن تتنازل الدولة العثمانية عن كل مالها من حقوق ومطالب فى قطر وتتعهد بسحب جنودها وموظفيها منها ، وكذلك بالنسبة لجزر البحرين ، فقد اتفق على أن تبقى الكويت تحت السيادة العثمانية على ألا تتدخل الدولة العثمانية فى شئونها الداخلية أو الخارجية بأية وسيلة ، ولا ترسل إليها جنوداً ، مع حق شيخ الكويت فى استعمال العلم العثمانى مع إضافة كلمة (كويت) إلى زوايته إذا أراد ، وأن تعترف الدولة العثمانية بالاتفاقيات التى سبق أن عقدها شيخ الكويت مع بريطانيا ، وأن تتعهد أيضاً بالمحافظة على حقوق الشيخ مبارك فى أملاكه بالعراق الجنوبى[1] .

واتفاقية ١٩١٣ هذه تنطوى على تناقضات واضحة صارخة ، فبينما تعتبر الكويت تحت السيادة العثمانية فإن الحكومة العثمانية لا تملك التدخل فى أى شأن من شئونها ، وفى الوقت نفسه تعترف بالاتفاقيات التى ربطت الكويت ببريطانيا ربطاً محكماً .

وإلى جانب ذلك وفيما يختص بخط سكة حديد بغداد فقد اتفق فى الاتفاقيتين أيضاً على أن يضم مجلس إدارة شركة سكة حديد بغداد عضوين بريطانيين يختاران بالاتفاق مع الحكومة البريطانية . وأن تكون البصرة نهاية للخط ولا يمتد إلى ما بعدها إلا بموافقة الحكومة البريطانية وشروطها ، وتعلن الحكومة العثمانية أن شركة سكة حديد بغداد قد تخلت عن جميع

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .

الحقوق التي كانت قد منحت لها لمد الخط الحديدي إلى ما بعد البصرة ولإنشاء مرفأ على الخليج(١) .

• • •

الحسا :

وقد انتهز مدحت باشا في أثناء توليه ولاية بغداد فرصة تقدم عبد الله ابن فيصل يطلب مساعدة الأتراك له في نزاعه ضد أخيه سعود وإعادته للحكم في الرياض مقابل قبوله التبعية للدولة العثمانية ودفع الجزية لها فأسرع مدحت بقبول هذا العرض من أجل ضم الإمارة السعودية إلى الدولة العثمانية بحجة إقرار النظام في أقاليم السلطان البعيدة . فأرسل حملة من البصرة إلى الحسا بقيادة الفريق نافذ باشا في أبريل (نيسان) ١٨٧١ ، وقدم شيخ الكويت المساعدات للحملة التي استطاعت الاستيلاء على كل إقليم الحسا ورفعت الراية العثمانية على قاعدتها الهفوف ، وزار مدحت باشا بنفسه الحسا وأعلن أنها صارت من ممتلكات الدولة العثمانية ، وعين نافذ باشا متصرفاً عليها وعلى المقاطعات التابعة لها باسم متصرفية أو لواء نجد .

واستمرت هذه الترتيبات التي وضعها مدحت للحسا حتى سنة ١٨٧٤ حين أدركت الدولة أن الإدارة العثمانية المباشرة في الحسا ستكون باهظة النفقات ، فعهدت إلى متصرف البصرة وزعيم قبائل المنتفك ناصر باشا السعدون بإدارة الحسا بواسطة قوة من القبائل المحليه بدلا من الحاميات العثمانية ، وظل إقليم

---

(٢) د . السيد رجب حراز : مرجع سبق ذكره ص ص٢٠٢ — ٢٠٣ ومما يجدر ذكره أن هاتين الاتفاقيتين لم يتم التصديق عليهما بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا .

الحسا خاضعاً للدولة العثمانية حتى سنة ١٩١٣ حين نجح عبد العزيز آل سعود فى الاستيلاء على الحسا وطرد الأتراك منها(١) .

* * *

البحرين وقطر

وبعد أن نجح مدحت فى الحملة على الحسا أرسل عارف بك قائد بحرية البصرة إلى البحرين محاولا الحصول على ولاء شيخها للسلطان العثمانى ، وذلك تحت ستار إقامة مستودعات للفحم لتموين السفن العثمانية . وأشيع أن شيخ البحرين عـبر عن سروره وسعادته لرؤية السفن العثمانية التى كانت بصحبة عارف بك ، وقال إن البحرين لم تر من قرنين سفناً عثمانية فى هذا البحر ، وتنازل عن بعض الأراضى لإقامة المستودعات المطلوبة ، وعندئذ أخذت السفن العثمانية تـكثر من الترداد على البحرين بدعوى التزود بالماء والفحم .

إلا أنه إذا كانت حكومة الهند البريطانية قد تغاضت عن نشاط الأتراك فى الحسا وسلمت باحتلالهم للاقليم فإنها كانت تعارض سيطرتهم على جزر البحرين والمناطق التى تليها جنوباً .

ولقد كانت الدولة العثمانية تسعى جدياً من أجل احتلال البحرين حتى بعد عزل مدحت باشا من ولاية بغداد سنة ١٨٧٢ ، فأخذوا يدعمون حامياتهم فى قطر ويحاولون إعادة بناء ميناء الزبارة على الشاطىء الغربى لقطر والمقابل لجزر البحرين ، الأمر الذى أدى إلى انزعاج بريطانيا ومبادرة حـكومة الهند إلى الاحتجاج باسم شيخ البحرين عيسى بن خليفة على أساس أن ميناء الزبارة يتبع البحرين وأن شيخ البحرين يتخذ منه مقراً صيفياً للحكم ، وأنذرت الحـكومة

---

(١) د . السيد رجب حراز : مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ .

البريطانية حكومة الباب العالى بأنها لن تسمح بأى عمل من شأنه المساس باستقلال البحرين ، فتوقفت أعمال البناء فى ميناء الزبارة .

ولكن الأتراك أخذوا يحرضون القبائل الموالية لهم على مهاجمة البحرين، وكان شيخ البحرين — بتشجيع بريطانيا ومساندتها — يرد على ذلك بمهاجمة ساحل قطر .

وفى سنة ١٨٧٩ تجددت محاولات الترك للسيطرة على جزر البحرين الأمر الذى دعا إدواردوس المقيم البريطانى فى الخليج إلى وضع هذه الجزر رسمياً تحت حماية بريطانيا كأفضل وسيلة لمنع العثمانيين من ضمها ، فعقد مع عيسى شيخ البحرين فى سنة ١٨٨٠ اتفاقية تعهد فيها الأخير بألا يدخل فى مفاوضات أو يعقد معاهدات مع الحكومات الأخرى إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، كما تعهد بألا يسمح لغير بريطانيا بإقامة تمثيل دبلوماسى أو قنصلى أو محطات للفحم فى أراضى البحرين[١] . وفى مارس ١٨٩٢ أبرمت بريطانيا مع الشيخ عيسى معاهدة أخرى تعهد فيها بعدم التنازل أو بيع أو رهن أى جزء من أراضيه إلا للحكومة البريطانية[٢] .

وفى العام التالى ١٨٩٣ أسست بريطانيا وكالة سياسية لها فى البحرين ، واتخذ الوكيل السياسى من المنامة مقراً له وأصبح المتصرف الوحيد فى شئون الإمارة بما فى ذلك حق الفصل فى قضايا الأجانب .

وفى سنة ١٩٠١ منحت بريطانيا وكيلها السياسى فى البحرين سلطات واسعة وعينت مستشاراً بريطانيا إلى جانب شيخ البحرين فى المنامة ، وفى سنة ١٩٠٥

---

(١) Hurewitz : Ouv, Cit. vol. 1. Doc. 86, p, 194.

(٢) Ibid. Vol, I, Doc. 97, p, 209,

استولت على ميناء الزبارة ، ثم جعلت لنفسها الحق فى استغلال ثروة البحرين بمقتضى اتفاقيتين عقدتهما مع شيخ البحرين الأولى فى سنة ١٩١١ بشأن استغلال مصايد اللؤلؤ والإسفنج ، والأخرى فى مايو ١٩١٤ وفيها تعهد شيخ البحرين بألا يسمح لأى شخص باستغلال النفط — ولا حتى هو بنفسه — إلا بعد الحصول على موافقة الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين[1] .

ولقد رأينا كيف أنه فى اتفاقيتى ٢٩ يوليو (تموز) ، ١٢ أغسطس (آب) ١٩١٣ بين الحكومة العثمانية والحكومة البريطانية تعهدت الأولى بالتنازل عن كل مالها من حقوق ومطالب فى شبه جزيرة قطر ، وتعهدت بسحب ما كان لها من موظفين وجنود هناك ، كما تعهدت بالتنازل عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى جزر البحرين .

أما فى مسقط فقد كان رد الفعل البريطانى عنيفاً عندما علمت وزارة الخارجية البريطانية وحكومة الهند بالاتفاقيات الفرنسية مع مسقط عام ١٨٩٨ ، حين نجح أوتافى Ottavi نائب القنصل الفرنسى فى التأثير على السلطان فيصل ابن تركى حتى منح الأسطول الفرنسى ميناء بندر جيزة جنوب شرقى مسقط لاستعماله كمحطة للفحم وكادت تحدث نتيجة لذلك حادثة مماثلة لحادثة فاشودة فى العام نفسه ، عندما حاولت السفينة البريطانية سفنكس Sphinx رفع العلم البريطانى على بندر جيزة وإنزال العلم الفرنسى فتصدت لها مدمرة فرنسية ، ولم يلبث الأسطول البريطانى أن استعرض قوته أمام سلطان مسقط حتى أرهبه وأرغمه على ولائه لبريطانيا وتخليه عن اتفاقه السرى مع فرنسا[2].

---

(١) د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ص ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٢) Graves: The Life of Sir Percy Cox, ch VIII pp. 35-91.,

د . محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ج ١ ص ص ٨٦ — ٧٧

من هذا نرى أنه إذا كانت مناطق الخليج العربى قد خرجت تدريجياً من تحت السيطرة العثمانية فإنها انتقلت للخضوع للسيطرة البريطانية ولم يكن أحد من أمراء هذه المنطقة يملك من أمر نفسه أو إمارته شيئاً ، وإنما الأمر كله صار فى يد المقيم البريطانى فى الخليج ، بإستثناء إقليم الحسا الذى انضوى — منذ سنة ١٩١٣ — تحت لواء عربى إسلامى هو لواء آل سعود فى نجد .

. . .

اليمن :

أما اليمن فقد كان فى العهد العثمانى ولاية واحدة تنقسم إلى أربعة متصرفيات (تعز ، صنعاء ، عسير ، الحديدة) ، ولم يستقر الحكم التركى فيه بل كان يموج بثورات واضطرابات عامة متناثرة ، تشتد أحياناً عند صنعاء مقر الوالى ، وقد كان لليمن — شأنه شأن شبه الجزيرة عامة — ظروف إجتماعية خاصة تختلف عن بقية بلدان المشرق العربى فقد كانت الوحدة الاجتماعية فيه هى القبيلة ، وحتى التشكيلات السياسة من إمارات ومشيخات كانت تعتمد على النفوذ الأسرى[1] .

ولقد بذل الترك محاولات عديدة للضرب على أيدى القبائل الثائرة ، ولكن لم يستتب السلام ولم يدم أى صلح تعقده الدولة العثمانية مع الإمام ، فاستمرت الثورات والاضطرابات مما حدا بالبعض إلى أن يطلق على اليمن (مقبرة الأتراك) .

ومما ساعد على ذلك طبيعة اليمن الجبلية وبعده عن مقر الدولة ، هذا إلى جانب الطبيعة القبلية التى كانت تعارض تدخل الدولة فى شئونهم ، فقد كان كل

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث (١٩٦٣) ص ٤١/٤٢ .

شيخ قبيلة أو رئيس قرية يعتبر نفسه الزعيم الوحيد فى البلاد ، وأن على أهالى منطقته طاعته وتأدية الضرائب والزكاة له .

وعلى الرغم من أن المذهب الزيدى يحصر الخلافة فى الأئمة إلا أن معارضة العثمانيين كانت فى الغالب ترجع إلى رغبة الأئمة فى اعتراف العثمانيين بزعامتهم الدينية على شيعتهم مع الاعتراف بوضع خاص لهم فى اليمن ومنحهم بعض السلطة الزمنية ، يضاف إلى هذا أن الشعب اليمنى ضج من فساد الإدارة العثمانية فى اليمن الذى كان يعتبر منفى للموظفين المغضوب عليهم . ولكن لم تظهر أفكار قومية مثل تلك التى ظهرت فى الشام والعراق ، وإنما تبلورت مطالب الأهلين فى أن يتركوا وشأنهم دون تدخل حكومى مع اعترافهم بالسيادة العثمانية استجابة لعقيدتهم الدينية المتمكنة من نفوسهم .

ولذلك لم تنقطع ثورات اليمنيين ضد الحاميات العثمانية ، تلك الثورات التى اتخذت الأسلوب الذى ألفه اليمنيون فى منازعاتهم الشخصية وهو القتال والفر والكر بسبب حياتهم البسيطة وظروف بيئتهم الجبلية ، فكان تاريخ اليمن فى ربع القرن السابق على نشوب الحرب العالمية الأولى تاريخ « السيف والنار »[٢] .

وإذا كان عرب شبه الجزيرة ومنهم اليمنيون ابتهجوا — شأن بقية العرب — بثورات ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٠٨م، ١٣ — ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٠٩، إلا أنهم لم يلبثوا أن خاب رجاؤهم بسبب تسويف الاتحاديين فى تنفيذ أى مشروع إصلاحى واتجاههم إلى فرض الهدوء على اليمن بالقوة . فولوا على اليمن (محمد على باشا) فى مايو (آيار) ١٩١٠م الذى كان من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى وكان يؤمن باستخدام سياسة العنف والشدة خصوصاً وأن سياسة

---

(٢) السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٦٥ .

الاتحاديين كانت تقوم على أساس المركزية ولا تسمح للولايات بأى قدر من الحكم الذاتى ، وترتب على ذلك قيام الثورة فزحفت القبائل على المدن تحاصرها وتخربها فحوصرت صنعاء من يناير (كانون ثان) إلى أبريل (نيسان) ١٩١١ وذلك رغم الامدادات التى بعثت بها الدولة لتدعيم قواتها فى اليمن حتى اضطرت أخيراً لتجريد حملة كبيرة بقيادة (عزت باشا) رئيس أركان حرب الجيش ، وكان إلى جانب كفاءته العسكرية على قدر كبير من الحنكة السياسية، ورغم مالقيه من مقاومة شديدة من عرب اليمن فقد تقدم من الحديدة حتى دخل بقواته صنعاء فى مساء الخامس من أبريل (نيسان) ١٩١١ إلا أن ذلك لم يكن معناه أن اليمن قد خضع تماماً للقائد المنتصر ، فقد كان الإمام ما زال له النفوذ الأكبر على الهضبة[1] .

وقد تكتلت فى الثورة ضد الترك القبائل الزيدية وغير الزيدية، مدفوعين إلى ذلك ـ إلى جانب اختلاف المذهب ـ بسوء الادارة العثمانية والضرائب العالية علاوة على ما ينتظرهم من غنائم .

وعلى الرغم من أن محمد على باشا والى اليمن قاد حملة ضد الإمام لمطاردة الثوار فى الشمال الغربى بعد دخول (عزت باشا) صنعاء إلا أنه عاد أدراجه إلى صنعاء دون أن يحقق نتائج تذكر ، وإزاء فشل الحملات العسكرية رأى عزت باشا أن يكون أكثر واقعية بالاتفاق مع الإمام رأس المقاومة اليمنية، وقد بذل (عزت باشا) مجهوداً كبيراً فى عقد الصلح وقابل الإمام فى دعان ثم سافر إلى الآستانة ليعرض مشروع الصلح على الباب العالى ويحصل على موافقته ، وقد لعب عزيز على المصرى ومعه سليم الجزائرى — وكانا من هيئة أركان حرب عزت باشا — دوراً كبيراً فى تسهيل سبيل الاتفاق مع الإمام.

---

(١) Philby : Arabia (1930) p. 217

ومما ساعد على التقريب بين وجهتى النظر وعقد صلح عام (١٩١١) أن الطرفين كانا يميلان — بسبب ظروفهما — إلى الصلح ونشر السلام بين ربوع اليمن ، كما تدخلت بعض الشخصيات مثل الشريف حسين أمير مكة و(السير) أحمد سلطان لحج إذ كتب الشريف إلى سلطان لحج فى مارس (آذار) ١٩١١ بأن الحكومة العثمانية طلبت منه أن يلعب دوراً معيناً ضد تمرد الإدريسى فى عسير ، ثم طلب من السلطان أحمد أن يكتب للإمام يحيى بألا يتمادى فى عدائه للترك لأن هذا سيعود بالضرر عليه مما قد يحطمه نهائياً ، كما أخبره بأن الحكومة ستهتم بأمر الإصلاح فى اليمن ، ثم كتب الشريف مباشرة إلى الإمام وتحدث عن ضخامة قوات (عزت باشا) وحاول أن يقنعه بأهمية وحدة المسلمين وخطورة انقسامهم على أنفسهم فى ذلك الوقت الحرج وأنه من واجب كل مسلم أن يعضد خليفة الإسلام (ولو بعقال بعير) وأضاف بأنه هو نفسه على وشك التوجه لإخماد ثورة الإدريسى .

يضاف إلى ذلك أن الحرب الطرابلسية أدت إلى تعجيل حكومة الباب العالى بالموافقة على الاتفاق الذى عرضه إمام اليمن مع تعديل طفيف ، كما أدت إلى اتضاح خطأ إرسال قوات لإخماد الثورة فى اليمن بينما ميدان القتال فى طرابلس فى أمس الحاجة إليه لمقاومة الغزو الإيطالى[١] .

وقد كان من أهم ما جاء فى صلح دعان أن يعترف الإمام بالسيادة العثمانية، وفى مقابل ذلك اعترفت الدولة بوضع الامام الخاص فى إشرافه على المسائل الشرعية بتعيين قضاة هذه المحاكم (الشرعية) وأن يجمع موظفو الترك الزكاة من الزيدية باسم الامام ويقدموها له[٢] .

---

(١) السيد مصطفى سالم : مرجع سبق ذكره ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ج ١ (١٩٢٩) ص ١٤٦ .

وإذا كان هذا الاتفاق قد أوجد حالة من السلام والهدوء فى اليمن بين الإمام والترك محل حالة الحرب بينهما إلا أنه من ناحية أخرى يعتبر استمراراً لفكرة المركزية فى الحكم باستثناء حكم الشريعة الزيدية فهو لم يحل مشاكل اليمن حلا حاسماً كما أنه لم يذكر شيئاً عن المشروعات العمرانية النافعة[1] .

عسير :

كانت عسير — حسب التقسيم الإدارى العثمانى — تعتبر جزءاً من اليمن إلا أنه قد صار للأدراسة فيها خلال القرن التاسع عشر نفوذ روحى ، استغله السيد محمد على الإدريسى ليحقق لنفسه نفوذاً زمنياً سياسياً إلى جانب النفوذ الدينى ، فإنه بعد أن تلقى تعليمه ما بين القاهرة (الأزهر) والكفرة (مقر السنوسيين فى برقة) عاد إلى (صبيا) فى أوائل القرن العشرين،وبدأت تظهر خطورته فى عسير عام ١٩٠٧[2] .

وعلى الرغم من أن الإمام يحيى كان يهتم بأمر الإدريسى ويسعى للتحالف معه حتى يحمى ظهره أثناء محاربته للترك خصوصاً وأن الهدف واحد هو محاربة العثمانيين فلم يلبث أن دب الجفاء بينهما بعد صلح دعان ١٩١١ بعد أن ثبت مركز الإمام فى اليمن ، فأحس بخطورة منافسه الإدريسى الذى يتزايد نفوذه فى عسير ، خصوصاً وأن الإمام كان يطمع فى السيطرة على اليمن كله بمعناه الواسع (بما فيه عسير) ومن ناحية أخرى فإن الادريسى رغم أنه فى عام ١٩٠٩ كان يؤكد حرصه على (ائتلاف العرب والدولة) فإنه لم يلبث بعد صلح دعان مباشرة أن بدأ فى أعماله العدائية ضد الدولة العثمانية ، ولعله كان حانقا لاعتقاده بأن الدولة لن تمنحه ما منحته الإمام ، ولذلك فإنه بعد صلح

---

(٣) توفيق برو . العرب والترك فى العهد الدستورى ص ٢٣٦/٢٣٧ .

(١) السيد مصطفى سالم : مرجع سبق ذكره ص ٨١ .

دعان صار من مصلحة الترك والإمام على السواء القضاء على البيت الإدريسى وصار الإمام يحيى يعتقد أنه إذا كان الترك عاجزين عن إبادة الادريسى فعليه أن يساعدهم .

وكان لابد من وقوع الصدام بين الإدريسى الذى قوى نفوذه ودانت له القبائل فى عسير وبين الترك المتمسكين بسياسة المركزية والتتريك وعدم السماح للقوى المحلية بالظهور ، رغم أن الادريسى كان يعبر عن استعداده لاستمرار مركز العثمانيين مع الاعتراف له ببعض السلطة ورغبته فى الصلح معهم على هذا الأساس ولذلك فإن قوات الادريسى عقب صلح دعان مباشرة (مايو آيار ١٩١١) احتلت (أبها) عاصمة عسير وهزمت الترك وشريف مكة الذى خف لمعاونتهم ، إلا أن إمدادات الترك بدأت تتدفق على عسير لحلت الهزيمة بالادريسى ، خصوصاً وأنه بعد صلح دعان صار فى إمكان القوات التركية فى اليمن أن تتجه شمالا لتحصر الأدارسة بينها وبين قوة من الحجاز تعاونها قوة من لدن شريف مكة بقيادة ابنه فيصل الذى أغراه الترك بإمارة عسير إذا تمكن من القضاء على الادريسى[1] .

ولما كانت إيطاليا فى ذلك الوقت تحارب الترك للاستحواذ على طرابلس الغرب وترغب فى شغل الترك فى ميدان آخر غير طرابلس فقد مدت يد العون إلى الادريسى خصوصاً وأنه بعد أن نشر الأمن فى عسير ونظم موانيها شجع تجارتها مع مصوع وعصب فى أرترية الايطالية وحتى لا يستعمل الترك موانى عسير ضد أرترية ، وقد استجاب الادريسى فتحالف مع الايطاليين بعد أن وجد نفسه فى مواجهة الترك يؤازرهم الشريف حسين والامام يحيى . ولذلك أمدت إيطاليا الأدارسة بالسلاح والمؤن وحاصرت اليمن وأطلقت

---

(١) السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ١٥٦ — ١٦٣ .

مدافعها على موانيه ، إلا أن إيطاليا بعد أن حصلت من العثمانيين على الاعتراف باحتلالها طرابلس الغرب انتفى الغرض من تحالفها مع الإدريسى فتخلت عنه مما دعاه إلى الاتجاه صوب بريطانيا .

وقد جرت فى مارس (آذار) عام ١٩١٣ مفاوضات بين الترك والإدريسى وعرض الترك عليه الاعتراف بوضعه الخاص فى عسير مقابل مرتب شهرى من الدولة على أن يقدم الطاعة للامام يحيى ويتخلى عن محالفة الأجانب ، إلا أن الإدريسى لم يقبل الخضوع للامام يحيى خصوصاً وأن مركز الإدريسى كان قوياً وتدعم نفوذه فى عسير بينما الدولة تعانى النكبات فى حرب البلقان ، فأصر على الاستقلال الإدارى التام تحت سيادة الدولة[1].

ولذلك فقد فشلت المفاوضات وعادت الحرب بين الترك يعاونهم الإمام يحيى وبين الأدارسة .

---

(٢) السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ١٧٣ ، ١٨٥ .

الباب الرابع

الشرق العربى الآسيوى

فى

الحرب العالمية الأولى

الفصل العاشر

الشرق العربى الآسيوى والحرب

لقد كان دخول تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط وضد دول الوفاق على جانب كبير من الأهمية والخطورة لتأثيره على توازن القوى بين الفريقين المتحاربين .

فقد ترتب على دخولها الحرب أن صار على روسيا أن تحارب فى جبهة ثانية إلى جانب ميدان الحرب ضد ألمانيا ، وبذلك يتحول جانب كبير من مجهود روسيا — وكذلك بريطانيا — من ميدان الحرب فى أوربا . وإلى جانب ذلك فإن دخول تركيا الحرب — بموقعها الجغرافى والاستراتيجى — كان من شأنه أن يؤثر تأثيراً بالغاً على سلامة خطوط مواصلات بريطانيا ، ويفتح الطريق لامتداد النفوذ الألمانى إلى ممتلكات بريطانيا الشرقية ، ولربما أثر على مستقبل الهند ذاتها[1]

أهمية الشرق العربى الآسيوى :

ذلك أنه بفضل سيطرة الدولة العثمانية على الشرق العربى الآسيوى كانت تستطيع أن تهدد مصالح بريطانيا فى منطقتين هامتين تحيطان به من الشرق والغرب : أولاهما منطقة قناة السويس ، وثانيهما الهند ومنطقة الخليج الغنية بآبار النفط ، التى تستغلها شركة البترول الأنجلو إيرانية ، التى تمد بريطانيا باحتياجاتها من البترول ، الذى ينقل من حقول إيران إلى مصافى عبدان بخط

---

(١) : Linczowski ; Ouv. Cit p. 38—39

من الأنابيب ، فقد كانت تركيا تملك الفاو على الضفة اليسرى لشط العرب . كما كانت بريطانيا قد اعترفت بحقوق تركيا فى ساحل القطيف ، وكانت لتركيا قوة برية مرابطة فى البدعة فى جنوب جزيرة البحرين ، وإلى جانب ذلك فإنه لا يمكن إغفال الدور الذى يمكن أن تلعبه الجزيرة العربية بالذات فى المجالين العسكرى والسياسى . فإن البحر الأحمر بسواحله الطويلة يوفر لتركيا وحليفتها ألمانيا قواعد يمكن استخدامها فى الأعمال البحرية ضد بريطانيا ، كما يمكن اتخاذها مركزاً لبث الدعاة إلى مختلف الأقطار العربية والإسلامية المجاورة والتى تخضع لحكم الحلفاء أو بجوار ممتلكاتهم لنشر الدعوة إلى العصيان والتمرد على سلطة بريطانيا وغيرها من دول الوفاق ، فضلا عن أن اليمن — وكانت فيه وقتئذ حامية تركية من فرقتين — كان يستطيع أن يكون مصدر تهديد لعدن [١] .

وتتمثل لنا الأهمية التى علقتها ألمانيا على دخول تركيا الحرب إلى جانبها والثمار التى تأمل أن تجنيها من وراء ذلك ، فى مطالبة ألمانيا لتركيا باتخاذ إجراءات معينة مثل إغلاق المضايق فى وجه سفن الدول الأخرى [٢] وقطع الطريق البحرى بين قناة السويس وعدن ، وغزو القوقاز لشغل جانب كبير من القوات الروسية ، وأخيراً وليس آخراً إعلان حرب دينية مقدسة ضد دول الوفاق .

وقد استطاعت ألمانيا أن تضمن وفاء تركيا بهذه الالتزامات وذلك عن طريق مبعوثيها السياسيين فى الآستانة ، كما سيطرت ألمانيا على الأداة الحربية التركية بتولى بعض الضباط الألمان كثيراً من المناصب القيادية فى الجيش

---

(١) Antonius : Ouv. Cit p. 134

(٢) Morgentau : Ouv. Cit. p. 99

العثمانى مثل الجنرال ليمان فون ساندرز ، والجنرال فون فالكنهاين الذى تولى القيادة فى العراق[1] .

ولم يقتصر نشاط ألمانيا الدبلوماسى والعسكرى على الامبراطورية العثمانية بل إنها حاولت أيضاً أن تجذب إيران إلى جانبها مستغلة السخط بين الايرانيين لتقسيم بلدهم إلى مناطق نفوذ بين بريطانيا وروسيا (اتفاقية ١٩٠٧) ، ونشطت البعثات الألمانية التى أوفدتها وزارة الخارجية الألمانية إلى إيران ، وكذلك إلى أفغانستان وشط العرب ، وحتى بدون علم البعثة العسكرية الألمانية فى تركيا ، وأظهر العملاء الألمان — أو كما كان يسميهم البعض (باللورنسيين الألمان) تشبيهاً لهم بلورنس الإنجليزى — نشاطاً كبيرا من أجل تهديد الحدود الشمالية الغربية للهند والمنشآت البترولية فى قارون والبصرة ، وهى مناطق حساسة بالنسبة للامبراطورية البريطانية إلى جانب إثارة قبائل إيران وأفغانستان وجر هذه الأقطار إلى معاداة الحلفاء إن أمكن .

وبمجرد أن نشبت الحرب أخذ الألمانى فونكهاوس woakhaus يعمل من أجل نسف المنشآت البترولية الانجليزية فى الخليج ولكنه فشل رغم ما أبداه من جرأة ، ومن ناحية أخرى تولى القنصل الألمانى فاسموس رئاسة بعثة اتخذت من الخليج ميدانا لنشاطها فسبب الارتباك للحامية الهندية فى بوشهر بقيادة سير برسى كوكس ، وأنزل بها خسائر فى الأرواح وهدد جناح القوات البريطانية العاملة فى العراق ، وحال دون إرسال تعزيزات إلى الجنرال نيكسون

---

(١) Lincszowski : Ouv. Cit. p 39

Nixon عند هجومه على الكوت[١] ، أما الضابط البافارى أوسكار فون نيدر ماير Niedermayer الذى كان على معرفة تامة بإيران وأهلها ولهجاتهم فقد أوفدته الحكومة الألمانية وتقدم حتى وصل إلى كابول فى نهاية عام ١٩١٥ ، وكان معه أربعة وأربعون شخصاً ، وأقامت البعثة فى أفغانستان ثمانية أشهر ووصلت إلى هيرات ، وقامت بتوزيع منشورات ، والدعاية بين قبائل الملا وشجعت الباثانيين على الهجوم على الحاميات البريطانية على حدود الهند ، كما شجعت اللاجئين الهنود على الانضمام إلى الألمان والنمساويين الهاربين من التركستان ، كما نشط شونمان Schonemann القنصل الألمانى فى كرمانشاه فى مطاردة الرعايا البريطانيين والروس ، وكذلك فبر weber القنصل الألمانى فى همدان وبوجن pugen فى أصفهان بعد أن اعتنق الإسلام[٢] .

وقد حقق هذا النشاط الألمانى قدراً غير قليل من النجاح فى هذا الميدان وذلك عندما استطاعت ألمانيا أن تدفع زعماء الحزب الديمقراطى الإيرانى الموالى لها لإقامة حكومة ثانية فى كرمانشاه القريبة من الحدود التركية مستندة إلى حماية القوات التركية فى العراق وكان يرأس هذه الحكومة نظام السلطنة الذى أبرم مع ألمانيا معاهدة فى ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ وكان من شأن ذلك التأثير على مجهود بريطانيا الحربى حيث كان الأسطول البريطانى يستمد وقوده من النفط الإيرانى ، كما كانت هناك خطة يجرى الاستعداد لها فى بغداد لإرسال قوات نظامية تركية إلى أفغانستان[٣] .

---

(١) Vernier, B : La Politique Islamique de l'Allemagne (1939) P. 12, 13, 15.

(٢) Ibid ; pp. 14 – 15.

(٣) Linczowski ; Ouv. Cit., pp. 41—43

وقد كان العراق قاعدة أساسية لهذا النشاط بحكم مجاورته لإيران ، فلقد علم القنصل الأمريكى فى بغداد من مصادر عليمة بأن الترك فى العراق يبذلون محاولات لإثارة المسلمين فى جنوب غرب إيران فى حرب مقدسة ضد دول الوفاق[1] .

وقد لاحظ القنصل الأمريكى فى بغداد وصول عدد من الضباط الألمان إلى بغداد لتنظيم الحملة الموجهة لإثارة الأفغان . كما لاحظ أن عدداً كبيراً من الفنيين الألمان يقيم فى العراق ، وأنهم نجحوا فى إقامة محطة لاسلكية بلغت من القوة ما يجعلها تستطيع إبلاغ رسائلها إلى الآستانة مباشرة[2] .

كما يذكر القنصل الأمريكى فى بغداد أن الألمان فى العراق أعدوا بعثة قوامها مائة وخمسين شخصاً . لتوجيهها إلى أفغانستان ، وقد حضر الوزيران الألمانى والنمساوى فى طهران إلى بغداد حيث أمضيا أسبوعاً ، ثم رافقا البعثة صوب الحدود ، فوصلوا إلى خانقين عند الحدود العراقية الإيرانية ، وعبرت البعثة الحدود فى السادس من إبريل (نيسان) ١٩١٥ ، وعلم القنصل أن هذه البعثة ستترك الوزيرين فى طهران لكى تستكمل رحلتها إلى أفغانستان ، وتدعى المصادر الألمانية أن هؤلاء الألمان سيكونون بعثة عسكرية فى طهران .

واعتقد كثيرون أن هذه البعثة أعظم مشروع يخرج من بغداد ، خاصة إذا نجح هذا المشروع فى جر إيران وأفغانستان إلى جانب ألمانيا فى الحرب .

National Archives (Washington) Microopy No. 353, from (1) U. S. Consul, Baghdad, October 24, 1914 to H. Morgenthau.U.S. Ambassador . Constantinople.

Ibid, from Ch. Brissel, U. S Consul, Baghdad, to H. Mor- (2) genthau U. S. Ambassador Constantinople, February 0,24,1915

ولذلك فقد قررت روسيا إيفاد بعثة عسكرية روسية إلى طهران أما بريطانيا فقد عرضت مبالغ كبيرة مكافأة لمن يعتقل أعضاء هذه البعثة الألمانية (ألف جنيه مقابل كل عضو)[1] .

وإلى جانب ذلك فقد علم القنصل الأمريكي فى بغداد أيضاً أن قوة من الفدائيين تتكون من ثمانين هندياً من رعايا بريطانيا قد تشكلت فى بغداد ، وأن ضابطاً ألمانياً يقوم بتدريبها ، وأن كثيراً من الهنود من رعايا بريطانيا صاروا جواسيس لتركيا يجمعون لها المعلومات[2] .

* * *

استعداد الترك للهجوم على مصر :

ومن الأخطار التى كانت تحدق بدول الوفاق وخاصة بريطانيا نتيجة دخول تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط كان ذلك الخطر الذى يهدد مصر وقناة السويس شريان بريطانيا ، فإنه حتى قبل أن تدخل تركيا الحرب كانت الأنباء ترد إلى دار المعتمد البريطانى فى مصر عن نشاط الجيش الرابع التركى فى الشام ، وتجمع القوات سراً قرب الحدود المصرية ، وتوزيع الترك للأسلحة على البدو فى جنوب الشام ، ومحاولة استمالتهم للاشتراك فى الهجوم على مصر ، إلى جانب وصول طائفة من الضباط الألمان برئاسة الكولونيل كرس فون كرسنشتين Kreis Von Kressenstien من بعثة فون ساندرز

---

(1) Ibid. Cipher Despatch no. E 51 dated April 9, 1915 from Ch. Brissel U.S. Consul, Baghdad to H. Morgenthau U.S. Ambassador (Constantinople).

(2) Ibid. Cipher Despatch no. E 268 from U. S Consul, Baghdad, to H. Morgenthau (Constantinople) July 1, 1915.

لتولى بعض المراكز القيادية فى الجيش الرابع ، بينما كانت مجموعة أخرى من سلاح المهندسين تقوم بتمهيد الطريق ومد الخطوط الحديدية المتجهة صوب مصر ، كما كتب القنصل الأمريكى فى بيروت منذ الخامس عشر من أغسطس (آب) ١٩١٤ - أى قبل أن تدخل تركيا الحرب - بأنه لاحظ أن الترك يستعدون لشن هجوم على مصر حتى لقد سمع أن السلطات التركية فى الشام تجمع الغرائر الفارغة لتملأها بالرمال لكى تلقى بها فى قناة السويس لإغلاقها وإيجاد معبر فوقها[1] .

وحفلت رسائل القناصل الأمريكيين ومندوبيهم فى مختلف مدن الشام بأنباء استعدادات الترك لغزو مصر ، وإرسال القوات التركية إلى الحدود بين الشام ومصر عند العريش[2] .

ونشط العملاء فى مقدمة الجيوش الألمانية التركية ففى خطاب بتاريخ ١٦ أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩١٤ من الجنرال ماكسويل إلى لورد كتشنر يشير القائد الإنجليزى إلى أن العملاء الألمان يحرضون على قيام ثورة فى مصر ، وأنه تم القبض على ألمانى يحمل مفرقعات وخرائط لقناة السويس[3] .

---

(1) National Archives (Washington) : Political Affairs in Turkey Doc No, 644 from American Consul, Beirut to Secretary of State (August) 15, 1914) ; Doc, No, 648 from American Consulate, Beirut to Secretary of State (August) 10, 1914), enclosed report from American Consular Agent at Haifa dated August 6, 1914 : « Political Conditions in Haifa »

(2) Ibid, from U.S Beirut to Secretary of State, Washington No, 869 October 23, 1914 & from T, Sabbagh, French Consular Agent at Safed & Tibaius to U.S. Consul, Beirut, August 27,1914,

(3) Vernier : Op., Ci, p, 17,

الدعوة الى الجهاد :

ومن أشد الأخطار التى كانت تهدد دول الوفاق من جانب تركيا بعد دخولها الحرب خطر إعلان الجهاد ، فقد كان من المؤكد أن تركيا سوف تستخدم سلاح الحرب الدينية بالعمل على إثارة العالم الإسلامى ضد دول الوفاق ، خاصة وأن ملايين عديدة من المسلمين كانوا تحت حكم كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وقد أكدت التقارير الأمريكية أن المسلمين من رعايا الدولة العثمانية كانوا يرحبون بالحرب أملا فى القضاء على الخطر الروسى ويؤملون هزيمة روسيا وبريطانيا بالاستعانة بألمانيا . فقد ذكر (فانجنهايم) السفير الألمانى فى الآستانة لمورجنتاو السفير الأمريكى بأن خطة ألمانيا تعتمد على إثارة العاطفة الدينية لدى المسلمين ضد الدول المسيحية، وأن إمبراطور ألمانيا اقترح حرباً دينية مقدسة لتحطيم النفوذ الإنجليزى والفرنسى فى الشرق ، وأضاف أن تركيا فى حد ذاتها ليست بذات قيمة ، « فإن جيشها ضعيف — ونحن لا نعول عليها فى إنجاز شىء له قيمته ، ولكن العمل العظيم هو الشعب المسلم ، فإذا نجحنا فى حشده ضد الإنجليز والروس فإننا نستطيع أن نرغم هاتين الدولتين على طلب الصلح [1] » .

ومن المعروف أن هزيمة الترك فى حرب البلقان ١٩١٣ أثارت عطف مسلمى الهند على إخوانهم فى الدين ، كما سبق أن أثارت المعاهدة الإنجليزية الروسية عام ١٩٠٧ شكوك مسلمى الهند فى أن الهدف منها هو القضاء على استقلال إيران المسلمة [2] ، وقد ظهر صدى هذا الشعور أثناء هجوم الترك من اليمن على الحج فى طريقهم إلى عدن فى أثناء الحرب ، فإن الجنود الهنود

---

(1) Morgentau, H. : Memoires, p461

(2) Graves : Life of Sir percy Cox, p, 176

المسلمين تخلفوا عن مراكزهم لأنهم كرهوا محاربة إخوانهم فى الدين (١)

وقد كان السلطان العثمانى بصفته خليفة على المسلمين يستطيع أن يدخل فى روع مسلمى العالم أن تركيا أكبر دولة إسلامية ومقر الخلافة تخوض غمار حرب ضد دول مسيحية تسعى إلى تحطيمها ، وأن البلاد الإسلامية فى خطر وأنه يجب على كل مسلمى العالم أن يلتفوا حول لواء الإسلام ، ولذلك لم تكن بريطانيا تخشى خطر تركيا وحليفتها عسكرياً وحسب ، وإنما الخطر الأعظم كان يكمن فى قوة تركيا بصفتها الدولة الإسلامية الأولى التى تؤازرها الأموال الألمانية والضباط الألمان بحيث كان فى استطاعة تركيا أن تؤلب على بريطانيا الشعور الدينى والتبرم السياسى وتثير القلاقل فى وجهها ، حتى لقد كتب آرثر هرتزل السكرتير السياسى لوزير الهنــــد فى مذكرة له بتاريخ ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ ، بأن الخطر العسكرى الذى يحدثه تحول تركيا قد لا يعبأ به ، وإنما سيستغل ذلك التحول من الوجهـــة السياسية للتأثير على مسلمى الهند (٢) .

كما يذكر « الجنرال بارو » فى مذكرة له بتاريخ ٢٠ سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ عن خطورة التعاون بين العرب والترك نتيجة إعلان الجهاد وامتداده من مصر إلى الهند عن طريق إيران وأفغانستان ، وأن الحرب مع تركيا يجب ألا تفزعنا إلا إذا نجح الترك فى جذب العرب إلى جانبهم ففى هذه الحالة ، سيعلنون الجهاد وسيحاولون إثارة أفغانستان وقبائل الحدود ضدنا مما يخلق خطراً كبيرا على الهند وهذا يدلنا على أهمية العمل الذى يجب أن نقوم به للحيلولة دون حدوث إتحاد تركى عربى (٣) .

ورغم أنه لم يكن من السهل التمكين بأثر هذه الحرب الدينية ، كما أن

---

(1) Young : The In'ependent Arab, (1933). p 271

(٢) ، (٣) إيرلاند / خياط : العراق دراسه فى تطوره السياسى (١٩٤٩) ص ٦٥

تركيا ذاتها كانت متحالفة مع دولة مسيحية هي ألمانيا إلا أنه لا شك في أن الدافع الديني كانت لا تزال له قوته بحيث لم يكن في استطاعة دول الوفاق وتحت حكمها ملايين عديدة من المسلمين أن تتجاهل هذا العامل ، لأن الحرب الدينية — حتى ولو تمخضت عن ثورات محلية محدودة النطاق وفي جهات متناثرة — فإنها على أي حال سوف تقلق بال دول الوفاق ، وتشغل جانباً من مجهودهم الحربي ، كما أن ألمانيا — حليفة تركيا — لم يكن لها ممتلكات في مناطق يسكنها مسلمون .

وعلى ضوء هذه الأهداف التي رسمتها تركيا وحليفتها من دخول الحرب تحددت استراتيجية تركيا في عبارتين : الجامعة الإسلامية والجامعةالطورانية، ولذلك فإنه بعد دخول تركيا الحرب أصدر السلطان العثماني بوصفه خليفة على المسلمين بيانا في الثالث والعشرين من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤دعافيه المسلمين في كافة أنحاء الأرض إلى الجهاد ، وكان هذا البيان يحمل توقيعات أكبر الشخصيات الدينية في الإمبراطورية بما فيهم شيخ الإسلام ، وكانت هذه الدعوة تمثل ذروة سياسة الجامعة الإسلامية التي بدأها السلطان عبد الحميد الثاني ولم يثن السلطان عن إصدارهذا البيان أن ألمانيا — وهي دولةمسيحية — حليفة تركيا ، فإنه على الرغم مما يذهب إليه البعض من أن التحالف مع ألمانيا أضعف من تأثير الدعوة إلى الجهاد [1] ، إلا أن ألمانيا لم تكن تحتل بلاداً إسلامية ، وإنما كانت حليفة تركيا . تدافع عن الإمبراطورية والخلافة . بل إن إمبراطور ألمانيا — استمراراً لسياسته في التودد إلى الإسلام — كان قد أصدر منذ ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ بيانا إلى المسلمين الذين يحاربون في صفوف دول الوفاق بأنهم لا يعتبرون في نظر الألمان من الأعداء ، وأنهم

---

(1) Fisher : The Middle East, p, 362

إذا وقعوا فى أسر الألمان فسيرسلون إلى تركيا ليكونوا تحت تصرف الخليفـــة [1] .

وإلى جانب هذا البيان كتبت منشورات بعدة لغات وأذيعت على الملايين فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، وهربت إلى مصر والسودان والهند وغيرها ، فبعضها يدعو المسلمين إلى التخلى عن مراكزهم فى جيوش دول الوفاق ، وكلها تضرب على وتر حساس ألا وهو أن الإسلام يجابه خطراً يتمثل فى أطماع دول الوفاق،وأن حمل السلاح دفاعا عن الإسلام واجب مقدس يجب ألا يتقاعس عنه أى مسلم .

ومن نماذج الدعوات التى وجهت إلى المسلمين لحثهم على الجهاد ذلك البيان الذى وصل إلينا من الوثائق الأمريكية ، فقد وزع فى حلب ، ووصل إلى يدى جاكسون القنصل الأمريكى فى حلب ، الذى أرسله بدوره إلى هنرى مورجنتاو سفير الولايات المتحدة فى الآستانة ، فعهد هذا بترجمته ، ثم بعث بالأصل والترجمة إلى وزارة الخارجية الأمريكية .

وهذا البيان الذى يتكون من ثلاثين صفحة يحمل العنوان التالى :

---

(1) Emin, A. : Ouv. Cit, p. 181

بلاغ عام

لجميع أهل الإسلام

اشرته

جمعية المدافعة الملية

دار الخلافة العلية

١٣٣٣

طبع فى المطبعة الخيرية (1)

وقد تضمن البيان الكثير من العبارات التى تستثير المسلمين فى شتى أنحاء الأرض إلى « بذل الوسع فى إنقاذ أى شعب من شعوب المسلمين فكيف إذا تألب الكفار الظالمون بعدوانهم على مركز الخلافة وناصبوا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ... لاريب أنه يفترض فى هذه الحالة فرض عين على كافة أهل الإيمان فى كل مكان أن يبادروا إلى نصرته والذب عن بيضة الإسلام بما يستطيعون من حول وقوة .. فعلى كل مسلم أن يتهيأ للقيام بهذا الفرض ينبغى اليوم للعالم الإسلامى بجملته أن يجمع إرادته الكلية فى نقطة واحدة ، ويعطل كل عمل له مؤقتا دون العمل لنصرة دين الله والجهاد فى سبيل الله . قد توجهت اليوم على كل قوم من الأقوام الإسلامية وظيفة مقدسة جداً ألا وهى الجهاد .

ألا فاعلموا أن الجهاد اليوم صار فرض عين على كل كافة المسلمين وأنه

National Archives. from American Embassy, Constantinople to Secretary of State, Washington, May 11, 1915 No. 302 Pamphlet enclosed with translation. (1)

قد جاء الزمان الذى ينبغى استعمال كل وسيلة لتخليص الوطن الإسلامى من سلطة الكافرين الظالمين ... » .

ولما كان البيان يصف المستعمرين بالكفار فقد دعا هذا القنصل الأمريكى فى حلب، إلى تصور أن هذا الجهاد موجه ضد غير المسلمين من أهل الممتلكات العثمانية مثلما هو موجه إلى الأجانب [1] ، وأنه لذلك يتوقع سفك دماء بين الوطنيين إلا أن القنصل الأمريكى كان مغالياً بل ومخطئاً فى اعتقاده ، بدليل ماجاء فى البيان نفسه الذى نص على أنه « يجب أن يعلموا منذ اليوم أن الجهاد المقدس قد أصبح فرضاً ،وأن دم الكفار الذين فى البلاد الإسلامية (ماعدا الذميين المستأمنين والحلفاء) قد أصبح هدرا » .

فقد كان البيان يقصد غير المسلمين الذين كانوا وقتئذ يحكمون بلاداً إسلامية ، وقد أورد البيان أمثلة لهم: مثل الإنجليز فى الهند ومصر والسودان والفرنسيين فى شمال أفريقية والروس فى التركستان والهولنديين فى جاوا .

دول الوفاق تحاول التدخل العسكرى فى الشام .

ومن المرجح أن القنصل الأمريكى فى حلب وهو يتحدث عن احتمال تعرض مسيحيي الشام لعدوان مواطنيهم المسلمين ، كان متأثراً بما تروجه دول الوفاق فى هذا المعنى ، وتتخذ منه ذريعة لكى ترسل بعض سفنها الحربية أمام سواحل الشام ، وقد ذكرت تقارير القنصل الأمريكى فى بيروت أن سفناً إيطالية مثل كلابريا وروسية مثل اسكولد وقفت أمام بيروت فى ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩١٤ ، وأن ظهور السفينة الروسية على وجه

---

(١) National Aichives (Washıngtou'. microcopy No 353, from American Consnlate, Aləppo to Morgeuıhau (Constantinople),Aprıl 8, 1915, No. 258.

الخصوص قد أثار الذعر بين الأهلين (١) .

كما ظهرت السفينة الحربية الإنجليزية دوريس Doris أمام بيروت بل إن بعض القطع البحرية الإنجليزية أطلقت قذائفها على مكان ما على الساحل بالقرب من خليج الاسكندرونة (٢) ، هذا إلى جانب مرور السفينة الفرنسية هنرى الرابع أمام بيروت ، وما تردد من أن إحدى السفن الفرنسية أطلقت قذائفها على الساحل عند حيفا (٣) .

وفى ٧ مايو ١٩١٥ ظهرت سفينة إنجليزية أمام حيفا وانطلقت منها طائرة إلى الناصرة حيث ألقت منشورات باللغة العربية ، تعلن للعرب فى الشام بأن الأسرى العرب فى مصر فى حالة طيبة ، وأنه إذا ذهب السوريون صوب قناة السويس ، فإنهم سوف يجدون الترحيب من جانب المصريين (٤) .

ومما تجدر ملاحظته أنه حتى قبل أن تدخل الدول العثمانية الحرب ضد دول الوفاق ، فإن قناصل هذه الدول فى بيروت حاولوا إقناع زميلهم الأمريكى بالخطر المحدق بالأجانب وبمسيحيى الشام، مما حدا بالقنصل الأمريكى إلى أن يطلب من حكومته إرسال بعض القطع الأمريكية إلى مياه الشام ، وفعلا وصلت السفينتان الأمريكيتان نورث كارولينا وتنيسى إلى بيروت ، ولم تلبث أن ارتفعت الأصوات من اللاذقية محذرة من الخطر المحدق بالمسيحيين فيها ، فطلب القنصل الأمريكى فى بيروت من قبطان نورث

---

(١) Ibid. from U. S. Consul, Bairnt. to secretary of state (Washington), December 18, 1911 Nos. 926.927.

(٢) Ibid, frem U.S. Consul, Peirut, to Secteary of State (Washington) January 1915.

(٣) Ibid, from U.S.S. North Carolina, Reirut to Sectetary of the Navy no. 1101 (March 18, 1915) & no. 1112 (March 31,1915).

(٤) Ibid; from U.S Consulate, Beirut to Secretary of State, (Washington). May 17. 1915, No 1103.

كاروليناً أن يمر باللاذقية حتى يدخل الطمأنينة على الأجانب بل والمسيحيين الوطنيين فيها وفي الاسكندرونة (٣) .

ولقد وصل بالقنصل الأمريكي في بيروت التهور إلى درجه أنه أخذيلح على حكومته من أجل إنزال قوات مسلحة أمريكية على ساحل الشام بدعوى حماية المصالح الأمريكية من عدوان الترك ، بل أنه بحث فعلا تنفيذ هذا الإجراء مع قبطان السفينة الحربية الأمريكية نورث كاروليناً (٤) ، كما أنه في رسالة إلى وزارة الخارجية الأمريكية عبر عن اعتقاده بضرورة تدعيم القوة البحرية الأمريكية في المنطقة بعدد من السفن الحربية وقوارب الطوربيد من أجل حماية المصالح الأجنبية ومصالح العناصر الوطنية غير المسلمة (١) ، بل إن القنصل الأمريكي بعث في ١٦ نوفمبر (تشرين أول) إلى الكابتن أومان Oman قبطان السفينة الحربية نورث كاروليناً بأنه مادام الأمريكيون وحدهم هم الذين تسمح لهم ظروفهم بالقيام بعمل بوليسي دولي ، واتخاذ الإجراءات الضرورية لحماية الأجانب المقيمين في هذه البلاد،وكذلك المسيحيين من أهل البلاد في حالة الاضطرابات العنصرية فإنه يستحسن تدعيم قوتك بأسرع ما يمكن ، واقترح عليك أن تبحث الموضوع مع وزارة البحرية في الوقت الذى أبحثه أنا مع وزارة الخارجية وسفارتنا بالآستانة » (٢) .

---

(١) Ibid; from Hollis, U. S. Consul, Beirut, October 8, 1914, Enclosure : Cepy from James Stewart, Latakria Hollis Bairut October 1, 1914 ; from U.S. Consul, Alppo to Secretary of Stote (Washington), October 26. 1911, no 231.

(٢) Ibid, Cipher tolegram from U.S. Consul, Beirut, to Anecican Ambassador, Constantineple: October 30, 1614.

(٣) Ibid, from U.S. Consul. Beirut to Secretary of State Washiugton. November 10, 1614.

(٤) Ibid, From Holli., U.S. Consul, Beirut. to Capt. Oman,U.S. Navy, Commanding U. S. S. North Carolina in Beirut Harbor, November 16, 1914.

إلا أن هنرى مورجنتاو سفير الولايات المتحدة فى الآستانة لم يشاطر القنصل الأمريكى فى بيروت تهوره ، وعبر … فى برقية منه إلى وزارة الخارجية الأمريكية . عن عدم رضاءه عن موقف القنصل ، معتقداً أن الأضرار التى قد تنجم عن سواء استخدام السفن الحربية الأمريكية ستكون أعظم من أى حماية قد توفرها هذه السفن ، وأعرب السفير عن تأييده لبقاء إحدى هذه السفن فى بيروت ، على أن تصدر الحكومة الأمريكية تعليمات مشددة إلى قائدها بألا يتورط فى أى حادثة قد يثيرها القنصل الأمريكى فى بيروت ، وأن تواجد السفينة فى بيروت إنما لتكون بمثابة ملجأ فى حالة الطوارىء ، وللحيلولة دون وقوع حوادث وليست مهمتها إثارة الأحداث ، وأعلن السفير اعتراضه على فكرة نزول بحارة مسلحين إلى البر إلا فى حالة الضرورة القصوى (١) .

اثر الدعوة الى الجهاد :

وكانت حكومة الاستانة تأمل أن يؤتى إعلان الجهاد ثمرته المرجوة فى داخل الإمبراطورية وخارجها ، فى داخلها بضمان ولاء كافة العناصر الإسلامية التى تقيم فى الإمبراطورية عرباً وغير عرب ، وفى خارجها بإثارة العناصر الإسلامية فى الأقاليم الخاضعة لحكم دول الوفاق .

كما أوفدت بعوث لتدعيم هذه الدعوة ، وقد رأينا بعضها فى إيران وأفغانستان ونجح بعضها الآخر فى الوصول إلى مصر والسودان وأجزاء أخرى من أفريقية تحت حكم الحلفاء وإثارة مشاعرها ، وخاصة العرب نظراً لأهمية موقع بلادهم .

---

(١) Natinal Archives, Cipher Despatch ftom U.S. Ambassador (Constantinople) to U S. Consul (Beirut). October 30. 1914 : Telegram froM U.S. Ambassador (Constantionple) to Secretary of State (Washjugton) December 1914.

فعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان الرحالة الألمانى ليو فروبنيوس موجوداً فى تونس ، فرحل منها إلى دمشق ، وفى ليلة عيد الميلاد عام ١٩١٤ غادرها مع أربعة من رفاقه بينهم المهندس مارتان Martin متنكرين فى زى البدو ، وفى ٧ فبراير (شباط) ١٩١٥ استقلوا مركباً فى قنفده واتجهوا صوب الحبشة حيث نزلوا فى مصوع ، وقد قام فروبينيوس بتشجيع نجاشى الحبشة لدج ياسو L ji yasson — الذى توج عام ١٩١٤ — على اعتناق الإسلام وإثارة قبائل الجالا والدنا كل المسلمين — الذين كانت تربطه بهم صلة النسب — ضد بريطانيا ، حتى عزل عام ١٩١٦ ، كما سرت عدوى الثورة إلى الصومال ولو أنها أخمدت بعد قليل ، وفى عام ١٩١٥ أرسل فون ستوتزنجن Stotzingen الذى كان على إلمام تام باللغة العربية إلى شبه الجزيرة العربية على رأس بعثة كبيرة وكان عليه أن يقيم فى صنعاء محطة للاسلكى حتى يمكن الاتصال بشرق أفريقية الإيطالية وإقامة علاقات مع قبائل السودان وأرترية الصومال لإثارة القبائل فى هذه البلاد إلى جانب تنسيق العمل مع الترك لمواجهة عدن (١) .

وقد تضمنت الوثائق السودانية (٢) الكثير من التقارير التى توضح اهتمام الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا ببث الدعاية ضد بريطانيا فى شرق أفريقية ، وقد ظهر أثر الدعوة إلى الجهاد واضحاً فى كل من ليبيا والسودان ، فأثار السنوسيون المشاكل لبريطانيا على حدود مصر الغربية ، كما اتصلوا بعلى دينار سلطان دارفور التى ثار هو الآخر ضد بريطانيا متأثراً بالدعوة إلى

---

(١) Vernier, B. : Ouv, Cit., p. 18

(٢) Sudan Archives, Khartoum, Intelligence Group, Box 2,48 files 407 — 410

الجهاد ، إلا أنه سرعان ما قضى عليها فى مايو (آيار) ١٩١٦ ، ولقى على دينار نفسه حتفه فى نوفمبر (تشرين ثان) من تلك السنة (١) .

وعلى الرغم من أن النشاط المعـــادى لبريطانيا فى لبيا والسودان كان يتمثل فى هذه الحركات الفردية المنعزلة ، ولم يؤد إلا إلى عمليات عسكرية محددة لم تؤثر على المجرى العام للحرب ، إلا أنه لا شك فى أن هذه الحركات أقلقت بال بريطانيا فترة من الوقت .

أما فى أملاك دول الوفاق فى آسيا ، فإن أكبر مجموعة تأثرت بالدعوة إلى الجهاد هم مسلمو الهند ، إلا أنه رغم الاحترام الذى كانوا يكنونه للخليفة وسلطته الروحية فإنهم لم يقوموا بأى عمل عسكرى صريح ضد بريطانيا ، ورغم اشتراك بعض المتطرفين فى محاولة إقامة علاقات مع دول الوسط إلا أن محاولتهم اخفقت ، ومع هذا فإن حكومة الهند لم تستطع التغاضى عن مشاعر مسلمى الهند ، وبذلت جهدها من أجل عدم إثارتهم حيث كانوا ساخطين على بريطانيا لتعاونها مع الشريف خصوصاً وأنه كان يعتبر فى نظرهم خائنا لخروجه على الخليفة(٢) .

وكان هذا هو ما أحدثته الدعوة إلى الجهاد من أثر ، ونلاحظ أنها لم تنجح النجاح المرجو وذلك لبعد المسافة بين مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، وقلة المواصلات ، هذا علاوة على كراهية بعض العناصر المسلمة كالعرب للترك ، حتى ليعتبر البعض أن ثورة الشريف حسين تمثل فشل سياسة الجامعة الإسلامية .

---

(١) صحيفة الكوكب العدد ١٩ الصادر فى ديسمبر ١٩١٦ بلاغ رسمى بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٦ عن انتهاء الثورة فى دارفور .

(٢) Linczowski : Ouv. Cit., p. 52.

إلا أننا لا نستطيع أن نغفل أن دول الوفاق قد اضطرت إلى اتباع سياسة تنطوى على الحذر بعدم تجنيد كثير من مسلمى مستعمراتها فى القوات التى كانت تحارب الدولة العثمانية مع الاحتفاظ بقوات كبيرة فى البلاد الإسلامية لإخماد أية محاولة للثورة فيها ، فى وقت كانت فى حاجة ماسة إلى هذه القوات لاستخدامها فى ميادين الحرب المختلفة [1] .

وسوف نرى كيف أن بريطانيا — فى مواجهة الدعوة إلى الجهاد — لجأت إلى سلاح مضاد ألا وهو سلاح القومية، الذى أثبت أنه أقوى وأمضى من الاتجاه الدينى الذى لجأت إليه تركيا ، فإن دعاية بريطانيا بين العرب فى السنة الثانية من الحرب أتت ثمارها ، وحتى مكة — المركز الروحى للعالم الإسلامى — لم تلبث أن انضم أميرها إلى الوفاق . [2] فقدكانت الهوة سحيقة بين العرب والترك نتيجة سوء الإدارة التركية ، وكان الشرق العربى يموج بمقدمات ثورة قومية بعد أن ضاقت الأمة العربية ذرعا بالخلافة وسياستها ، ووجدت فى ظروف الحرب فرصة لتحقيق مطالبها فى الاستقلال والوحدة، وكانت دمشق هى القلب النابض للحركة القومية فى الشرق العربى الآسيوى ، وكانت بريطانيا وفرنسا على اتصال بأوضاع المنطقة العربية وعلى علم بتياراتها، لارتباطهما ببعض الطوائف مثل ارتباط فرنسا بالموارنة ، ولذلك كان من الطبيعى أن تعمل بريطانيا على ضم العرب إلى جانبها ومهاجمة تركيا عن طريق رعاياها العرب [3] ولا شك أنه كان من عوامل ضعف أثر الدعوة إلى الجهاد تناقضها مع الاتجاه الآخر للحكومة العثمانية وهو الجامعة الطورانية،وقدرأينا

---

(١) Emin, A. : Ouv. Cit. p. 177.

(٢) Ibid, p. 181 : Sanders : Ouv. Cit. p. 34.

(٣) Zeine : Stiuggle foı Arab Independence (1960) p. 1

هى ما كيف أن الاتحاديين قد اتجهوا فى سنوات ما قبل الحرب مباشرة وخاصة بعد حوادث البلقان - نحو فكرة ضم العناصر التركية جميعاً ، ولذلك فإن سياسة الجامعة الإسلامية لم تكن موضع ترحيب من بعض عناصر الترك وسياسة الاتحاديين الذين كانوا يرفضون الالتجاء إلى الدين لتقوية الإمبراطورية ، بل اعتبروا الدين معوقا لتقدمها ، ولذلك رفضوا فكرة العثمانية وكذلك الجامعة الإسلامية واستند (ضياجو كالب) Zia Gok Alp إلى أن الجامعة العثمانية لم تمنع روسيا من كسب ولاء رعاية الدولة فى البلقان استناداً إلى الجامعة الصقلبية ، وكان هذا فى نظر الوطنيين الترك دليلا على أن الرابطة القوية التى تستطيع أى دولة أن تعتمد عليها فى جمع شمل أبنائها هى رابطة الدم والقومية المشتركة ، وعلى ذلك كان يرى هؤلاء أن خلاص تركيا يكمن فى تقوية الوعى القومى لدى الرعايا الترك والاتجاه نحو وحدة الشعوب التى تنتمى إلى الجنس التركى أينما كانت تعيش(١) .

ولذلك فإن سياسة الحكومة التركية كانت غير مستقرة ، فبينما لم تتخل عن اتجاهها نحو الجامعة الإسلامية التى كانت لا تزال تأمل أن تكون ذات نفع فى الحرب ، فإنها من ناحية أخرى كانت تميل ويزداد ميلها بمرور الوقت نحو الجامعة الطورانية دون أن تفطن إلى تعارض الاتجاهين ، فلم يكن من الممكن دعوة الإيرانيين كمسلمين إلى خوض غمار الحرب إلى جانب تركيا بينما كيان إيران مهدد باتجاه تركيا نحو الجامعة التركية التى كانت تعنى فصل أذربيجان وضمها إلى الامبراطورية التركية ، وكذلك كان الحال بالنسبة للعرب .

وقد أدى هذا التعارض إلى نشوب خلافات فى وجهات النظر بين تركيا وألمانيا ، فإن الحكومة الألمانية أيدت منذ البداية الدعاية للجامعة الاسلامية ، وكانت الدعاية الألمانية الموجهة إلى إيران وأفغانستان والهند تستخدم

---

(١) Lin zowski : Ouv. Cit, p 52 — 53.

شعارات إسلامية ، إلا أن الألمان كانوا يرون أنه إذا كان الاتجاه نحو الجامعة الطورانية سيؤثر على الترك فى روسيا إلا أنه سيؤدى إلى اضطرابات فى فى مناطق هامة وحساسة مثل إيران والبلاد العربية (١) .

ولذلك لم تكن الحكومة الألمانية ترتاح إلى تولى الترك الدعاية فى العالم الاسلامى لأن ذلك لا يؤدى إلى كسب ثقة العرب والايرانيين، وكان الفشل فى كسب تأييد شعبى واسع للحكومة الايرانية الثانية التى ترأسها (نظام السلطنة) فى كرمان شاه يرجع إلى وجود قوات تركية فى الأراضى الايرانية ، مع أن الإيرانيين - بسبب عدائهم للروس والإنجليز كانوا على استعداد للتحالف مع ألمانيا وليس مع عدوتهم تركيا(٢) .

وقد تحقق الخطر التركى الذى كان يتوقعه البريطانيون على مصر وقناة السويس وذلك بحملة الترك عام ١٩١٤/١٥ ، فقد كان الألمان يريدون الهجوم على قناة السويس باعتبارها من أكثر المناطق أهمية فى خطوط مواصلات بريطانيا ويرون أن الهجوم عليها يحول دون وصول الإمدادات من آسيا إلى الجبهة الأوربية ، ولو أن ساندرز كان يعتقد بصعوبة الهجوم على مصر عبر صحراء التية الماحلة(٣) . وكان الترك من ناحيتهم يرون فى الهجوم على مصر

---

(١) Ibid, p. 53 — 55.

(٢) وقد تزايد اتجاه الحكومة التركية نحو الجامعة الطورانية بعد الثورة الروسية عام ١٩١٧ إذ ازداد أمل الترك فى تحقيق أحد أهدافهم من الحرب وهو تحرير الجماعات التركية فى روسيا وضمها ، وإزاء ذلك فإن تركيا ركزت كل جهودها فى العام الرابع من الحرب على القوقاز مما أدى إلى غضب القيادة الألمانية العليا إذ كان معنى ذلك إهمال الميادين الأخرى للحرب بما فيها الشرق العربى ، حيث كانت ألمانيا تريد وقف التقدم البريطانى ، ولذلك فقد صار يبدو للحكومة الألمانية عام ١٩١٨ كما لو كان الترك قد تخلوا عن التحالف معهم ليخوضوا غمار حرب خاصة بهم ومن أجل مصالح الترك وحدهم . Li czo ski p.55.

(٣) Sanders : Five Years in Turkey pp. 26 - 7.

وسيلة لحجز قوات بريطانيا فيها والحيلولة دون تدعيم الهجوم البريطانى على العراق ، أو استخدامها فى نزول على السواحل تركية فى بيروت أو الاسكندرونة أو أزمير أو غاليبولى لغزو الإمبراطورية العثمانية[١] ، إلى جانب احتمال تحقق آمال الترك فى استعادة مصر خصوصاً وأنهم كانوا يعلقون آمالا كبيرة على ثورة الوطنين المصريين ضد بريطانيا إذ ما وصلت القوات التركية إلى قناة السويس[٢] .

ورغم أن شعور المصريين كان ينطوى على العطف على الترك والميل للألمان والحقد على البريطانيين[٣] ، إلا أن أمل جمال باشا فى ثورة المصريين قد خاب ، إذ أخذ البريطانيون حيطتهم وأعلنوا الأحكام العرفية منذ ٢ نوفمبر وحشدوا فى مصر نحو مائة ألف جندى معظمهم من الاستراليين الذين لا تجد الدعاية الإسلامية سبيلا للتأثير عليهم مثلما قد تؤثر على الجنود المسلمين ، وأقامت بريطانيا عرضاً عسكرياً لقواتها فى شوارع القاهرة فى ١٧ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ ، كما أخذ البريطانيون يدعمون استحكامات قناة السويس وفى هذا السبيل لم يحاولوا تنظيم أى دفاع على الضفة الشرقية للقناة ولم ينشئوا مراكز أمامية فى سيناء بل كان دفاعهم ينحصر فى قطارات مسلحة على الخط الحديدى بين بور سعيد والسويس ، علاوة على بعض السفن الحربية فى القناة والمدفعية على الضفة الغربية[٤] .

وقد قام الترك بالهجوم على قناة السويس فى الثانى من فبراير (شباط) ١٩١٥ إلا أن قواتهم لم تستطع عبور القناة فتقهقرت ، ولم يكن لدى

---

(١) Djamal Paaha : Memories of a Turkish Statesmau p.137.

(٢) Ibid p. 154.

(٣) Arthur : Life of Lord Kitchener Vol. 111, p. 107.

(٤) Yale : Ouv. Cit pp. 220—221.

البريطانيين استعداد لتعقب الترك فى الصحراء، ولذلك فقد استطاعت القوات التركيه الانسحاب دون خسارة كبيرة وبذلك لم يأته الهجوم بكارثه عسكرية بالنسبة للترك ، إلا أنه فى الوقت نفسه حقق نجاحا إذ أدى إلى احتفاظ البريطانيين بقوة كبيرة فى مصر كان من الممكن استخدامها والاستفادة منها فى حملة الدردنيل طوال عام ١٩١٥ وهى الحملة التى باءت بالفشل[١] ، ولو أن هذه القوة التى احتفظ بها البريطانيون فى مصر كانت نواة الجيش الذى قام بغزو الشام بعد ذلك ، فقد صار العسكريون البريطانيون — إثر تجدد الهجوم التركى على مصر عام ١٩١٦ ـ مقتنعين بأن السيطرة على جنوب الشام أمر ضرورى لتأمين قناة السويس ومصر ، تلك الفكرة التى كان لها تأثير فى توجيه سياسة بريطانيا فى الشرق العربى خلال السنوات الثلاثين التالية[٢] .

٭ ٭ ٭

تأثر الشرق العربى بظروف الحرب :

وقد كان من الطبيعى أن تتأثر أحوال الشرق العربى الآسيوى بظروف الحرب والإجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية نتيجة لهذه الظروف، مما كان له أثره على إنتشار السخط على الإدارة العثمانية .

وقد حفلت تقارير القناصل الأمريكيين فى مختلف مدن المنطقة بوصف أثر ظروف الحرب على أهل أهل المشرق العربى الآسيوى ، مثل انقطاع ورود السلع والبضائع . وقل دخل الجمارك ، مما أثر بدوره على سوء الحالة المالية مما أدى فى بعض الأحيان إلى عدم صرف المرتبات، وإلحاح السلطات التركية فى جمع مزيد من الضرائب والأموال وجمع المواد الغذائية لإ ـداد

(١) Sanders : Ouv. ' it., p. 44 –45·

(٢) Yale : Ouv, Cit. p. 222,

القوات المسلحة دون دفع أثمانها ، هذا إلى جانب تجنيد الحكومة التركية الأهالى فى أقاليم المشرق العربى للاشتراك فى العمليات الحربية التى تخوضها الدولة العثمانية ، حتى أنه بعد إعلان التعبئة العامة استدعت السلطات العثمانية الخدمة العسكرية كل الذكور المدنيين الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين (١) .

ومما تجدر ملاحظته فى هذا المجال أن عدداً من شيوخ القبائل فى العراق عبروا للسلطات العثمانية فى بغداد على استعدادهم للدفاع عن البلاد فى حالة تعرضها للهجوم فقط ، وأن لديهم الكثير من الرجال ولكن ينقصهم السلاح والعتاد، كما طالبوا ببعض الضمانات فيما سيعود عليهم من فائدة إذا ما اشتركوا فى الحرب (٢)

---

(١) National Archives, from T. Sabbagh French Consular Agent at Safed & Tiberius to U.S Conul, Beirut, August 27. 1914.

(٢) Ibid. from ch Brissel. U.S. Consul (Bagdad) to H. Morgontlau (Constantinople), October 17, 1914, no, E 38.

الفصل الحادى عشر

الاتفاق العربى البريطانى

محاولة بريطانيا الاستفادة من تذمر العرب

لم يكن من المنتظر أن تقف بريطانيا ساكنة أمام احتمالات الخطر التى تهدد ممتلكاتها ومصالحها ، والمترتبة على دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ولقد أدركت بريطانيا قيمة الشرق العربى والأهمية الاستراتيجية لموقعه ، كما اتضحت لبريطانيا أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه عرب الشرق العربى الآسيوى فى الصراع الدائر ، خاصة وقد سبق أن أبدى هؤلاء بعض مظاهر السخط على الحكم التركى ، فكان من الطبيعى أن تحاول بريطانيا النيل من الإمبراطورية العثمانية مستخدمة رعاياها العرب، فقد كان يهم بريطانيا كثيراً إخراج تركيا من صوف الأعداء وذلك من أجل تحقيق الاتصال مع روسيا ورومانيا ، ذلك الاتصال الذى لم يكن قائما.وبدونه كان من الممكن أن يتحرج مركز الدولتين فى الحرب ، كما أنه بإخراج تركيا من الحرب كان يمكن تغيير مجراها وتقصير أمدها لأن الامبراطورية العثمانية تقع على الطريق البرى والبحرى إلى ممتلكات بريطانيا فى الشرق .

وقد وجدت السلطات البريطانية أن قيام ثورة ضد الأتراك فى بلاد الشرق العربى الآسيوى سوف يرغم تركيا على الاحتفاظ بجانب كبير من قواتها فيها وبذلك لا تساهم فى جبهات القتال الرئيسية الأخرى وخاصة الجبهة الروسية ، كما أن الثورة فى شبه الجزيرة العربية بالذات من شأنها أن تقطع الصلة بين القوات العثمانية الرئيسية المتمركزة فى الشام والفرق العثمانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية كاليمن وعسير ، وبذلك لا تستطيع هذه الأخيرة

أن تصبح ذات خطر على المراكز البريطانية فى الجنوب وخاصة فى عدن ، وإلى جانب ذلك فقد كان من المعروف أن ألمانيا سوف تحاول الاستفادة من تحالفها مع تركيا فى العمليات العسكرية بإيجاد جسر يوصل بين المستعمرات الألمانية فى شرق أفريقية وبين ألمانيا عن طريق ممتلكات تركيا فى شبه الجزيرة العربية ، ولو قامت هذه الصلة لأصبح فى استطاعة ألمانيا أن تهدد مصالح بريطانيا فى المحيط الهندى ، ولكن لو قامت ثورة فى شبه الجزيرة العربية فإن من شأنها أن تفسد هذا المخطط الألمانى . هذا بالإضافة إلى صعوبة إثارة ثورة فى الشام حيث الحركة القومية العربية أقوى منها فى غيرها من بلدان المشرق العربى والآسيوى بسبب قربها من مقر الدولة ووجود حشود كبيرة من القوات التركية فيها يمكن تعزيزها بسهولة ، هذا إلى جانب صعوبة إخضاع الحركة القومية العربية فى الشام وزعمائها إخضاعا مطلقا لمخططات بريطانيا وما عرف عن أطماعها فى المنطقة .

المعاهدة مع الادريسى فى عسير

أما فى شبه الجزيرة العربية فقد كان فى استطاعة بريطانيا اتخاذ بعض الخطوات لمواجهة هذه الأخطار المترتبة على دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ، فقد كان الإدريسى فى عسير يستطيع إثارة الصعوبات فى وجه المواصلات التركية بين الحجاز واليمن ، وتهديد الترك من الخلف فى حالة هجومهم على عدن ، علاوة على إمكان الحيلولة دون استخدام ساحل عسير ضد الإمام يحيى الذى ظل مواليا للترك ولذلك فقد قام الميجور جنرال (شو) shaw المقيم السياسى البريطانى فى عدن بإبرام معاهدة فى الثلاثين من أبريل (نيسان) ١٩١٥ (١٥ جمادى الثانية ١٣٣٣ هـ) ورقعها عن الإدريسى السيد مصطفى بن السيد عبد العلى . لتقوية أواصر التحالف بين الطرفين ، وفى هذه المعاهدة تعهد الإدريسى بمهاجمة الترك ومحاولة إخراجهم من مراكزهم فى اليمن ، والعمل

على مد نفوذه على حساب الترك وأعلن الإدريسى أن هدفه الترك فقط ، وأنه لن يقدم على أى إجراء ضد الإمام يحيى طالما أن الآخير لم ينضم للترك وفى مقابل ذلك تعهدت الحكومة البريطانية بحماية منطقة نفوذ الادريسى ضد الهجوم من جانب أى عدو ، وحماية وضمان استقلاله فى بلاده ، وعند انتهاء الحرب تتعهد بريطانيا باستخدام كل وسيلة دبلوماسية لتسوية المنازعات بين السيد الإدريسى والإمام يحيى أو أى منافس آخر ، كما تعهدت الحكومة البريطانية بأنها - رغم محاصرتها للموانى التركية على البحر الأحمر - سوف تسمح للادريسى بتبادل التجارة مع عدن . وقد صدق على هذه المعاهدة (هاردنج)Hardinge نائب الملك فى الهند فى السادس من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ [١] .

وتوضح لنا هذه المعاهدة أن غرض بريطانيا من تحالفها مع الإدريسى كان غرضاً محلياً محدوداً . وعلى كل حال لم تحدث عمليات عسكرية بين الترك والادريسى كما استفاد الادريسى اقتصاديا من هذا التحالف فقد ظلت موانيه مفتوحة بينما حوصرت الموانى اليمنية [٢] .

موقف اليمن

وإذا كان الادريسى قد انضم إلى بريطانيا علانية ، فقد كان موقف الامام يحيى فى اليمن مختلفا ، وذلك بسبب اختلاف ظروف كل منهما ، فقد كان وضع الامام يحيى ومركزه الدينى يمنعه من الانضمام للقوى غير الاسلامية

---

(١) Hurewitz : Diplomacy In the Near and Middle East, Vol. II pp. 12—13 (Doc. no. 7).

أمين الريحانى : ملوك العرب (١٩٢٩) ج ١ ص ٢٧٢/٢٧٣ .

حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين (١٩٣٥) ص ٣٠٨/٣٠٩ .

(٢) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ص ٢١٤/٢١٧ .

ضد العثمانيين المسلمين كما أن صلحه مع العثمانيين عام ١٩١١ كان يقيده ولو نظريا ويمنعه من الوقوف ضدهم ، بعكس الادريسى الذى لم يكن ملتزما بموقف إسلامى معين ، وقد سبق له أن تحالف مع الايطاليين ، ولم يكن متحالفا مع العثمانيين . يضاف إلى ذلك أن نفوذ الادريسى كان يتركز أساساً على الشاطىء مما سهل اتصاله بالقوى المختلفة ، وخاصة البحرية مثل إيطاليا وانجلترا ، أما الامام يحيى فقد كان نفوذه يتركز على الهضبة فى الداخل بعيداً عن البحر فهو محاط بسياج من الفرق العثمانية . وعلى الرغم من أن البريطانيين كانوا يأملون أن يؤدى اتفاقهم مع الادريسى إلى الإقلال من خطر الامام يحيى فى اليمن ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعلمون مدى خطورة اليمن على عدن والجنوب خصوصاً وقد كان للترك حامية قوية هناك ، قدرت فى أبريل (نيسان) ١٩١٤ بحوالى خمسة آلاف رجل بعد أن نقلت قوات كبيرة منها إلى ميادين أخرى عقب صلح دعان ١٩١١ ، لكن هذه القوات زادت عند قيام الحرب حتى بلغت نحو أربعة عشر ألف رجل ، ووفد على اليمن كثير من الضباط الأتراك ومعهم كميات كبيرة من العتاد .

ويلاحظ أن الامام يحيى لم يستغل فرصة الحرب العالمية الأولى للتخلص من الحكم التركى ، ولم يكن صلح دعان عائقا إذا أراد أن يقوم بعمل ضد العثمانيين كما أنه فى الوقت نفسه لم يناصب البريطانيين العداء صراحة ، بل تميز موقفه بين الطرفين بالهدوء ، وعدم القيام بعمل إيجابى واضح لمساعدة أى منهما ، وذلك حرصا على مصالحه الخاصة ، ولقد كان موقع اليمن وظروفه سببا فى هذا الموقف الذى اتخذه الامام ، فقد كان يخشى الفرق العثمانية الجاثمة فوق أراضيه ، ويعتقد أن نشوب الحرب بينه وبين العثمانيين سيؤدى إلى انكماش نفوذه ، ولن يكون هذا إلا فى مصلحة منافسه وعدوه الادريسى فى عسير الذى يزاحمه فى جزء من ممتلكاته ، ولذلك كان يعتبره الأولى بالخصومة ،

وفى الوقت نفسه كانت محمية عدن تقع على حدود بلاده وتشمل أقاليم يعتقد أنها ملك لأجداده ، ولكنه كان يخشى مناصبة بريطانيا العداء خشية أن يلقى باقى اليمن مصير المحميات، ويعتقد كثير من المؤرخين ـ وخاصة من الأوروبيين أن الامام انحاز إلى جانب تركيا فى الحرب ويذهب سلفاتور أبوتى إلى أن الامام « رفض بإباء كل محالفة اقترحها عليه الانجليز ورغم أنه حارب الأتراك لضمان استقلال بلاده ، إلا أنه آثر أن تقطع رقبته ورقبة أولاده على أن يحالف الكفار .. »[1] .

ومع ذلك فإن الأحداث تؤكد أن سياسة الامام آنئذ كانت التأنى والتظاهر بالحياد المشوب بالعطف والميل إلى حكومة محمود بك نديم والى اليمن دون أن يتعرض لعداء بريطانيا وحلفائها وانتظار الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب حسب تغير الأحوال[2] .

فقد كان يهم الإمام معرفة موقف الانجليز وما سيتمخض عنه الصراع بينهم وبين العثمانيين ، ومراقبة سير الأحداث وهو بعيد عنها ، ودون أن يشارك فى أحداثها مشاركة فعالة قد تؤدى إلى نتائج ضارة، فرأى من مصلحته الانتظار فى حذر واستعداد فهذه هى فرصته لحل مشاكله ومشاكل مستقبله التى تتمثل فى وجود الادريسى والعثمانيين داخل أراضيه، ووجود البريطانيين على حدوده ، وفى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ قام البريطانيون بضرب الشيخ سعيد بالقنابل من البحر رداً على تجمعات وتحصينات العثمانيين التى كانت تنطوى على تهديد مباشر لبريم ، وقد انزعج الامام من هذا العمل إلا أن البريطانيين

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ص ١٩٥/١٩٦ نقلا عن سلفاتور أبوتى مملكة الإمام يحيى ، ترجمة طه فوزى ص ٥٧ .

(٢) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن (١٣٥١ هـ) ص ٢١١ .

أكدوا له أن هذا الاجراء تستلزمته الضرورة العسكرية دون أن تكون وراءه أغراض توسعية ، وقد بدأ الترك نشاطهم ضد البريطانيين فى جنوب شبه الجزيرة العربية بمحاولة سلمية لجذب سلطان لحج إليهم ،ووسطوا لذالك الإمام يحيى ، وقد ذهب مندوب الامام إلى لحج فى يناير (كانون ثان) ١٩١٥ ، والتقى بالسلطان على الذى كان صديقاً لبريطانيا ، وتمنحه مشاهرة كبيرة وتعترف به سلطانا ، ورغم أن المندوب ذكر السلطان أن الامام لن يتمكن من الخروج على تعهده للترك الذين عقد معهم عام ١٩١١ هدنة لمدة عشر سنوات ، فقد كان السلطان يرى أن قيام الترك بعمليات حربية ضد عدن سيعود بالضرر على أهل بر اليمن نتيجة الحصار البحرى الذى ستضربه بريطانيا على سواحل اليمن وأنه على مشايخ اليمن تسكين حركات الترك على أن يقوم سلطان لحج باقناع حكومة عدن بعدم محاصرة سواحل اليمن وأن تعتبر ولاة اليمن أرضا عربية محايدة [(١)] . ومن المعتقد أن هذه المفاوضات كانت استطلاعية ، يحاول بها الامام أساساً أن يعرف ما سيقوم به الانجليز من عمليات حربية ضد العثمانيين فى اليمن لأن هذا سيؤثر بالضرورة على مركزه فى بلاده ، خصوصاً وهو يعلم تصميم الترك على ضم لحج ، ومعارضة الانجليز وسلطان لحج ، وأن ذلك سيؤدى إلى نشوب الحرب بين الطرفين فى المنطقة مما قد يترتب عليه دخول الانجليز أراض يمنية ما يعتبرها من أملاكه .

* * *

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ص ١٩٥ — ١٩٨ .

النشاط الحربى فى الجنوب العربى :

ومن أجل تعطيل مواصلات بريطانيا أو على الأقل من أجل شغل قواتها فى الجنوب قرر الترك — عقب نشوب الحرب — مهاجمة المحميات فتقدمت إليها حملة بقيادة على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى اليمن ، وعندما رفض السلطان على سلطان لحج السماح للقوات العثمانية بالمرور عبر بلاده ، زحف الترك صوب عدن فى فبراير (شباط) ١٩١٥ ، وقد اشترك فى الحملة العثمانية على لحج بعض جنود الإمام ولو أن البعض يعتقد أن اشتراكهم كان بصفتهم الشخصية لا كأتباع للإمام ، على اعتبار أن ذلك يخالف خطة الامام القائمة على الامتناع عن الاشتراك فى الحرب ، ولا شك أن العثمانيين استطاعوا الاعتماد على الامام فى تهدئة اليمن، وهى خدمة جليلة مكنتهم من التفرغ لمحاربة البريطانيين . علاوة على ما قدمه للعثمانيين من مؤن [1] .

وتقدم القائد العثمانى بقواته داخل لحج ، ولم تحدث معارك حتى الخامس من يوليو (تموز) ١٩١٥ (٢١ شعبان ١٣٣٣ هـ) حين وقعت معركة الدكيم التى انتصر فيها سعيد باشا واستولى على الحوطة عاصمة لحج بسبب تأخر النجدة الانجليزية ، وقد سبقت الاشارة إلى ما تردد من أن الجنود الهنود عصوا ضباطهم وكرهوا محاربة إخوانهم المسلمين [2] ،وقد احتج السلطان عبد الكريم — الذى خلف السلطان على لوفاته متأثراً بجراحه — لدى الحكومة البريطانية كما اضطر الانجليز - تحت ضغط القوات العثمانية الزاحفة - إلى إخلاء الشيخ عثمان - ضاحية عدن — وقد احتلها الترك والعرب، واستعادها البريطانيون فى ٣١ يوليو (تموز) ١٩٥١ ، بعد أن وصلتهم نجدة من مصر .

---

(١) العهدلى : مرجع سبق ذكره ص ٢١١ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٤٤١ .

إلا أن نشاط الترك فى هذا الميدان لم يكن متسقا مع بقية العمليات العسكرية الأخرى التى كانت تقوم بها دول الوسط ، ولذلك لم يقدر لها أن تؤثر على المجرى العام للحرب وبعد استرجاع الشيخ عثمان اقتصرت العمليات العسكرية حول عدن على مناوشات بين الجانبين، ولكنها اضطرتهما إلى إبقاء قوات غير قليلة فى المنطقة ، كان من الممكن الاستفادة منها فى ميدان آخر، واستمرت هذه الحالة حتى إعلان الهدنة عام ١٩١٨ .

الكويت:

وعلاوة على ذلك فإنه بمجرد دخول تركيا الحرب سارعت بريطانيا إلى تقوية مركزها وتدعيمه بمختلف الوسائل فى أنحاء الشرق العربى الآسيوى ، وقبل يومين من إعلان بريطانيا الحرب رسميا على الدولة العثمانية وجه المقيم السياسى البريطانى فى الخليج مذكرة إلى الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت يعده فيها باعتراف بريطانيا بانقطاع صلات الكويت تماماً مع الإمبراطورية العثمانية ، وفى مقابل ذلك طلبت بريطانيا تعاون أمير الكويت مع الأمير عبد العزيز آل سعود وغيره من الزعماء فى تقديم المعونة من أجل الاستيلاء على البصرة وجنوب العراق ، أوعلى الأقل الحيلولة دون وصول الإمدادات التركية إلى البصرة إلى أن تصل القوات البريطانية إليها [١] .

* * *

ابن سعود :

أما فى وسط شبه الجزيرة، فقد كان هناك آل الرشيد فى شمر وعبدالعزيز آل سعود فى نجد وكان قد ضم إلى أمارته إقليم الحسا عام ١٩١٣ وكان الطرفان فى عداء مستمر ، كما أن سيطرة الترك عليهما لم تكن تامة ، إلا أن

(١) Hurewitz : Ouv. cit. II. p. 4. (Doc. no. 3).

آل الرشيد انحازوا إلى جانب الترك الذين كانوا يساعدونهم فى نزاعهم ضد ابن سعود ، ولما كانت منطقة الخليج تدخل فى اختصاص حكومة الهند التى تدير العمليات لاحتلال البصرة . فقد أوفدت قبل نهاية عام ١٩١٤ كابتن شيكسبير shakespear لمحاولة ضمان تأييد ابن سعود ومساعدته لبريطانيا .

فقد انقسم المسئولون البريطانيون عن الشرق العربى فريقين فريق السياسيين والعسكريين المتمركزين فى القاهرة ويتبعون دار المعتمد البريطانى والذين أطلق عليها اسم المدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة وفيما بعد اسم المكتب العربى ، وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشئون العربية مثل ت.ا. لورنس ، رونالدستورز ، جلبرت كلايتون ، جورج هو جارث وجرترود بل . أما الفريق الآخر فقد كان مركزه الهند وملحقاتها فى الخليج، ولذا كان يسمى المدرسة الهندية وتزعم هذا الفريق سيربرسى كوكس وارنولد ولسن والكابتن شيكسبير ورغم اتفاق المدرستين على أهمية الأقطار العربية ومواردها بالنسبة لبريطانيا فى أثناء الحرب العالمية الأولى إلا أنه كان ثمة خلاف كبير بينهما ، فبينما كانت مدرسة الهند تهتم فى المقام الأول بالعراق وإيران ونفطهما وكذلك منطقة الخليج العربى ، فإن مدرسة القاهرة كانت تهتم بقناة السويس وكل ما فى شأنه حمايتها وعلى الأخص الشام تنفيذاً للسياسة التى رسمها كتشنر منذ كان معتمداً بريطانياً فى مصر [1] .

وإلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهند تعتقد أن فى استطاعة الحلفاء عامة وبريطانيا خاصة إحراز النصر فى الحرب العامة دون الاستعانة بالعرب، ودون الالتجاء إلى إثارة العرب ضد الترك الأمر الذى دعت إليه مدرسة القاهرة . فقد كانت مدرسة الهند تخشى أن يؤدى تحريض بريطانيا للعرب

---

(١) Graves : Life of sir Percy cox (n d) p. 206.

على الثورة ضد الخلافة الإسلامية إلى إثارة مسلمي الهند ، كما كانت تخشى أن تصبح القومية العربية مصدر تهديد لبريطانيا ذاتها فتنقلب على المصالح البريطانية في البلاد العربية بحيث يصعب — بعد الحرب — إخضاع العرب لنفوذ بريطانيا .

ولذلك كان من رأي أعضاء مدرسة الهند أن على بريطانيا ألا تلوح للعرب بوعود استقلالية وألا تشجعهم في أمانيهم القومية ، كما كان من رأيها إقامة حكم بريطاني مباشر في البلاد العربية في غربي آسيا . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تحبذ إصدار الوعود للعرب وإظهار العطف على أمانيهم القومية ، وكانت ترى منح العرب استقلالا محدوداً تحت سيطرة بريطانية مقنعة ، وأن يعهد بتسلم مقدرات هذا الاستقلال المحدود إلى حكام من العرب الموالين لبريطانيا ضماناً لاستمرار النفوذ البريطاني ، ومن هنا كانت مدرسة الهند تعارض إشعال ثورة عربية تلك الثورة التي رشح الشريف حسين لزعامتها . بل كانت تؤيد التحالف مع ابن سعود لعدم ذيوع صيته لخارج شبه الجزيرة العربية وتقاوم فكرة الاعتماد على الهاشميين[١] .

ولذلك كانت المفاوضات البريطانية مع ابن سعود تجرى من أجل تحقيق هدف قريب أو مباشر ألا وهو ضمان صداقة أمير نجد أو على الأقل وقوفه على الحياد في أثناء العمليات الحربية في العراق ، ولم تكن هذه المفاوضات تهدف إلى أبعد من ذلك طالما أن مدرسة الهند لم تهتم كثيراً بإقامة دولة عربية تحل محل الإمبراطورية العثمانية ، وإنما كانت توجه سياستها اعتبارات محلية إلى جانب خوفها من حدوث قلاقل بين مسلمي الهند إذا تطرفت بريطانيا في عدائها للخليفة[٢] .

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية (بيروت ١٩٦٦) ص ٨١ — ٨٣ .
Gravrs : Ouv. cit, p 205.

(٢) Lynczowski : Ouv. cit. p. 74.

وقد نصت المعاهدة التى عقدت مع ابن مسعود فى السادس والعشرين من ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ على اعتراف بريطانيا باستقلال فى الأقاليم التى تتكون منها إمارته (نجد والحسا والقطيف وملحقاتها) وفى مقابل ذلك تعهد بعدم إبرام أى اتفاق مع أية دولة أجنبية وألا يتنازل عن شىء من أراضيه لدولة أجنبية أو أحد رعاياها ، كما تعهد بفتح الطرق التى تمر ببلاده والمؤدية إلى الأماكن المقدسة وأن يحمى الحجيج فى مرورهم من وإلى الأماكن المقدسة كما تعهد بعدم الاعتداء أو التدخل فى شئون الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان ، تلك المناطق التى كانت تحت حماية بريطانيا [١]

إلا أن معاهدات بريطانيا مع الإدريسى وابن سعود كانت تتصل بالمصالح المحلية فقط ولم تتضمن أية أشارة إلى الحركة القومية العربية ، وتكمن أهمية الاتفاقيتين فى نتائجهما السلبية ، فقد سدتا باب الأمل فى إمكان قيام تحالف بين الإدريسى أو ابن سعود من جهة وبين الأتراك من جهة أخرى ، كما ضمنت مساعدة ابن سعود فى منع وصول المؤن إلى الاتراك عن طريق الخليج وجعلت من المتعذر استخدام ساحل عسير كقاعدة ضد سفن الحلفاء فى البحر الأحمر.

ورغم أن ابن سعود لم يمتشق الحسام ضد الترك إلا أن بريطانيا استفادت من موقفه فقد كان يحارب آل الرشيد الموالين للأتراك ، كما أنه لم يستجب للدعوة إلى الجهاد وحال بين الأتراك وتلقى الإمدادات من الخليج ، كما امتنع عن مهاجمة الشريف حسين، وكان من الممكن أن يقوم بينهما صدام على مناطق كانت موضع نزاع [٢] .

* * *

---

(١) Hurewitz : Ouv. Cit. pp. 17—18 (Doc. no. 9)

(٢) Lincz wski : Ouv. Cit. p. 74

الاهتمام بالعراق

كان العراق من أقطار الشرق العربي الآسيوى التى لقيت اهتماما كبيراً من مدرسة الهند ، وإذا تمخضت الحرب العالمية الأولى قد تمخضت عن احتلال بريطانيا للعراق ، فإن ذلك لم يكن أمرا مفاجئا ، وليد ظروف الحرب وحسب ، وإنما كانت بريطانيا أكثر الدول الأوربية اهتماماً بالعراق فى أثناء القرن التاسع عشر لقربه من إمبراطوريتها الاستعمارية فى الهند، وخوفا من الخطر الذى يمكن أن يتهددها عن طريق العراق والخليج ، وكان الاستعماريون البريطانيون فى الهند يخشون أن يجعل الروس من بغداد عاصمة روسية فى الجنوب [١] . حتى لقد ظهرت فى بريطانيا حوالى عام ١٨٥٧ فكرة مد خط حديدى من الإسكندرونة إلى الفرات عن طريق حلب ثم دجلة إلى بغداد ثم البصرة،ووعد (بلمرستون) صاحب المشروع وكان أحدهما الكولونيل تشيزنى بمساهمة الحكومة فى تنفيذه لمواجهة نشاط فرنسا فى الشرق ومشروع قناة السويس ثم تراجع وسحب مؤازرة الحكومة للمشروع حيث تبين أن الطريق سيكون بعيداً عن حماية الأسطول البريطانى ، كما اعتبر الخبراء العسكريون أن أهميته فى نقل القوات إلى الهند ستكون ضئيلة . وعلى الرغم من إعادة بحث مشروع سكة حديد القوات عام ١٨٧٢ فلم يلبث أن هبط حماس بريطانيا له منذ اشترت أسهم مصر فى شركة قناة السويس عام ١٨٧٥ [٢] .

ولا ننسى فى هـــذا المجال ما عرف عن العراق من وفرة الخيرات والإمكانيات إذا نظم وأحسن استغلاله ، بحيث ساد الاعتقاد بأن العراق

---

(١) Ireland : Iraq' A Study in Political Development (1937) p. 44.

(٢) Jastrow : Ouv. Cit. p. 88.

Coke : The Heart of the middle East (1925) pp. 125-6.

يمكن أن يكون بيئة صالحة لتوطين الهنود المتزايدين من إمكانيات الهند هذا إلى جانب ظهور ما ينبىء عن احتمال العثور على كميات كبيرة من النفط في العراق [1] . ولذلك كان العراق مسرحا لنشاط البريطانيين المتنوع طوال القرن التاسع عشر حيث نشط التجار والبحارة والدبلوماسيون والسياح والخبراء الفنيون لتثبيت نفوذ بريطانيا في العراق والتمهيد للسيطرة عليه واحتلاله عندما تحين الفرصة .

وإذا كانت بريطانيا قد عملت على تدعيم مركزها بين أمراء الخليج بالتفاهم مع سلطان مسقط وأمير الكويت ومشايخ البحرين ومنطقة الساحل المهادن كما أن ابن سعود الذى اندفع عام ١٩١٣ نحو الساحل (الحسا) كان تواقاً للحصول على اعتراف بريطانيا وتأييدها ، وشيخ المحمرة يتطلع إلى حماية بريطانيا لتدعيم مركزه وطالما كان العثمانيون موالين لبريطانيا ولا يعارضون نشاطها للاحتفاظ بمركزها المتفوق فى المنطقة ، فقد كانت بريطانيا راضية ما دامت المنطقة فى مأمن من أن تصل إليها أيدى منافسيها وخاصة روسيا ثم ألمانيا [2] .

وإذا كانت بريطانيا قد توصلت إلى اتفاق مع روسيا عام ١٩٠٧ فقد كان ثمة خطر آخر يتهدد إمبراطورية بريطانيا الاستعمارية وهو الخطر الألمانى ، فقد أثارت مشروعات ألمانيا فى الامبراطورية العثمانية تنفيذاً لسياسة الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten وخاصة سكة حديد بغداد قلق الحكومة البريطانية التى صارت تخشى وصول النفوذ الألمانى إلى المحيط الهندى عبر العراق والخليج ، ولذلك فقد سارعت الحكومة البريطانية — كما رأينا — إلى إغلاق الطريق فى وجه النفوذ الألمانى بإبرام اتفاقيتها المعروفة مع شيخ الكويت . فقد كانت بريطانيا تعتبر النفوذ الألمانى أشد خطراً من الروسى ،

---

(١) د. عبد الرحمن البزاز : العراق من الاحتلال إلى الاستقلال ص ٨ .

(٢) Yale ; Ouv. cit. p 2.7

ورغم دعوة رءوس الأموال البريطانية والفرنسية إلى المساهمة فى مشروع سكة حديد بغداد فقد رفض العرض باعتبار المشروع يخدم الاستعمار الألمانى واشتد سخط بريطانيا لأن منافساً كبيراً يتوغل فى مجال بريطانيا التجارى ويقيم لنفسه وجوداً فى مواجهة مستعمرة (يحسدنا الجميع على امتلاكها)(١) .

وإذا كان مشروع سكة حديد بغداد سبباً من أسباب الحرب العالمية الأولى فإن ذلك يرجع إلى أهميته السياسية لا الاقتصادية ، لأن النواحى الاقتصادية فى الإمبراطورية العثمانية بما فيها الخط الحديدى كان قد تم الاتفاق بشأنها قبيل الحرب مباشرة ، ولم يكن ينقصها سوى التوقيع على الاتفاقيات(٢) .

إلى جانب ذلك فقد كان للعراق أهمية أخرى عظيمة ألا وهى مجاورته لحقول النفط فى إيران وخاصة عبدان حيث كانت توجد أعظم مصافى النفط البريطانية، وبدخول تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط ازداد الخطر التركى الألمانى على النفط الإيرانى ، حتى أنه قبل إعلان الحرب رسمياً على تركيا تواترت الأخبار عن احتمال قيام الأتراك بالهجوم على عبدان ، وكان من الممكن وصول القوات التركية إليها من البصرة(٣) .

وكان لورد (كرو) Crowe وزير الهند — كما كتب فى ١٩ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٤ إلى نائب الملك فى الهند — بعد أن صدرت الأوامر إلى الحملة — يرى أن « أهم ما نستهدفه من إرسال الحملة هو التأثير المعنوى على الشيوخ العرب الآخرين(٤) .

---

(١) Foster : The Making of Modern, Iraq (1936) pp. 32-5,

(٢) Ibid : p, 36.

(٣) Burgoyne, E, : Gertrude Bell (1961) pp, 14-15

(٤) أيرلاند : العراق ، دراسة فى تطوره السياسى ، ترجمة جعفر خياط (بيروت ١٩٤٩) ص ٤ — ٥ .

وإلى جانب ذلك فقد كانت بريطانيا ترغب فى تقوية مركز الزعماء العرب الموالين لها فى منطقة الخليج مثل شيخ المحمرة وشيخ الكويت وابن سعود وشد أزرهم بتقديم دليل مادى على قوة بريطانيا يهدىء من روع هؤلاء الحكام الصغار فى مواجهة الدعوة إلى الجهاد(١) .

وقد جاء فى خطاب (اسكويث) Asquith رئيس الوزراء البريطانى فى مجلس العموم البريطانى فى الثانى من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ أن الهدف من إرسال قوة إلى العراق هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا فى الخليج وحماية حقول النفط . وعلى العموم المحافظة على هيبة بريطانيا فى الشرق(٢) .

وهكذا نرى أنه بدخول تركيا الحرب ضد الحلفاء صار للعراق أهمية سياسية واقتصـــادية وعسكرية جعلت من الضرورى جعله جزءاً من الامبراطورية البريطانية بشكل أو بآخر ، وأصبح تجريد حملة على العراق لا يؤدى فقط إلى مواجهة التهديدات الموجهة إلى نفوذ بريطانيا ، بل إنه سيمكنها أيضاً من تثبيت أقدامها فى رأس الخليج وتحويل امتيازاتها التى سبق الحصول عليها فى المنطقة إلى حقوق استناداً إلى الفتح . وإذا كان البعض(٣) قد ذهب إلى القول بأنه لم تكن لبريطانيا - عند ما أنزلت قواتهـا فى الفاو فى السادس من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ — سياسة بعيدة المدى ، وإنما كان للحملة أهداف محددة أملتها الظروف الناشئة عن موقف تركيا ، وتقتصر على مجرد السيطرة على الخليج ، وأن نجاح الحملة فى مرحلتها الأولى هو الذى أوجد الرغبة فى السيطرة على داخل العراق ، إلا أنه مما لاشك فيه أن احتلال

---

(١) عبدالرزاق الحسنى : تاريخ العراق السياسى الحديث جـ١ (١٩٤٨) ص ٤٦ ـــ ٤٧ ؛
Burgoyne : Ouv, Cit, pp, 14-15.

(٢) Foster : Ouv, Cit. pp. 37-8,

(٣) Kedourie : England and the Middle East, pp, 175-6.

الفاو والبصرة لم يكن مشروعاً جديداً . فقد أعلن لورد كيرزون Curzon في مجلس اللوردات عام ١٩١١ أنه «من الخطأ الاعتقاد بأن مصالحنا السياسية تنحصر في الخليج أو في المنطقة بين بغداد والبصرة بل تمتد حتى بغداد نفسها»(١) .

ويلاحظ أن الهدف البعيد وهو السيطرة على كل العراق لم يغب عن بال المسئولين البريطانيين منذ وطئت أقدام القوات البريطانية سواحل العراق المطلة على الخليج ، ففي برقية إلى نائب الملك في الهند بتاريخ ٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ (وهو اليوم التالي لاحتلال البصرة) ألح سير (برسى كوكس) — المقيم العام البريطاني في منطقة الخليج ، والذى رافق قوات الغزو بصفته كبيراً للحكام السياسيين — من أجل التقدم إلى ما وراء النطاق الساحلي ، وكانت لغته تعبر عن تفكير الرسميين البريطانيين إزاء العراق ، فقد ذكر أنه من الصعب عدم التفكير في الاستيلاء على بغداد ، إننا لا نستطيع أن نسمح لتركيا بالاحتفاظ بها وإثارة المشاكل في وجهنا في البصرة ، كما لا نستطيع أن نسمح لدولة أخرى بالاستيلاء عليها»(٢) .

الاتفاق بين بريطانيا والشريف حسين

إلا أن أهم محاولة من جانب بريطانيا لتدعيم مركزها في الشرق العربي الآسيوي كانت تتمثل في ذلك الاتفاق الذى عقدته مع الشريف حسين بن علي أمير مكة ، فقد كان هذا الاتفاق على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، وأعظم الاتفاقات التي عقدتها بريطانيا أثراً على مستقبل الشرق العربي الآسيوي ، وإذ استقر رأى بريطانيا — كما رأينا من قبل — على الاستفادة من العرب واستخدامهم لانزال الهزيمة بالدولة العثمانية لأهمية موقع بلادهم بالنسبة

---

(١) أيرلاند : مرجع سبق ذكره ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) أترلاندا خياط : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

Kedourie : Ouv. Cit. pp. 175-6.

الامبراطورية البريطانية ومصالحها ، فقد كان على بريطانيا أن تختار أكثر المجموعات العربية فى الدولة العثمانية صلاحية لقيادة العرب ضد الدولة ، وتنفيذ مخططات بريطانيا .

وعلى الرغم من أن الوطنيين السوريين كانوا أصلح العناصر وأقواها وعياً من الناحية السياسية إلا أنه كان من الصعب الوصول إليهم بحكم وجودهم فى قلب الامبراطورية العثمانية وتحت السيطرة التامة للسلطات التركية ، ولم يكن من الممكن استخدام السوريين عن طريق زعمائهم فى القاهرة والذين انقطعت صلاتهم بمواطنيهم تقريباً ، لذلك اتجهت أنظار بريطانيا نحو شبة الجزيرة العربية لتطرفها من ناحية وضعف السيطرة العثمانية عليها من ناحية أخرى ، يضاف إلى ذلك أن بريطانيا — وأطماعها الاستعمارية معروفة فى المنطقة — ما كانت لتميل إلى التعامل مع القيادات الشعبية والزعماء القوميين العرب ، لأنه سيكون من الصعب السيطرة عليها وكبح جماح مشاعرها القومية واستخدامها لتحقيق مخططات بريطانيا التى تتعارض ولا شك مع أفكارهم القومية ، ولقد كان أغلب هؤلاء الزعماء القوميين العرب من ضباط الجيش العثمانى ، وتزعموا مقاومة استبداد الترك ، وتصدوا للمطالبة بأن يكون لبلادهم كيان خاص ، وكانت هذه المجموعة من الزعماء من أوضح القوى فى حركة القومية العربية .

وكانت السلطات البريطانية قد أجرت بعض الاتصالات لسبر غور العناصر الوطنية ومنهم عزيز المصرى الذى كان يعيش فى مصر عقب العفو عنه ، وعلى الرغم من أن العفو جاء بعد تدخل السلطات البريطانية فى الآستانة فإن اتجاهه كان واضحا فى التحذير الذى أصدره إلى الأعضاء البارزين فى جمعية العهد بألا ينساقوا وراء إغراء الأعمال العدوانية ضد الإمبراطورية العثمانية ، حيث أن دخولها الحرب قد يعرض أقطار المشرق العربى للغزو الأوربى وأن عليهم أن يقفوا إلى جانب الدولة إلى أن يتم الحصول على ضمانات كافية ضد الأطماع

الأوربية ، كما أن اللجنة العليا لجماعة الفتاة أضافت إلى قرارها الذى طالبت فيه بالاستقلال تحفظاً جاء فيه أنه فى حالة اتضاح الأطماع الأوربية فإن الجمعية ملزمة بالعمل على مقاومة التدخل الأجنبى بأى شكل من الأشكال[١] .

وعند ما بدأ البريطانيون يجسون نبض المصرى ورفاقه عن طريق رونالد ستورز R Storrs وكلايتون Clayton من رجال دار المندوب السامى فى القاهرة فى أواخر عام ١٩١٤ ، أصر الزعماء على ضرورة تعهد بريطانيا رسميا بأنها لا تمانع فى استقلال العرب واتحادهم وأنه لا مطمع لها فى أى قطر عربى ، كما طالبوا بعدم اشتراك قوات فرنسية فى العمليات الحربية فى الجبهة السورية ، ولا قوات بريطانية فى الجبهة العراقية وذلك لقطع الطريق على أية مؤامرات محتملة ، وتعهد عزيز المصرى مقابل ذلك بإثارة العرب فى العراق والشام ضد الترك ، لولا أن أصابت الزعماء العرب خيبة أمل عندما علموا بنزول القوات البريطانية فى العراق وإعلان الحماية على مصر مما فضح نوايا بريطانيا ، ولو أن الأغلبية العظمى من الزعماء السوريين فى مصر كانوا يرون فى تحذيرات عزيز المصرى مبالغة فى التشاؤم فاستمروا فى الاتصال بالبريطانيين من أجل الوصول إلى حل وسط يرضى بريطانيا ولا ينكر - فى رأيهم - الأهداف العربية ، وكان هؤلاء ممن استضافتهم السلطات البريطانية فى مصر عند لجوئهم هربا من الترك ، وكان عداؤهم للترك يحجب عن أنظارهم ما ينطوى عليه الاتفاق مع بريطانيا من أخطار[٢] .

وإذا كانت بريطانيا لذلك ، ولقرب بلاد الشام من مقر الدولة وتمركز قوات تركية كبيرة بها لم تحبذ ثورة فى الشام ، فإنه يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر له أهميته ، وهو أن الشام لن يدخل تحت سيطرة بريطانيا بعد ذلك التعهد الذى أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٢ وأعلنت فيه أنه ليست لها أطماع فى الشام اعترافا بمصالح وأطماع فرنسا .

---

(١) Kirk : Short Hist. of the Middle East (1960) pp. 124-5.

(٢) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية (بيروت ١٩٥٥) ص ٦٥-٦٦ .

وإلى جانب رغبة بريطانيا فى البعد عن القيادات الوطنية كانت تفضل فى معاملتها مع الثورة العربية أن تعمل على تغليب العنصر الدينى وذلك من أجل مواجهة الحالة الدينية التى تحيط بالخلافة التى لجأت إلى إستخدام سلاح الجهاد فى الحرب ضد دول الوفاق ، أى مقاومة الدين بالدين ، وإبطال تأثير إعلان الجهاد على مسلمى الهند باستمالة زعامة عربية إسلامية قوية ، كأن أثر الجانب الدينى قد يطغى على أثر الجانب القومى ، ثم إن ظهور قيادة دينية إسلامية إلى جانب بريطانيا فى الحرب يساعدها على تسهيل أمورها فى الهند بتجنيد الموارد البشرية فيها لخدمة المجهود الحربى البريطانى ، خاصة وأن مسلمى الهند تأثروا بالدعوة إلى الجهاد التى أعلنها الخليفة السلطان ضد بريطانيا وحلفائها واعتبر فيهم هذه الحرب حرباً دينية مقدسة دفاعاً عن مقدرات الإسلام ولعل هذا ما حدا ببريطانيا إلى التفكير فى إقامة خلافة إسلامية تحت سيطرتها بديلة للخلافة العثمانية التى تسيطر عليها ألمانيا وتستخدمها لتحقيق مآربها .

وإذ قررت بريطانيا أن تولى وجهها شطر الجزيرة العربية فقد وقع اختيارها على الشريف حسين بن على رغم وجود زعماء مسلمين آخرين فيها مثل الإدريسى فى عسير ومبارك الصباح فى الكويت وابن سعود فى نجد وابن الرشيد فى حائل والإمام يحيى فى اليمن ، بل وكانت تربط بعض هؤلاء علاقات طيبة مع بريطانيا تصل إلى حد الولاء لها ، وذلك لأن المسئولين البريطانيين لم يجدوا لدى هؤلاء الآخرين المقدرة على النجاح فى المهمة التى ستوكل إليهم والتى تتطلب نفوذاً فى داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ، وهيبة فى العالمين العربى والإسلامى ، فالإدريسى والصباح شهرتهما خارج إمارتها محدودة ، وابن الرشيد والإمام يحيى مواليان للترك ، أما عبد العزيز ابن سعود أمير نجد فإنه على الرغم من تفوقه على هؤلاء نفوذا وقوة إلى

درجة أن اعتبرته (جرترودبل Gertrude Bell)[1] أبرز شخصية فى وسط شبه الجزيرة العربية فإن العقبة التى كانت تحول بينه وبين تولى المهمة التى كان يريدها المسئولون البريطانيون أنه كان على رأس مذهب دينى معين ، لاتعتنقه فى ذلك الوقت إلا الأقلية فى شبه الجزيرة ولا يعتنقه أحد خارجها ، لذلك كان من الصعب إقناع ملايين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بقبوله زعيماً لهم، فضلا عما عرف عنه من قوة الشخصية بحيث ما كان ليترك مصير بلاده تتلاعب به السياسة الدولية وإنما كان صعب المراس أمام المحاولات الأوربية للتغلغل فى بلاده ، ولذلك اكتفى البريطانيون بالمعاهدة التى عقدت معه عام ١٩١٥ وساعدوه ضد ابن الرشيد حليف الترك إلى جانب ضمان عدم اعتدائه على غيره من الأمراء حلفاء بريطانيا فى شبه الجزيرة .

وهكذا لم يكن أحد من الزعماء العرب الآخرين فى شبه الجزيرة العربية يتمتع بمثل المركز الدينى الذى يتمتع به شريف مكة لأنه ينتمى إلى الدوحة النبوية الشريفة ، وحتى الدولة العثمانية ذاتها كانت تعتبره من أكبر العمد التى ستقوم عليها الدعوة للجهاد، ولذلك رأت بريطانيا أن فى استطاعتها إذا ما كسبت الشريف إلى جانبها - خصوصاً إذا لوحت له بالخلافة — أن تحول ولاء رعاياها المسلمين من الخلافة العثمانية فى الآستانة إلى الخلافة العربية فى مكة وبذلك تنجح بريطانيا فى تجزئة الولاء فى العالم الإسلامى بين زعامتين إسلاميتين وتحدث صدعا فى الإسلام ، فيضعف مركز الخليفة العثمانى ، وتتمكن من أن تفل سلاح الجهاد الذى كانت تعلم أن الخليفة العثمانى سوف يلجأ إليه ليجمع كلمة المسلمين من حوله وبخاصة رعايا دول الوفاق .

---

(١) بريطانية كانت تهتم بالآثار وقامت بجولات عدة فى الشرق العربى منذ عام ١٨٩٩

يضاف إلى هذا الاعتبار بعد الحجاز عن مقر الدولة العثمانية بحيث كان نقل القوات إليه يكلف كثيراً من الأموال ويستغرق كثيراً من الوقت .

إلا أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن مدرسة القاهرة التى تولت الاتصال بالشريف لكسبه إلى صف بريطانيا رغم تقديرها لأهميته إلا أنها قدرت فى نفس الوقت عدم إمكان قصر التعامل عليه . ففى فقرة من مذكرة وجدت بين أوراق سير برسى كوكس ويبدو أن كاتبها هو (هوجارث) فى عام ١٩١٦ وقبل نشوب الثورة فى الحجاز جاء أنه ، يجب أن يلاحظ أن الشريف رغم أنه كان يكتب دائماً بصفته المتحدث باسم الأمة العربية فإنه على قدر علمنا لا يجد التأييد من أى تنظيم عربى ، وللشريف نفوذ خارج إقليمه المحلى أكثر من أى زعيم عربى آخر ، وبيته أكثر البيوت العربية الحاكمة تحرراً ، وله اعتبار روحى فى كل العالم الإسلامى ، فإذا كان علينا أن نتعامل مع أى أمير عربى حول مستقبل الشعب العربى فإننا ملزمون بتفضيل الشريف ، ولكن من ناحية أخرى سيكون من غير المجدى التعامل معه وحده ، والإطمئنان إلى قدرته على التأثير على العرب[1] ، حيث لم يكن للعائلة الهاشمية أى صلة بالتيار القومى ، وكان فيصل وعبد الله ابنا الشريف حسين يمثلان الحجاز فى فى مجلس المبعوثان قبيل الحرب ، وعلى الرغم من أن هذه الحقبة شهدت نشاطا بارزاً للنواب العرب ضد التعسف التركى لم ينضم أحد منهما إلى أى من الأحزاب الوطنية . وقد أكد فيصل أنه لم يدخل أى حزب عربى قبل عام ١٩١٥ حين انضم إلى العربية الفتاة وهو فى دمشق للتدليل على قبوله المطالب العربية التى عرضها القوميون العرب عليه ، فكان الانتماء إلى الجمعية رمزيا أكثر منه حقيقياً .

---

(1) Graves : Life of sir Percy Cox (n, d,) P. 205.

ومن مآخذ القوميين العرب على الشريف حسين معارضته لمد خط سكة حديد الحجاز من المدينة إلى مكة ، ثم جهوده فى الفترة من ١٩٠٩ — ١٩١٣ من أجل توطيد الحكم التركى فى شبه الجزيرة ومقاومة محاولات التحرر بإرسال قواته المحاربة إلى جانب الترك فى إخماد الثورات كما حدث فى عسير حتى لقد ذكر الخديو عباس حلمى للأمير عبد الله بأن الأوساط العربية ممتعضة لهذا التصرف من جانب الأشراف ، فرد الأمير عبد الله بأن تفكك القسم الجنوبى من شبه الجزيرة يجعلها تحت أيد جاهلة تمكن الأجانب من وضع أيديهم عليها[١] . وفى الوقت نفسه فإن ابن سعود لم يلب طلب حكومة الإتحاديين بالمساعدة ضد الإدريسى وكتب يقول إنه عربى فلا يحارب العرب من أجل الدولة[٢] .

كما أنه فى رجب من عام ١٢٣٠ هـ (١٩١٢ م) خرج الحسين بجيش ضد عبد العزيز بن سعود مستعيناً بابن الرشيد حتى قبل ابن سعود شروط الدولة التى كانت تطالب بأن يعترف بسيادتها واو إسميا على نجد وأن يدفع مبلغاً من المال سنوياً دليلا على التبعية[٣] ، هذا فى الوقت الذى كان ابن سعود يرى أنه من أجل خدمة مصالح العرب والترك على السواء أن تكون الولايات العربية مستقلة استقلالا إدارياً تحت سيطرة الترك ، وقد كتب بذلك إلى والى البصرة سليمان شفيق كمالى[٤] .

كما قيل أن طالب النقيب زعيم البصرة بعث باسم خمسة وثلاثين نائباً عربياً فى مجلس المبعوثان العثمانى عام ١٩١١ الى الشريف حسين يبايعونه

---

(١) عبد الله بن الحسين : مذكراتى (١٩٤٥ ، ص ٥٩ .
(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته (١٩٢٨) ص ١٨١ :
(٣) أمين الريحانى : المرجع نفسه ص ١٨١ — ١٧٣ .
(٤) أمين الريحانى : المرجع نفسة ص ١٨٢ — ١٨٣ .

بالخلافة إذا ساعدهم ضد الاتحاديين ، إلا أنه لم يكن لهذه الرسالة صدى فى نفس الشريف الذى استمر يساعد الترك ضد الحركات العربية، ويعلل بعض الباحثين رفض الشريف حسين بأن العرض لم يتضمن أى وعد للحسين بملك أو عرش وإنما اقتصر الوعد على الخلافة الدينية غير السياسية على البلاد العربية ولكن يبدو أن السبب الحقيق لرفض هذا العرض هو أن الشريف كان حتى ذلك الوقت على ولاء تام للدولة لا يفكر فى الخروج عليها بل وكان يسعى لتدعيم سيطرتها فى شبه الجزيرة كسبا لثقتها ولم تكن فى ذلك الوقت قد راودته بعد أحلام دولة عربية .

وإذ تبين للمسئولين البريطانيين مدى مايمكن أن تجنيه بريطانيا من فوائد وما تتجنبه من اضرار بكسب العرب فى المشرق العربى الإسلامى بزعامة الشريف حسن أمير مكة إلى جانبها بعد دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دولتى الوسط ، شرعت السلطات البريطانية فى اتخاذ الخطوات الإيجابية لتحقيق هذا التحالف .

الاتصالات الاستطلاعية

ولم يكن هذا أول اتصال بين الشريف حسين والسلطات البريطانية ، بل سبقه اتصال آخر فى الثلث الأول من عام ١٩١٤ .

وكانت الحكومة العثمانية قد عزلت منيف باشا وعينت مكانه وهيب باشا واليا على الحجاز وكان هذا بمثابة نذير بتصميم الحكومة العثمانية على تطبيق قانون الولايات الجديد على الحجاز : وبينما كان عبد الله فى القاهرة فى طريقه لاجتماع مجلس المبعوثان التقى بكتشنر وستورز ، وفى رسالة إلى (سيرادوار جراى) Grey وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ٦ فبراير (شباط)١٩١٤ ذكر (كتشنر) أن الأمير عبدالله عبر له عن أمله فى ألا تسمح الحكومة البريطانية بأن

تمر فى قناة السويس الإمدادات التركية التى ستستخدم فى إخماد الثورة التى قد تنشب فى الحجاز إذا ما عوقب والده الشريف ، كما كان يأمل أن يستخدم وزير الخارجية البريطانية نفوذه لدى الحكومة التركية للحيلولة دون عزل الشريف[1] .

ثم تلقى الأمير برقية من والده ليرحل من فوره إلى الآستانة ، وعلم أن العلاقات بين والده ووهيب باشا توترت للغاية ، وقد وضع كتشنر اليخت الخاص بسفير بريطانيا فى الآستانة تحت تصرف الأمير ، كما أبلغه - عن طريق ستورز - أنه رغم صداقة بريطانيا لتركيا فإن الحكومة البريطانية لا ترضى بحدوث اضطرابات تهدد الأمن فى بلاد الحجاز وقد بعث الأمير إلى والده بخطاب عرض فيه ما جرى بينه وبين المسئولين البريطانيين وذلك عن طريق القنصلية البريطانيه فى جدة[2] .

وبعد شهرين أى فى أبريل (نيسان) ١٩١٤ مر الأمير عبد الله بالقاهرة فى طريق عودته من الآستانة،وكانت تبدو عليه خيبة الأمل لتصميم الحكومة التركية على السير قدما فى تنفيذ مشروع الخط الحديدى من المدينة إلى مكة ثم جدة وينبع ، مع تطبيق قانون الولايات الجديد على الحجاز ، وفى أثناء مرور الأمير عبد الله بالقاهرة التقى بستورز الذى عهد إليه كتشنر بإبلاغ الأمير بأن عرب الحجاز يجب ألا يتوقعوا أى تشجيع من بريطانيا وأن اهتمام بريطانيا بشبه الجزيرة ينحصر فى أمن وراحة الحجاج الهنود[3] .

ومما تجدر ملاحظته أنه فى هذه الاتصالات الأولى بين الأمير عبد الله

---

(١) Wingate : Ouv, Cit, 179.

(٢) عبد الله بن الحسين : مذكراتى ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) Storrs : Orientations (1937), p. 143.

والمسئولين البريطانيين كان موضوع المفاوضات مقصوراً على مسألة الشرافة فالشريف كان يخشى أن تعزله الحكومة التركية ، ومن ثم كان هدفه محدوداً فى ضمان الاستمرار فى إمارة مكة مع التمتع بأكبر قدر من الاستقلال [١] فهو لم يفكر آنئذ فى كل الادعاءات التى تبناها فيما بعد ألا وهى الدولة العربية الكبرى المستقلة والخلافة العربية التى تحل محل الخلافة العثمانية ، ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا اقتصر اهتمامها بالشرافة فى ذلك الوقت على تنظيم حج المسلمين وخاصة أن كثيرين منهم يفدون من ممتلكات الإمبراطورية [٢] .
ومع ذلك فقد كانت لهـــذه الاتصالات الأولى قيمتها فى لفت نظر بعض المسئولين البريطانيين إلى ما يمكن أن تفيده بريطانيا من المنطقة العربية فى حالة قيام حرب بينها وبين الدولة العثمانية ، فقد تأكد لديهم استعداد فريق من العرب للعمل ضد الترك .

إلا أنه يبدو أن شريف مكة فضل الاستمرار فى إظهار الخضوع لحكومة الاتحاديين إما كسبا للوقت ، وإما لعدم تمكنه من مواجهة تشددهم وإصرارهم بمفرده ، خصوصاً وأن بريطانيا لم تظهر حتى ذلك الوقت استعداداً صريحاً لتأييده ، ولذلك بعث بابنه الأمير عبد الله مرة أخرى إلى الآستانة ليعلن أن والده لا يستطيع أن يعصى للخليفة أمرا ، ولكنه يطلب أن يتاح له بعض الوقت للتفكير ، واقترح تشكيل لجنة لبحث مسألة الخط الحديدى ، وعندما وصل عبدالله إلى الآستانة فى التاسع والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩١٤ كان ولى عهد النمسا قد لقى مصرعه فى سيرايفو Serajevo فى اليوم السابق ، وصارت الحرب الأوروبية أمراً لا مفر منه ، وكان لذلك أثره على موقف

---

(١) Kedourie : Ouv, p. 49.

(٢) د محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٧٦ .

الحكومة العثمانية ، فعندما قابل الأمير عبدالله أنور باشا وزير الحربية أبلغه هذا بتأجيل مشروع الخط الحديدى ، وطلب من الأمير تكوين فرقة من المتطوعة للاشتراك فى الجهاد واستعادة المناطق السليبة فى القوقاز ومصر ، واعترض عبدالله على استخدام المتطوعة فى القوقاز وقال إن متطوعة العرب يجب أن يقاتلوا فى الجبهة المصرية حتى لا يهلككم البرد، كما نصح الأمير عبدالله السلطان محمد رشاد بعدم التورط فى الحرب نظراً لما يتهدد البصرة والحجاز واليمن من جانب أساطيل الدول المعادية[1]

ورغم موقف التحفظ الذى وقفه المسئولون البريطانيون فى أثناء اتصال الأمير عبدالله بهم ، فإن لورد كتشنر كان خلال العامين السابقين على نشوب الحرب الأوروبية يفكر فيما يمكن أن تجنيه بريطانيا فى حالة انهيار الامبراطورية العثمانية ، وقد أخذت تسيطر عليه فكرة مؤداها أن جنوب الشام بين عكا وحيفا شمالا وخليج العقبة جنوباً سوف يكون — لاعتبارات سياسية واستراتيجية — ضرورياً للامبراطورية البريطانية ،وقد تأكدت هذه الفكرة نتيجة المسح الحرفى لشبه جزيرة سيناء الذى أمر به (كتشنر) ونفذته فى عام ١٩١٣ بعثة نيوكوم Newcombe [2].

وعندما نشبت الحرب الأوروبية فى أول أغسطس (آب) ١٩١٤ كان كتشنر فى بريطانيا منذ غادر مصر فى ١٨ يونيو (حزيران) ١٩١٤، فرحل على الفور إلى مقر عمله بالقاهرة ، ولكنه قبل أن يتجاوز دوفر استدعى لتولى وزارة الحربية فى الخامس من أغسطس (آب)

---

(٢) عبد الله بن الحسين : مذكراتى (١٩٤٥) ص ٩٣—٩٨ .

(١) Zeine : The Struggle for Arab Indepence (1960) p. 3.

وكان كتشنر فى السنوات السابقة قد تنبه إلى الخطر الذى يكمن وراء امتداد النفوذ الألمانى صوب الشرق ، ذلك الخطر الذى كان يتهدد مركز بريطانيا فى الهند والخليج ، ولم يكتم عن بعض خلصائه اعتقاده بأن الدبلوماسية البريطانية قد أخطأت كثيراً بالسماح لألمانيا بزيادة نفوذها السياسى والعسكرى فى عاصمة الدولة العثمانية ، وإلى جانب ذلك فقد شهد كتشنر وهو فى القاهرة توتر العلاقات بين شريف مكة والسلطات التركية واستعداد الشريف للثورة دفاعاً عن حقوق الشرافة القديمة وسعيه من أجل كسب تأييد ومعونة بريطانيا .

والآن صار كتشنر وزيراً للحربية والرجل المسئول عن مواجهة الأخطار العسكرية المترتبة على احتمال دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ، إذ أنه على الرغم من أن حكومة الاتحاديين ظلت فترة من الوقت تعلن تمسكها بسياسة الحياد فإن (كتشنر) لم يكن مطمئنا إلى هذه التصريحات ، وفطن المسئولون البريطانيون إلى أهمية كسب الحجاز إلى جانبهم ضد الترك ولذلك فإنه بعد ما عاد ستورز إلى القاهرة وحده دون كتشنر لم يشأ أن يهمل موضوع كسب العرب ، خصوصا وأن الأمير عبدالله حدثه بصراحة عن مشاكل والده مع حكومة الاتحاديين واحتمال خروجه عليها ، ففكر ستورز فى إمكان الاستفادة من هذه الفرصة لصالح بريطانيا ، فكتب إلى كتشنر يسأله عما إذا كان من الممكن أن يعهد إليه بالتأكد من الأمير عبد الله عن الطريق الذى سوف يسلكه الشريف إذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب ، مؤكداً أن كسب العرب إلى جانب بريطانيا يساعد على تأمين الجناح الأيمن لممتلكات بريطانيا فى مصر ويحول دون استخدام ساحل البحر الأحمر كقواعد للغواصات الألمانية .

وفى نفس الوقت كان سير جون ماكسويل Maxwell قائد القوات البريطانية فى مصر قد كتب إلى (كتشنر) من القاهرة فى ١٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٤ ينصح بتشجيع العرب فى الحجاز واليمن على الثورة ضد الترك. وصادفت الفكرة هوى فى نفس (كتشنر) الذى كانت تراوده نفس الفكرة، فبعث ببرقيتين هامتين كانتا بمثابة دعوة من بريطانيا إلى عرب الحجاز للثورة على الترك، وبداية الاتفاق المشهور بينها وبين الشريف حسين، وكانت أولى البرقيتين من كتشنر إلى ممثل بريطانيا فى مصر بتاريخ ٢٤ سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ يعهد إليه فيها بتكليف (ستورز) بإيفاد مندوب سرى يحسن اختياره إلى الأمير عبد الله للاستفسار عن موقف الشريف حسين إذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب، هل سيؤيدها أم سينحاز إلى جانب بريطانيا؟ [١] وقد حمل رسالة ستورز إلى الأمير عبدالله فى مكة فى منتصف أكتوبر (تشرين أول) تاجر مصرى من حى الجمالية يدعى على أصغر [٢] ولكن عبدالله لم يرد على الرسالة فبعث ستورز بأخرى بعد أسبوعين وعندما أطلع عبدالله والده عليها كان رده (الصيف ضيعت اللبن)، وأنه ليس على استعداد فى ذلك الوقت للمطالبة بحق العرب [٣].

ولعل هذا الموقف من الشريف كان يرجع إلى أن بريطانيا لم تتقدم بعروض محددة، ولذلك فانه فى الواحد والثلاثين من أكتوبر (تشرين أول) أبرق (كتشنر) إلى دار المعتمد البريطانى فى القاهرة بنص رسالة لكى ترسل إلى الأمير عبدالله، وتضمنت الرسالة وعداً للشريف حسين بأنه إذا انحاز إلى جانب بريطانيا ضد الدولة العثمانية فإن الحكومة البريطانية تضمن تأمين

---

(١) Storrs : Ouv. Cit, p, 173.

(٢) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١٢٨.

(٣) عبد الله بن الحسين: مذكراتى ص ١٠٢.

سلطته كشريف يتمتع بكافة حقوق وامتيازات الشرافة ، كما تعهد بالدفاع عنه ضد أى هجوم خارجى كما تضمنت الرسالة وعدا بمساعدة العرب فى محاولتهم نيل الحرية بشرط تحالفهم مع بريطانيا ، واختتم كتشنر رسالته بالإشارة إلى أنه فى حالة إعلان الشريف نفسه خليفة فإنه يستطيع الاعتماد على بريطانيا[١].

وقد صادفت رسالة (كتشنر) قبولا لدى الشريف لأنها فيما يختص بالحجاز أعطته ما كان يصبو إليه وهو ضمان استقلاله التام فى نطاق الحجاز[٢]، بل وفتحت أمامه باب الأمل فى إمكان زيادة أحلامه فى البلاد العربية الأخرى كما لوحت له بالخلافة ، رغم أن عبارات الرسالة كان يكتنفها الغموض وعهد الشريف إلى نجله الأمير عبدالله بإرسال الرد إلى القاهرة ، وفيه أعرب عن اقتناعه بسياسة التحالف مع بريطانيا ، إلا أنه أوضح عدم استطاعته الدخول فى عمل عدائى صريح ضد الترك قبل الاستعداد له تماماً ، وطلب مهلة يكمل فيها استعداداته ، وحتى يجد ذريعة مناسبة للنزاع مع الترك ، وقد وصل هذا الرد إلى (ستورز) فى العاشر من ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ ، وفى أبريل (نيسان) ١٩١٥ كلف حاكم عام السودان بإبلاغ شريف مكة أن الحكومة البريطانية سوف تضمن معاهدة الصلح بنداً ينص على أن تكون شبه الجزيرة العربية وأماكنها المقدسة فى يد دولة مستقلة ، ولكن كان من الصعب فى ذلك الوقت تحديد المناطق التى ستدخل ضمن الدولة[٣].

وهكذا تنتهى المرحلة الأولى من المفاوضات بين المسئولين البريطانيين

---

(١) Storrs ; Ouv. Cit. P. 176.

Antonius : Ouv. P. 183.

(٢) Main ; Palestine at the Crossroads (1937) p. 20.

(٣) Storrs. Ouv. Cit. P. 177.

والشريف ، تلك المفاوضات التى ستبدأ مرحلتها الثانية فى يوليو (تموز) ١٩١٥ — وتعرف بمراسلات الحسين / مكماهون .

ويذهب wingate ونجت إلى أن كتشنر وضع نصب عينيه الاعتبارات الدينية أكثر من أى اعتبار "عسكرى" بسبب رعايا الإمبراطورية المسلمين ، حيث كان (كتشنر) يريد استمرار فتح الأراضى المقدسة الاسلامية أمام الحجاج المسلمين وان انضمام أمير مكة إلى جانب بريطانيا سيدعم مركزها فى نظر رعاياها المسلمين فى الهند والملايو والسودان وشرق أفريقية وغربها ، وكانت بريطانيا تشعر أن نفوذها على رعاها المسلمين يرجع ليس فقط إلى سماحها بحرية الحج وإنما أيضا لعملها على تسهيل الحج وتأمين الوصول إلى الأماكن المقدسة "بفضل إمكانياتها" البحرية[1] . كما أنه لم يكن من المعقول أن تترك بريطانيا رعاياها المسلمين يحجون "إلى الأماكن المقدسة وهى لا تزال فى قبضة أعدائها ، بحيث يتأثرون بالدعاية التى يمكن أن يطلقها الخليفة العثمانى فى أثناء موسم الحج ، كما أنه لم يكن من المعقول أن تقدم بريطانيا على الحيلولة بين رعايا المسلمين وبين الحج .

ومع ذلك فما لا شك فيه أن المسئولين البريطانيين وضعوا نصب أعينهم أيضاً الاعتبارات العسكرية ، فالأقاليم العربية من الدولة العثمانية تشغل مساحة لها أهميتها الاستراتيجية على مجرى الحرب ، وقد أشرنا إلى هذه الأهمية فى فصل سابق .

ومما تجدر ملاحظته أن الدعوة كانت موجهة إلى الشريف حسين وعرب الحجاز وحسب ليقوموا بالثورة ، فإن بريطانيا فى ذلك الوقت لم تكن تفكر

---

(١) Wingate : Ouv. pp, 180-1.

فى خطة لتقديم العون لثورة عربية كبرى فى ممتلكات الدولة العثمانية فى كافة ارجاء آسيا ، إذ أن كل ما كان يبتغيه كتشنر هو التأكد — كما جاء فى برقيته الأولى عما إذا كان الشريف سينضم إلى بريطانيا أم سيبقى على ولائه للترك ، وكل الضمانات التى قدمها كتشنر باسم الحكومة البريطانية — فى برقيته الثانية — إنما تنحصر فى أنها ستحول دون أى تدخل فى شبه الجزيرة وأنها سوف تقدم للعرب كل معونة ضد أى اعتداء خارجى[١].

وفى السنة التالية فقط ، بدأ الشريف حسين يطالب بمملكة عربية تضم بلاد الشرق العربى الآسيوى[٢] ، خصوصا وأنه فى نفس الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تبحث عن زعامة دينية تساندها فى الحرب ضد الخلافة العثمانية كان القوميون العرب فى دمشق يبحثون عن زعامة دينية يمكن أن تقودهم فى نضالهم القومى حتى لا يسهل ضرب حركتهم القومية بالدين وحتى لا تتهم الحركة بالمروق على الإسلام وشق عصا الطاعة على أمير المؤمنين الخليفة ، لأن الدين كان يعوق دائماً ثورة العناصر الإسلامية غير التركية على الخليفة ، ولذلك كانوا يبحثون عن شخصية عربية لها مكانتها فى الأقاليم العربية من الدولة العثمانية ترعى القضية الوطنية ، وتكون بلاده نواة للدولة العربية المستقلة فبينما كان عزيز المصرى يحذر رجال العهد والفتاة من التورط مع بريطانيا ، كان رجال الحركة الوطنية فى الشام قد بدأوا فى الاتصال بالشريف حسين وبعثوا إليه بفوزى البكرى فى يناير (كانون ثان) ١٩١٥ ليعرض عليه فكرة الثورة على الترك بعد أن كانوا قد فشلوا فى مباحثاتهم مع غيره من أمراء شبه الجزيرة مثل ابن سعود وسلطان مسقط . وكان فوزى البكرى — وهو ضابط من

---

(١) Zeine, Onv. Cit. p· 4.

(٢) Young ; The Independent Arab (1933) p. 973.

أسرة البكرى المعروفة فى الشام — قد انتقل للخدمة فى الحجاز ، وكان على علم بالنشاط القومى ، وكان أخوه نسيب البكرى عضواً فى الفتاة ، وقد أبلغ فوزى البكرى الشريف حسين أن الزعماء الوطنيين فى الشام والعراق وفيهم بعض كبار الضباط العرب فى الجيش العثمانى يحبذون الثورة من أجل نيل الاستقلال ، ويذكر (انطونيوس) أن فوزى البكرى سأل الشريف حسين عما إذا كان يقبل تولى قيادة الثورة ، إلا أن الحسين كان متردداً ، ولم تلبث أن وصلته رسائل المسئولين البريطانيين فى القاهرة ، وإزاء إلحاح الطرفين وضرورة اتخاذ موقف حاسم قرر ارسال نجله الأمير فيصل إلى دمشق والآستانة لدراسة الموضوع من زاويتيه المتعارضتين ودراسة وجهتى النظر التركية والعربية .

وبعد الاتصالات الأولى بين الشريف حسين والسلطات البريطانية أخذ الشريف يتلمس طريقه محاولا تأمين مركزه فى شبه الجزيرة بالتعرف على موقف بقية زعمائها إزاء الترك ، وحتى يكون تصرفه على ضوء ما يحصل عليه من معلومات عنهم خصوصاً وأن بريطانيا أبرمت معاهدة الحماية مع أمير الكويت فى ٢ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ ، ومعاهدة أخرى مع الإدريسى فى عسير فى ٣٠ أبريل (نيسان) ١٩١٤ ، ولذلك بعث الشريف حسين بمندوبيه إلى الإدريسى فى عسير والإمام يحيى فى اليمن وابن سعود فى نجد وابن الرشيد فى حائل لسبر غورهم ، وقد وجد أن الإمام يحيى وابن الرشيد هما الوحيدان اللذان قررا الوقوف إلى جانب الترك . أما ابن سعود والإدريسى فهما مواليان لبريطانيا الأمر الذى يطمئن الشريف ويشجعه على الانحياز إليها هو الآخر .

وعلى الرغم من أن الشريف حسين وجد أن الموقف فى شبه الجزيرة يشجع على الثورة إلا أن اتصالاته بأمرائها لم تؤد إلى اقرارهم له بالتصدى

لتزعم القضية العربية ، إذ لم يقبـل أى حاكم عربى سيادة الشريف الذى لا يستطيع الادعاء بأنه يمثل أكثر من أهالى إقليمه ، ولكنه بصفته سادنا للأماكن المقدسة كان فى نظر البريطانيين الوحيد الذى يمكن اعتباره متحدثا باسم العرب[١].

وفى الوقت نفسه كان الشريف حسين يحاول أن يخدع الترك الذين كانوا يلحون عليه من أجل الاستجابة إلى الدعوة للجهاد ويطلبون منه أن يتخذ خطوات إيجابية ، وأخذت حكومة الآستانة تمطره بسيل من الرسائل من أجل إعلان تأييده صراحة للجهاد ، وإرسال علم الرسول إلى دمشق ، وتكوين قوة من قبائل الحجاز المحاربة فى صفوف القوات العثمانية ، وأخذ الشريف يماطل ، فأبلغ زعماء الاتحاديين أنه يؤيد الدعوة إلى الجهاد من كل قلبه ، ولكنه يخشى إذا هو أعلن تأييده لها صراحة — أن يتعرض الحجاز للعدوان ، خاصة وأن الأسطول البريطانى يسيطر على البحر الأحمر ، مما يؤدى إلى امتناع وصول المؤن إلى الحجاز وانتشار المجاعة مما يثير القبائل ، وأخذ الشريف يتظاهر بالاستجابة لمطالب الترك فأمر بنقل مخلفات الرسول من المدينة تمهيداً لإرسالها إلى دمشق فى احتفال ضخم لمباركة الجيش الذى كان يستعد للهجوم على مصر ، كما بدأ فى التظاهر باتخاذ الإجراءات لتكوين قوة من المتطوعة الحجازيين تحت قيادة أبنائه .

تشجيع سودانى للشريف :

كما كان الشريف حسين — خلال الشهور الأولى من عام ١٩١٥ — يتلقى تشجيعا من مصدر بريطانى آخر هو سير ريجنالد ونجت R. Wingate حاكم

---

(١) Young. Ouv. Cit. p. 274.

عام السودان ، الذى استعان بالسيد على الميرغنى من أجل التأثير على الشريف حسين واقناعه بالتحالف مع بريطانيا . فقد كان من المعروف — وكما تشير الوثائق السودانية — أن السيد على الميرغنى كان يميل بعواطفه كل الميل نحو بريطانيا حتى لقد كتب إلى حاكم عام السودان فى ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ بأن السودان «إذا لم يسعده الحظ وفاته المشاركة حسيا وماديا قياما بالواجب أسوة بغيره الأقطار الكثيرة التى تظلها الراية البريطانية العظيمة الاحترام والتى هى سعيدة جداً بالحكم البريطانى العادل السعيد فإن كله مشارك معنويا أدبيا من كل الوجوه أتم المشاركة لدولته البريطانية العظيمة ولا يقل عن غيره إخلاصا لها[1] » ولذلك فقد كان السيد على الميرغنى يؤيد الشريف حسين ويدعو الحكومة البريطانية إلى معونته[2].

وقد أوعز ونجت إلى السيد على الميرغنى فكتب إلى الشريف حسين يشجعه على إعلان انحيازه إلى جانب بريطانيا ويطمئنه من ناحية الحكومة البريطانية ، وأنه يستطيع أن يستخدم نفوذه لدى ونجت الذى تربطه به صداقة وطيدة من أجل مساعدة الشريف ، وقد رد الشريف بأنه سيكون مسرورا لتلقى أية مقترحات قد يرى ونجت عرضها ، فرد السيد الميرغنى بأنه إذا حدد الشريف مطالبه واحتياجاته فإن سير ونجت يستطيع أن يمده بما يحتاجه من مال وسلاح ومؤن[3].

---

(١) Sudau Arcives, Khartoum, Box 2/48 File 406

خطاب من السيد على ميرغنى (كسلا) إلى عطوفة أفندم السردار — وحاكم عام السودان بتاريخ ١٩١٤/٩/٢٨ .

(٢) Sudan Archives School of Oriental Studies, Durham Box 134/6-Wingate Papers, Letter from Wingate to Grey, May 15. 1915.

(١) Antonius ; Ouv. Cit p. 144.

وعلى الرغم من عدم التوصل إلى نصوص الخطابات المتبادلة بين السيد على الميرغنى والشريف حسين فى هذه الفترة ،فقد أمكن العثور على إشارات إلى حدوث هذاالاتصال ، كما أمكن الحصول على صور مراسلات جرت بينهما فى فترة تالية توضح بجلاء التأييد الذى كانت تلقاه حركة الشريف من السيد على الميرغنى فقد كتب الكولونيل ولسن من جده فى ١٧ يوليو (تموز) ١٩١٧ إلى حكومة السودان وأرفق برسالته صورة خطاب من الملك حسين إلى السيد الميرغنى رداً على خطاب كان قد بعث به الأخير إليه ، وأعرب (ولسن) عن اعتقاده بأنه سيكون من المفيد أن يكتب السيد على الميرغنى إلى الملك حسين معبراً عن سروره لما لاحظه من أن الملك حسين قد جدد العهد على ألا يتعرض للإدريسى لأن قوة الأمم العربية تعتمد على وحدة رؤسائهم. وبالفعل بعث السيد على الميرغنى إلى الملك حسين بخطاب تضمن كل مااقترحه (ولسن) ، ورغم عدم العثور على النص العربى لهذا الخطاب فإن ترجمته الإنجليزية وجدت بين الوثائق السودانية حيث بعث بها مساعد مدير المخابرات إلى السكرتير الخاص للحاكم العام بتاريخ ٣ سبتمبر (أيلول) ١٩١٧ ، وقد أشار السيد على الميرغنى فى خطابه إلى الملك حسين ـ وكان بتاريخ ٣٠ أغسطس (آب) ١٩١٧ ـ إلى أن قيام الأخير يهدف أساسا إلى خير العرب ،ولضمان استقلالهم واستعادة مجدهم الضائع وإنقاذهم من براثن ظالميهم الذين داسوا حقوقهم وأهانوهم بشتى الوسائل وأساءوا معاملتهم ، وأن التاريخ سيسجل مظالم الترك وسوء حكمهم ، وأن كل ذلك يدعو إلى توحيد كلمة العرب لأن الهدف أسمى وأعظم من أن يتأثر بالأطماع والخلافات الشخصية. وعبر السيد على الميرغنى فى سياق رسالته عن شعوره بالغبطة شأنه شأن أولئك الذين يكنون أنبل المشاعر نحو رفاهية العرب ، لما لاحظه من أن الملك حسين قد جدد العهد على احترام سيادة الإدريسى وعدم التعرض له فى السر أو فى العلن ، كما عبر

عن سروره لما سمعه من أنباء الانتصارات التى أحرزها الأمير زيد على ابن الرشيد ، وكذلك الانتصارات التى أحرزتها القوات العربية فى العقبة ومعان وغيرهما ، ودعا السيد على باستمرار الانتصارات ، وبأن يثوب إلى رشدهم بقية الزعماء العرب الذين كانوا — كما يقول — لا يزالون مخـــدوعين فى صداقتهم وولائهم لظالميهم الترك الذين قتلوا القومية والثقافة العربية . وسدوا فى وجه العرب سبيل النهوض والرقى . واختتم السيد على الميرغنى رسالته بأنه لا يزال يضع نفسه تحت تصرف الملك حسين ، وأنه على أتم استعداد الاستجابة لأية طلبات يبعث بها إليه ، خدمة لأمته وإخوانه العرب (١) ولا شك أن مكاتبات الميرغنى إلى الشريف حسين شددت من أزر الأخير فى موقفه من التحالف مع بريطانيا ، وقوت ثقته فى إخلاص بريطانيا وصدق نواياها .

اتصال الشريف بالقوميين العرب :

ولما كان الشريف قد أدرك مدى تلهف بريطانيا على التحالف معه واتجاهها نحو إضفاء كثير من مظاهر التفخيم على مركزه بالتلويح له بالخلافة ، وبتأييد العرب عامة فى سعيهم من أجل نيل حريتهم ـ كما ورد فى برقية كتشنر بتاريخ ٣١ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٤ ـ فقد دعا هذا كله الشريف إلى عدم قصر مطالبه على مسألة الشرافة والمحافظة على حقوقها ، بل اتسعت آماله ، وبالتالى مطالبه ، لتشمل البلاد العربية خارج حدود الحجاز ، والتى صار يؤمل أن يصير خليفة عليها بمساندة بريطانيا .

---

(١) Sudan Archives, Khartoum-Intelligence Dept. Box (1) 2/49, File 416.

وقد استلزم ذلك اتصال الشريف بزعماء الحركة القومية فى البلاد العربية التى ستتألف منها الدولة العربية الكبرى مستقبلا ، وبخاصة السوريين والعراقيين ، على أن يدخل بعد ذلك فى مفاوضات مع بريطانيا لتحديد أسس الاتفاق وحدود وشكل الدولة العربية على أساس اتفاقة مع هؤلاء الزعماء العرب (١)

ولذلك فإن أكبر اتصال قام به الشريف حسين مع الزعماء العرب كان اتصاله بالجمعيات الوطنية فى الشام .

وقد كان فى الشام والعراق تياران متعارضان ، أحدهما إسلامى النزعة يعمل على التفاهم مع العثمانيين والاستجابة إلى الحرب الدينية ضد الدول الأوروبية بسبب ما عرف عن أطماعها فى الأقطار العربية . وكان هذا التيار تغذية الدعاية الإسلامية التى انطلقت من عاصمة الخلافة ، وقد رأينا من قبل القرار الذى أصدرته اللجنة العليا للفتاة فى أوائل عام ١٩١٥ ، وكذلك تحذير عزيز المصرى إلى أعضاء جمعية العهد بعدم الانسياق والقيام بحركات عدوانية ضد الدولة العثمانية وأنه يجب عليهم الوقوف إلى جانب الدولة ما لم يحصلوا على ضمانات كافية ضد الأطماع الأوربية .

أما التيار الآخر فهو تيار قومى يهدف إلى الثورة على الترك بسبب ما قاساه العرب فى ظل حكمهم ، وذلك بالتفاهم مع بعض الدول الأوربية والاستغاثة بها وقد أخذ التيار القومى يقوى ويشتد على حساب التيار الدينى بسبب السياسة التى اتبعها جمال باشا قائد الجيش الرابع فى الشام وهى سياسة القمع للحركة العربية والضرب بشدة على أيدى العناصر الوطنية .

---

(١) د. محمد أنيس : نفس المصدر ص ٢٧٧ .

فقد تولى أحمد جمال باشا قيادة الجيش الرابع ، وكانت دائرة نفوذه تشمل المشرق العربي من جبال طوروس حتى اليمن ووصل إلى مقر قيادته فى دمشق فى أوائل ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ ، وكان جمال من أقطاب الاتحاديين . وعند وصوله إلى دمشق حاول كسب ود العرب لمعاونة تركيا ، فأخذ يتقرب إلى زعمائهم ، وفى أوائل يناير (كانون ثان) ١٩١٥ دعى إلى حفل أقيم فى النادى الشرقى تكريماً للشيخ عبد العزيز جاويش ، وخطب جمال باشا فى الحفل وذكر أنه ليس ثمة تعارض بين الأمانى التركية والعربية على الإطلاق ، وأعلن أن اختلاف الشعبين — وهما دعامة الإسلام — سيؤدى إلى الوقوع تحت سيطرة الاستعمار ، وعبر عن أسفه لمحاولة بذر الشقاق بينهما ، ودعا العرب والترك إلى الحياة فى وئام وسلام [1] وأعلن جمال فى خطابه عن تقديره للعنصر العربى واستعداده لإعطاء بعض الحقوق للعرب ، أنه ليس من الضرر استمرار وحدة العنصرين العربى والتركى مع بقائهما أمتين منفصلين تحت خليفة واحد [2].

وقبل وصول جمال باشا إلى دمشق بقليل كانت السلطات التركية قد عثرت — إثر اقتحام القنصليات الفرنسية فى بيروت ودمشق — على مراسلات ووثائق بين بعض الزعماء العرب والقنصل الفرنسى ، وهذه الوثائق تدين بعض الوطنيين العرب بأنهم يعملون تحت حماية دولة أجنبية ومن أجل مصلحتها ، ومع أن خلوصى بك والى سورية اعتبر هذا النشاط خيانة للدولة وأبلغه لجمال باشا عند وصوله الا أن جمال أراد أن يتغاضى عن هذا الموضوع وصرف

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية جـ ١ ص ٥٨ / ٥٩ .

(٢) Djemal Pasha : Memories of a Turkish Statesman (n. d.) pp. 199-201.

النظر عن اتخاذ إجراءات ضد المتهمين فى الحال رغبة ـ كما يقول ـ فى تجنب إيجاد صدع فى الجبهة الإسلامية ، وحتى لا يظن المسلمون فى مختلف البلاد الإسلامية أن الأتراك ينتقمون من أجل ضمان سيادة الأمة الطورانية ، وعن طريق عبد الكريم الخليل استدعى جمال بعض الوطنيين وشرح لهم ضرورة انتصار الإسلام ، ووعدوه بالبقاء على ولائهم للدولة وعدم وضع العقبات فى طريقها ، وقد أراد جمال تهدئة مخاوف المسيحيين فى لبنان فأعلن أن المقصود بأعداء الدين هم الإنجليز والفرنسيون والروس ، أما مواطنونا غير المسلمين فهم إخواننا فى وطن مشترك ومصالح مشتركة وسوف نعاقب بمنتهى الشدة من يحاول الإضرار بهم[١].

ولكن لم تلبث سياسة جمال أن انقلبت إلى البطش والقمع ، خصوصاً وأنه فى ذلك الوقت كانت القوات البريطانية قد نزلت فى غاليبولى ، وفى الوقت نفسه كانت هناك حملات فى الصحف المصرية بأقلام بعض أعضاء اللامركزية مثل رفيق العظم فى مايو (أيار) ١٩١٥ ضد الحكومة العثمانية حتى لقد عرض عبد الكريم الخليل على جمال باشا أن يسافر إلى القاهرة لشرح سياسة جمال فى الشام لزعماء اللامركزية ، وكانت الحالة فى الشام غير مطمئنة بالنسبة لجمال فقد سحبت بعض القوات للدفاع عن الدردنيل ، وكانت تساوره المخاوف من احتمال نزول قوات متحالفة فى أى نقطة على الساحل بمساعدة القوى الوطنية الساخطة على الحكم التركى ممن كانوا على صلة بالدول الأجنبية[٢] ، ولذلك تذرع بوصول بعض الأنباء إليه عن مؤامرة تدبر ضد الحكم العثمانى . فشرع فى التنكيل بالعناصر الوطنية .

---

(١) Ibid pp. 198-9.

(٢) National Archives Washington : from U. S. Consul,

ولذلك فإنه إذا كانت الآراء فى الشام غير مستقرة بالنسبة لموقف العرب من الدولة العثمانية فى أثناء الحرب ، وإذا كان الاتجاه الذى يحبذ الاستمرار فى معاونة الدولة وتأييدها إنقاذاً للبلاد من الوقوع تحت السيطرة الأجنبية هو الاتجاه الأقوى ، فإنه بعد استفحال مظالم جمال ونصب المشانق التى راح ضحيتها الرعيل الأول من الشهداء الذين أعدموا فى ساحة البرج ببيروت فى الحادى والعشرين من أغسطس (آب) ١٩١٥ اتسعت شقة الخلاف بين العرب والترك ، وتغيرت نظرة العرب فى الشام ، واتفقوا على وجوب الثورة على الدولة من أجل الحصول على الاستقلال ، حتى أنه ليمكن القول بأن سياسة جمال باشا فى الشام كانت أحد العوامل الحاسمة التى دفعت معظم زعماء المسلمين إلى الاستقرار على وجوب الانسلاخ عن الدولة العثمانية .

وهكذا وجد الأمير فيصل — عندما وصل إلى دمشق من قبل أبيه — التربة صالحة للثورة على الترك ، وتأييد شريف مكة فى موقفه من الدولة العثمانية ، خاصة وأن القوميين السوريين وقد أيقنوا من صعوبة انطلاق الثورة العربية من الشام بسبب احتشاد القوات العثمانية فيها ، وبطش جمال باشا وتنكيله بمن يشك فى ميوله الوطنية من الزعماء السوريين ، ارتضوا أن تنطلق الثورة العربية من الحجاز كمركز رئيسى لها على أن يكون دورهم فى الشام دوراً مساعداً (١) .

وإزاء اشتداد الخلاف بين الشريف حسين ووهيب باشا والى الحجاز فى أوائل عام ١٩١٥ رأى الشريف أن يوفد الأمير فيصل لعرض وجهة نظره

Beirut. to Secretary of State Washington, Nov. 5. 1014 - enclosure from U. S. Consular Agent, Haifa, Nov. 5, 1914.

(١) د. عبد أنيس ; الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٨ .

على سلطات الآستانة ، ولكن المهمة الرئيسية التي كلفه بها كانت الاتصال بزعماء الجمعيات الوطنية في الشام والتعرف على وجهة نظرهم وموقفهم .

وفي أواخر مارس (آذار) ١٩١٥ وصل فيصل إلى دمشق في طريقه إلى الآستانة ، وفي دمشق استقبله جمال باشا بحفاوة ، ثم نزل في ضيافة آل البكرى في تمابون حيث استطاع أن يلتقي بالأعضاء البارزين في جماعة (الفتاة) وقد جرى تبادل وجهات النظر في حذر وحرص شديدين من الجانبين ، خصوصاً وأن فيصل كان يعتقد أن تأييد العرب للدولة العثمانية في محنتها سيجعل الترك يعطفون على العرب ولا يترددون في منحهم الاستقلال بعد الحرب ، وكان فيصل يستند في اعتقاده هذا إلى عدة اعتبارات ، منها خوفه من أطماع بريطانيا في جنوب العراق ، وأطماع فرنسا في الشام ، وهي أطماع معروفة للجميع ، كما أنه حتى ذلك الوقت لم تتضمن عروض بريطانيا أية ضمانات لتبديد مخاوف العرب ، كما كان فيصل يرى أن العرب غير مستعدين الاستعداد التام لإشعال ثورة ضد الترك يرجى لها النجاح ؛ وكانت وجهة نظر الأمير فيصل هذه تختلف اختلافا بينا عن وجهة نظر أخيه الأمير عبدالله الذي كان يحبذ الثورة اعتماداً على وعود بريطانيا ومساعدتها .

كما التقى فيصل ببعض زعماء (العهد) من العسكريين ولمس لديهم الرغبة في التخلص من الترك لولا خوفهم من الأطماع الأوربية .

وبعد أن ظهر لفيصل والزعماء الوطنيين أن الأماني واحدة والمخاوف واحدة زال التحفظ وأطلعوا فيصل على أسرارهم وأقسم يمين الولاء (للفتاة) وأبلغ الزعماء العرب بالعرض الذي تقدم به كتشنر لوالده . ثم ترك لهم دراسة الموضوع وواصل سفره إلى الآستانة لينفذ الجانب الظاهري من مهمته فوصلها في

الثانى والعشرين من أبريل (نيسان) [١].

واستغرقت زيارة فيصل للآستانة مايقرب من شهر ، واستقبله المسئولون الترك بحفاوة ، وأجرى معهم محادثات حول مشكلة واحدة ، أفهم فيصل أنه إذا أعلن الشريف تأييده للجهاد صراحة فإنه يمكن تسوية مسألة الحجاز، وعاد فيصل إلى دمشق فى الثالث والعشرين من مايو (آيار) ١٩١٥ فوجد أن الزعماء الوطنيين من أعضاء (العهد) و(الفتاة) قد أجمعوا الرأى على وجوب الثورة والاعتماد على مساعدة بريطانيا وقبول عرضها ، ووافقوا على أن يتولى الشريف حسين زعامتهم وقيادة الثورة ، ولكنهم وضعوا مخططا يتضمن المطالب التى أرادوا أن تكون أساساً لمفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم (بروتوكول دمشق) وأرفقت به خريطة تبين حدود البلاد العربية فى آسيا ، والتى كانوا يرون ضرورة حصولها على الاستقلال .

وقد نص (بروتوكول دمشق) على ما يأتى :

١ - تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة داخل الحدود التى تتمثل فى الشمال فى خط مرسين/اطنه إلى خط عرض ٣٧° شمالا ، ومنه على طول خط برجيك / أورفا / ماردين وجزيرة ابن عمر واماديا إلى الحدود الإيرانية ، وفى الشرق تتمثل فى الحدود مع إيران حتى الخليج . وفى الجنوب المحيط الهندى باستثناء عدن ، ومن الغرب البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين .

٢ — إلغاء الامتيازات الأجنبية التى كان يتمتع بها الأجانب فى نطاق نظام الامتيازات فى الدولة العثمانية .

---

(١) Antomius : Onv. Cit. p. 156.

٣ — إبرام تحالف دفاعى بين بريطانيا والدول العربية المستقلة .

٤ — منح بريطانيا الأفضلية فى النواحى الاقتصادية[١] .

ولبروتوكول دمشق أهمية كبيرة لما تضمنه — رغم إيجازه — من أسس للمفاوضات مع بريطانيا ، وإذا كان البرتوكول قد اشترط استقلال البلاد العربية داخل الحدود المذكورة فقد كان المقصود من هذا الاستقلال التحرر من الترك وعدم الوقوع تحت سيطرة حكم أجنبى آخر ، بل وإلغاء الامتيازات التى كانت تتمتع بها الدول الأجنبية فى هذه الأقطار باعتبارها أجزاء من الدولة العثمانية ، كما أن تفويض الزعماء العرب للشريف حسين التكلم باسمهم والاتفاق مع بريطانيا على هذه الأسس ، كان معناه أنهم لا يلتزمون بأى اتفاق يتم الوصول إليه على غير هذه الأسس وقد شاء الزعماء الوطنيون العرب أن يؤدوا لبريطانيا شيئاً مقابل معونتها لهم ، ورغبة فى تشجيعها على تأييدهم فى مطالبهم وذلك بعقد تحالف دفاعى معها وإعطائها الأولوية فى الشئون الاقتصادية وعدم المساس بالوضع القائم فى عدن .

ورغم ما جاء فى البند الثالث من رغبة فى عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة ، فإنه يلاحظ أن تكوين دولة عربية واحدة داخل كل المنطقة التى ذكرت حدودها لم ينص عليه صراحة ، إذ انه لم يكن من المعقول أن تتكون دولة واحدة فى كل المنطقة لأن المفاوضات دارت بين الأمير فيصل مندوبا عن الحجاز والزعماء العرب الممثلين للجمعيات الوطنية فى الشام والعراق ولم يشترك فيها ممثلون عن مناطق أخرى كاليمن وعسير ونجد . وما كان ينتظر أن يقبل هؤلاء التنازل عن استقلال أقاليمهم والاندماج فى دولة

---

(١) Ibid. pp. 157—8.

ويقول أنطونيوس أن هذه الشروط نقلها عن النص الذى عرضه عليه فيصل .

عربية واحدة ، بل يمكن القول بأنه رغم قبول زعماء الجمعيات الوطنية تولى شريف مكة قيادة الثورة ، فقد اختلفوا حـــول فكرة خضوعهم لنفوذ الشريف حسين الديني والدنيوي بعد الاستقلال ، فقد كان كثيرون يعتقدون أن ذلك أمر غير عملى لصعوبة جمع عرب الشام والعراق وشبه الجزيرة على الولاء لزعيم دنيوى واحد حتى ولو خضعوا لزعيم دينى واحد ، وحتى لو كان لديهم الاستعداد للاعتراف بزعيم دنيوى واحد من حيث المبدأ فإنهم سيختلفون حول اختيار هذا الزعيم (١) .

وأخيراً عاد فيصل إلى مكة فى العشرين من يونيو (حزيران) ١٩١٥ يحمل إلى أبيه (بروتوكول دمشق) وأنباء الجمعيات الوطنية فى الشام ، وفى تلك الأثناء لم تكن السلطات البريطانية فى مصر ساكنة بل استمر اتصالها ببعض الزعماء العرب مثل عزيز المصرى والسيد رشيد رضا ، على أمل إقناعهم بأن مستقبل بلادهم مرتهن بالتحالف مع بريطانيا ، ولكن هذه الاتصالات لم تصل إلى نتيجة إيجابية حيث أن الزعماء العرب أصروا على ضرورة الحصول على ضمانات لاستقلال البلاد العربية كشرط أساسى للثورة ولا شك أن موقف هؤلاء الزعماء كان يتم عن حصافة وبعد نظر ، ولم يكن أحد من المسئولين البريطانيين فى مصر فى مركز يسمح له بإعطاء الضمانات المطلوبة ما لم يصدر له تصريح من حكومة لندن (٢) .

وعلى كل حال فإن هذه الاتصالات نبهت المسئولين البريطانيين فى مصر إلى عدم جدوى محاولتهم كسب العرب ما لم تبذل وعود معينة لهم ، وقد

---

(١) Zeine : Arab-Turkish Relations. pp. 105—6.

(٢) Antonius ; Ouv. Cit pp. 159—160.

توصل سير ريجنالد ونجت إلى نفس النتيجة بعد أن استطلع رأى السيد على الميرغنى وغيره من الزعماء المسلمين فى السودان ولهذا عهدت الحكومة البريطانية إلى سير هنرى مكماهون ـ وقد تولى منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر منذ يناير (كانون ثان) ١٩١٥ — بإصدار تصريح فى يونيو (حزيران) ١٩١٥ —وفيه وعدت بريطانيا بأن تشترط عند إجراء الصلح ـ الاعتراف باستقلال شبه الجزيرة العربية وتمتعها بالسيادة الكاملة على الأماكن المقدسة، كما عبر التصريح عن استعداد الحكومة البريطانية للترحيب بإعلان خلافة عربية ، وقد أذيع التصريح وطبعت نسخ منه على شكل منشورات وزعت فى مصر والسودان وهربت نسخ منه إلى الشام ، كما قامت الطائرات البريطانية بإسقاط أعداد منه على مختلف مدن الحجاز .

ورغم أن هذا التصريح خطا خطوة أبعد من تأكيدات (كتشنر) فى الحادى والثلاثين من أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٤ حين وعد الشريف بالدفاع عن شبه الجزيرة العربية ضد أى اعتداء خارجى ، فضمن الاعتراف باستقلال شبه الجزيرة وتأمينها ، إلا أن التصريح مع ذلك — كان يهدف إلى تهدئة مخاوف المسلمين أكثر من إرضاء آمال العرب الوطنية ، ذلك أنه لم يتعرض لاستقلال بقية الأقطار العربية كالشام والعراق .

وعلى ضوء هذا التصريح لم يكن من الممكن أن يقدم العرب — وخاصة فى الشام والعراق — على التحالف مع بريطانيا ، حتى إذا قنع الشريف بهذا التصريح الذى يحقق مطالبه الأولى المتواضعة .

وحتى إقناع الشريف بالإنحياز إلى جانب بريطانيا وإعلان الثورة علنا على الحكم التركى فى الحجاز كان أمراً بالغ الصعوبة ، وذلك لوجود حاميات عثمانية فى بلاده ، ورغم أنها لم تكن قوية إلا أنها كانت مسلحة ومدربة

بما فيه الكفاية لإرهاب العرب الذين كان ينقصهم السلاح والتدريب ، كما أن نجم الحلفاء وخاصة بريطانيا لم يكن فى صعود فى ذلك الوقت ، فإن العرب كانوا يعلمون أن الترك قد دحروا البريطانيين فى غاليبولى عام ١٩١٥ وكبدوهم خسائر فادحة ، وأغاروا على مصر فى فبراير (شباط) ١٩١٥ ، ورغم فشل هذا الهجوم التركى فقد ظل الخطر يتهدد مصر مما دفع بريطانيا إلى إبقاء قوات كبيرة فيها كان من الممكن استخدامها فى ميدان آخر ، وكان السنوسيون فى غرب مصر ، وعلى دينار فى جنوبها يظهرون التحدى لبريطانيا ، وفى الأطراف الجنوبية من شبه الجزيرة العربية كانت القوات التركية فى اليمن تهاجم عدن ، واستطاعت احتلال لحج ، وتقدمت حتى أصبحت على مسيرة أميال قليلة من عدن ورغم التقدم الذى أحرزته الحملة البريطانية على جنوب العراق فلم تلبث الحملة أن مرت بظروف عصيبة ، إذ ارغم الترك الجنرال (تاونسند) Townshend فى أبريل (نيسان) ١٩١٦ على التسليم فى الكوت وأصبحت القوات البريطانية تقف موقف الدفاع .

وعلى الرغم من أن الشريف كان على علم بقوة بريطانيا البحرية وسيطرتها على البحر الأحمر على وجه الخصوص واحتفاظها بقوات كبيرة فى مصر إلا أنه لم يكن متأكداً مما إذا كانت ستكسب الحرب ، وكان يرى فى الثورة مغامرة لن تفقده شيئاً ، فإنه بعد أن بدأت الثورة فى الحجاز استدعى الشريف حسين نورى السعيد من القاهرة إلى مكة ، وقبل رحيله ذهب نورى السعيد لمقابلة سعد زغلول وعبر له عن شكوكه ومخاوفه ، ولكن سعداً أقنعه بأن البلاد العربية لم يكن لها فى ذلك الوقت كيان سياسى يخشى عليه من الضياع ، وبذلك لن تكون فى الثورة مغامرة خاسرة ، وأن العاملين من أجل استقلال العرب وسيادتهم القومية إنما هم رواد سيصبحون فى عداد الشهداء[١] .

---

(١) Zeine ; Struggle for Arab Independence p. 214.

ثم اقتنع الشريف حسين بما سبق واقتنع به نوري السعيد ، إذ وجد في الحرب فرصة يجب انتهازها ، فإذا انتهت بانتصار الألمان والترك فإن البلاد العربية ستعود إلى وضعها القديم دون أن تخسر شيئاً سوى أرواح أولئك الذين ثاروا لتحقيق أماني البلاد ، أما إذا انتصر الحلفاء فقد كان ثمة أمل في الحصول على بعض المكاسب .

هذه هي الأفكار التي كانت تدور في رأس الشريف حسين والزعماء العرب وأخيراً قرروا الإقدام على المغامرة ، وفي وسط المتاعب التي كانت تشغل بال المسئولين البريطانيين تلقى سير هنري مكماهون مذكرة الشريف حسين الأولى والتي كانت فاتحة مايعرف باسم مراسلات الحسين / مكماهون[١] .

مراسلات الحسين مكماهون :

وتتكون من هذه المراسلات من عشر رسائل ، خمس منها بعث بها الشريف حسين إلى سير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر ، وخمس رد بها مكماهون على الشريف حسين .

أما مذكرة الشريف حسين الأولى إلى سير هنري مكماهون فقد كانت بتاريخ الرابع عشر من يوليو (تموز) ١٩١٥ ، صدرت من مكة ونقلها سراً مبعوث كان موضع ثقة الشريف وهو الشيخ عارف بن عريفان[٢] ولم تكن تحمل توقيعاً إمعاناً في الحيطة والحذر ، وأرفق بها خطاباً من الأمير عبد الله بنفس التاريخ (٢ رمضان ١٣٣٢ هـ = ١٤ يوليو — تموز — ١٩١٥) إلى ستورز Storrs وقد تضمنت المذكرة شروط العرب للإنضمام إلى بريطانيا ، إذ أنه بعد التعبير عن عزم الشعب العربي وتصميمه على نيل الاستقلال وحريته

(١) Wingate Ouv Cit p. 186.
(٢) Storrs, Ouv. Cit. p. 180.

السياسية ، وإيمان العرب بالمصالح البريطانية والعربية المشتركة أخذ الشريف في مذكرته يعرض الشروط التي يستطيع — نيابة عن الشعب العربي — أن يدخل على أساسها في تحالف مع بريطانيا من أجل تحقيق الأهداف العربية .

وكانت هذه الشروط هي :

(١) أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية من مرسين / اطنه إلى خط ٣٧° شمالا حتى الحدود الفارسية على طول خط بيرجك ، أورفا ، ماردين ، مديات ، جزيرة ابن عمر ، أماديا ، هذا في الشمال أما في الشرق فتمتد من الحدود الفارسية حتى خليج البصرة ، وفي الجنوب المحيط الهندي باستثناء عدن التي تظل كما هي ، وفي الغرب البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين . على أن توافق بريطانيا كذلك على إعلان خليفة عربي على المسلمين .

(٢) تعترف حكومة الشريف العربية بالأفضلية لبريطانيا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية ، إذا كانت الشروط متساوية .

(٣) تتعاون الحكومتان البريطانية والعربية في مواجهة كل اعتداء على أحد الطرفين على أن يكون التعاون شاملا .

(٤) إذا قام أحد الطرفين بالهجوم على بلد ما فإن الطرف الآخر يلزم الحياد ، إلا إذا رغب الفريق المهاجم في اشتراك الطرف الآخر معه ، فمن الممكن الاتفاق على شروط هذه المساعدة .

(٥) توافق بريطانيا على إلغاء الامتيازات في البلاد العربية وتتعهد بمساعدة الحكومة الشريفية في الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي لإقرار هذا الإلغاء .

(٦) حددت مدة الاتفاق فيما يختص بالبندين ٣ و ٤ بخمس عشر سنة وإذا شاء أحد الطرفين تجديدها فعليه أن يبلغ الطرف الآخر قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

وفى ختام هذه المذكرة طلب الشريف حسين من الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجابا خلال ثلاثين يوما من وصول هذه المقترحات ، وأنه إذا انقضت هذه المدة ولم يتلق رداً من الحكومة البريطانية فإنه يحتفظ لنفسه بحرية التصرف (١) .

ويلاحظ أن الشروط الواردة فى هذه المذكرة كأساس لقبول الشريف التحالف مع بريطانيا هى نفس الشروط التى وردت فى بروتوكول دمشق ، مع إضافة البند الخاص بالخلافة والبند الخاص بمدة سريان البندين ٣ و ٤ الخاصين بالمعونة المتبادلة بين العرب وبريطانيا لمدة خمسة عشر عاما .

أما الأمير عبد الله فإنه فى خطابه إلى ستورز ، لم يناقش الشروط التى تضمنتها مذكرة والده ، ولكنه طلب رفعها إلى الجهات المختصة ، واقترح أنه ما دام العرب قد استقر رأيهم ووجدوا أن مصالحهم تتفق ومصالح بريطانيا فإنه لا داعى لتوزيع منشورات الدعاية فى شبه الجزيرة العربية

وقد رد سير هنرى مكماهون على رسالة الشريف الأولى فكتب من القاهرة بتاريخ ١٩ شوال ١٣٣٣ هـ = ٢٠ أغسطس (أب) ١٩١٥ إلى الشريف حسين « أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ، ومحط آمال المؤمنين الطائعين » . وقد استهل مكماهون رسالته بشكر الشريف على إظهار عاطفة الإخلاص نحو بريطانيا مؤكداً ما سبق أن عبر عنه كتشنر من « رغبتنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استحسانا لفكرة الخلافة العربية عند إعلانها » أما بخصوص مسألة الحدود فقد كان مكماهون يرى أن بحث هذه المسألة أمر سابق لأوانه ،

---

(١) الأمانة العامة لجامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ص ٦-٨ أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى جـ ١ ص ١٣١/١٣٢ .

والبحث فيه مضيعة للوقت حيث أنها من قبيل التفاصيل ، خصوصاً وأن الحرب لا زالت دائرة الرحى ولأن الأتراك لا يزالون يحتلون أغلب تلك الجهات احتلالا فعليا وأورد مكماهون سبباً آخر هو ما علمه من أن فريقا من العرب القاطنين فى تلك الجهات قد أهمل هذه الفرصة الثمينة ولا يرغبون فى مساعدة بريطانيا بل ويقدمون يد المساعدة إلى الألمان والترك واختتم مكماهون خطابه بالتعبير عن استعداده لإرسال الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية[١] .

ولاشك أن رد سير هنرى مكماهون كان محاولة للتخلص بامتناعه عن إبداء رأيه بالقبول أو الرفض فى الشروط التى بعث بها الشريف ، ويعلل أنطونيوس هذه الميوعة فى الرد إلى أنه حتى ذلك الوقت لم يكن مكماهون ومستشاروه على علم بمضمون محادثات فيصل فى دمشق ولم يعرفوا شيئاً عن جماعة الفتاة وكانت فكرتهم عن جماعة العهد غير واضحة ، وكانوا يعتقدون أن الحسين يتحدث عن نفسه فحسب ، وأنه يفعل من أجل أغراضه الخاصة وأنه بذلك يمكن كسبه بالوعد بالاعتراف به كخليفة والتلويح له بأمل غامض عن استقلال العرب . وقد علم الإنجليز بهذه الأمور بعد ذلك ، وعلى كل حال فإن مذكرة مكماهون هذه لم تقع موقع القبول من الشريف حسين[٢] .

ولذلك فإنه سرعان ما بعث الشريف حسين برسالته الثانية إلى مكماهون بتاريخ التاسع والعشرين من شوال ١٣٣٣ هـ = ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٥١ وكانت هذه الرسالة أكثر تفصيلا من الأولى ، وفيها عبر الشريف عن دهشته إزاء « الغموض والتردد » اللذين ضمنهما (سير هنرى مكماهون) كتابه فيما

---

(١) الأمانة العامة لجامعة الدول العربية : المرجع نفسه ص ٩ .
أمين سعيد : المرجع نفسه ص ١٣٢/١٣٣ .
Antonius. Ouv. Cit pp. 415 -6 (Appendix A).
(٢) Autonius. Ouv. Cit. pp 165—7.

يتعلق بالحدود وقوله بأن البحث فى هذه الشئون إنما هو إضاعة للوقت ، وأن تلك الأراضى لا تزال بيد الترك ، واعتبر الشريف أن هذا كله يدل على الإحجام وقال إن هذه الحدود ليست مطلب رجل فرد يمكن إرضاؤه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته مرتبطة بهذه الحدود ، وهو يجمع رأيه على ذلك ، وأن هذا ما جعل الشعب يرى ضرورة بحث هذه المسألة قبل كل شىء مع الدولة التى يثقون فيها كل الثقة ويعلقون عليها الآمال ألا وهى بريطانيا ، وأن هذا الإلحاح إنما هو من أجل المصالح المشتركة لأن معرفتهم بالأساس الذى يقيمون عليه حياتهم سيحول دون اصطدامهم ببريطانيا أو إحدى حليفاتها ، وأضاف الشريف حسين أن العرب لم يطالبوا داخل هذه الحدود بمناطق يسكنها شعب أجنبى وأكد أنه لا يطالب لنفسه بهذه الحدود التى يعيش داخلها العرب بل هى مقترحات شعب بأسره ، يعتقد أنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية وأن كل الشعب بما فيه أولئك الذين يقال أنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ، ينتظرون بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على الموافقة على مسألة الحدود أو رفضها . أما عن الخلافة فقد قال الشريف « إن الله يرضى عنها ويسر الناس بها » .

ويبدو أن الشريف حسين أحس بأن تردد بريطانيا وتهرب مكماهون من بحث مسألة الحدود يرجع إلى مراعاة بريطانيا لمصالح حليفتها فرنسا فى الشام ، ولذلك فإنه ألمح فى خطابه إلى مكماهون بأنه سيطالب بريطانيا فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما يدعه لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، رغم تأكيده بأنه لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة فى هذه المنطقة [١] .

---

(١) جامعة الدول العربية : المرجع السابق ص ١١—١٣ .
أمين سعيد : المرجع السابق ج ١ ص ١٣٣/١٣٥ .
Antonius : Ouv. Cit. pp. 416—18 (Appendix A).

وهكذا تعين على مكماهون والسلطات البريطانية التى توجهه أن يحددوا ردهم التالى ، وفى خلال ذلك كان مكماهون ومستشاروه قد وصلتهم معلومات أكثر عن الأقطار العربية الأخرى والنشاط القومى العربى مما أدى فى رأى البعض إلى تعديل موقفهم إزاء المطالب التى تقدمها الشريف حسين ، ذلك أن ضابطا عربيا فى الجيش التركى هو محمد شريف الفاروقى (العراق) وصل إلى القاهرة فى أوائل أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٥ بعد أن وقع أسير حرب فى أيدى القوات البريطانية فى جبهة غاليبولى ، وعندما استسلم للبريطانيين أعلن أن لديه معلومات هامة يريد أن يفضى بها، وطلب نقله إلى القاهرة حيث ذكر أنه عضو بجماعة العهد وأنه من العاملين من أجل تحرير العرب واستقلالهم . ورغم أن الفاروقى لم يكن مبعوثا من لدن جماعة العهد إلا أنه كان على علم تام بتنظيم الجمعية وأهدافها ، وكذلك عن جمعية الفتاة ، ولديه الكثير من المعلومات عن مشاعر أعضائهما واتجاهاتهم ، ووثق فيه المسئولون البريطانيون حتى اعتبروه شبه متحدث باسم الجمعيتين ، وقد أبلغ السلطات البريطانية بالكثير مما كانوا يجهلونه عن حقيقة المشاعر بين العرب فى الشام والعراق ، مما كان له أبلغ الأثر على موقف مكماهون ومستشاريه بحيث صار لديهم — عندما وصلت رسالة الشريف الثانية — من المعلومات ما جعلهم أكثر تقديراً وفهما للموقف عن ذى قبل ، مما جعل مكماهون أكثر تحديداً لموقفه فى رده على رسالة الشريف الثانية[1] .

ويذكر (لويد جورج) أنه بعد أن بعث الشريف بخطابه الذى أوضح فيه أهمية تحديد الحدود استطلع مكماهون رأى حكومته التى اصلت فوراً

---

(١) رسالة الفاروقى إلى الشريف حسين بتاريخ ٢٧ محرم ١٣٣٤ هـ ■ أوائل ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ ق :

محمد طاهر العمرى : تاريخ مقدرات العراق السياسية (١٩٢٥) جـ١ ص٢١٩/ ٢٢١ ، ٢٣٤ — ٢٣٦ .

بمسيو بول كامبون Paul Cambon سفير فرنسا فى لندن ، وعلى ضوء هـذه المباحثـات بعث (مكماهون) برده فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٥ إلى الشريف[1] .

يعتبر الرد الذى بعث به مكماهون على رسالة الشريف الثانية والذى حمله رسول الشريف الشيخ عارف بن عريفان أهم هذه المراسلات بل وأهم الوثائق المتصلة بالحركة القومية لأنها تتضمن الوعود التى جذبت العرب إلى جانب بريطانيا وصارت موضع نزاع فى السنوات التى أعقبت الحرب ، وهى التى يستند إليها العرب فى اتهام بريطانيا بخلاف وعودها لهم .

وكانت رسالة مكماهون هذه بتاريخ ١٥ ذوالحجة ١٣٣٣ هـ (٢٤ أكتوبر ـ تشرين أول ١٩١٥) وقد بدأها بأن أكد للشريف أن عزوفه السابق عن بحث مسألة الحدود كان مبعثه الاعتقاد بأن الوقت لم يحن بعد لمناقشة مثل هذا الموضوع بصورة نهائية ، ولـكن ما دام الشريف يعتبر هذه المسألة من المسائل الحيوية الملحة فقد « أبلغت حكومة بريطانيا مضمون كتابـكم وانى بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية » .

وأخذ مكماهون يسرد التأكيدات التى كانت بريطانيا فى ذلك الوقت على استعداد لإعطائها للعرب، فذكر أن ولايتى مرسين والاسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية من مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية خالصة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المقترحة ، وأنه بهذا التعديل ، وبدون الإضرار بالمعاهدات المعقودة بين بريطانيا وبعض رؤساء العرب تعلن بريطانيا قبول الحدود المقترحة حيثما

---

(١) Lloyd George : The Truth about the Preace Treaties, Vol. II (1938) p. 1019.

تكون بريطانيا مطلقة التصرف أى أنه فى المناطق الواقعة داخل هذه الحدود والتى تستطيع بريطانيا أن تتصرف فيها بحرية ودون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإن مكماهون مفوض من قبل الحكومة البريطانية بتقديم المواثيق التالية :

١ - مع مراعاة التعديلات المذكورة آنفاً فإن بريطانيا مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتأييد هذا الاستقلال فى جميع الأقاليم الداخلة ضمن الحدود التى اقترحها شريف مكة .

٢ — إن بريطانيا تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوجوب حمايتها من أى اعتداء .

٣ — وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العرب بنصائحها وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة .

٤ — والمفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا وحدها وأن المستشارين والموظفين الأوربيين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قوية يكونون من الإنجليز .

٥ — أما بخصوص ولايتى بغداد والبصرة فإن العرب يعترفون بأن مصالح بريطانيا هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية خاصة لحماية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبى وزيادة خير سكانها وحماية المصالح الاقتصادية المشتركة .

واعتبر مكماهون أن هذا التصريح كفيل بإزالة أى شك وارتياب فى تأييد بريطانيا لرغبات العرب ، وسوف يؤدى إلى عقد محالفة دائمة وطيدة يكون من نتائجها العاجلة طرد الأتراك من البلاد العربية وتحرير الشعوب

العربية من النير التركى(١)

ويلاحظ من رد مكماهون أن المناطق التى شملها التحفظ كانت :

(ا) مرسين واطنة والساحل السورى غربى دمشق حمص حماه حلب بدعوى أنها غير عربية .

(ب) المناطق التى فيها مصالح لفرنسا ولابد أن المسئولين البريطانيين كانوا يقصدون بها الشام بمعناه الواسع .

(ج) بغداد والبصرة لوجود مصالح لبريطانيا فيهما .

(د) المناطق التى يرتبط أمراؤها ببريطانيا بمعاهدات مثل الكويت وقطر ونجد وعسير والمنطقة المجاورة للبصرة .

وهذه المناطق التى شملتها التحفظات البريطانية تغطى مساحة كبيرة من المنطقة التى كان الشريف يطالب بالاعتراف باستقلال العرب فيها ، وباستبعاد مناطق التحفظات البريطانية فإن المنطقة الباقية تقتصر على الحجاز وبذلك لا يمكن أن تلبى مطالب العرب فى الحرية والاستقلال .

ورداً على تحفظات مكماهون بعث الشريف حسين برسالة بتاريخ الخامس من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ (٢٧ ذى الحجة ١٣٢٣ هـ) وافق فيها على استبعاد مرسين واطنة من الدولة العربية رغبة فى تذليل الصعوبات فى وجه الاتفاق وخدمة لقضية اسلام وتقديراً لبريطانيا، ولكنه

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. p. 419 (App. A).
Zeine : Struggle for Arab Independence (صورة زنكوغرافية)
جامعة الدول العربية : المرجع السابق ص ١٤ — ١٦ .
أمين سعيد : المرجع السابق ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

ورفض استثناء مناطق الساحل السورى الواقعة غربى دمشق - حمص - حماه - حلب لأنها أقاليم عربية محضة ، ولا فرق بين العربى المسيحى والمسلم فإنهما أبناء جد واحد ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ماسلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الإسلامى ، ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين معاملتهم لأنفسهم ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ،علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة » .

كما أنه رغبة فى تسهيل الاتفاق وثقة فى العهود التى قطعتها بريطانيا فى البند الخاص بولايتى بغداد والبصرة فقد أعرب الشريف عن موافقته على ترك الأراضى التى تحتلها القوات البريطانية تحت إدارة بريطانيا لقاء مبلغ من المال يدفع عن الاحتلال العسكرى البريطانى لهذه المنطقة ، على أن تكون فترة الاحتلال قصيرة وأعرب الشريف كذلك عن رغبته فى احترام اتفاقيات بريطانيا مع مشايخ هذه المنطقة . وعبر الشريف عن مخاوفه من الإسراع فى إعلان الثورة خشية لوم المسلمين له واتهامه بشق عصا الطاعة على دولة الخلافة وخوفا من الوقوف فى وجه قوى الدولة العثمانية تعضدها ألمانيا ، وهو هنا يحاول أن يجعل بريطانيا تفصح عن خطتها لشد أزر الثورة عند قيامها، وكذلك عند عقد الصلح بتأييد العرب فى مواجهة تركيا وألمانيا(١) .

وفى الثالث عشر من ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ (التاسع من صفر ١٣٣٤ هـ) بعث مكماهون برده على خطاب الشريف حسين ، ويخيم على خطاب مكماهون هذا الغموض والإبهام والإيجاز ، فقد عبر عن ارتياحه لموافقة الشريف على استثناء أطنة ومرسين ، ولكنه فى نفس الوقت تمسك

---

(١) جامعة الدول العربية : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ .
أمين سعيد : المرجع السابق ص ١٣٨/١٣٩ .
Antonius : Ouv. Cit. pp. 421—3 (App. A)

بتحفظه الخاص بالمناطق الساحلية من الشام لا على أساس أنها مناطق غير عربية خالصة كما ذكر من قبل ولكن على أساس ارتباطها بمصالح فرنسا حليفه بريطانيا ، ومن هنا اعتبر مكماهون أن الأمر يحتاج إلى بحث وعناية ، ووعد مكماهون الشريف بأنه سيخابره بهذا الخصوص فى الوقت المناسب ، كما عبر مكماهون عن استعداد بريطانيا لإعطائه كل الضمانات والمساعدات التى يمكنها تقديمها إلى المملكة العربية ، وأن بريطانيا لا تنوى إبرام أى صلح إلا إذا كان من بين شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سيطرة الأتراك والألمان .

أما فيما يختص بالعراق فقد ذكر مكماهون أن مصالح بريطانيا فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة مستقرة ، وأن صيانة هذه المصالح تتطلب بعض التنظيمات التى تستلزم نظراً أدق (مباحثات أخرى) لا تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التى تجرى بها المفاوضات . وأعرب مكماهون عن موافقته على حذر الشريف فى إعلان الثورة ، ولكنه يلح عليه من أجل العمل على إثناء العرب عن مد يد المساعدة إلى أعداء بريطانيا[1] .

بعث الشريف حسين بمذكرته الرابعة إلى مكماهون بتاريخ أول يناير (كانون ثانى) ١٩١٦ = ٢٥ صفر ١٣٣٤ هـ ، وكان الشريف فى ذلك الوقت قد تلقى ـ قبل شهر ـ تقديراً ضافيا من محمد شريف الفاروقى عن المحادثات التى أجراها مع المسئولين البريطانيين فى القاهرة .

وإزاء إصرار بريطانيا على موقفها وتمسكها بتحفظها الخاص بالأجزاء

---

(١) جامعة الدول العربية : المرجع السابق ص ١٩ — ٢٠ .
أمين سعيد : المرجع السابق جـ ١ ص ١٤٠ — ١٤١ .
Antonius, Ouv. Cit. pp. 423 - 4 .

الساحلية من شمال الشام وجد الشريف حسين نفسه فى مأزق ، فهو من ناحية تواق إلى التحالف مع بريطانيا من أجل تحقيق مصالحه الخاصة فى الحجاز ، ومن ناحية أخرى فإن الاقتراح الخاص باستثناء جزء من الشام من منطقة استقلال العرب كان اقتراحا لا يملك الموافقة عليه ، وقد وجد لنفسه مخرجاً من هذا المأزق بالتأجيل أو التعليق فأعرب فى خطابه إلى سير هنرى مكماهون أنه «رغبة فى عدم الإساءة إلى العلاقات بين بريطانيا وفرنسا فى المحن الحالية ، سيغض الطرف مؤقتا ثم يطالب بريطانيا بما يغض الطرف عنه لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، وأخذ يبين للمسئولين البريطانيين أن جوار فرنسا للعرب سيكون مصدراً للمشاكل مما يؤدى إلى عدم استقرار الحال ، وأن أهل بيروت يعارضون بشدة انفصالهم عن إخوانهم العرب وأشار الشريف إلى أنه إذا كان الذى دفعه إلى هذا التأجيل هو الرغبة فى تحاشى تكدر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا والحرب دائرة الرحى ، فإنه من المستحيل التنازل لفرنسا عن أى شبر من الأرض فى هذه المنطقة ، وأنه سوف ينتهز أقرب فرصة عقب انتهاء الحرب لكى يدافع عن حق العرب فى كل الشام »[1] .

ومن العجيب أن يؤجل الشريف حسين البت فى مصير هذه المنطقة من الشام ، وهذا التأجيل يتناقض مع إصراره السابق على الوصول إلى اتفاق نهائى محدد ، فصار يكتفى بالحصول على موافقة بريطانيا على مبدأ الاعتراف باستقلال العرب ، أما مسألة الإدارة الإنجليزية العربية المشتركة فى العراق ، وكذلك مسألة المصالح الفرنسية فى الساحل السورى فقد تركهما الشريف معلقتين ، معتقداً أن وضوح حق العرب وعدالته كفيلان بانتصارهم دون أن يحسب أى حساب للمصالح الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية التى كانت مثار خوف كثير من الزعماء الوطنيين .

---

(١) جامعة الدول العربية : المرجع السابق ص ٢١ — ٢٢ .
أمين سعيد : المرجع السابق ج ١ ص ١٤١ .
Antonius : Ouv. Cit, pp. 424—6.

ولكن ما السبب الذى دعا الشريف إلى تأجيل البت فى هذه المسائل الهامة ؟ هل هو — كما يقول أنطونيوس — إيمان الشريف حسين بشرف بريطانيا فاكتفى بما حصل عليه من تأكيدات خاصة بالمسألة الرئيسية وهى الموافقة على استقلال العرب ، مع ترك المسائل الثانوية إلى تسوية مقبلة ؟[١]

من المعتقد أن الشريف حسين كان يظن أن بريطانيا ان تتخلى عنه من أجل فرنسا ، بل ستأخذ جانبه . ولكن بعد أن تضع الحرب أوزارها ، لأن ذلك سيكون فى مصلحة بريطانيا وفرنسا ، وعلى الرغم من أنه لم يعد لإثارة الموضوع مرة أخرى فى المراسلات إلا أنه — كما يعترف (لويد جورج) — لم يتنازل عن مطالبه ، بل على العكس ظل متمسكا بها ، وعبر عن ذلك فى خطاب كتبه إلى ابنه الشريف على فى ٢٦ مايو (آيار) ١٩١٦ أى قبيل نشوب الثورة فى فى الحجاز إذ اختتم خطابه بقوله : « إن الله لا ينسى الاسكندرونة وبيروت والمناطق المجاورة[٢] » .

وما من شك فى أن أى سياسى حصيف ما كان ليجازف بالدخول فى حرب وإعلان ثورة على دولة الخلافة ويزج بنفسه وبلدان المشرق العربى فى هذا الموقف الدقيق قبل أن يحصل على ضمانات مؤكدة قاطعة ، لا بأوهام واهية ، خصوصاً وقد اشترط بروتوكول دمشق على الشريف موافقة بريطانيا على شروط معينة ، ولذلك فإن أى تعديل فى هذه الحدود أو فى الشروط الواردة فى بروتوكول دمشق يعتبر خروجا عليه وغير ملزم للعرب ، ولربما كان هذا من أسباب حنق كثير من عرب الشام على الأشراف ومعارضتهم لإدماج الشام والحجاز فى دولة واحدة يحكمها الأشراف .

---

(٢) Antonins : Ouv. Cit. pp. 174—5.

(١) Lloyd Geo ge : The Truth ...... Vol. II pp. 1020—21.

ولقد رحب السير هنرى مكماهون بهذا الموقف من جانب الشريف ، ولذلك بعث إليـــه فى الثلاثين من يناير (كانون ثان) ١٩١٦ = ٢٤ ربيع أول ١٣٣٤ هـ برسالة امتدح فيها الشريف ورغبته فى تجنب كل ما من شأنه إحراج بريطانيا فى علاقاتها مع فرنسا ، وفى نفس الوقت أعلن مكماهون للشريف أن صداقة بريطانيا وفرنسا ستقوى وتتوطد حتى بعد انتهاء الحرب بعد أن بذلت الدولتان الدماء معا فى سبيل الدفاع عن الحريات . وقد كانت هذه الإيماءة كافية لتحذير الشريف حتى لا يعلق الآمال على احتمال مساعدة بريطانيا له بعد الحرب لانتزاع السواحل السورية من براثن فرنسا ، ومع هذا فقد ظل الشريف يعلق الآمال على مساعدة بريطانيا له ضد فرنسا بعد الحرب ، ولا شك أن هذه الآمال قويت لديه بجهود بعض المسئولين البريطانيين فى القاهرة ممن كانوا ضد ازدياد نفوذ فرنسا فى الشرق ، كما سيظهر فى أثناء تتابع الحوادث فيما بعد .

وقد اعترف (انطونيوس) بأن هذه الإشارة من جانب مكماهون كانت مقصودة لكى يفهم الشريف أنه فى حالة تمسك فرنسا بمطالبها فى الشام فإن بريطانيا لا تستطيع أن تقدم أى ضمان للشريف بأن هذه الأجزاء من الشام والتى استثنيت من المنطقة العربية التى وعدت بالاستقلال فى رسالته فى ٢٤ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٥ سوف تنتزع من فرنسا لإعادتها إلى الدولة العربية المستقلة[١] .

وبذلك يمكن القول بأن المحادثات بين الشريف حسين وسير (هنرى مكماهون) وقد وصلت إلى نهايتها واعتبر كل من الطرفين أن المساومة قد انتهت رغم أن الشريف حسين بعث برسالة خامسة وأخيرة بتاريخ الثامن عشر

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. p. 176.

من فبراير (شباط) ١٩١٦ = ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ هـ إلى سير هنرى مكماهون الذى رد برسالة بتاريخ العاشر من مارس (آذار) ١٩١٦ = ٦ جمادى الأولى ١٣٣٤ هـ إلا أن هذه المراسلات كانت تتصل بالاستعدادات للثورة ولم تضف شيئاً جديداً أكثر من تجديد مظاهر الإخلاص المتبادل والتمسك بنصوص الاتفاق البريطانى العربى .

وإذا كانت آمال الشريف حسين فى أثناء اتصالاته المبكرة بالمسئولين البريطانيين — محدودة ومقصورة على الحجاز والرغبة فى تدعيم مركزه فيه واستقلاله به ، فإن هذه الآمال — كما يبدو من مراسلاته مع مكماهون لم تلبث أن اتسعت لتشمل الشام والعراق ، وذلك بعد أن لمس — عن طريق ابنه فيصل ، وعن طريق الضابط السورى فوزى البكرى - ازدياد كراهية عرب الشام لحكم الاتحاديين، فاصبح الشريف حسين يعتقد أنه يمكن الاعتماد على أهالى الشام والعراق من أجل تحقيق آماله الواسعة ، بالثورة على الخلافة العثمانية ، علما بأن هذه المعونة من جانب عرب الشام والعراق كانت ضرورية ولم يكن الشريف يستطيع العمل بدونها خصوصاً وأنه لم يكن يتوقع أن يجد عونا من المصريين حيث كان الشعور مواليا لترك ومعاديا لبريطانيا .

ولا شك أن تدعيم سلطة الشريف فى الحجاز فقط لم تعد مكافأة مجزية له على الثورة ضد الخلافة وإعلان الحرب عليها وهى حرب لم تكن نتيجتها مؤكدة ، واشتراكه فى القضاء على الدولة الإسلامية الكبرى ، ولذلك لن يقبل أن يكون مجرد تابع لبريطانيا ، إنه يعتقد — كما يقول بيل - أنه يجب أن يبرىء نفسه فى أعين كافة المسلمين، وذلك بأن يقيم هو دولة إسلامية تشمل إلى جانب الحجاز شمال العراق وداخل الشام على أساس أنه يمكن ترك جنوب

العراق لبريطانيا والساحل السورى لفرنسا مؤقتاً ، لأن المسلمين الذين رحبوا بثورته لأنهم وجدوا فيها خلاص العرب من نير الحكم الأجنبى التركى لن يرحبوا برؤية مسلمى العرق والشام يخضعون لحكم دولة مسيحية ، وشبه الجزيرة العربية ذاتها تحت نفوذ بريطانيا .

ولقد اقتبس (ييل Yale) فى تقريره هذا فقرة من النشرة العربية Arab Bulletin لسرية فى عددها الصادر فى يونيو (حزيران) ١٩١٦ جاء فيها أن النتيجة التى أسفرت عنها المحادثات هى أن الحكومة البريطانية إعبرت عن رغبتها فى رعاية استقلال المطاقة العربية مع التحفظ فى مسألة الحدود ، وعلى الخصوص رفض الالتزام بشىء يتصل بغرب الشام وجنوب العراق . أو شكل الحكومة التى سوف تقام فى مختلف جهات المنطقة التى ستحصل على الاستقلال .

ويستطرد (ييل) فيذكر أن الشريف حسين لابد وأنه أفصح عن آماله بصورة عامة للمسئولين البريطانيين ولعله لقى منهم نوعاً من التشجيع[١] .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض المراقبين ممن كانوا يراقبون الأحداث فى الشرق العربى عن كثب فى أثناء الحرب ، أيقنوا أن الحكومة البريطانية كانت تشجع الشريف حسين وتشمله برعايتها على الرغم من أنها تعلم تماماً أن له أطماعاً واسعة فى الشام والعراق ، بتأييد بعض السوريين الوطنيين ، إلا أن بريطانيا كانت تراقب الشريف بدقة حتى لاتخرج هذه الأطماع عن أيديها وسيطرتها ، وكان المسئولون البريطانيون يعتقدون أن الشريف سوف يصطدم بمعارضة السوريين أنفسهم دون تدخل من جانب بريطانيا ، هذا من ناحية الشام ، أما من ناحية العراق . فإن احتلال البريطانيين لهذا القطر كان

(١) Yale's Rep. no. 22 (April. 8, 1918) « Charifian Force and Cherifian politics » National Archives' Washington' pp. 13 – 15

من شأنه أن يحول دون وقوعه تحت سيطرة الشريف وهكذا تنحصر سيطرة الشريف من تلقاء نفسها فى شبه الجزيرة العربية[١] بل والحجاز فقط .

وقد كتب سير وند هام ديدس Windham Deedes فى فبراير (شباط) ١٩١٦ « إننا نتفاوض مع جماعة الشريف على أساس إقامة ملكية عربية روحية وزمنية ، وهذا مايريده الشريف ، ويعتقد معظمنا أن هذا ليس أمراً عملياً لأنه ليس من الممكن جعل كل عرب الشام والعراق واليمن وغيرهم يعترفون برئيس زمنى واحد ، إن نفوذ شريف مكة يمكن أن يكون مقبولا فى بعض البلاد المذكورة دون البعض الآخر »[٢] .

كما أعرب هؤلاء المراقبون عن اعتقادهم بأن بريطانيا بمحاولتها كسب الشريف إنما تسعى إلى هدفين أحدهما قريب ألا وهو مواجهة تأثير الحرب الدينية التى أعلنها الخليفة العثمانى السلطان محمد رشاد ، وتهدئة المسلمين داخل الإمبراطورية البريطانية وخارجها ، وكسب ولاء عرب الشام والعراق ، وضمان معونة القبائل التى تسكن على جانبى القوات البريطانية فى العراق وسينا ، لأنه إذا اتخذت هذه القبائل موقفاً معادياً من البريطانيين فإنها ستكون شديدة الخطورة وعائقاً فى وجه تقدمهم بل وخطراً يتهدد مواصلاتهم ، بينما كأصدقاء تستطيع هذه القبائل حماية جناحى البريطانيين

أما الهدف البعيد الذى كان البريطانيون يسعون إلى تحقيقه بعد انتهاء الحرب ، فهو إقامة دولة أو دول إسلامية مستقلة على أنقاض الامبراطورية العثمانيــة المتداعية على أن تــكون تحت أى شكل من أشكال السيطرة

---

(١) Yale's Rep. no. 2 (nov, 5 1917) p. 15 : National Archives, washington

(٢) Zeine : Struggle for Arab Independence, pp, 9 – 10

البريطانية[1] ، تخدم كبديل للامبراطورية العثمانية وتقوم بالدور التقليدى فى حماية مواصلات بريطانيا مع الهند .

إلا أن اتفاق الشريف حسين مع بريطانيا لم يكن محدداً ، بل كان يكتنفه الغموض ، ومعرضاً للتأويل ، ومع ذلك فقد قنع به الشريف ، على الرغم من أنه كانت هناك قلة من زعماء العرب ومفكريهم فى الشام ومصر والعراق من أعضاء الجمعيات السرية وبعضهم من الضباط الذين وقعوا فى أسر البريطانيين فى الشهور الأولى من الحرب فى جنوب العراق ، يعلمون بأطماع ومصالح بريطانيا وفرنسا فى البلاد العربية وكانوا يخشون نتائج ثورة العرب على الترك سواء كسب هؤلاء الحرب أم خسروها ، وقد انزعجوا عندما علموا بمفاوضات الشريف مع البريطانيين بسبب الغموض فى العهود وتفسيرهم لها بما يطابق أهدافهم ، وحذروه ولكنه لم يعبأ لهذه التحذيرات مؤمناً بشرف بريطانيا وصدق وعودها[2] .

ويقال أنه عندما سئل رشيد رضا عن رأيه فى اتفاق الشريف مع بريطانيا قال إن هذا الاتفاق لا يرضى به إلا عدو للعرب ، وقد بلغ الخلاف بينه وبين الشريف حداً جعل الشريف يأمر بعدم دخول المنار إلى الحجاز[3] .

الاتفاق الانجليزى العربى كما فهمه الشريف :

ورغم علم بعض العرب بالاتفاق بين الشريف وبريطانيا فإن أحداً لم يكن يعلم بطبيعة ما تضمنه هذا الاتفاق من وعود . ففى أثناء زيارة فيصل للندن

---

(١) Yele's Rep, no. 2, p. 16

(٢) Zeine : Struggle for Arab Independence' p 212,

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) د . إبراهيم أحمد العدوى : رشيد رضا — الإمام المجاهد (أعلام العرب ٣٢ — ١٩٦٤) ص ٢٤٥ .

فى خريف ١٩١٩ أثير موضوع وجود اتفاق عقده بين والده وبين بريطانيا وذلك فى الاجتماع الذى عقد بين فيصل وممثلى بريطانيا وعلى رأسهم رئيس وزرائها فى ١٠ داونتج ستريت فى التاسع عشر من سبتمبر (أيلول) ١٩١٩ ، حين ذكر فيصل أن معاهدة وقعت بين والده وبين بريطانيا وأن والده لم يطلع عليها أحداً ، ولكن فيصل وعد بتقديم صورة منها ، ولكن المسئولين البريطانيين أنكروا وجود هذه المعاهدة ، وذكروا أن كل ما يعلمون به هو أن الشريف حسين بعث بمطالبه إلى سير هنرى مكماهون الذى بعث بالرد فى الرابع والعشرين من أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٥ ، ثم عاد ملك الحجاز فكرر مطالبه ولكن الحكومة البريطانية وجدت أنه لا مبرر للرد عليها[١] .

وكانت جريدة (القبلة) لسان الملك حسين قد نشرت فى العدد الصادر فى ٨ جمادى الأول ١٣٣٨ (فبراير — شباط ١٩٢٠) حديثاً للملك حسين أعلن فيه أن لديه معاهدات تقضى باستقلال البلاد العربية جميعها وسينشرها عند الحاجة ، وعلى أثر ذلك قابل يوسف حيدر وهو أحد أصحاب جريدة المفيد الدمشقية الأمير فيصل وسأله عن ماهية هذه المعاهدات ، فرد الأمير بأنه لم يرها ، وأنه طلب من والده مراراً أن يجعلها سلاحاً له إذا كانت موجودة ، وأنه لا يدرى سبب عدم إرسالها إليه واكتفاء والده بإرسال صورة اتفاقية يقول إنها نسخة من تلك المعاهدة ، وناول فيصل صاحب المفيد صورة الاتفاقية وأذن له بنشرها ، وقد كتب على رأسها بخط الحسين نفسه

---

(١) woodward and Butler : Documents, I. IV, pp. 395 — 9
Letter from sir M. Hankey to sir Crowe, Paris, Sept. 19, 1919
enclosure : Notes of a meeting held at 10 Downing st, on Sept., 19, 1919.

ما نصه : « صورة ما تقرر مع بريطانيا بشأن النهضة » . وفى هذه الاتفاقية نص على أن تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة داخليا وخارجيا ، وتكون حدودها بحر فارس وبحر القلزم والحدود المصرية والبحر المتوسط وولاية حلب والموصل إلى نهر الفرات من مجتمعه مع دجلة إلى مصبهما فى بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن ، وأن بريطانيا تتعهد بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخلة ، على أن تكون البصرة تحت سيطرة بريطانيا حتى تتم للحكومة الجديدة تشكيلاتها المادية ويعين من جانب بريطانيا مبلغ من النقود مقابل هذا الإشغال ... » .

كما نصت الاتفاقية على تعهد بريطانيا بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة والذخائر والنقود مدة الحرب، كما تتعهد بقطع الخط عند مرسين أو غيرها لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها[1] .

وإذا نظرنا إلى هذه الاتفاقية فى ضوء المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين وسير (هنرى مكماهون) فإنه يمكن القول بأن بنود هذه الاتفاقية تتفق مع ما كان يطالب به الشريف ، وإذا كانت الحكومة البريطانية لم تبعث إليه برد قاطع يفيد قبولها لهذه المطالب ، فقد فهم الشريف أن عدم الرد بالمعارضة

---

(١) الحسنى : تاريخ مقدرات العراق السياسية - ٢ (بغداد ١٩٢٥) ص ٣١٤-٣١٧.
أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى جـ ١ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، صحيفة الكوكب العدد ١٨٠ فى ٢٤ فبراير شباط) ١٩٢٠ ص ٣ — ٥ نقلا عن جريدة المفيد الدمشقية فى عددها الصادر فى ١٥ فبراير (شباط) ١٩٢٥ بعنوان « حديث سياسى مع سمو الأمير فيصل - وثائق رسمية لم تنشر حتى الآن » .

Woodward and Butler : Ouv. Cit. pp. 418-9 : Translation of Arabic excerpts sent from king Hussein to to emir Feisal from Alleged Treaty between H, M's Gov., and Himself.' Ibid Vol, XIII : Appendix A to no. 342,

يفيد الموافقة ، وقد كان الشريف فى هذا مغرقاً فى آماله وفى ثقته ببريطانيا ففى اجتماع بين الأمير فيصل ومندوبى الحكومة البريطانية فى ٢٣ سبتمبر (أيلول) ١٩١٩ قرىء تقرير كتبه مكاهون عن المعاهدة المزعومة بأنها تتفق مع ملحق أرسل من الملك حسين إلى المندوب السامى البريطانى فى أغسطس (آب) عام ١٩١٨ وكان هـذا الملحق يتضمن ما خرج به الملك حسين من الاتفاقيات التى عقدت بينه وبين الحكومة البريطانية ، وأن المندوب السامى البريطانى — عندما تسلم رسالة الشريف المذكورة — أحالها على الحكومة البريطانية التى لم تر داعيا للرد على الشريف على أساس :

(ا) أن الاتفاقية التى ذكرها الشريف كانت غير مطابقة لما حدث

(ب) أن البيان الانجليزى الفرنسى الصادر فى ٧ نوفبر (تشرين ثان) ١٩١٨ أى بعد تلقى رسالة الشريف كان يعتبر رداً حقيقياً وكافياً على ما ورد فى الاتفاقية المزعومه [١] .

وهكذا اتخذ الملك حسين من صمت بريطانيا على مذكرته دليلا على موافقتها على فهمه لما تم عليه الاتفاق بينهما ، ولا شك أن الحكومة البريطانية تبدو نواياها غير الطيبة بتعمد عدم الرد ، وكان يجدر بها — إذا كانت تعتقد أن الاتفاقية التى ذكرها الشريف غير مطابقة لما حدث — أن تسرع لمصارحته بعدم موافقتها على تفسيره للاتفاق بينه وبينها ، هذ إذا لم يكن فى نيتها خداع العرب .

Woodward & Butler ; Documents, I IV. pp. 413 — 18 (١)
Notes of a Meeting held at 10 Downing st. on Sept. 23, 1919 .

وإن الخطاب الذى بعث به الملك حسين إلى المندوب السامى البريطانى فى ٢٩ أغسطس (آب) ١٩١٨ (٢١ من ذى القعدة ١٣٣٦ هـ) مرفقاً به صورة الاتفاق كما رآه الملك حسين ، ليدل على خيبة أمل الملك حسين بعد أن اتضحت نوايا بريطانيا الحقيقية ، وأن صمتها من الرد لم يكن ليفيد الموافقة على هذا الاتفاق كما تخيل هو .

فقد ذكر الملك حسين أنه بما طلب من المواد التى تعهدت بها الحكومة البريطانية لم يكن يرغب فى تأسيس حكومة أو تشكيل دولة ليستأثر بحكمها أو حرصاً على رئاستها ولكن «عندما دعتنى بريطانيا إلى مادعتنى إليه وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضاً تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة لم يسعنى إلا الإجابة وطلبى أقله تلك المواد المؤدية فى اعتقادى إلى ما يأتى : —

١ — محافظة الكيان الإسلامى بالنظر لما حل وسيحل بتركيا .

٢ — صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف عما سترمى به عكس مقاصدها .

٣ - سلامتى من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة » .

وذكر الملك حسين أنه فى محادثاته مع (ستورز) فى جدة ثم مع (مارك سايكس) ثم مع (هوجارت) لم يجد ما يخالف تلك القرارات .

ثم أشار إلى أن عدم الحصول على ماكان يؤمل من نتائج يحتم عليه الانسحاب من الأمر والتنازل عنه ، لاعتقادى أن تعديل مقرراتنا المذكورة إلى جانب إخلاله بالغايات المقصودة يسقطنى من ثقة واعتماد بلادى وأقوامى حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التى أعلنتها لهم وصرحت بها طوال هذه المدة وأسست عليها الأعمال ، وطلب الملك حسين تعيين البلاد التى

تستحسن بريطانيا إقامته فيها للسفر إليها فى أول فرصة ، ولو أنه كان يرى أن مشاكل الحرب تقتضى بتأجيل السفر إلى ختامها ، « أما عطف الأمر وتعلقه بمؤتمر الصلح فالجواب أنه لا علاقة لنا به [1] » .

---

(١) العمرى : تاريخ مقدرات العراق السياسية ج ٢ ص ٣١٥.

حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين (١٩٣٥) ٣٦٤ — ٣٦٦ ملاحق الكتاب .

Woodward & Butler : Documents ..., I, XIII Appendix A to no 342 : English Translation of a letter from king Hussein to sir R, Wingate, H. M High, commissioner. Cairo.

جريدة القبلة (مكة) العدد ٢٩١ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٣٣٨ هـ (١٠ يوليو — حزيران ١٩٢٠) .

الفصل الثانى عشر

الثورة العربية فى الحجاز

القطيعة بين الشريف والترك

انتهى تبادل المراسلات بين الشريف حسين وسير هنرى مكماهون منذ أوائل عام ١٩١٦ ، وبدا أن الشريف قد استقر رأيه نهائيا على الانحياز إلى جانب بريطانيا ، قانعا بالوعود المبشرة الغامضة التى ألقيت إليه ، ومع ذلك فإن القطيعة لم تقع بينه وبين السلطات العثمانية إذ استمرت العلاقات قائمة بين الطرفين ، بل وبذلت جهود من أجل الوصول إلى تفاهم بينهما ، ولعل الشريف كان يستعد لإشعال نار الثورة محيطاً استعداداته بالحذر ، حيث أن شكوك الترك حول نواياه وش موقفه كانت آخذة فى الازدياد خصوصاً بعد مماطلته فى الانضمام إلى الجهاد ، هذا إلى جانب قوة مركز الترك بعد انسحاب الحلفاء إثر فشل حملتهم على شبه جزيرة غاليبولى ، وازدياد أمل الترك فى دحر الهجوم البريطانى على جنوب العراق وقد بلغ من ازدياد قوة الترك وشعورهم بالثقة نتيجة هذه الانتصارات أن فكروا فى محاولة ثانية لغزو مصر بعد فشل محاولتهم الأولى عام ١٩١٥ ، وقد وضعت خطط حملة الترك الثانية منذ فبراير (شباط) ١٩١٦ وإن كان قد تأخر تنفيذها إلى الصيف لتأخر وصول الإمدادات الألمانية النمسوية ، وما كان يكتنف الحملة من صعوبات فى النقل بالسكك الحديدية[١] . ولقد طلب جمال باشا من أمير مكة باسم حكومة الآستانة تأليف كتائب من المتطوعة الحجازيين للاشتراك فى

---

(١) Sanders : Five Years in Turkey (1927) p. 144-3

الحملة على مصر ، وقد وافق الشريف وطلب أسلحة فأمده جمال باشا بعشرين ألف بندقية وعشرين ألف ليرة ذهبية وتقرر تعيين الأمير على قائداً على المتطوعة الحجازيين (١) .

ومن أجل إزالة شكوك الترك بعث الشريف حسين فى يناير (كانون ثان) ١٩١٦ بابنه الأمير فيصل إلى دمشق ومعه خمسون فارساً من أتباعه ادعى أنهم طلائع القوة التى طلب من الشريف تجنيدها من الحجاز ، وقد أقيمت الاحتفالات للترحيب بهذه الطلائع ، ونزل الأمير فيصل فى ضيافة آل البكرى فى قابون مما أتاح له فرصة معاودة الاتصال برجالات العرب لدراسة الاستعدادات للثورة(١) .

ولعل الشريف حسين من ناحية أخرى كان لا يزال يأمل فى الوصول إلى تسوية لمشكلاته مع حكومة الآستانة باستجابتها إلى مطالبه الخاصة بشرافة مكة ، ولذلك نراه فى مارس (آذار) ١٩١٦ يبعث إلى أنور باشا ببرقية يعبر فيها عن اعتقاده بأن انتصار الدولة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولاسيما العرب ، وأن إرضاء هؤلاء يتوقف على مداراة جروحهم الناتجة عن اتهام عدد من أبنائهم بتهم سياسية ، ولذلك طالب الشريف بإعلان العفو التام عن عن المتهمين السياسيين ومنح الشام نظاما لامركزيا ، « وجعل إمارة مكة وراثية فى أولادى وإبقائها على حالتها الحاضرة » . وعلق الشريف على قبول مطالبه هذه حشد القبائل العربية فى ميدانى العراق وفلسطين ، « وإذا لم تقبل فأرجوكم ألا تنتظروا من شيئاً سوى الابتهال للحق جل وعلا أن يهب للدولة النصر والتوفيق (٢) » .

---

(١) فايز الغصين : مذكراتى عن الثورة العربية (١٩٥٦) ص ٢٠٦ .
(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١١٥ .
(٣) أنيس صايغ الهاشميون والثورة العربية ص ٧٣ .

وقد رد أنور باشا على برقية الشريف فأبلغه برفض العفو عن المتهمين ، وأن أمور الحجاز ستظل على ما كانت عليه ، وألح أنور باشا من أجل إرسال المجاهدين .

ويذكر جمال أن الشريف أبلغ بأن الوقت غير مناسب لبحث مطلب الإمارة الوراثية بسبب تركيز الاهتمام على كسب الحرب ، ووجوب تكريس كل الجهود لتحقيق هذا الهدف ، وألمح جمال إلى أن الحكومة العثمانية إذا ما اضطرت لمنح الشريف ما يريد من أجل إسكاته فى أثناء الحرب ، فلن تكون بعد انتصارها عاجزة عن إنزال أقسى عقاب به لموقفه منها فى أحرج الأوقات[1] .

وقد حدد هذا التبليغ العثمانى موقف الشريف نهائياً وهو إشعال الثورة على الأتراك والانضمام إلى بريطانيا .

وقد أدى ذلك إلى أنه أخذ يسوف فى تلبية طلبات الأتراك وكان أهمها إعلان الجهاد صراحة ، وأخذ يستعد للثورة .

ولما كانت هذه الاستعدادات لابد وأن تجرى تحت سمع الترك وبصرهم فقد حاول أن يبعد شكوكهم قدر المستطاع خصوصا وأن الأمير فيصل كان بين أيديهم وفى استطاعتهم الانتقام منه ، فتذرع الشريف حسين بأن القوات التى يجرى تجنيدها وحشدها إنما هى لتلبية طلب جمال باشا . وفى الوقت نفسه بعث الشريف بابنه الأمير على لمراقبة الوالى التركى بالمدينة ولكسب زعماء القبائل إلى جانبه إلى أن يحين موعد الثورة[2] .

---

(١) Djemal Pasha : Memories of a Turkish Statesman, (N. D.), pp. 215 - 217.

(٢) Antonius : Ouv, Cit. pp. 184 - 5

وعندما وصل الأمير فيصل إلى دمشق فى يناير (كانون ثان) ١٩١٦ وجد أن الأحوال فيها قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه فى أثناء زيارته الأولى عام ١٩١٥ ، وقد كان فيصل ينوى - فى زياته الثانية - إثارة الفرق العربية فى الجيش العثمانى فى الشام ، بل وإثارة الشعب نفسه وذلك عندما يعطى والده الإشارة بذلك ، إلا أن الأمير فيصل تلفت حوله ليجد أن الفرق العربية فى الشام قد نقلت ، وبها معظم أصدقائه ممن تعرف بهم من جماعة العهد وحلت محلها فرق تركية ، كما نفى كثير من المدنيين إلى أماكن نائية فى الأناضول وازدادت المخاوف نتيجة إرهاب جمال باشا وسياسته شديدة الوطأة خصوصاً بعد تقديم المجموعة الثانية من الوطنيين السوريين إلى المحاكمة أمام المجلس العرفى فى عالية وتنفيذ حكم الإعدام فى واحد وعشرين منهم فى السادس من مايو (آيار) ١٩١٦ ، ولم تجد محاولات الشريف حسين التوسط لدى جمال باشا أو المسئولين فى عاصمة الدولة .

وعلى الرغم من أن الشريف حسين لم يحرك ساكناً حين أقدم جمال باشا على إعدام الرعيل الأول من الوطنيين العرب فى الشام فقد أراد أن ينتهز فرصة الغضب والسخط اللذين اجتاحا البلاد نتيجة بطش جمال بالوطنيين ليقوم بالثورة وبذلك يضمن وقوف السوريين وراءه وهم فى أوج سخطهم على الترك ، خصوصاً وقد فشلت مساعيه الحصول على مايريد من الحكومة العثمانية ، بل وعلم بأن خطة أعدت لخلعه من الإمارة وعهدت بها الحكومة العثمانية إلى قائد قواتها فى شبه الجزيرة وهيب باشا لتنفيذها ، إذ سقطت محفظة بها أوراقه فى أيدى بعض أعوان الحسين [وفى نفس الوقت كان البريطانيون يغدقون عليه الوعود والمعونة المادية والمالية[1] هذا إلى جانب حصار بريطانيا

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية ص ٧٣
Main, Iraq (193), p. 54.

البحرى لسواحل الحجاز الذى أدى إلى المجاعة والسخط حتى بين المترددين فى الثورة على الترك .

ولذلك فإنه عندما وصلت أنباء إعدام المجموعة الثانية من الزعماء العرب إلى الشريف حسين دفعته إلى العمل بسرعة ، ثم ظهر فى الأفق الحربى عامل أدى إلى سرعة تحرك الشريف ، إذ أبلغه جمال باشا فى الأسبوع الأول من ابريل (نيسان) ١٩١٦ أن قوة تركية تزيد على ثلاثة آلاف رجل على وشك الرحيل عبر الحجاز فى طريقها إلى اليمن ، وكانت هـذه القوة تحت قيادة خيرى بك وتتألف من قوات مسلحة تسليحاً خاصاً ومهمتها معاونة البعثة الألمانية التى كان يقودها القائد الألمانى ستوتزنجن ، ولم يكن الشريف حسين مطمئنا لتدعيم القوات التركية فى شبه الجزيرة العربية ، لأن هذا من شأنه أن يقلل فرص النجاح أمام الثورة ، كما أن بريطانيا ما كانت لترضى بتدعيم القوات التركية فى اليمن فيزداد بذلك التهديد لمركزها فى عدن كما يزداد التهديد لمركز الشريف فى مكة[١] .

ومن بين الاستعدادات التى قام بها الشريف حسين اتصاله بالقبائل وكسب ثقة زعمائها لضمان تعاونهم معه ، ولذلك فقد كان يطلب من السلطات البريطانية إمداده بما يلزمه من بنادق وأموال ومؤن وإرسالها من بورسودان إلى شاطىء الحجاز عندما يطلب ذلك .

وكانت خطة الشريف حسين تقوم على أساس إشعال نار الثورة فى الحجاز وفى الشام فى وقت واحد ، كما كان فى نفس الوقت يلح على المسئولين البريطانيين من أجل إنزال قوات على ساحل الشام لقطع خطوط مواصلات الترك مع الأناضول ومناجزتهم فى المؤخرة[٢] .

---

(١) Cyrill Falls : Military Operations , Vol. II (1930) p. 230

(٢) Storrs : Orientations p. 182.

ولم تكن فكرة إنزال قوات على الساحل السورى جديدة ، فقد سبق أن نوقشت فى أوساط الحلفاء فكرة إنزال قوات فى الإسكندرونة منذ أواخر عام ١٩١٤، ثم نوقشت مرة أخرى عام ١٩١٥ عندما وصل كتشنر إلى شرق البحر المتوسط لدراسة مسألة إخلاء شبه جزيرة غاليبولى بعد الفشل الذى منيت به قوات الحلفاء بها .

وعلى الرغم من تأييد كتشنر وكثير من العسكريين فى مصر لإنزال حملة على ساحل الشام وإعلانهم أنها ممكنة التنفيذ ، وأن تنفيذها سيؤدى إلى انهيار الترك وقطع المواصلات بين الأناضول من جهة والشام والعراق والحجاز من جهة أخرى ، فإن الاقتراح لقى معارضة لأسباب عسكرية وأخرى سياسية ، حيث كان من الصعب الاستغناء عن قوات يمكن تخصيصها لهذه العملية ، كما كانت فرنسا وراء الأسباب السياسية لأنها كانت تخشى إذا احتلت الشام قوات غير فرنسية أن تضيع آمالها فى الاستحواذ عليها بعد الحرب .

وإذ اعتزم الشريف حسين القيام بالثورة استدعى الأمير فيصل من الشام فغادر دمشق فى السادس عشر من مايو (آيار) ١٩١٦ فى طريقه إلى المدينة حيث انضم إلى أخيه الأمير على، وبناء على تعليمات والدهما واتصالاتهما برجال القبائل قررا أن تكون الثورة فى المدينة فى الخامس من يونيو (حزيران) ١٩١٦ .

ويذكر جمال باشا فى مذكراته أنه فى الثانى من يونيو (حزيران)١٩١٦ وبينما كان فى بيروت اتصل به فخرى باشا تليفونيا وأبلغه أن الموقف فى الحجاز قد تغير ، إذ سلمه أحد رجال الشريف ثلاث رسائل ، إحداها له والثانية إلى جمال باشا والثالثة إلى الصدر الأعظم، وجاء فى الرسالة الموجهة إلى فخرى باشا أنه بناء على الأوامر الصادرة من الشريف سيقف نقل المتطوعين إلى فلسطين.

وذكر الشريف فى رسالته إلى جمال باشا أنه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك فى حملة القناة قبل أن تجاب المطالب التى ذكرها فى برقيته إلى أنور باشا ، وفى رسالته إلى الصدر الأعظم ذكر الشريف أنه إزاء اللهجة الشديدة التى استخدمها أنور باشا فى برقيته فإنه مضطر لقطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى قدمها إلى أنور باشا قبل شهرين [١] .

الثورة :

وعند شروق صباح الخامس من يونيو (حزيران) توجه الأميران على وفيصل إلى المعسكر الذى كانت تتجمع فيه قوة تبلغ نحو الألف وخمسمائة من المجندين وأعلنا استقلال العرب عن الحكم التركى. واعتبر هذا الإعلان بداية الثورة العربية [٢] . أما فى مكة فقد بدأت الثورة فى يوم السبت ١٠ يونيو ، فى هذا اليوم هوجمت ثكنات ومراكز الحاميات العثمانية فى مواقع متعددة فى وقت واحد واستسلمت بعض المواقع التركية ،ولكن ثكنات (جياد) - خارج مكة - قاومت بضعة أسابيع نظراً لأنها كانت مزودة بالمدافع .

وبمجرد قيام الثورة عهد إلى ونجت بمهمة تمويلها وأصبح يلقب بلقب (القائد العام للعمليات العسكرية فى الحجاز) وقد لعب ونجت فى الثورة العربية دوراً كبيراً ، فقد صار المسئول عن النواحى الاستراتيجية ، وكذلك عن إمداد الثورة بما تحتاج إليه كما صار مسئولا كذلك عن النواحى السياسية [٣]. وكان اختيار ونجت يرجع إلى علاقاته الشخصية بالشريف ، كما أن بور سودان - قاعدة الأسطول البريطانى فى البحر الأحمر - كانت تواجه جدة، وكان ضباط

---

(١) Djemal pacha : Ouv. Cit. p. 225.

(٢) Antonius : Ouv. Cit. pp. 194-5.

(٣) Wingate : Wingate of the Sudan, d. 175.

ونجت ملدين إلماما تاما بظروف الحجاز ، وإلى جانب ذلك فقد كان ونجت قائدا عاما للجيش المصرى الذى كان مقدراً له أن يكون مصدر الرجال المدربين لمعاونة ثورة فى الحجاز .

وقد صادفت ونجت بعض الصعوبات والمشاكل، منها مشكلة إمداد الثورة بما تحتاج إليه من رجال وسلاح ومؤن وأموال ، خصوصاً وإنها كانت تفتقر إلى السلاح والرجال المدربين والأغذية، كما كان المال ضروريا لكسب ولاء ومعونة القبائل التى ما كانت لتخاطر بحياتها إلا بعد كسبها المال ، حيث إن فكرة الحرية والاستقلال التى كانت تجول فى خاطر الشريف لم تكن قد تمكنت من قلوب رجال القبائل[1] .

كما أحس ونجت بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه ، نظراً لأن هدف الثورة — فى نظره — كان مقصوراً على تحرير الأماكن المقدسة من سيطرة الترك وضمان الحج للمسلمين ، وفى نفس الوقت كان يواجه الآمال العريضة التى كانت تجيش فى صدر الشريف وتهدف إلى إقامة دولة عربية يتولى عرشها .

وكان ونجت غير مرتاح لبقاء الأمور السياسية المتصلة بالثورة العربية فى يد المندوب السامى البريطانى فى مصر وكان ونجت يرى فى هذا تعارضاً بين الدوائر التى تتعامل مع شريف مكة والثورة العربية ولذلك كان ونجت يرى ضرورة تركيز السلطات التى تتعامل مع الثورة والشريف عسكرياً وسياسياً فى يد واحدة ، وعلى الرغم من أن الجنرال سير وليام روبرتسون كان يؤيد هذا الرأى ويرى أنه أكثر فائدة إلا أن المسئولين البريطانيين لم يحبذوا إجراء تغيير فى ذلك الوقت ، ومع ذلك ففى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٦

---

(١) Ibid. p. 138

حلت هذه المشكلة وذلك عندما عين ونجت مندوباً سامياً لبريطانيا فى القاهرة وبذلك أمكن جمع الجهود المتعاملة مع الشريف سياسياً وعسكرياً فى يد الجنرال ونجت (١) .

ومن المسائل التى شغلت ونجت موضوع إرسال مساعدات - مهما كانت ضئيلة - من الجنود المدربين والأسلحة إلى الحجاز عبر البحر الأحمر ، حتى يتمكن العرب من مواجهة القوات التركية النظامية المدربة والمحصنة فى قلاع مكة والمدينة وغيرهما خاصة وأن خط سكة حديد الحجاز إلى المدينة كان مفتوحاً وكان ونجت يعتقد أن قبائل الحجاز أضعف من أن تقوم بحرب عصابات ضد القوات النظامية التركية المحصنة وراء استحكاماتها وأنه لذلك لابد من تقديم العون الكافى لها حتى يمكن « تحرير الأراضى المقدسة وضمان سلامة الحج »(٢) .

إلا أنه مع ذلك استطاع عرب الحجاز - قبل وصول أية معونة لهم - أن يستولوا على مكة وجدة ويحاصروا الترك فى المدينة ولو أنه يمكن القول إنه كان لعنصر المفاجأة أثره فى إحراز هذه الانتصارات الأولى فى الحجاز .

ومن أجل تقديم العون إلى ثورة الحجاز كان ونجت يأمل أن يتمكن من استخدام قوات بريطانية إلا أن المسئولين البريطانيين فى القاهرة كانوا يخشون أن يؤدى استخدام جنود مسيحيين فى الحجاز أن يستغل الترك هذا العمل فى الدعاية ضد الشريف « ولما ظل عربى واحد على ولائه له »(٣) ، وعلى ذلك صار لا مفر من الاقتصار على الجيش المصرى ، وحتى الجنود المصريون

---

(١) Ibid. p. 187

(٢) Ibid. p. 189

(٣) Lawrence : Oriental Assembly (1939) p. 107

تقرر أن يرتدوا الملابس العربية ، هذا فى المراحل الأولى من الثورة ، وبعد ذلك انضم إلى القوات فى الحجاز بعض الجنود المسلمين وبعض ضباط الاتصال البريطانيين ، وقد اختار ونجت عدداً من الرجال الذين لمس فيهم الكفاءة والإخلاص وذلك لمساعدته ، سواء من المكتب العربى بالقاهرة أو من القاعدة العسكرية فى بورسودان ، حيث الكولونيل ولسن Wilson هو حاكم مديرية البحر الأحمر ومقره بور سودان،وقد انتقل ولسن إلى جدة فى السابع والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩١٦ تصحبه قوة بسيطة من من ثلاثمائة وعشرين رجلا وبعض المدافع والبنادق بقيادة اللواء المصرى السيد بك على .

وفى المكتب العربى اختار ونجت ـ إلى جانب كلايتون وهوجارث ولورنس ـ اثنين من السودان هما كورنواليس Cornwallis وسيمس Symes كما اشترك فى العمل بعض رجال الأسطول البريطانى فى البحر الأحمر وخاصة الأميرال روسلين Rosslyn وفى النشاط البرى كان يتعاون مع ونجت سير ارشبالد مرى Murray الذى خلفه اللنبى بعد ذلك .

النشاط الحربى للثورة العربية :

ويمكن تقسيم النشاط الحربى للثورة العربية إلى ثلاث مراحل : الأولى منذ قيام الثورة فى الخامس من يونيو (حزيران) ١٩١٦ حتى سقوط الوجه فى الخامس والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٧ ، والثانية من سقوط الوجه حتى سقوط العقبة فى السادس من يوليو (تموز) ١٩١٧ ، والثالثة وتنتهى بإخراج الترك من الشام .

المرحلة الأولى :

وفى هذه المرحلة رأينا كيف هوجمت مكة ورغم استسلام بعض المراكز حولها فقد قاومت بعض المراكز الأخرى مثل جبل وجياد إلى أن وصلت بعض المدافع من السودان فسقطت هذه المراكز وتلتها مكة ذاتها إذ استسلمت حاميتها فى ٩ يوليو (تموز) ١٩١٦ واستحوذ العرب على كمية كبيرة من الأسلحة والعتاد[١]

كما هوجمت جدة منذ بداية الثورة ، وفشلت محاولة اقتحامها لحاصرها العرب ، كما قصفتها بعض السفن البريطانية من البحر الأحمر ، ولما أيقن قائد حاميتها من عدم احتمال وصول نجدات له من مكة استسلم فى السادس عشر من يونيو (حزيران).

واتجه الأمير عبد الله إلى الطائف وحاصرها حتى سقطت فى ٢٢ سبتمبر (أيلول) وكان فيها الوالى التركى غالب باشا وكثير من القوات لأنها كانت المقر الصيفى لوالى الحجاز ، كما اتجهت قوة أخرى ونجحت فى الاستيلاء على رابغ وينبع وهكذا أثبتت الثورة وجودها وأصبح فى قبضتها نحو ستة آلاف أسير ، كما غنمت الكثير من معدات الحرب ، ووقعت فى قبضتها مدن الحجاز الرئيسية باستثناء المدينة المنورة التى كان يقوم على حصارها الأمير على واشترك معه فى البداية الأمير فيصل ، ومما ساعد المدينة على المقاومة تلك القوة التى جاءت مؤخراً بقيادة خيرى بك[٢] .

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp, 195-9 : Graves (edi,) Memoirs of King Abdullah (1950), p. 143

(٢) Graves ; Ouv. Cit. pp. 143 - 144

ثم اتخذ فيصل طريقه بعد ذلك نحو الوجه ليجعل منها قاعدة لعملياته صوب الشمال وقد سقطت فى الخامس والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٧ وكان فخرى باشا يخرج من المدينة مهاجماً ، عله يستطيع الوصول إلى مكة مما اضطر العرب إلى التقهقر وكان من المحتمل أن يفقدوا رابغ فتصبح مكة ذاتها فى خطر ، ولذلك فقد طلب الشريف حسين — عن طريق مندوبه فى القاهرة محمد شريف الفاروقى — بعض الإمدادات ، كما طلب إنزال بعض القوات فى رابغ لتسد الطريق المؤدى إلى مكة فى وجه أى هجوم تركى، ولكن الفاروقى بعث إليه فى ١٩ ذى القعدة ١٣٣٤ هـ بأن نائب الملك فى مصر أفهمه بأنه ليس فى إمكان الحكومة البريطانية إرسال جنود الى الحجاز لأسباب مختلفة أهمها الخوف من اتهام العالم الإسلامى لها بالاعتداء على حرمة الأماكن المقدسة ، واعتقاداً من المسئولين البريطانيين بأن قوة الترك ليست بالقدر الذى يخشى منه ، ووعد الفاروقى بإرسال الأسلحة والمعدات[١].

ويذكر ونجت انه عند ماتحرجت الحالة وأصبح الترك فى المدينة يهددون رابغ وبالتالى مكة ، حاول أن يحصل على معونة القوات البريطانية فى السويس بإرسالها إلى رابغ ، ولكن ضرورات حملة سيناء ، والشك فى حكمة استخدام قوات مسيحية فى الحجاز جعل المسئولين البريطانيين يصرفون النظر عن الفكرة، ومع ذلك أرسلت — كما يقول ونجت — بعض الطائرات إلى رابغ فى بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٦ ، ثم سحبت بعد قليل[٢] بحجة إنشغالها فى معارك

---

(١) السمرى : تاريخ مقدرات العراق السياسية جـ ١ ص ٢٩٦ (رسالة الفاروقى رقم ٥٠ إلى الشريف) .

(٢) Wingate : Ouv· Cit, p, 191: Orientations, 203

سيناء وعدم إمكان الاستغناء عنها[١] .

وأخذ الشريف حسين يلح فى طلب الإمدادات وبأمه فه لإعادة الطائرات التى كانت قد أرسلت إلى رابغ بينما القوات التركية تهدد الأمير فيصل وقوته . كما طلب الشريف فى الوقت نفسه أن تعتبر القوة الجزائرية التى قبل أنها سوف ترسل لمساعدته كأنها قوة بريطانيا محضة[٢] (وليست فرنسيه) وهو بذلك يريد أن يقصر المعونة التى يتلقاها على بريطانيا ولا يريد فرنسا أن تكون صاحبة فضل عليه ولعله بذلك يريد ألا يكون مديناً لفرنسا .

وكان من جراء مماطلة السلطات البريطانية فى إمداد الشريف أن أشيع أن سوء تفاهم وقع بينه وبينها ، وقد تأكدت هذه الشائعة من المكاتبات بين الشريف والفاروقى ، إذ يذكر هذا فى برقية له بتاريخ أول محرم ١٣٣٥ هـ أن المعتمد البريطانى يعتقد أن ضجر الشريف يرجع إلى عدم إرسال قوة إلى رابغ واسترجاع الطائرات ، ونفى المعتمد البريطانى فكرة عدم الرغبة فى مساعدة الشريف وإنما تعلل بضرورة « إيجاد نوع من التوازن بين القوات التى تدافع عن بلادها وتلك التى تساق إلى أماكن أخرى » أى أن المعتمد البريطانى لم يكن يحبذ سحب قوات من بلادها التى تحتاج إليها لتدافع عن ميادين أخرى ، كما أضاف أن المعتمد البريطانى يخشى الرأى العام الإسلامى ، وأنه أحال طلبات الشريف إلى المسئولين فى لندن[٣] وقد بلغ من ضيق

---

(٣) العمرى : المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٩٣ (رسالة الفاروقى رقم ٢٥ بتاريخ ٨ شوال ١٣٣٤ هـ) .

(١) العمرى : المرجع نفسه جـ ١ ص ٢٩٦/٢٩٧ (رسالة من الشريف إلى نائب الملك فى مصر فى ٢٢ ذى الحجة ١٣٣٤ هـ) ، أمين سعيد جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) العمرى جـ ١ ص ٢٩٨/٢٩٩ (رسالة الفاروقى فى أول محرم ١٣٣٥ .

الشريف أن قرر إيفاد نجله الأمير عبـــدالله لمباحثة المعتمد البريطانى فى القاهرة[١].

وعلى الرغم من أن ونجت كان يقدر أهمية استخدام الـكتيبة الانجليزية فى السويس لإبقاء رابغ فى يد العرب وضمان سد الطريق بين المدينة ومكة فى وجه تقدم الترك ، ومن أجل زيادة الثقة بين زعماء القبائل العربية فانه كان يسعى لايجاد قاعدة لهجوم عربى فى شمال الحجاز ، إذ أن ونجت أخذ يمد بصره شمالا إلى ينبع وإلى العقبة لـكى تـكون قاعدة للاغارة على مواصلات الترك وبذلك تقل فاعلية خط سكة حديد الحجاز فى تقديم العون للقوات التركية فى المدينة[٢] .

ولما لم يـكن ثمة أمل فى إرسال الـكتيبة الانجليزية فقد كان ونجت يرى تنفيذ هذه العملية بالاعتماد على قوات الشريف على أن تدعم ببعض القوات المصرية والهندية وبعض الضباط من السودان علاوة على البعثة الفرنسية بقيادة الـكولونيل بريمون Bremond وكانت تضم ضباطاً مسلمين ويؤيد هؤلاء جميعاً الأسطول البريطانى والطائرات البريطانية على أن يكون الهدف احتلال الوجه أولا ثم العقبة بعد ذلك[٣] .

وكان لورنس قد سافر إلى الحجاز فى أوائل أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٦ عندما تحرجت الحالة ، وتدارس الموقف مع الزعماء العرب ، ثم ذهب إلى الخرطوم حيث تباحث مع ونجت ، ومنها اتجه إلى القاهرة حيث بحث فكرة إرسال لواء من جنود الحلفاء إلى الحجاز خاصة وأن الـكولونيل بريمون رئيس

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Wingate ; Ouv. Cit. p 192

(٣) Ibid .

البعثة الفرنسية إلى الحجاز كان يلح من أجل إرسال قوة إنجليزية فرنسية إلى رابغ للمرابطة فيها ولكن لورنس عارض هذا الرأى،وقدم تقريراً إلى القيادة البريطانية العليا ذكر فيه أن القبائل العربية قادرة على الدفاع عن الآكام بين المدينة ورابغ إذا هى أمدت بالمدافع والنصائح ، ولكنها على العكس سوف تنفض إلى خيامها إذا علمت بنزول الأجانب فى بلادها ، وذكر لورنس للمسئولين البريطانيين فى القاهرة أن بريمون يسعى وراء أهداف خاصة من وراء نزول قوات أجنبية [1] .

ولقد كان من رأى (بريمون) عدم تشجيع العرب على الاستيلاء على المدينة المنورة لأن ذلك سوف يقوى فكرة الوحدة العربية ويدعم مركز الثورة العربية مما يضر بمصالح الحلفاء[2] ولعل بريمون كان يهدف من وراء ذلك إلى جعل الثورة العربية تستغرق كل وقتها وجهدها فى الحجاز فلا تمد بصرها إلى خارجه وبذلك تصير مناطق ادعاءات فرنسا فى مأمن من تفكير العرب . وعلى هذا تقرر إرسال أسلحة وأموال وضباط إلى القوات فى رابغ وتعيين لورنس مستشاراً حربياً للأمير فيصل .

ومن ناحية أخرى كتب المعتمد البريطانى فى ٩ يناير (كانون ثان) ١٩١٧ إلى الشريف حسين بأن يطلب إرسال جنود أوربيين على مسئوليته فعاد الشريف وعدل عن طلبهم مكتفيا بالمساعدة المادية وكتب فى هذا المعنى إلى المعتمد البريطانى محتفظاً لنفسه بحق طلبهم عند الضرورة [3] .

ومع ذلك فقد كان لهذا الموقف من جانب المسئولين البريطانيين أثر سيء

---

(١) أمين سعيد ج ١ ص ٢١٧
(٢) أمين سعيد ج ١ ص ٢١٤
(٣) المرجع نفسه .

فى نفس الشريف، خاصة وأنهم لم يبعثوا إليه بالأسلحة الكافية التى يمكن أن تعينه فى القتال ، فهم لم يقدموا له الأسلحة إلا بقدر وبعد إلحاح شديد فى طلبها ، وكانت الأسلحة والمدافع التى ترسل إلى العرب من طراز قديم ، إ يذكر الفاروقى أن الضباط العرب الذين كان فى النية إرسالهم من مصر لتدعيم قوة الشريف فى الحجاز عندما عاينوا المدافع المزمع إرسالها معهم إلى الحجاز وجدوا أنها قديمة ولا تصلح وأن بعض أجزائها ناقصة ، ورغم أن المسئولين البريطانيين ذكروا أن هذه المدافع يستعملها الجيش البريطانى فقد أصر الضباط العرب على عدم صلاحيتها وقد حاول الفاروقى إقناع الضباط العرب بالسفر إلى الحجاز بدون مدافع لضرورة وجودهم هناك على أن تلحق بهم مدافع حديثة ، ومع ذلك أصر بعضهم على رفض السفر[1] .

ولقد اعترف لورنس نفسه فى (أعمدة الحكمة السبعة) بأن الهدف من إرسال مدافع بريطانية إلى عرب الحجاز هو مجرد إحداث صوت (فرقعة) تملأ رجال القبائل ثقة بنفسها وقوتها

سوء العلاقات بين الشريف وبريطانيا :

ومن الأمور التى ضايقت الشريف حادث قنفدة ذلك أن الإدريسى فى عسير انتهز فرصة الثورة والحرب فى الحجاز وأرسل قوة من رجاله احتلت قنفدة ، على شاطىء البحر الأحمر بين جدة وجيزان، وذلك فى العاشر من يوليو (تموز) ١٩١٦، ورفعت عليها راية الأدارسة بعد أسر حاميتها التركية، وكانت تقف قبالة قنفدة فى أثناء هذه العملية إحدى البوارج البريطانية مما جعل الشريف يعتقد أن العملية تمت بالاتفاق بين الإدريسى و بريطانيا، ولم يكن الشريف ينظر بارتياح

---

(١) العمرى جـ ١ ص ٢٨٩/٢٩٠ (رسالة الفاروقى إلى الشريف فى ٢ شوال ١٣٣٤هـ مستعجل) .

إلى اتساع إمارة الأدارسة ويعتقد أن قنفدة حجازية ، فطلب من الفارق فى الثامن والعشرين من يوليو (تموز) أن يسعى لدى السلطات البريطانية حتى تسحب البارجة البريطانية. فرد عليه الفارق فى الثامن من أغسطس (آب) طالباً منه ألا يتأثر وأن الأحوال الحاضرة تستلزم الصمت، ثم أبلغه بعد ذلك أن السلطات البريطانية ستطلب من الإدريسى إخلاء قنفدة[1]. بل لقد استاء الشريف عندما علم باتفاق بريطانيا مع الإدريسى وابن سعود واعتبر ذلك مخالفاً لاتفاقها معه « وتشكيل رقباء أمام شخصى وأمام أساس القصد العالى المعلوم لدى بريطانيا »[2] .

ومن الحوادث التى جعلت الشريف يستاء من حلفائه حادث المنشور ، ذلك أن الشريف أذاع منشوراً فى الخامس والعشرين من شعبان ١٣٣٤ هـ (يونيو « حزيران » ١٩١٦) وجهه من مكة إلى العالم الإسلامى ، أورد فيه الأسباب التى دفعته إلى الثورة على الترك ، وأرسل الشريف هذا المنشور إلى مندوبه فى مصر — الفاروقى — لكى يقوم بنشره وإذاعته، ولكن بعد مضى ثلاثة أسابيع (أى فى السادس عشر من رمضان) رد الفاروقى بأن المعتمد البريطانى اعترض على ما ورد بالمنشور بخصوص ضرب الترك الكعبة على اعتبار أن هذه العبارة سوف تثير مسلمى الهند الذين سيعتبرون أن السبب الذى أدى إلى ما حل بالكعبة هو ثورة الشريف على الترك، واستمر تسويف البريطانيين ولم يذع المنشور إلا معدلا فى الثلاثين من أغسطس (آب) ١٩١٦[3] .

---

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) العمرى : جـ ٢ ص ١٠٠/١٠١ (برقية من مكة بتاريخ ١٥ جمادى الثانى ١٣٣٥) .

(٣) العمرى : مرجع سبق ذكره جـ ٩ ص ٧٠٦ .

وبما يلفت النظر أن الشريف حسين ذكر فى منشوره أنه كان متمسكا بالولاء للدولة العثمانية إلى أن تولى الاتحاديون الحكم ، وعزا نفوره منهم إلى أنهم حادوا عن الدين ، وسلبوا سلطة السلطان وأسرفوا فى أموال الدولة ، وأضاعوا أجزاء كثيرة من ممتلكاتها ، ثم محاولة تتريك شعوبها — وخاصة العرب — بالقوة . وخوضهم غمار الحرب الاوروبية فأوردوا الدولة بذلك موارد التهلكة ، ثم أشار إلى أعمال الإرهاب التى ارتكبت فى الشام وتخوفه من أن يحدث مثلها فى الحجاز مما أدى إلى منع ورود الأقوات على الثغور الحجازية وكذا الحجاج ، وأنه بصفته مسئولا عن إقامة ركن الحج كان لابد من تدخله لمنع أسباب الهلاك . ثم ذكر أخيراً أن الاتحاديين عرضوا استقلال الدولة للخطر ، وأنه لا سبيل لتلافى ما استهدفت له الدولة إلا بالاستقلال[1] .

وهكذا اهتم الشريف حسين بأن يبرر للعالم الإسلامى أن خروجه على الدولة العثمانية إنما هو فى صالح الإسلام ، وكان هدفه من ذلك رغبته فى تجنب إثارة شعور المسلمين ضد ثورته .

ولعل من أهم المسائل الحساسة التى وقعت بين الشريف وحلفائه مسألة اللقب ذلك أنه فى السادس من المحرم ١٣٣٥ هـ (٣٠ أكتوبر «تشرين أول» ١٩١٦)[2] ، اجتمع شيوخ القبائل ووجوه الحجاز وعلماؤه وبايعوا الحسين بن على ملكا على العرب ، وذلك بمناسبة العام الهجرى الجديد ، وحضر الاجتماع ممثلو الحلفاء ، وعندما تكامل العدد وقف الشيخ فؤاد الخطيب مدير جريدة

---

(١) أمين سعيد : المرجع نفسه ج ١ ص ١٤٩/١٥٧ ، جريدة القبلة العدد ١١ من السنة الأولى الصادر فى ٢١ من ذى القعدة ١٣٣٤ هـ

(٢) جريدة القبلة — مكة العدد ٢٢ فى ٣ من المحرم ١٣٣٥ هـ .

صحيفة الكوكب القاهرة العدد ١٦ فى ١٢ ديسمبر ١٩١٦ .

القبلة وألقى خطاباً أثنى فيه على الشريف وعرض طائفة من الكتب ذكر أنها وردت من الشام معترفة بالحسين ملكا على العرب ، فنهض الحاضرون ونادوا بالشريف ملكا على العرب ، وفى اليوم التالى شكلت أول وزارة عربية برئاسة الأمير على (رئيس الوكلاء) وعين فيها الشيخ عبدالله سراج مفتى الأحناف فى مكة قاضياً للقضاة ووكيلا عن رئيس الوكلاء ، والأمير عبدالله بن الحسين وكيلا للخارجية ، ونائباً عن أخيه الأمير فيصل وكيل الداخلية . وعزيز على رئيسا لأركان الجند ووكيلا لرئاسة الجند ، وآخرون المعارف والمنافع العامة والأوقاف والمالية[1] .

ثم أذاع الأمير عبد الله بصفته وكيل الخارجية بلاغا أبلغ فيه وزارات خارجية الحلفاء والدول المحايدة بما تم من حيث مبايعة والده ملكا على العرب ، وتشكيل الحكومة العربية الجديدة طالباً الاعتراف بها[2] ، هذا على الرغم من أنه فى لقاء بين (ستورز) والأمير عبدالله فى السابع عشر من أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٦ عندما عبر الأمير عن اعتقاده بأن والده ليس أقل من ملك الجبل الأسود فى أحقيته فى حمل لقب الجلالة ، حاول (ستورز) أن يثنيه على أساس أن الملك نيقولا عندما أعلن نفسه ملكا كان يسيطر على كل الجبل الأسود وهو أمر لم يتحقق بالنسبة للشريف ، إذ لا يزال الخطر يتهدده من رابغ والمدينة ، كما أن هذا الإعلان سيثير كثيراً من الشكوك والعداء من جانب إمام اليمن والإدريسى وابن سعود وآخرين[3] .

وعلى الرغم من أن الملك حسين أبرق إلى الفاروقى بهذا القرار إلا أن

---

(١) العمرى : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٣١٦ .

(٢) العمرى : نفس المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٥ .

(٣) Storrs : Ouv. Cit, p. 207

السلطات البريطانية فى مصر احتجزت البرقية عن الفاروقى إلى أن علم هذا بالنبأ عن طريق غير رسمى ، وعندئذ اضطرت السلطات البريطانية إلى تسليمه للبرقية وكلفته فى الوقت نفسه بعدم إذاعة الخبر [١] ذلك أن سلطات الحلفاء لم تكن مرتاحة لهذه الخطوة واعتبرتها خطوة غير حكيمة وسابقة لأوانها لأنها كانت تخشى نفور أمراء العرب الآخرين التى كانت بريطانيا تعترف بمراكزهم فى أقاليمهم .

ويذكر بريمون أن سى قدور بن غبريط علل هذه الخطوه من جانب الشريف — وذلك فى تقرير رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسية — بأنها كانت نتيجة الصمت الذى يلتزمه الحلفاء إزاء أطماع الملك فى توسيع حدود ممتلكاته .

وأخذ الفاروقى — مندوب الشريف فى القاهرة — يبذل مساعيه لدى سلطات الحلفاء فى القاهرة من أجل الاعتراف باللقب الجديد ، إلا أن ممثلى الحلفاء أخذوا يسوفون ويماطلون بحجة التباحث حتى يمكن معرفة صدى مثل هذا النبأ على العالم الإسلامى [٢] .

واستمر الفاروقى فى مساعيه محاولا إقناع المسئولين البريطانيين والفرنسيين بأن لفظ ملك العرب لا يشمل مصر والجزائر وتونس ومراكش ، وألح من أجل سرعة اعتراف الحلفاء باللقب تشجيعاً للعرب [٣] كما حاول الشريف أن

---

(٣) العمرى : مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ٧٦/٧٧ (برقية الفاروقى إلى وكالة الخارجية بمكة فى ٨ من المحرم ١٣٣٥ هـ) .

(١) العمرى : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢٦ (رسالة الفاروقى إلى الأمير عبد الله وكيل الخارجية فى ١٣ محرم ١٣٣٥ هـ) .

(٢) العمرى : نفس المرجع جـ ١ ص ٣٣٥/٦ (برقيات الفاروقى إلى الأمير عبد الله فى ٢١ و ٢٢ محرم ١٣٣٥ هـ) .

يذكر المسئولين البريطانيين بأنهم سبق وأبدوا استعدادهم للاعتراف له بلقب الخلافة العربية وسلطان العرب بما لها من سلطة واسعة ، ولكن هذه المحاولات لم تجد أية استجابة من جانب السلطات البريطانية[١] .

وقد تبادلت الحكومتان البريطانية والفرنسية الرأى فى هذا الموضوع واستقر الرأى على الاعتراف بالحسين ملكا على الحجاز فقط ، وفى الثالث من يناير (كانون ثان) ١٩١٧ قام ابن عزوز ممثل الجمهورية الفرنسية فى مكة بمقابلة الشريف حسين وسلمه خطاباً من الكولونيل بريمون يحمل اعتراف الحكومة الفرنسية به ملكا على الحجاز ، وفى الوقت نفسه سلمه الكولونيل ولسن مذكرة مماثلة تتضمن اعتراف الحكومة البريطانية به ملكا على الحجاز كما فعلت فرنسا[٢] . وعندما علم الفاروقى بهذا الاعتراف كتب إلى وكالة الخارجية العربية بمكة يذكر أنه « لما كان هذا الإعلان يكدر جميع المحبين » فهو يسأل صاحب الجلالة فيما يجب عليه عمله[٣] فرد عليه الملك حسين بأنه « لا لزوم لهذه المساعى لأنها تخل بما نحتاج لباقى الأعمال وتحدث مواضيع دقيقة »[٤] .

وهكذا نرى أن الحسين كان يشعر بالمرارة لموقف الحلفاء عامة وبريطانيا على وجه الخصوص من مسألة لقب ملك العرب إلا أنه لم يشأ أن يثير من وراء ذلك الحادث أزمة لا يدرى نتائجها .

---

(١) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٣٧/٨ (رسالة من فؤاد الخطيب نائب وكيل الخارجية العربية بمكة إلى الفاروقى فى ٢٥ محرم ١٣٣٥ هـ) .

(٢) Antonius : Ouv. Cit. p 213

(٣) العمرى : المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٩ (من الفاروقى فى ٢٨ صفر ١٣٣٥هـ) .

(٤) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٤٩ (برقية من أحمد فوزى العسكرى نائب وكيل الخارجية إلى مندوب الحكومة العربية فى القاهرة فى ٢ ربيع الأول ١٣٣٥ هـ) .

وفى الثانى من ربيع الأول ١٣٣٥هـ نشرت الصحف فى مصر البلاغ التالى « اعترفت الحكومة البريطانية وحكومة جمهورية فرنسا رسمياً بشريف مكة الأعظم ملكا على الحجاز »[1] .

انشاء الجيش العربى :

وإذ أيقن الشريف حسين صعوبة الحصول على قوات أجنبية لمعاونته ، رأى أن يعمل على إنشاء قوة نظامية ، ولما كان هذا العمل يحتاج إلى ضباط أكفاء للقيادة والتدريب وإلى جنود مدربين يؤلفون نواة الجيش النظامى فقد جرت مداولات بين الشريف وولاة الأمور البريطانيين ، وتقرر أن يستعان على تحقيق هذه الغاية بالضباط والجنود العرب الذين أسرهم البريطانيون فى ميادين فلسطين والعراق وغاليبولى وعلى حدود مصر الغربية فى أثناء هجمات السنوسيين ، على ان تقدم بريطانيا إلى هذا الجيش ما يحتاج إليه من عتاد ، وأخذ الشريف يلح .. منذ الشهر الثانى للثورة على الفاروقى مندوبه فى القاهرة من إيفاد الضباط والجنود العرب إلى الحجاز لتشكيل الجيش النظامى .

ومن مراسلات الحسين مع الفاروقى يتضح لنا أن البريطانيين كانوا يرتابون فى بعض الشخصيات العربية وولائها للشريف ولحليفته بريطانيا على وجه الخصوص ، ولذلك فقد أبلغ الكولونيل ولسن الشريف بأن الحكومة البريطانية لا تتحمل أية مسئولية فيما يترتب على وصولهم إلى الحجاز ، كما

---

(١) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٠٨ و

National Archives, Yale,s Rep. no. 2 (Nov. 5 1917) « The Arabia and Hedjaz Situation, ».

أثار مخاوف الشريف ، ولذلك أمر مندوبه فى القاهرة بأن يؤكد للسلطات البريطانية أن طلب الأسرى متوقف على مدى استحسان وموافقة المعتمد البريطانى وأنه لن يقبل أى ضابط أو جندى إلا إذا كان موضع ثقة المسئولين البريطانيين [١] .

وقد غادرت أول مجموعة من العرب السويس فى شوال ١٣٣٤ (أول أغسطس « آب » ١٩١٦) وكانت تتألف من سبعة من الضباط من بينهم نورى السعيد وعدد من الجنود ، يرافقهم الدكتور أمين المعلوف اللبنانى ومعه مستشفى متنقل لمائة جريح [٢] .

ولما كان الشريف فى حاجة إلى شخصية عسكرية قوية تتولى قيادة الجيش النظامى المزمع تكوينه فى الحجاز فقد طلب من الفاروقى أن يختار له شخصية تتصف بالكفاءة والمقدرة على الاضطلاع بهذا العمل ، فرد الفاروقى بأنه لم يجد أنسب ولا أكفأ من عزيز على المصرى [٣] . وغادر عزيز على المصرى القاهرة فى ٨ ذى القعدة ١٣٣٤هـ (سبتمبر - أيلول ١٩١٦) إلى جدة ومنها إلى مكة حيث قابل الشريف ، ولم تطل إقامته فيها بل غادرها على الفور إلى رابغ حيث كانت الأزمة على أشدها بسبب تعرضها للخطر من جانب الترك فى المدينة ، وفى رابغ تقابل عزيز على مع نورى السعيد ورفاقه ممن سبقوه إلى الحجاز ، وتعاونوا معه فى استقبال الوافدين إلى الحجاز من الضباط والجند العرب ، والمعدات ، واستطاعوا فى البداية تكوين فوجين من المشاة وفوج رشاش وبطارية مدافع .

---

(١) المصرى : المرجع السابق جـ ٢ ص ٨٢ (برقية من مكة فى ١٨ ربيع الثانى ١٣٢٥ هـ إلى مندوب الحكومة العربية فى مصر) .

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى جـ ١ ص ٢١٨/٢١٧ .

(٣) المصرى : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٩٤/٢٩٣ (رسالة الفاروقى فى ٩ شوال ١٣٣٤ هـ) .

اسباب تخلي عزيز علي المصري عن منصبه :

إلا أن إقامة عزيز علي المصري لم تطل في الحجاز إذ انسحب بعد ثلاثة أشهر عائداً إلى مصر ، وقد اختلفت الآراء في تعليل انسحابه ، فيذهب (ستورز) إلا أنه كان ثمة تفكير في الاستفادة من حماس وخبرة هذا الضابط العربي الكفء بمنحه استقلالا في القيادة وميزانية معقولة حتى يستطيع تدريب قوة إن لم تستطع التقدم نحو المدينة فلا أقل من أن توصد الطرق الجنوبية في وجه قوات الترك ، إلا أن الشريف وأولاده كانوا يريدون الاحتفاظ بالسيطرة العليا كاملة على كل العمليات ، كما أنهم في تصرفاتهم كانوا يخشون أن يكون عزيز علي لا يزال على أفكاره الاتحادية ، وقد يقيم نفسه مثل أنور باشا أو قد يكون عميلا للأتراك ، ولو أن ستورز يعتقد أنه لم يكن ثمة ما يبرر هذه المخاوف مادام الأشراف يحتفظون بالمالية ويستطيعون غل يد عزيز علي متى شاءوا فيصبح لا حول له ولا قوة[1] .

ويذهب البعض إلى أنه قد نشب بين عزيز علي وبين المسئولين البريطانيين خلاف بسبب إلحاحه على الشريف لكي يطلب من البريطانيين إرسال المدافع التي غنموها من الترك في جبهة فلسطين حيث كان لديه من أفراد القوة العربية مدفعيون يستطيعون استخدامها ، ولما لم يستجب البريطانيون لهذا الطلب قال ما معناه إن البريطانيين يريدون القضاء على العرب والترك على السواء ، بتركهم يفني بعضهم بعضاً ، ويعتقد البعض أن هذه الأقوال وصلت إلى مسامع الشريف والبريطانيين فألح هؤلاء على الشريف من أجل إقصائه منتحلين شتى الأعذار ، فأرسل الشريف حسين تعليمات سرية إلى الأمير علي في رابغ لكي يوعز إليه بطلب أجازة ، فأدرك عزيز علي ما يجري في الخفاء فطلب أن يسمح له بالعودة بعد أن أتم إنشاء ثلاثة أفواج

(١) Storrs : Ouv. Cit. p, 214.

من المشاة وثلاث بطاريات مختلفة الأحجام وفوج من الهجانة وسرية من المهندسين[1] . وحل محله نورى السعيد فى رئاسة أركان حرب الجيش كما حل محله محمود القسيونى فى رئاسة الجند بمكة (وزارة الدفاع) .

ويعلل أنطونيوس[2] انسحاب عزيز المصرى بحبه للدقة المتناهية مما أدى إلى حدوث خلاف بينه وبين الشريف ، وهذا تعليل غريب لأن الدقة لا تؤدى إلى خلاف وخاصة فى الأمور العسكرية أما أمين سعيد فيذهب إلى أن سبب تبرم عزيز على المصرى وخلافه مع الشريف هو ضجره من مماطلة الإنجليز فى إرسال المدافع اللازمة للعاملين فى صفوف ثورة الحجاز .

ويروى الفاروقى أنه بعد نشوب الثورة اقترح قاضى القضاة فى الحكومة الحجازية — الشيخ عبدالله سراج — على الشريف حسين استقدام عزيز المصرى ليقوم بتنظيم جيش عربى نظامى ، ولكن الشريف ظل متردداً بعض الوقت فى دعوة عزيز المصرى إلى الحجاز ، لما له من الحياة السياسية العجيبة والعزم والثبات بأفكاره دون سواها ، وأخيراً وبعد تردد وافق الشريف ، وكتب قاضى القضاة يدعو عزيز المصرى إلى الاشتراك فى الثورة[3] .

ويبدو أن الشريف كان يبحث عن شخصية أخرى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة بدلا من عزيز المصرى وعهد بذلك إلى الفاروقى ليبحث عن ضابط كفء ، فرد عليه الفاروقى بأنه « لا يوجد غير عزيز بك لها ، ولتهيئة الأمور المستقبلة عند سيدى ، وأرجو من مولاى أن يثق فى إخلاصه »[4].

(١) المصرى : المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٨

(٢) Antonius : Ouv. Cit, p, 212

(٣) المصرى : المرجع نفسه ج ١ ص ٣٢٧/٣٢٨ .

(٤) المصرى : المرجع نفسه ج ١ ص ٣٩٣/٣٩٤ (رسالة الفاروقى بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٤ هـ) .

كما يبدو أن عزيز المصرى نفسه لم يكن راغباً فى البداية فى السفر إلى الحجاز لأن الفاروقى يذكر الشريف أن عزيز المصرى وافق بعد مناقشه طويلة معه، خرج بعدها الفاروقى مقتنعاً بإمكان الاعتماد عليه اعتماداً تاماً «وأيقنت بشدة وطنيته بمولاى . . . »[١].

ويذكر الفاروقى أن ثمة أسبابا عدة لعدم استمرار عزيز على المصرى فى مهمته يذكر منها خلافه مع الرئيس المدفعى رشيد لأسباب تافهة[٢].

كما يذكر الفاروقى أن أهم سبب جعل عزيز المصرى لا ينال ثقة الملك هو تعوده على الطاعة العمياء وإصراره على تنفيذ الخطة التى يراها ، ويضيف الى ذلك أن بعض الضباط أشاعوا أن عزيز المصرى يتخابر مع الترك تمهيداً للانضمام إليهم إذا هم اعترفوا باستقلال البلاد العربية فلما سمع الملك حسين بذلك غضب عليه وأصدر أوامره بتنحيته عن قيادة الجيش الحجارى[٣].

أما فايز الغصين فإنه يذكر عدة أسباب للخلاف بين عزيز المصرى من ناحية وحكومة الشريف من ناحية أخرى ، فيذكر أن خلافا نشب بين الأمير على والضباط فى رابغ وعلى رأسهم عزيز على ، ذلك أن أحد الضباط أمر بسجن جندى ، فشكا هذا للأمير على الذى أمر بإطلاق سراحه ، ولما وصل الخبر إلى عزيز على اجتمع بالضباط واستقر رأيهم على ضرورة الاستقالة من

---

(١) العمرى : المرجع نفسه ج ١ ص ٢٨٦/٢٨٨ (رسالة الفاروقى فى ٢٤ رمضان ١٣٣٤ هـ) .

(٢) العمرى : المرجع نفسه ج ١ ص ٣٣٥ ، ٣٧٨ (رسالة من فؤاد الخطيب نائب وكيل الخارجية بمكة إلى شريف الفاروق فى ١٧ محرم ١٣٣٥ هـ) .

(٣) العمرى : المرجع نفسه ج ١ ص ٣٧٩ .

الجيش الحجازى والعودة إلى بلادهم بسبب تدخل الأمير الذى سوف يؤدى — فى نظرهم — إلى الفوضى فى الجيش ، وقد أدى ذلك إلى غضب الأمير.

وفى الوقت نفسه — كما يقول الفصين — كان ضابط الاتصال البريطانى — باركر — قد أرسل إلى الأمير على مذكرة يطلب فيها الإسراع بإقامة الاستحكامات حول رابغ لاحتمال هجوم الترك عليها من المدينة ، فأحال الأمير المذكرة إلى عزيز على فى أثناء بحث مسألة الاستقالة مما زاد الضباط سخطا إذ اعتبروها تدخلا فى أمور من صميم اختصاصهم .

وعلى الرغم من أن الفصين (١) يذكر أن المسألة سويت فإنه يعود ليذكر أن عزيز المصرى « لم يكن من الساسة الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ، فشرع منذ اليوم الأول الذى وطأت فيه قدماه أرض الحجاز يدلى بآرائه بصراحة ويقول بأنه من الموافق للترك والعرب أن يكونوا كالنمسا والمجر ، وأنه يجب أن يتحرك جزء من القوة الموجودة فى الحجاز إلى الشام لإشعال الثورة فيها وحينئذ يضطر الترك إلى الصلح على هذا الأساس ويكون الألمان كفلاء عليهم ، وصار عزيز يبوح بما يكن فى صدره من هذه الأفكار بما لا يتناسب مع أفكار الملك حسين وحلفائه الإنجليز والفرنسيين »(٢) ، بل لقد تواترت الشائعات بأن بعض الضباط يتخابرون مع ضباط الحامية التركية فى المدينة ويبحثون معهم هذه الأفكار مما سبب اتساع شقة الخلاف بين عزيز المصرى والملك حسين .

من هذا يظهر لنا أن ثمة عاملا أساسياً لنفور عزيز المصرى ألا وهو

---

(٢) فايز الغصين : مذكراتى عن الثورة العربية ص ٢٢٨-٢٣٦ .
(١) فايز الغصين : المرجع نفسه ص ٢٣٨-٢٣٩ .

عدم قيام بريطانيا بالالتزامات التى يفرضها عليها التعاون مع الشريف حسين من حيث تقديم المعونة العسكرية الفعالة التى تمكنهم من تحقيق أهدافهم مما جعل عزيز المصرى يشلك فى صدق نوايا بريطانيا نحو العرب ، ولا شك أن عزيز المصرى إذا كان ينادى بالتفاهم مع الترك فإنما ذلك بسبب يأسه من جدوى التفاهم مع بريطانيا ، وكما سبق القول لم يكن عزيز المصرى موافقا على الانضمام إلى بريطانيا منذ البداية لعدم تقديمها وعداً صريحا تؤيد فيه استقلال العرب ، وإذا كان انطونيوس يذكر أن عزيز المصرى وافق على السفر إلى الحجاز بعد ما علم بمذكرات الحسين — مكماهون فمن المحتمل جداً ألا يكون قد وقف على حقيقة ما ورد فى هذه المراسلات من وعود غامضة غير محددة تنتقص من قيمتها عدة تحفظات خطيرة ، ولعل عزيز المصرى — بعد وصوله إلى الحجاز — فهم حقيقة وعود بريطانيا وتأكد من تسويفها بسبب سياستها فى إمداد الثورة باحتياجاتها فأصبح يرى أن التحالف مع الترك أجدى على العرب ، وقد أورد أكثر من كاتب من الكتاب الذين عرضنا آراءهم ميل عزيز المصرى للتفاهم مع الترك ، فالفاروقى كان مندوب الشريف فى مصر ، والغصين كان فى الحجاز ، وفى رابغ بالذات حيث كان يعمل عزيز المصرى وظل الغصين فى رابغ إلى أن غادرها فى ٦ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٦ وهكذا وجد الشريف والمسئولون البريطانيين أن عزيز المصرى ليس بالرجل الذى يمكن أن يسلس قيادة ويحركوه كيفما شاءوا .

وبينما كان عزيز على المصرى ونورى السعيد ومن معهما من الضباط يعملون على إنشاء قوة عسكرية نظامية فى رابغ . كان مولود مخلص (الموصلى) وعبد الله الديلمى وراسم سرادست يعملون على تكوين قوة نظامية أخرى فى ينبع ، فتولى الأول تنظيم قوة من الخيالة ، والثانى قوة من المشاة ، والثالث

قوة من المدفعية ، وهذه القوات النظامية جميعاً هى التى انبثق عنها الجيش الشمالى الذى اتجه إلى العقبة ومنها إلى الشام [١].

وكان ختام العمليات الحربية فى المرحلة الأولى دخول العرب بقيادة فيصل ــ ميناء الوجه فى الخامس والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٧ ، وبذلك ضاع أمل الترك فى إمكان استعادة مكة وصار فيصل يتخذ من الوجه قاعدة لعمليات حربية أوسع نطاقا .

فقد كان سقوط الوجه على جانب كبير من الأهمية ، حتى أن الشريف على حيدر الذى عينته حكومة الاتحاديين فى شرافة مكة بعد ثورة الشريف حسين طلب السماح له بمغادرة الحجاز بعد أن فقد الأمل فى إمكان القضاء على الثورة [٢].

وكان على حيدر يكره الحسين ويعتبره مغتصبا الامارة ، ولذلك فإنه عندما اتصل به طلعت وزير الداخلية قبل دون تردد أن يذهب إلى الحجاز وأعلن أنه لن يضع شروطا فى ذلك الوقت ، ولكن أخبره أنه عندما ينجلى الموقف سيجعل بقاءه فى مركزه رهنا ببعض الاعتبارات الهامة التى كان يعتقد أن الحكومة سوف تقبلها . وقد أكد له طلعت أن الحكومة سوف تقبل الشروط التى يقدمها [٣] .

وقد كانت الحكومة التركية ترغب فى رحيل على حيدر بأسرع ما يمكن إلى المدينة مقر قيادة فخرى باشا القائد العثمانى ، وكانت تعتقد أن وجود

---

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢١٩/٢٢٠ .

(٢) Antonius : Ouv. Cit. p. 214 .

(٣) Stitt : Prince of Arabia (1948) p. 161 .

على حيدر فى المدينة سيكون له أثره على القبائل التى أغراها الحسين بالأموال البريطانية .

وقد وصل على حيدر إلى المدينة فى أول أغسطس (آب) ١٩١٦ وعلى الرغم من تجميع نحو خمسة عشر ألفاً من رجال القبائل حوله فقد كان فى حاجة ماسة إلى السلاح ، كما اتصل على حيدر – بعد وصوله إلى المدينة – بحكام شبه الجزيرة الآخرين الذين أعربوا عن استعدادهم للمشاركة فى القضاء على الحسين ومنهم ابن سعود [1] ولو أننا نعتقد أن ابن سعود وكذا الإدريسى لم يكن فى مقدورهما النيل من الشريف بحكم اتفاقهما مع بريطانيا .

صدى ثورة الشريف حسين :

وقبل أن نستطرد فى متابعة أحداث الثورة وعملياتها العسكرية يجدر بنا أن نقف لنتبين مدى الأثر الذى أحدثته فى مختلف الدوائر بين الأتراك وحلفائهم ، أما فى مقر الدولة العثمانية فقد أصيبت السلطات التركية بالذهول ووقع الخبر عليها وقع الصاعقة وحاولت إخفاءه عن الرأى العام علها تستطيع إخمادها والقضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها ويذيع خبرها ، ولذلك ظلت التصريحات التركية الصادرة طوال شهر يونيو (حزيران) تنكر وجود أية ثورة فى الحجاز ، وفى التاسع والعشرين من هذا الشهر فقط ظهر أول اعتراف مثلا فى بيان نشر فى صحيفة (الشرق) يقول إن جماعات من القبائل قد هاجمت بعض المواقع بجوار المدينة ، ولكن البيان لم يشر إلى سقوط مكة وجدة ولم يذكر اسم الشريف حسين .

وجاءت أول إشارة إلى الشريف حسين فى الثانى من يوليو (تموز)

---

(١) Ibid : pp. 169 — 176

عندما صدر أمر سلطانى بعزله - دون إبداء الأسباب — وتعيين الشريف على حيدر أميراً على مكة مكانه ، وكان على حيدر وكيلا لمجلس الشيوخ العثمانى ووزيراً سابقاً للأوقاف، وأرسل بقطار خاص من الآستانة إلى دمشق ومنها إلى المدينة (١).

وكانت الحكومة العثمانية تهدف من وراء تعيينه إلى استمالة القبائل لمعاونتها ضد ثورة الشريف ، وقد أذاع منشوراً على أهالى الحجاز بعد وصوله فى أوائل سبتمبر (أيلول) متهما الحسين بالانضمام إلى دولة مسيحية ضد الخلافة الإسلامية فى الوقت الذى تقف فيه ألمانيا إلى جانب تركيا ضد الدول المسيحية (٢).

ففى العاصمة التركية — كما تقول رسالة من سفارة الولايات المتحدة — اقتصرت أنباء الثورة على مجرد شائعات لم تلبث أن تأكدت بتعيين الشريف على حيدر عضو مجلس الشيوخ أميراً جديداً على مكة .

وكما يقول التقرير الأمريكى ، غادر الأمير الجديد الآستانة متجها إلى مقر منصبه محاطاً بالكثير من مظاهر التفخيم ، وكانت الصحف التركية تعلن من حين لآخر نبأ وصوله إلى المدن المختلفة الواقعة على طريق الرحلة « ولكن السفارة الأمريكية لم تسمع أنه وصل إلى أبعد من دمشق » .

وفى السادس والعشرين من يوليو (تموز) ١٩١٦ نشرت صحيفة (طنين) مقالا افتتاحياً بإيعاز من الحكومة ، عبرت فيه عن وجهة النظر الرسمية إزاء الأحداث الجارية فى شبه الجزيرة العربية ، وكان مقال طنين — الذى بعثت السفارة الأمريكية بترجمة له إلى وزارة الخارجية الأمريكية — يهدف إلى

---

(٢) أمين سعيد مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٥٨ .

(٣) نص المنشور فى العمرى ج ١ ص ٢٧ — ٢٩ .

التصغير من شأن الشريف ، وتقليل أهميـــة الثورة ، وعزت الصحيفة الاضطرابات والقلاقل إلى طمع « الأمير السابق حسين باشا » وأكدت أن الأمر لا يتعلق بالجهاد ولا بالعرب أو الإسلام ، وأن مصير حسين -- فى رأى الصحيفة — سيكون الخسران المبين ، كغيره من المغامرين الذين حفل بهم تاريخ الدولة العثمانية على مدى ستة قرون .

وأضاف مقال (طنين) أن أعداء الدولة وخصوصاً الانجليز أعداء الإسلام الذين دبروا المؤامرة مستخدمين ذهبهم البراق « سوف يحاولون أن يضفوا على هذه المسألة مظهراً عربياً فتبدو مسألة إسلامية ، بينما هى فى واقع الأمر جريمة فردية من جانب الأمير السابق حسين باشا » .

وحملت الصحيفة على الشريف حسين واتهمته ببيع نفسه مقابل ذهب الإنجليز الذين يحاولون تحقيق أهدافهم ببث الفتنة ، والوقيعة بين المسلمين ، فخدعوه بمعسول الوعود والأوهام .

وفى اليوم التالى ، ٢٧ يوليو (تموز) ١٩١٦ ، نشرت صحيفة (تصوير أفكار) تعليقا على هذا الموضوع ، يتضمن لقاء مع طلعت بك وزير الداخلية ، وكان المقال بعنوان : « الفساد فى مكة » (مكة ده كى فساد) [١] .

واستمرت الصحافة التركية - لبضعة أشهر - تصف حركة الشريف بأنها عصيان لدوافع شخصية ، وبتحريض من بريطانيا ، وأنه سوف يقضى عليه بمساعدة شعب الحجاز وقبائله « التى لا تزال على ولائها للخلافة ووصايا الرسول فيما يختص بواجب الجهاد المقدس » .

---

(١) National Archives; Microcopy no - 353. from U.S. Embassy, Constantinople, to Secretary of State, Washington, no. 1620, (August 3, 1916) — Enclosures .

وفى لقاء بين القائم بالأعمال النمساوى ووزير الخارجية التركية دار البحث حول الموقف فى الحجاز ، وفى هذا اللقاء حاول وزير الخارجية التركية أن يظهر للقائم بالأعمال النمساوى أن الأمر غير خطير ، وأن الموقف من الناحية العسكرية هادىء للغاية ، وأن القوات التركية الموجودة فى الحجاز وما سيرسل اليها من تعزيزات قادرة على إخضاع الحجاز تماما ، هذا على الرغم من أن وزير الخارجية التركى لم يستطع أن يكذب سقوط جدة ، وكان مصدر اطمئنان الوزير العثمانى أن الجنود الأجانب لن يستطيعوا التوغل فى الحجاز .

وقد حاول القائم بالأعمال النمساوى أن يوضح لحكومته أن الحل السليم المشكلة فى يد ساسة الترك ، إذا ما حاولوا أن يقللوا من حدة الموقف بطريقة أكثر حكمة ، حيث أنهم بحكم جمال باشا التعسفى فى الشام وبالمشانق التى نصبت للعرب قد خلقوا جواً من القلق والتوتر »[١] .

وكما تذكر الوثائق النمساوية أيضاً أنه كان لضرب جدة بقنابل الأسطول البريطانى تأثير سيء للغاية على القيادة العامة للجيش الرابع[٢].

فى الشام :

وفى الشام قام الترك باتخاذ إجراءات خاصة للتقليل من شأن ثورة الشريف حسين وذلك بنشر مقالات موعز بها ظهرت فى صحيفة (الشرق)، وأخذ جمال باشا يصب جام غضبه على زعماء العرب وقادتهم الذين أفلتوا من قسوته فى المرات السابقة فقام بحملة اعتقالات واسعة وزج بالمعتقلين فى السجون ،

---

(١) الوثائق النمساوية : رسالة من القائم بالأعمال لمملكة النمسا والمجر إلى وزير الخارجية النمساوية بتاريخ ٨ يوليو (تموز) ١٩١٦ .

(٢) الوثائق النمساوية ، من ضابط النمسا والمجر لدى الجيش الرابع التركى بتاريخ ٢٥ يونيو (حزيران) ١٩١٦ رقم ٣٠٧ .

وأنزل بهم مختلف أنواع التنكيل والتعذيب ، ومنهم شكرى باشا الأيوبى الذى جلد رغم تقدمه فى السن ، وعبد الحميد القلطجى ، وزكى العظمة وهما من كبار الضباط العرب فى الجيش التركى ، وفارس الخورى وهو من النواب المسيحيين فى مجلس النواب العثمانى ، وشكرى القوتلى الذى كان عضواً فى جمعية الفتاة ، وبدا من جمال باشا اتجاه نحو تنفيذ حكم الاعدام فى كثير من المعتقلين ، لولا أن الأمير فيصل كتب إليه يحذره من أنه إذا أعدم أحداً من الضباط المعتقلين فإنه سوف يثأر من الضباط الترك الذين وقعوا فى أسر القوات العربية فى مكة والطائف[1] .

ولم يقتصر انتقام جمال باشا على الاعتقالات بل إنه قام بنفى كثير من الشخصيات العربية من الشام إلى الأناضول ، كما اشتدت وطأة الأحكام العرفية وفى أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٦ ألغيت الامتيازات الخاصة بالحكم الذاتى التى كان يتمتع بها لبنان منذ عام ١٨٦٤ ووضع الاقليم تحت الادارة التركية المباشرة

ومما زاد الأمر سوءاً تلك المجاعة التى اجتاحت البلاد ، إذ أغار الجراد عليها فى ربيع ١٩١٥ ، هذا إلى جانب حصار أساطيل الحلفاء لسواحل الشام ، وقيام جمال باشا بجمع المحصولات لتموين القوات التركية والألمانية ، وعلاوة على جشع الانتهازيين من الموظفين وبعض التجار الترك[2] .

ويتضح لنا مدى حنق جمال باشا على الشريف حسين من ذلك الحديث الذى ألقاه فى حفل أقيم فى دمشق ونشر فى صحيفة (الشرق)

---

(١) Autonius : Ouv. Cit. pp, 201-202

(٢) Antonius : Oun. cit. pp. 203-204 : Zeine : Arab - Tutkish Relations, p. 102 .

فى عددها الصادر فى ٢٣ يناير (كانون ثان) ١٩١٧ عند ما قال إنه « لم يقف فى طريق الجهاد المقدس سوى فرد واحد فى قلب الأماكن المقدسة الإسلامية وتحالف مع الدول غير الإسلامية التى تهدف إلى نهب العالم الإسلامى ، وقد أرغم هذا الشخص الإمبراطورية العثمانية على أن ترسل ضده قوات كان يجدر إرسالها لهزيمة البريطانيين واستعادة القاهرة ، والعمل الذى قام به هذا (الخائن) إنما يهدف إلى خدمة بريطانيا ولكنه لن يحول دون أن يكون النصر النهائى للاسلام » [1] .

ويذكر ساندرز أنه نتيجة لعسف جمال باشا فى الشام كانت هناك قلاقل واضطرابات فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٦ قرب دمشق ولم تخمد إلا بعد تدخل القوات المسلحة التركية [2] .

ومن أجل تعريض الرأى العام الإسلامى على الشريف كتب الاتحاديون إلى السيد السنوسى فى برقة واستحصلوا منه على بلاغ نشروه بين القبائل العربية ليحط من قدر الشريف فى العالم الإسلامى [3] .

وقد كان تأثير الثورة العربية على الترك عظيما حتى أن بعض الترك — ولو أنهم قلة — أصبحوا يطالبون بمنح العرب استقلالا ذاتيا .

أثر الثورة على الألمان

ولم يكن اضطراب الألمان بأقل من اضطراب حلفائهم الترك ، حتى لقد قام قناصلا ألمانيا والنمسا فى دمشق بزيارة جمال باشا مستفسرين ، فأخذ يطمئنهما بأنها حركة محلية بسيطة لن يطول أمرها بل سيقضى عليها سريعا ، ولقد كان

(١) Antonius : Ouv. Cit p. 208

(٢) Sanders : Five Years in Turkey, p. 140

(٣) نص البلاغ فى العمرى : تاريخ مقدرات العراق السياسية ج ٢ ص ٤٣ .

لهم عذرهم فى هذا القلق لأن الثورة فى الحجاز من شأنها أن تقلب خطط الألمان رأسا على عقب ، كما كان الألمان يقدرون الأثر الأدبى للثورة أكثر من الأثر المادى ، وقد صرح بعض قادتهم العسكريين فى دمشق بأن الألمان كانوا يعولون ـ من وراء كسب الترك إلى جانبهم ـ على هيبة الخلافة الإسلامية وجلالها فى نفوس المسلمين ، وأن خروج الشريف قد أضاع الكثير من هيبة الخلافة[1] .

وإلى جانب هذا الأثر المعنوى كان للثورة أثر مادى ملموس على خطط الألمان العسكرية ، ذلك أنه عند نشوب الثورة كانت بعثة عسكرية ألمانية مؤلفة من وحدتين لاسلكيتين وبعض الضباط والجنود بقيادة فون ستوتزنجن Von Stotzingen قد سلكت طريقها إلى شبه الجزيرة للعمل مع قوة خيرى باى التركية فى اليمن لفتح مجال جديد للعمل ضد الحلفاء ، وكان الهدف الأول لبعثة ستوتزنجن إقامة مركز للاتصال بين جنوب شبه الجزيرة العربية وقيادة الجنرال الألمانى لتوف فوربك فى شرق أفريقية الألمانية وربطهما بألمانيا ذاتها ، ثم كان من مهام هذه البعثة أيضا تنظيم إرسال الأسلحة والإمدادات عبر البحر الأحمر إلى الحبشة لإثارة القلاقل فى إرترية والصومال والسودان[2] .

وعندما نشبت الثورة فى الحجاز كانت هذه البعثة الألمانية فى ينبع فهرب أفرادها وتشتتوا وعاد قائدها وبعض ضباطه إلى دمشق . وليس أدل على الخطر الذى كان من الممكن أن ينجم عن القوة التركية الألمانية من اعتراف البعض بأنه كان من الممكن أن تؤدى هذه الحملة إلى مباغتة عدن والاستيلاء عليها والقضاء على الإدريسى وتقوية مركز الإمام يحيى فى جنوب شبه الجزيرة

---

(١) أمين سعيد مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٦٥ .

(٢) Antonius : Ouv. Cit. pp. 208-9

العربية ، بالإضافة إلى ما قد تثيره فى منطقة البحر الأحمر ، وقد أفسدت الثورة العربية كل هذه الخطط والاحتمالات وقضت عليها[١] .

ويعترف بريمون Bremond رئيس البعثة الفرنسية للحجاز بأن الثورة العربية أسدت للحلفاء خدمة عظمى إذ أحبطت الحملة التركية الألمانية التى كانت متجهة إلى اليمن التى كان فى استطاعتها تعريض الحلفاء لخطر كبير ، وان هذه الحملة لو نجحت فى خططها لأوصدت البحر الأحمر فى وجه الحلفاء ونقلت العمليات الحربية إلى المحيط الهندى[٢] .

فى العراق :

أما فى العراق فإنه لم يكن لثورة الحجاز رد فعل واضح سواء فى ذلك الجزء الذى كان لا يزال فى قبضة الترك والذى كان حكامه يتبعون فيه نفس الإرهاب الذى كانوا يتبعونه فى الشام ، أو فى المناطق التى صارت خاضعة للاحتلال البريطانى ، إذ أن المجتمع العراقى — على عكس المجتمع الشامى — كانت تنقصه طبقة المثقفين لأن العراق لم يشهد النشاط التبشيرى الذى شهده الشام والذى أدى إلى خلق مدارس فكرية قومية عربية واضحة المعالم ، ولكن المدرسة البارزة التى عرفها العراق هى المدرسة العسكرية[٣] .

ولذلك فإن الزعماء الوطنيين فى العراق كانوا من ضباط الجيش أكثر منهم من القادة الفكريين ، وهؤلاء الضباط كانوا يخدمون فى مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية ، وكانوا هم العمود الفقرى لجماعة العهد ثم صاروا

---

(١) Official History of the War - Military Operations in Egypt and palestine, Vol- I, p. 230 .

(٢) Antonius ; Ouv. Cit. p. 210.

(٣) دكتور محمد أنيس : جماعة الأهالى ونشأة اليسار العراقى ، مجلة الهلال ، العدد الأول ، السنة ٧٣ ص ٤٧ .

دعامة القوات العسكرية التى انبثقت من الثورة ولعبت فيها دوراً هاماً بعد أن وقعوا فى الأسر وانضموا إلى قوات الشريف .

أما فى مناطق العراق التى خضعت فى ذلك الوقت للاحتلال البريطانى فقد كان صدى ثورة الشريف مرتبطا بموقف حكومة الهنـــد عموما من هذه الثورة .

صدى الثورة فى شبه الجزيرة العربية :

أما فى شبه الجزيرة ذاتها ، فعلى الرغم من أن ابن الرشيد والإمام يحيى ظلا على ولائهما للدولة العثمانية إلا أن الثورة حرمتهما من المعونة التى كانا يتوقعانها من الترك .

أما بقية أمراء شبه الجزيرة فقد رحبوا بالثورة وأعلنوا تأييدهم لها ، وذلك فى الاجتماع الذى عقد بالكويت فى العشرين من نوفمبر (تشرين ثان) وحضره ابن سعود وأمير الكويت وشيخ المحمرة وزعماء القبائل القوية ، وفى هذا الاجتماع حث ابن سعود العرب جميعاً على تأييد الثورة ، وألا يألوا جهداً فى سبيل تأييد مصالح بريطانيا والعرب المشتركة[1] .

فى مصر والسودان :

أما صدى الثورة الحجازية فى مصر والسودان ، فقد وصلت أخبارها عقب نجاح القوات البريطانية فى إحباط حركات السنوسى على حدود مصر الغربية ، تلك الحركات التى قامت بتأثير الدعوة للجهاد التى وجهها الخليفة العثمانى إلى مسلمى العالم ، ولقد كان الشعور السائد فى مصر أبعد ما يكون عن تأييد قضية الحلفاء بسبب الاحتلال البريطانى للبلاد عام ١٨٨٢ ، والحماية

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. p 206.

التى أعلنتها بريطانيا عقب دخول تركيا الحرب ، ولذلك فإن أنباء ثورة الشريف لم تقابل بالارتياح فى أوساط الوطنيين المصريين الذين كانوا فى كفاحهم ضد الاحتلال والحماية البريطانية يتطلعون إلى الدولة العثمانية ، ولذلك فإن عداءهم للثورة العربية كان مستمداً من عدائهم لبريطانيا . ومن ثم أخذوا يقللون من شأن تلك الثورة ، ولو أن الأحكام العرفية التى كانت تعيش مصر فى ظلها ، والرقابة الصارمة على الصحافة حالت دون التهجم على الشريف ، ومع ذلك فإن شعور المصريين بعدم الاهتمام كان واضحاً فى كثير من الأحيان[1] ، لأنهم فطنوا إلى أهداف السياسة البريطانية بتحالفها مع الشريف حسين وأدركوا أن هذا التحالف لا يستهدف سوى تحقيق المصالح البريطانية على حساب مصالح العرب[2] .

أما الجاليات السورية والعراقية فى مصر فقد رحبت بالثورة وتحمست لها وكان للنفوذ الذى يتمتع به السوريون خصوصاً فى صحافة القاهرة والخرطوم أثره فى تأييد الثورة فى الحجاز والدعاية لها ، وقد بعث الفاروقى رسالة إلى وكالة الخارجية العربية بمكة يصف فيها مختلف المشاعر فى مصر نحو الثورة ، فيذكر أن المسيحيين فيها لا يزالون نافرين من الثورة غير مطمئنين إليها إلا فريقاً من شبابهم غيورين ، أما المصريون فان جمودهم إزاء الثورة نتيجة غيرتهم على الإسلام وخوفهم على تركيا الدولة الإسلامية الوحيدة ، وأنه فى اليوم الذى يتضح فيه للمصريين أن الشريف سيشكل دولة إسلامية فانهم سيؤيدونه[3].

---

(١) Yales Rep. no. 2 (Nov. 5, 1917), Storrs : Oеv. Cit, p. 190 .

(٢) موظف سابق فى دائرة الاستخبارات : العرب والحلفاء فى الانتلجنس سرفيس (د . ت) ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) المصرى : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٧٨ - ٧٩ (رسالة الفاروقى فى ٢٤ صفر ١٣٣٥ هـ) .

صدى الثورة فى الهند :

لقد كان موقف حكومة الهند إزاء ثورة الشريف متأثراً بعاملين أحدهما ذلك الشعور السائد بين مسلمى الهند نحو الخلافة وارتباطهم الوثيق بها تأثراً بالفكرة الإسلامية وكان هؤلاء يعتبرون ثورة الشريف عصيانا ضد خليفة الإسلام وتهديداً لوحدة العالم الإسلامى ، ولذلك كانوا يشكون فى مشروعات بريطانيا فى شبه الجزيرة العربية ، وانتابهم القلق على سلامة الأماكن المقدسة ، ومن ثم أخذ الهنود المسلمون يلعنون الشريف فى المساجد[1] .

كما عقدت اجتماعات عدة أشهرها ذلك الذى عقد فى لكنو Lecknow [2] فى السابع والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩١٦ وهاجم فيه الخطباء بشدة موقف الشريف ، أما العامل الآخر الذى أثر فى موقف حكومة الهند تجاه ثورة الشريف فقد كان يتصل بمشروعات هذه الحكومة المتصلة بالعراق حيث كانت تعتبره مجالا للاستعمار وهجرة السكان المتزايدين . ولذلك لم تكن حكومة الهند تناصر فكرة كسب العرب عموماً وعرب العراق على وجه الخصوص فى الكفاح ضد الخليفة العثمانى .

صدى الثورة فى بريطانيا :

على الرغم من أن وكالة رويتر أذاعت فى مصر خبر ثورة الحجاز فى الثامن والعشرين من يونيو (حزيران) كما أذاع قلم المطبوعات فى القاهرة فى أول يوليو (تموز) بياناً رسميا أكد فيه رواية رويتر ، فان الخبر لم يذع

---

(١) Yale's Rep. no. 2. p. 10

(٢) مدينة قديمة فى الهند شمال شرقى حيدر أباد .

رسمياً فى لندن إلا فى الثامن والعشرين من يوليو (تموز) أى بعد انقضاء نحو ستة أسابيع على قيام الثورة . وذلك فى بيان أصدرته الحكومة البريطانية جاء فيه « إن الحكومة تعطف دائماً على العرب ولكن صداقاتها التقليدية اضطرتها إلى الوقوف على الحياد بينهم وبين الأتراك أما وقد انضمت تركيا إلى دول الوسط فقد أصبحت بريطانيا فى حل من موقفها السابق وصارت حرة فى إظهار عطفها وتأييدها للعرب الذين انخرطوا فى عداد الحلفاء » وقد وعدت الحكومة البريطانية فى بيانها بأنها ستستمر فى سياستها القائمة على عدم التدخل فى الشئون الدينية وبقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارىء، وأنه من المبادىء التى تقوم عليها سياسة بريطانيا أن تبقى هذه الأماكن المقدسة فى أيدى حكومة إسلامية مستقلة[١] .

ويلاحظ أن بريطانيا لم تتعرض فى بيانها لذكر أية إشارة لاستقلال أى جزء آخر من البلاد العربية سوى الحجاز ، وكان ذلك جديراً بإثارة الشكوك حول وعودها للشريف ومدى إخلاصها وصدق نواياها . وكان يجدر بالشريف أن يصر على الوصول إلى إتفاق محدد واضح .

صدى الثورة فى فرنسا :

وعلى الرغم من أن الحكومة الفرنسية — كما سبق القول — لم تشعر بالارتياح نحو الحادثات بين الشريف حسين وبريطانيا ، لأن فرنسا كانت تدرك أن الحركة العربية ستكون سداً يقف فى وجه تحقيق أطماعها فى الأقاليم العربية وعلى الأخص فى الشام ، إلا أن الحكومة الفرنسية اضطرت إلى

---

(١) العمرى : ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ رسالة محمد شريف الفاروقى فى ٢ شوال ١٣٣٤ هـ بخصوص البيان الذى أذاعته الحكومة البريطانية فى صحف لندن ومصر فى ٢٨ رمضان ١٣٣٤ هـ ، أمين سعيد المرجع السابق ج ١ ص ١٦٠ .

مسايرة بريطانيا خاصة وأن الحكومة البريطانية ـ عن طريق سفيرها فى باريس ـ طلبت من الحكومة الفرنسية فى ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩١٦ أن تقدم يد العون إلى الشريف على أن ترسل المعونة الفرنسية عن طريق مصر .

وكانت الحكومة الفرنسية ذاتها قد رأت أنه من مصلحتها أن تؤسس علاقات ودية مع الثورة من أجل الاستفادة منها بشغل الجيوش التركية ، مع الحيلولة ـ فى الوقت نفسه ـ دون تطور الثورة بشكل يهدد مصالح فرنسا ومطامعها فى الشام[1] .

ولذلك فقد ورد فى تقرير رسمى للوزارة الفرنسية بتاريخ ٥ أغسطس (آب) ١٩١٦ أن إعلان الثورة فى الحجاز أمر فى مصلحة الحلفاء من عدة وجوه ، أما من الناحية السياسية فان اتساع نطاق الثورة لتشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمنية وتحرير هذه الشعوب من النير التركى قد يهىء لفرنسا أسباب التدخل فى شئون هذه الأقاليم ، كما أن الثورة سوف تشغل ـ من الوجهة العسكرية ـ الجيش التركى ، أما من الناحية الأدبية فان الثورة سوف تحمل الجانب الأكبر من رعايا فرنسا المسلمين يتصورون الترك فى صورة المعتدين على الأماكن المقدسة الإسلامية فيزداد تعلقهم بفرنسا[2] .

مساعدات فرنسا للثورة :

وعلى ذلك استجابت الحكومة الفرنسية لطلب بريطانيا وقررت إيفاد بعثتين إلى الحجاز أولاهما برئاسة شخصية مغربية وهو سى قدور بن غبريط ، غادرت مرسيليا فى السادس من سبتمبر (أيلول) ١٩١٦ فى طريقها إلى جدة

---

(١) المصرى يوم ميسلون ص ٥٦ .
(٢) أمين سعيد المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٧ .

مارة بالقاهرة حيث ألتقى ابن غبريط بالفاروقى مندوب الشريف فى مصر ثم غادر الإسكندرية فى ١٣ سبتمبر (أيلول) ١٩١٦ فوصل الى جدة ثم إلى مكة فى الثامن والعشرين وكان ابن غبريط يحمل رسالة من مسيو بوانسكاريه Poincaré رئيس الجمهورية الفرنسية إلى الشريف حسين مع مبلغ من المال ، وقد بعث الشريف برسالة شكر إلى بوانسكاريه على العاطفة التى تبديها الحكومة الفرنسية ، كما شكر بوانكاريه الشريف على حسن استقبال الوفد الفرنسى . [1] كما توجه إلى الشريف مندوب عن محمد الناصر باى تونس ومندوب آخر عن السلطان يوسف سلطان مراكش وهو السيد أحمد سكيرج عالم مدينة فاس ، وألقى كل منهما خطبته أمام الشريف ،وفى معرض الحديث ذكر الشريف أنه لا يحارب الترك لأن الترك متألمون من حكومتهم «وقيامنا لا يراد به إلا هذه الفئة القليلة الحاكمة»[2] .

وقد علقت صحيفة (الطان) على إثر سقوط الطائف بقولها إن أرض الحجاز المقدسة قد استعادت استقلالها ، وتبادل الشريف حسين الرسائل مع رئيس حكومة الجمهورية الفرنسية وهو ما يوازى فى نظر الكثيرين الاعتراف بهذه الحكومة الجديدة (صديقة فرنسا)[3] .

أما البعثة الأخرى فقد كانت عسكرية تتكون من تجريدات صغيرة على رأسها ضباط فرنسيون بقيادة الكولونيل بريمون واتخذت جدة مقراً لها لكى تساهم فى تنظيم قوة العرب[4] .

---

(١) العمرى : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ وأمين سعيد المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٢ ، القبلة العدد ١٥ الصادر يوم الاثنين ٥ ذو الحجة ١٣٣٤ هـ ص ١ .
(٢) القبلة العدد ١٤ بتاريخ الخميس غرة ذو الحجة ١٣٣٤ ص ٢ ، ٣
(٣) العمرى جـ ١ ص ٣٠٧
(٤) Gontaut - Biron : Ouv. Cit. p. 42.

وكان بريمون ضابطا نشأ فى المستعمرات الإفريقية ، وكان الكولونيل كوس Cousse وكيلا له ، وحل محله فى رئاسة البعثة الفرنسية بعد أن استدعى بريمون إلى فرنسا فى ١٩ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٧ بسبب كثرة شكايات البريطانيين منه ومن تصرفاته التى كان ظهر فيها غيرته الشديدة على المصالح الفرنسية[1] .

فمنذ ذهب بريمون إلى الحجاز لمس الاتجاهات السائدة والآمال التى تجيش فى صدور رجال الثورة ، وكيف أن فى الحجاز اجتمع الوطنيون من الشام والعراق ، فأيقن أنه إذا ما نجحت الثورة فى الحجاز فإنها لا بد وأن تنتقل إلى هذين القطرين العربيين ، ولذلك كان يرى أن نجاح الثورة فى الحجاز سوف يضر بمصالح الحلفاء الذين يجب أن يعملوا على قصر الثورة على الحجاز وحده ، بل وذهب إلى حد المطالبة بعدم تشجيع العرب على احتلال المدينة ، على اعتبار أن ذلك يثير فى نفوس العرب نزعات الوحدة والاستقلال[2] إلا أن الحكومة الفرنسية لم تشاطر بريمون رأيه بخصوص المدينة ، بل كانت على العكس ترى أن سقوطها سوف يؤدى إلى إضعاف هيبة الدولة العثمانية[3] .

ولم يكن بريمون وحده هو الذى نبه المسئولين الفرنسيين إلى خطورة أطماع الشريف حسين على مصالح فرنسا وأطماعها ، فهذا سى قدور بن غبريط رئيس البعثة السياسية الفرنسية إلى الحجاز ، يذكر فى تقرير رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسية فى الثانى من ديسمبر (كانون أول) ١٩١٦ إثر رجوعه

---

(١) أمين سعيد المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٨ .
(٢) ساطع الحصرى : المرجع السابق ص ٥٧ .
(٣) أمين سعيد المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
Bremond : Ouv. p. 97.

من مكة – جاء فيه أن استقلال العرب فى نظر الشريف لا يقتصر على الأماكن المقدسة بل يمتد إلى ما وراء ذلك ، فهو يطمع فى إنشاء دولة عربية قوية تمتد حدودها الجغرافية لتشمل بلاد العرب كلها ، وذكر الزعيم المغربى أن الشريف قال له إن بلاده لا تستطيع أن تعيش وحدها بسبب ضعف مواردها ، ولابد لها من الاعتماد على الأقطار المجاورة وأنه يقصد الشام ، وذهب ابن غبريط إلى حد القول بأن الخلاف مع الشريف قد يجعل استقرار الفرنسيين فى الشام عرضة للمتاعب ولذلك اقترح اغتنام فرصة ضعفه لكى تعقد معه فرنسا اتفاقا يحدد مطامعه ويعترف بماله من مصالح لا تتعارض مع مصالح فرنسا قبل أن يشتد ساعده .

ونوه ابن غبريط بأنه لا بد من مساعدة الشريف ماديا ومعنوياً خشية تخاذله ، وأن الأمير عبد الله أبان له بصراحة أن تقاعس الحلفاء عن مساعدة الثورة العربية قد يدعو الحكومة العربية إلى الاتفاق مع الترك[1] .

تقييم المرحلة الأولى للثورة :

وعلى الرغم من أنه حتى ذلك الوقت الذى سقطت فيه الوجه فى أيدى القوات العربية فى الخامس والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٧ كانت الأعمال الحربية مقصورة على الحجاز إلا أن الثورة حققت نتائج غير قليلة فهى من ناحية استطاعت أن تأسر ما يقرب من ستة آلاف من الجنود الترك إلى جانب محاصرة نحو أربعة عشر ألفا فى المدينة المنورة ، كما أنها بالاستيلاء على الوجه أصبحت يشكل تهديداً خطيراً لمواصلات الترك بين المدينة المنورة ودمشق مما أرغم الترك على إبقاء قوة غير صغيرة فى معان للمحافظة على المواصلات تقدر بنحو سبعة آلاف جندى .

---

(١) أمين سعيد المرجع نفسه ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤

ثم إن الثورة قد احتجزت فى اليمن ثلاث فرق تركية عاجزه عن العمل بسبب قطع صلتها وعزلتها عن قواعدها فى الشام .

ولا شك أن هذه النتائج جميعا قد أدت خدمات جليلة للحلفاء بالإضافة إلى أن الثورة نجحت فى سد الطريق إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى فى وجه التقدم التركى الألمانى ، وكونت مع ابن سعود فى نجد نطاقا يمتد من البحر الأحمر حتى الخليج العربى مما جعل البحر والخليج — وهما من أهم مواصلات الحلفاء — فى مأمن من الأعداء .

وإلى الشمال كان سير ارشبالد مرى Archibald Murray القائد العام للقوات البريطانية فى مصر يستعد لمباشرة عملياته الحربية فى فلسطين مطمئنا إلى أن القوات التركية المشغولة فى قتال العرب أكثر من تلك التى ستواجهه ، مما يجعل مهمته سهلة ولو أن غزة امتنعت عليه على الرغم من ذلك(١) .

المرحلة الثانية للثورة :

كانت المرحلة الثانية التى تبدأ بسقوط الوجه فى ٢٥ يناير (كانون ثان) ١٩١٧ وتنتهى بسقوط العقبة فى يوليو (تموز) ١٩١٧ فترة نشاط حربى وسياسى من جانب قادة وزعماء الثورة فى الحجاز ، كما حفلت بالاستعداد للتقدم نحو الشمال .

فبمرور الزمن وزيادة الإمدادات من المؤن والعتاد اشتد الحصار الذى كان العرب يضربونه على الترك فى المدينة المنورة ، ورغم أن البريطانيين كانوا يضنون على العرب بالمدافع إلا أنهم أرسلوا كمية من البنادق ، كما أوفدوا

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp. 214 — 215

عدداً من الضباط الأكفاء للتدريب ، وكان هناك بجانب لورنس نيوكوم Newcombe وجويس Joyce وعلى ذلك كثرت الإغارات على خط سكة حديد الحجاز وإن كانت هذه الإغارات لم تدمر الخط تماماً فى ذلك الوقت كما حدث فيما بعد ، إلا أن الخط كان قد تحطم فى أجزاء مختلفة كما دمرت ونسفت الكبارى ، ثم تعلم العرب كيف ينسفون القطارات وعرباتها ، وتطور الأمر كذلك إلى مهاجمة المحطات التى يمر بها الخط وأسر حامياتها ، وعلى الرغم من أن الخسائر التى نزلت بالخط لم تجعله غير صالح للاستعمال إلا أنها جعلت استعماله صعباً باهظ التكاليف بالنسبة للترك .

وقد اشترك فى هذه الإغارات الضباط البريطانيون وإن كانت الأضواء قد سلطت قوية على لورنس حتى أن جهود زملائه لم ينلها ما ناله من شهرة وصيت ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر ما قاموا به من جهود سواء فى تدريب العرب على فنون الحرب الحديثة وأعمال التخريب واستخدام المفرقعات ، وقد اعترف فيصل نفسه بالجهود التى بذلها كولونيل نيوكوم وماجور جويس ، وقد ركز الأميران على وعبد الله جهدهما ضد المدينة المنورة وساعدهما فى هذه العمليات بعض الضباط المغاربة والجزائريين الذين أوفدتهم فرنسا .

أما الأمير فيصل فإنه منذ دخل الوجه أخذ يوالى استعداداته للتقدم نحو الشمال ، ولا شك أن حصار المدينة قد حجز فيها جانباً كبيراً من قوات الترك ، كان من الممكن — بدون هذا الحصار — أن يجعل تقدم فيصل نحو الشمال أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلا .

ومن نواحى نشاط القوات العربية فى هذه الفترة التعرض للتجريدات والقوافل التى حاول الترك أن يبعثوا بها لإعادة الصلة التى قطعتها الثورة مع

اليمن وحائل وغنم العرب كثيراً من الأسلحة[1] .

هذا عن النشاط فى داخل شبه الجزيرة ، أما على الساحل ، فان الأمير فيصل منذ دخل الوجه أخذ يوالى استعداداته السياسية والعسكرية من أجل التقدم شمالا وهدفه دمشق ، فى ناحية وجه الدعوة إلى القبائل فى الحجاز من أجل نبذ منازعاتها وخلافاتها ، والتكتل والتعاون من أجل هدف واحد مشترك ، وقد لجأ فيصل لكسب القبائل إلى المال ، وكانت بريطانيا تمده به ، كما استخدم كذلك نفوذه الشخصى واستطاع أن يبث فيهم فكرة تحرير بلاد العرب ويجعلهم يؤمنون بها[2] .

وبينما الأمير فيصل يبذل هذه المساعى مع عرب الحجاز بعث بالرسل إلى شيوخ القبائل الضاربة فى البادية السورية يدعوهم إلى الانضواء تحت راية الثورة والعمل مع القائمين على دفع الحركات الحربية إلى أطراف الأردن وسورية ، والتقى ببعضهم فى الوجه حيث بين لهم الفرصة التى هيأتها الأقدار لهم لكى ينالوا حريتهم بمساعدة بريطانيا ، وقد وجدت دعوة فيصل إلى زعماء القبائل آذاناً صاغية ، فأقنعهم بتناسى خلافاتهم وأقسموا له على العمل متعاونين تحت قيادته من أجل تحرير العرب .

ومن الزعماء الذين حضروا إلى الوجه استجابة لدعوة فيصل عودة أبو تايه زعيم عشيرة التوايهة من قبيلة الحويطات والمقيمين إلى الشرق من معان ، وكان عودة ورجاله يعيشون عيشة بدوية يغيرون على جيرانهم ، ولكن عندما وجهت إليه الدعوة لم يلبث أن تخلى عن إغارته وصار سباقاً إلى العمل

---

(١) Antouius : Ouv. cit, pp 216 — 218

(٢) سليمان موسى ، عودة أبو تاية فاتح العقبة .
مجلة العربى العدد ٤٩ ديسمبر ١٩٦٢ ص ٢٨ .

فى صفوف الثوار ، ذلك العمل الذى رفعه من مستوى الفارس البدوى إلى مستوى البطل القومى[١] .

وقد رحب عودة كثيراً بفكرة الاستيلاء على العقبة وترك الوجه لكى يجمع رجاله استعداداً لهذا الهدف .

وفى نفس الوقت قرر الأمير فيصل أن يبعث وفداً إلى الشام للدعوة إلى الثورة فيها ولوضع أسس للعمل المشترك وتنسيق الجهود المقبلة ، وكان على رأس هذا الوفد الشريف ناصر ابن عم الأمير فيصل يرافقه نسيب البكرى ، وقد طلب الكولونيل لورنس السماح له بمرافقة الوفد على الرغم من أنها مهمة سياسية ، لأن المفروض أن مهمته حربية لتدريب العرب ، وقد غادر الوفد الوجه فى ٩ مايو (آيار) ١٩١٧ يرافقهم عودة أبو تايه الذى كان ذاهباً لكى يجمع رجاله استعداداً للعمل المقبل .

وقد استطاع لورنس أن يصل إلى ضواحى دمشق واختبأ فى قابون فى ممتلكات البكرى ، وأرسل واحداً من آل البكرى برسالة إلى رضا باشا الركابى وهو قائد عربى فى الجيش التركى وأحد أعضاء جمعية العهد ، فأسرع الركابى متخفياً فى ١٣ يونيو (حزيران) ١٩١٧ لمقابلة لورنس فى قابون ، وسلمه لورانس رسالة علم منها أن فيصل ينوى التقدم إلى الشام على مراحل وأن المرحلة الأولى هى العقبة ، وأنه (أى فيصل) يريد من زعماء دمشق تشجيع القوات العربية العاملة فى الجيش التركى على تركه والانضمام إلى قواته فى العقبة ، ولم يكن يريد قيام ثورة فى ذلك الوقت[٢] .

وفى أثناء عودته استطاع لورنس أن يتصل ببعض زعماء القبائل العربية

---

(١) سليمان موسى : أبو تايه فاتح العقبة . مجلة العربى العدد ٤٩ ديسمبر ١٩٦٢ ص ٢٨

(٢) Antonius ; Ouv. Cit. pp. 221 — 2.

ومن بينهم الزعيم الدرزى حسين الأطرش ونورى شملان زعيم الرولة وأبلغهم نفس الرسالة من فيصل .

جمع عودة أبو تايه نحو خمسمائة من رجال قبيلته غادر بهم بير فى ٢٨ يونيو (حزيران) ١٩١٧ فبلغت الجفر (بئر بين عمان ومعان شرق السكة الحديد) وساروا غرباً وعبروا خط السكة الحديد إلى الجنوب من معان حيث اصطدموا بكتيبة تركية فى (أبى اللسن) ورغم مدفعية الترك إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا الصمود أمام هجمات العرب فولوا هاربين ، ثم سارت مجموعة عوده جنوباً نحو العقبة ، وفى الطريق انضمت إليها مجموعات أخرى من رجال القبائل النازلة فى تلك الأنحاء حتى تضاعف عدد رجالها ، وكانت لسد الطريق إلى العقبة حاميات خمسة مواقع تركية فعمد العرب إلى مباغتتها والاستيلاء عليها الواحد بعد الآخر وأخيراً استطاع عودة ورجاله دخول العقبة فى ٦ يوليو (تموز) عام ١٩١٧ وسقط فى أيدى العرب كثير من الأسرى الترك علاوة على ما غنموه من الأسلحة التى أخذوا يستعملونها فى معاركهم التالية[١] .

اهمية سقوط العقبة :

لقد كان سقوط العقبة أمراً على جانب كبير من الأهمية ونقطة تحول كبرى ، إذ أنه قبل سقوطها كانت الأعمال الحربية والثورة مقصورة على الحجاز وكان قوامها العناصر التى قدمتها القبائل ، أما الآن فقد اتسع نطاق الثورة وأصبح سقوط العقبة مقدمة لنقل مسرح القتال إلى الشام مركز تجمع القوات التركية التى يساندها الألمان ، وأصبحت القوات العربية المرتكزة

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp. 222 - 3

سليمان موسى : عودة أبو تايه : مجلة العربى ص ٣٠ .

على قاعدتها فى العقبة تشكل الجناح الأيمن للحملة المصرية التى سوف تتقدم تحت قيادة الجنرال اللنبي الذى خلف مرى Murray منذ يونيو (حزيران) ١٩١٧ إثر فشل هذا الأخير أمام غزة .

وقد قدر (ييل)[١] القوات المتجمعة فى العقبة تحت إمرة فيصل بثلاثة آلاف من الجنود والضباط السوريين الذين تخلوا عن مراكزهم فى الجيش العثمانى ، هذا إلى جانب معاونة قبائل البدو حول العقبة وشرق البحر الميت .

وبالانتقال إلى العقبة شمل قوات فيصل بعض التطور من حيث التكوين أو التشكيل فأصبحت تتكون من جيش من القوات النظامية المدربة إلى جانب رجال القبائل . ولقد صارت العقبة قاعدة عسكرية وتحولت مساكنها الصغيرة إلى ثكنات عسكرية ،وأقيمت بهامحطات لاسلكى ومطار وأرصفة لإنزال الإمدادات من السفن . ولما كانت العقبة تقع خارج حدود البلاد المقدسة فقد كان وجود غير المسلمين بها أمراً غير محظور ولذلك وصل إليها عدد من الضباط البريطانيين والفرنسيين للعمل كمستشارين للقيادة العربية ولقيادة بعض الوحدات وخاصة المصفحات والطيران .

انتقل فيصل إلى العقبة ومعه بقية قواته تحت قيادة جعفر العسكرى فى أغسطس (آب) أما فى الحجاز نفسه فقد استمر إخوة فيصل فى عملياتهم حول المدينة حتى نهاية الحرب باستثناء الأمير زيد الذى انتقل فى السنة التالية (١٩١٨) إلى الميدان السورى .

وقد اهتم فيصل فى الشهور التى تلت سقوط العقبة بزيادة كفاءة قواته وتوسيع نطاق ارتباطه مع القبائل ،ولم يكد عام ١٩١٧ يقترب من نهايته حتى كان فيصل قد نجح فى التوفيق بين القبائل فى منطقةمعان التى كانت أكبرمركز لتجمع العدو ، واصبحت لذلك هدف فيصل التالى .

---

(١) Yale's Rep. no, 2 (Nov, 5, 1917)

وقد اتسع نطاق قوات فيصل المدربة فتحولت من أورطتين إلى قوة حسنة الاستعداد تتكون من فرقة من المشاة وأورطتين من الفرسان .

وبينما كان فيصل مشغولا باستعداداته العسكرية والسياسية ، خرج الشريف ناصر وعوده أبو تايه ولورنس فى حملات متعددة للاغارة على الخط الحديدى وتدمير بعض أجزائه ونسف الجسور .

وهكذا كان الاستيلاء على العقبة يشكل تهديداً للقيادة التركية الألمانية فى الشام فى وقت كانت فيه هذه القيادة فى أشد الحـــاجة إلى تركيز قواتها لمواجهة التقدم البريطانى صوب القدس . وهكذا اضطرت القيادة التركية الألمانية إلى تجزئة قوتها مما أدى إلى ضعفها .

وإلى جانب ذلك فقد صارت العقبة مركزا للنشاط السياسى ضد السيطرة العثمانية على الشام ، وقد اتخذ هذا النشاط السياسى العربى ضد الترك مظاهر عدة كانت كلها تهدف إلى إضعاف مركز الترك فى الشام بكسب العرب إلى جانب الحلفاء ، وقد حاول فيصل أن يقيم دعايته على أساس ارتباط قضية العرب واستقلالهم بقضية الحلفاء ، وأن حرية الشعوب العربية مرتهنة بانتصار الحلفاء .

وقد نشط الضباط السياسيون البريطانيون فى الحملة المصرية خلال الشهور التى تلت نشوب الثورة فاتصلوا بزعماء القبائل فى جنوب الشام لتحريضهم على منع معونتهم عن الترك ، مثل الكولونيل باركر Parker الذى دعا الشيخ فريح أبو مداين زعيم قبائل بير سبع إلى الاجتماع فى العريش وسلمه خطاباً بخط الشريف حسين يدعو فيه العرب جميعاً إلى تأييد الجهود التى تبذلها القوات البريطانية المساعدة فى تحرير العرب[1] .

كما أخذت الطائرات البريطانية تسقط على خطوط الترك صورا من خطاب الشريف ومعه نداء من القيادة البريطانية يطالب الضباط والرجال العرب فى

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp. 224.-5

الجيش التركى بالتخلى عنه والاتجاه إلى الخطوط البريطانية لمقابلة مندوبى ملك الحجاز ، وكان هؤلاء المندوبون قد أرسلهم الملك حسين بناء على طلب البريطانيين ، وكانت مهمتهم إبلاغ أهداف التعاون العربى البريطانى إلى زعماء القبائل فى جنوب الشام وحثهم على مساعدة البريطانيين وتسهيل تقدمهم فى فلسطين .

ولا شك أن محاولة البريطانيين كسب أهالى جنوب سورية وفلسطين باسم الشريف حسين دليل على أن هذه المنطقة كانت ضمن الدولة التى وعدت بريطانيا بتأييد استقلال العرب فيها ، وليس كما ادعى المسئولون البريطانيون بعد ذلك من أن فلسطين لم تكن ضمن هذه الحدود ، أى أن الحملة السياسية التى بدأتها القيادة البريطانية منذ صيف عام ١٩١٦ كانت إيماءة إلى أن فلسطين فى أذهان البريطانيين والعرب على السواء كانت تعتبر داخلة ضمن هذه المنطقة لأن الجهود التى بذلت لكسب سكان المنطقة كانت باسم الملك حسين وحرية العرب ، ليس فقط فى فلسطين ولكن فى كل أنحاء الشام باستثناء لبنان حيث لم يذكر اسم الملك حسين قط وإنما كان الاهتمام فى الدعاية مركزاً فقط على اهتمام فرنسا بسعادة لبنان ورفاهيته ، وهذا التباين والاختلاف يتفق مع التحفظات التى أبديت فى مراسلات الحسين مكماهون بخصوص مصالح فرنسا فى لبنان وهذا الاختلاف له دلالة وأهمية لأنه يدلنا على أنه حتى ربيع عام ١٩١٧ كانت فلسطين تعتبر كبقية أجزاء الشام التى تعهدت بريطانيا بالاعتراف وتأييد قيام دولة عربية مستقلة فيها[١] .

ولم يكن فيصل من جانبه أقل نشاطاً فى إثارة كراهية أهل الشام فقد أوفد مندوبين إلى داخل الشام حيث اتصلوا بزعماء القبائل على جانبى الأردن وكان فيصل لا يزال غير راغب فى إثارة ثورة عـــامة هناك طالما أن استعداداته العسكرية لم تكن كاملة ، هدفه الأساسى هو الوصول إلى اتفاق مع الزعماء

(١) Antonius : Ouv. Cit. pp. 228

البارزين لتشجيع الجنود والضباط العرب العاملين فى الجيش التركى على التخلى عن مراكزهم ولا شك أن هذه الدعاية قد أتت ثمارها بدليل الإجراءات المضادة التى اتخذتها القيادة التركية الألمانية ، فإن قبائل منطقة بير سبع الذين كانوا يحاربون فى صفوف الترك فى ربيع عام ١٩١٧ اختفوا بكلمة من فريح أبو مداين ليعودوا للظهور بعد ذلك فى الجنوب على ميمنة القوات البريطانية المتقدمة نحو غزة ، ونتيجة لذلك أخلى الترك العريش ، وطوال تقدم اللنبى نحو القدس فى خريف ١٩١٧ أخذت أعـــداد العرب الذين يتخلون عن أماكنهم فى صفوف القوات التركية تتزايد واستسلم بعضهم للقوات البريطانية واتجه البعض الآخر إلى العقبة للانضمام إلى القوات العربية ، واختفى البعض الآخر[1] .

وإذ أيقنت القيادة الألمانية من خطورة هذه الدعاية العربية الإنجليزية أخذت فى تنسيق الخطط لمواجهتها فانشىء مكتب عربى فى دمشق فى أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩١٧ يقوم بالعمل فيه مجموعة من الخبراء الألمان المتخصصين فى الشئون العربية ورصد له مبلغ كبير من المال للإنفاق على الدعاية المضادة .

وشددت العقوبات على من يتخلى عن مركزه فى الجيش . وأصدر القائد العثمانى فى قطاع معان أمراً اعتبر فيه حيازة أى منشور من المنشورات التى تلقيها الطائرات البريطانية فى منطقة غزة وبير سبع جريمة كبرى توجب العقاب[2] .

ولما كان الألمان يعتقدون أن سياسة جمال باشا قائد الجيش الرابع التعسفية فى الشام مسئولة عن روح الكراهية التى دبت فى قلوب الأهالى نحو الترك حاول الألمان تخفيف الأثر السيىء الذى أحدثته سياسة جمال بالضغط على

---

(١) Ibid pp. 226 - 7

(٢) نص المنشور فى صحيفة البلاغ عدد ٢٩ يناير عام ١٩١٧ وصحف سورية الأخرى .

على السلطات فى الاستانة حتى اقتنع جمال باشا بإصدار نداء عام فى ١٤ نوفبر (تشرين ثان) عام ١٩١٧ وجهه إلى كل العرب الذين انحازوا إلى جانب ملك الحجاز وعد فيه بالعفو عمن يسلم نفسه خلال ثلاثين يوماً .

وعلى الرغم من هذا العرض فقد استمر العرب فى التخلى عن مراكزهم فى الجيش التركى حتى أصبحت القوات البريطانية المتقدمة نحو القدس تجد نفسها — كما يقول ليمان فون ساندرز Liman Von Sanbers — تحارب فى بلاد موالية ومؤيدة لها بينما وجد الترك أنفسهم يحاربون وسط قوم يضمرون لهم العداء حتى أن محمد جمال باشا الذى خلف أحمد جمال فى قيادة الجيش الرابع فى بداية عام ١٩١٨ ذكر أن انتشار النفور فى الشام بسبب الدعاية البريطانية العربية هز الترك وأضعف سيطرتهم على البلاد أكثر من الهزائم الحربية التى سببها دخول العرب[1] . ولذلك أخذ القائد الجديد فى اتباع سياسة الملاينة نحو العرب فى الشام[2] .

ولقد كان بدء تقدم القوات الشريفية تحت أمرة فيصل بن الحسين بداية مرحلة جديدة فى الوضع السياسى للبلاد ، إذ اقترب الوقت الذى أخذ فيه ملك الحجاز وابنه يتطلعان لجنى ثمار الخدمات التى أدياها للحلفاء ولذلك فقد تضاعف نشاط الشريف وأعوانه على مسرح السياسة السورية[3] .

أخذ العرب بعد هاتين المرحلتين الحربيتين اللتين كللتا بالنجاح يستعدون لمواصلة الزحف على بقية بلاد الشام وإخراج الأتراك منها ، وفاء

(١) Antonius : Guv. Cit. pp. 227 - 8

(٢) Yale's Rep. no. 22(April 8 1918) « The Zionist Commission and the Syrians in Egypt » p. 16.

(٣) Abid, pp. 8 - 9.

بتعهداتهم والتزاماتهم التى سجلتها اتفاقية الحسين مكماهون وقبل أن نمضى فى شرح المرحلة الثالثة والأخيرة من الإسهامات العربية الحربية تقف لنوضح كيف كانت بريطانيا فى نفس الوقت تطعن العرب طعنات خطيرة متتالية وتتفق مع حلفائها على اقتسام أقاليم الشرق العربى وتوزيعها أسلاباً بين المستعمرين الأمر الذى جعل الدبلوماسية البريطانية تتسم بالغدر والخديعة والخيانة وجعل صفحة بريطانيا من أحلك الصفحات فى التاريخ الحديث والمعاصر .

الباب الخامس

نكسة الأمانى العربية

بين غفلة الزعامة وخداع « العظمة البريطانية »

الفصل الثالث عشر

اتفاقية سايكس — بيكو

تطور سياسة بريطانيا ازاء الدولة العثمانية :

وبينما كانت المباحثات جارية بين بريطانيا والشريف حسين كانت هناك مباحثات أخرى تجرى بين بريطانيا وحليفتيها روسيا وفرنسا من أجل تقرير مصير الأملاك العثمانية ومن بينها بلاد الشرق العربى الآسيوى . وبدخول بريطانيا فى هذه المفاوضات سواء مع الشريف حسين أو مع بقية دول الوفاق فإنها تكون قد تخلت نهائياً عن سياستها التقليدية التى كانت تتبعها طوال القرن التاسع عشر ، ألا وهى سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، فى مواجهة الأطماع الروسية والفرنسية ، وهى السياسة التى بدأت تتخلى عنها منذ عام ١٨٧٨ حين انتزعت قبرص ، بعد أن كانت تعمل على تجنب تقسيم أملاك تركيا الآسيوية ، لأن سياسة غير هذه سوف يكون تأثيرها خطيراً على رعايا بريطانيا المسلمين فى الهند ، علاوة على ما تسببه من خلافات قد تؤدى إلى الصدام بين الدول الأوروبية نتيجة النزاع على اقتسام الممتلكات العثمانية فيما بينها[1] ، وخصوصاً مشكلة القسطنطينية التى كان من المعتقد أنه لا يمكن حلها بدون حرب أوروبية[2] ، وإلى جانب ذلك فإن بقاء الإمبراطورية العثمانية كان يعنى بالنسبة لبريطانيا حماية مركزها فى البحر المتوسط ومواصلاتها مع الهند .

---

(١) Gooch & Temperley : British Documents on the Origins of the War, X, I, (1936), p. 480 (From Grey to Buchanan. July 4, 1913).

(٢) Ibid. p. 450 (Minutes by Sir Louis Mallet (June 12, 1913).

واستمرت هذه السياسة قائمة رغم ما نادى به بعض الساسة البريطانيين مثل سالسبورى Salisbury الذى صار وزيراً للخارجية عام ١٨٧٨ ، وكان يرى أن الإمبراطورية العثمانية فى أسوأ حال ، وأنه بدلا من رأب الصدع يحسن هدمها والتقدم لاقتسامها بين الأطراف المعنية .

إلا أن الموقف لم يلبث أن تغير بعد أن تفاقم النفوذ الألمانى فى الإمبراطوريه العثمانية ولذلك فإن بريطانيا لم تلبث أن تخلت عن سياستها التقليدية نحو الدولة العثمانية . خصوصاً بعد أن أماط الاتحاديون اللثام عن حقيقة موقفهم ، وانضموا صراحة إلى دولتى الوسط فى الحرب العالمية الأولى ، ولذلك فإنه بمجرد قيام الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية هبت الصحافة البريطانية تعلن أن الدولة العثمانية قد سعت إلى حتفها بظلفها ، وأنها — فى حالة هزيمة ألمانيا — يجب أن تلقى جزاءها بالقضاء عليها كدولة [1] .

موقف روسيا من الدولة العثمانية :

قبل أن تدخل الدولة العثمانية الحرب أعلنت روسيا أنها فى حالة النصر سوف تحترم استقلال الدولة العثمانية وكيانها ، وذلك لإغراء الأخيرة على التمسك بسياسة الحياد وإثنائها عن دخول الحرب إلى جانب دولتى الوسط . أما وقد دخلت الدولة العثمانية الحرب فقد أعلن الروس أن هدفهم من الحرب هو بسط سيطرتهم على الآستانة والمضايق [2] .

---

(١) Zeine : Struggle For Arab Independence (1960) . p. 97.

(٢) Pichon, J. : Le partage du proche Orient (1938), pp. 32 - 3,

Pingaud : Histoire Diplomatique de la France pendant la Guerre Mondiale (n. d.) T. I, pp, 242 - 3.

ولما كان الترك — فى بداية يناير (كانون ثان) ١٩١٥ — يشددون الضغط على الروس فى جبهة القوقاز ، فقد طالب الروس حلفاءهم بفتح جبهة ثانية تشغل القوات التركية ، ومن هنا نشأت فكرة اقتحام الحلفاء الدردنيل وإرسال حملة غاليبولى . وقد بدأ الهجوم البحرى على قلاع الدردنيل فى ١٩ فبراير (شباط) ١٩١٥ ، وفى الفترة ما بين محاولة اقتحام الدردنيل ونزول قوات الحلفاء فى غاليبولى فى ٢٥ أبريل (نيسان) ١٩١٥ نجح الروس فى أن يستخلصوا من حلفائهم اعترافاً صريحاً بحقهم فى الآستانة والمضايق.

اتفاقية الاستانة (١٩١٥) :

وعلى الرغم من أن الهدف من العمليات الحربية الانجليزية والفرنسية هو تخفيف ضغط الترك على الروس فى القوقاز إلا أن الروس — وخصوصاً العناصر الموالية للألمان فى بتروجراد — أخذوا يعبرون صراحة عن مخاوفهم من أنه إذا صارت المضايق فى قبضة الحلفاء فانه سوف يكون من المتعذر زحزحتهم عنها ، بل واعتبروا أن حملة غاليبولى تهدف إلى الحيلولة دون وقوع المضايق فى قبضة الروس ولذلك طالب الروس بضم الآستانة والمضايق فى حالة انتصار دول الوفاق .

وعلى الرغم من التصريحات الشفوية التى أدلى بها بعض المسئولين البريطانيين وسلموا فيها بأن مسألة الآستانة والمضايق يجب أن تحل طبقاً لوجهة النظر الروسية فانه لم يكن من المتوقع أن يذهب المسئولون البريطانيون إلى هذا الحد لولا أنه كانت فى روسيا وقتئذ اضطرابات وقلاقل تزعمها بعض ذوى النفوذ من الموالين لألمانيا ، وكان البريطانيون يخشون أن ينجح هؤلاء فى انتزاع روسيا من صفوف الوفاق ، هذا إلى جانب رغبة بريطانيا فى

تعديل حدود مناطق النفوذ فى إيران ، ثم كسب موافقة روسيا على إعلان الحماية البريطانية على مصر[١].

ولكن الحكومة الروسية لم تقنع بالتصريحات الشفوية البريطانية ، بل أخذت تلح من أجل عقد اتفاق محدد ملزم بخصوص الآستانة والمضايق[٢] مع موافقة روسيا على تحقيق مطالب حليفتيها فى مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية أو أى مكان آخر[٣].

وعلى الرغم من أن الحكومة الروسية أفزعت حكومتى لندن وباريس بتصميمها على الاستحواذ على الآستانة والمضايق ، فقد اضطرت الحكومتان الغربيتان — بعد تردد — إلى الاستجابة لطلب روسيا ، رغبة فى عدم إتاحة الفرصة للحزب الموالى للألمان فى بتروجراد وإيجاد تصدع فى جبهة الوفاق ، فوافقت بريطانيا وفرنسا على أن تئول الآستانة إلى روسيا ، ولكن — كما يقول جراى « لم نكن نحن أو الفرنسيون نريد ذلك »[٤] وكل ما فى الأمر أن تقدمت بريطانيا ببعض المطالب ، وتتمثل فى المذكرة التى قدمها بوتشانان إلى سازونوف فى ٢٠ مارس (آزار) ١٩١٥ وجاء فيها أن الحكومة البريطانية تعتقد أنه من الضرورى — عند اختفاء الترك من الآستانة — أن تقوم دولة إسلامية مستقلة فى مكان آخر يكون مركزاً للإسلام ، وأنه من الضرورى

---

(١) Pichon : Ouv. Cit. p. 37.

(٢) Pingaud : Ouv. Cit. T. I. p. 245.

(٣) Temperley : Hist, of the Peace Conference in Paris Vol. VI, pp. 5 - 6,

Hurewitz : Ouv. Cit. Vol. II, pp. 6 - 7.

(٤) Kedourie, E. : Ouv Cit. p. 31.

بل ومن الطبيعى أن تكون الأماكن المقدسة الإسلامية مركزاً لهذه الدولة ، وأن الحكومة البريطانية ترى أنه من السابق لأوانه بحث مسألة اقتسام العراق وسوريا وفلسطين بين الدول بينما لم تتقرر بعد مسألة الإمبراطورية الإسلامية[1] .

أما فرنسا فكانت مطالبها — مقابل اعترافها بمطالب روسيا — تتركز فى رغبتها فى ضم الشام حتى جبال طوروس ،وعلى الرغم مما يقال من أن القيصر الروسى — فى لقاء له مع السفير الفرنسى فى ١٦ مارس (آذار) ١٩١٥ — وافق على مطالب فرنسا ، فإن الوثائق السرية الروسية تكشف الستار عن بعض الحقائق المتصلة بهذه المباحثات ، وفى مقدمتها أن قبول روسيا لوجهة نظر الفرنسيين إزاء فلسطين لم يكن بدون تحفظات من جانب روسيا[2] .

اتفاقية سايكس بيكو :

ولم يكن لاتفاقية الآستانة صلة مباشرة بالشرق العربى الآسيوى ، سوى أن فرنسا — كما سبق القول — انتهزت الفرصة لتحصل على موافقة روسيا على مطالبها فى الشام . يضاف إلى ذلك أنه لما كانت اتفاقية الآستانة تنطوى على زيادة كبيرة فى نفوذ روسيا فإنه لم يكن فى استطاعة بريطانيا أو فرنسا قبولها بدون ضمان امتيازات موازنة لها ، ولذلك فإنه بعد اتفاقية الآستانة بقى على بريطانيا وفرنسا تحديد نصيب كل منهما فى الأملاك العثمانية لموازنة مكاسب الروس .

وعلى الرغم من أنه كانت لبريطانيا أطماع فى الخليج والمنطقة المجاورة ،

---

(١) Pichon : Ouv. Cit. pp. 47 - 8.

(٢) Pichon ; Ouv. Cit p. 53.
Documents Diplomatiques Secrets, Russes pp. 229-290.

وكانت مهتمة بتأمين مركزها فى مصر — وخاصة بعد أن أعلنت عليها الحماية فى ١٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ — إلى جانب تأمين مواصلاتها مع الهند، فقد لجأت بريطانيا إلى التسويف وماطلت فى الاستجابة إلى طلب الحكومة الفرنسية بضرورة إجراء مباحثات إنجليزية فرنسية حول ممتلكات تركيا الآسيوية ولعل بريطانيا كانت تأمل بهذا التسويف أن تتفادى الاعتراف والتسليم بمطالب فرنسا بهذه السرعة، ولعلها أيضاً كانت تنتظر ما سوف تسفر عنه مباحثاتها مع شريف مكة[1] .

ولكن فرنسا كانت أشد من بريطانيا تلهفاً على الوصول إلى اتفاق لتقسيم الشرق العربى الآسيوى إلى مناطق نفوذ فيما بينهما . حفظاً لمصالحها فى المنطقة من أن تضيع ، فقد كانت ترى العمليات الحربية فى الشرق ، سواء فى الدردنيل أو فى سيناء أو فى العراق ، تقوم بها قوات بريطانية ، وكانت فرنسا تخشى أن يؤدى اضطلاع القوات البريطانية بالعمل فى الشرق إلى استئثار بريطانيا بالغنيمة ، فتجنى وحدها ثمار النصر دون حليفتها فرنسا ، التى استأثر الميدان الغربى بكل جهودها ؛ ومن ثم انتاب القلق حول مصالحها وادعاءاتها فى الشرق العربى .

ومن ناحية أخرى فإنه فى ذلك الوقت كانت المباحثات جارية بين بريطانيا والشريف حسين من أجل استمالته ضد الترك ، ولا شك أن الشريف ما كان لينضم إلى دول الوفاق دون أن يكسب شيئاً ، وكانت فرنسا تخشى أن يكون الثمن الذى يتقاضاه الشريف على حساب المصالح الفرنسية فى الشرق وخاصة فى الشام .

---

(١) Pichon : Ouv. Cit. pp. 85-7 .

وعلى الرغم من أن البريطانيين فطنوا منذ البداية إلى الفوائد التى سوف تعود على الحلفاء من وراء كسب العرب ، فإن الفرنسيين كانوا أقل تحمساً لهذه الفكرة ليس فقط لأن مجرد وجود دولة عربية على أنقاض الامبراطورية العثمانية سوف يهدد مصالح فرنسا فى شرق البحر المتوسط، بل أن الفرنسيين أدخلوا فى الاعتبار كذلك أثر قيام مثل هذه الدولة على استقرار الأحوال فى شمال أفريقيا[١].

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك كثيرون من الضباط والمسئولين البريطانيين الذين كانوا يعملون فى الشرق ، ويسرهم اقصاء النفوذ الفرنسى عن المنطقة فهذا لورنس يردد أن فرنسا إذاما امتلكت الشام فإنها تستطيع أن تسوق مائة ألف جندى إلى قناة السويس خلال اثنى عشر يوما إعلان الحرب [٢] ، كما كان كتشنر يعارض فى أيلولة بعض مناطق الشام إلى فرنسا [٣] ، لأنه كما يعتقد أن مصالح بريطانيا فى الهند ومصر تحتاج إلى تدعيم وحماية باحتلال بعض المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية من الامبراطورية العثمانية[٤].

وقد وجدت الحكومة البريطانية أنها قبل أن تدخل فى تعهدات ملزمة يجب أن تحدد أهدافها فى المنطقة ، ولذلك قرر اسكويث رئيس الوزارة البريطانية فى بداية أبريل (نيسان) ١٩١٥ تكوين لجنة وزارية برئاسة سير

---

(١) Poincaré : Au Service de le France, T. III, p. 362.

(٢) Garnett : Letters of T. E. Lawrence (193[illegible]), no. 81, P. 193.

(٣) Poincaré ; Oav. Cit. T. III, pp. 362-3.

(٤) Documents on British Foreign policy, Ist Series, Vol. IV. p. 374. (Memorandum by Balfour, Sep. 9. 1919).

موريس دى بنسن Bunsen أحد كبار رجال وزارة الخارجية البريطانية لبحث طبيعة مطالب بريطانيا فى أملاك تركيا الآسيوية وبالتالى رسم سياسة بريطانيا المستقبلة فى هذه المناطق إذا ما انتهت الحرب بالنصر ، وقد قدمت لجنة بنسن تقريرها فى ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩١٥ ، ولم يقدر للتقرير أن ينشر ، باستثناء جزء خاص بفلسطين ، يتضح منه أن اللجنة أوصت بمعارضة طلب فرنسا إدخال فلسطين ضمن منطقة النفوذ الفرنسى فى الشام ، بل ذهبت اللجنة إلى القول بأن فلسطين يجب أن يتقرر مصيرها بعد مفاوضات خاصة يشترك فيها المحاربون والمحايدون على السواء [1].

ولما كانت روسيا قد نجحت — فى اتفاقية الآستانة — فى الحصول على ما تريد ، وفرنسا تلح من أجل الحصول على نصيبها من الممتلكات العثمانية ، فقد صار على ساسة بريطانيا الدخول فى مفاوضات مع فرنسا للحصول على نصيب بريطانيا من تركة الامبراطورية العثمانية ، وحددت بريطانيا مطامعها فى العراق حتى بغداد وميناء حيفا .

وبدأت المفاوضات فى لندن فى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ ، وكان يمثل فرنسا فيها جورج بيكو Picot ، أما بريطانيا فمثلها أولا سير آثر نيكولسون A.Nicholson الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية ثم سير مارك سايكس Sykes ، وتمخضت المفاوضات عن الاتفاقية التى عرفت باسم اتفاقية سايكس بيكو ، ولكن جراى كان يسميها الاتفاقية السرية الانجليزية الفرنسية الروسية حول مناطق النفوذ فى آسيا ، ولما كانت المباحثات قد جرت فى إحدى مراحلها فى القاهرة فقد عرفت الاتفاقية أيضاً باسم اتفاقية القاهرة السرية [2] .

---

(١) Cmd. 5974 (1939), P. 51 (Appendix J.).

(٢) دكتور محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص ٢٨٥ .

وبينما المباحثات جارية بين الدولتين الغربيتين قدم الروس مبرراً لكى تسرع بريطانيا وفرنسا بتسوية خلافاتهما ، فقد نقل الروس إلى حلفائهم فى أواخر عام ١٩١٥ — نقلا عن بعض المصادر الأرمنية — أن جمال باشا القائد العام التركى فى الشام قد يكون على استعداد — إذا ما أعطى ضمانات معينة — للزحف على الآستانة ، والإطاحة بالحكم القائم وإخراج تركيا من الحرب . بشرط أن يعترف دول الوفاق به سلطاناً على دولة مستقلة تضم معظم ممتلكات تركيا الآسيوية ، على أن يتنازل عن الآستانة والمضايق لروسيا .

وإذا ما تحققت هذه الفكرة فإنه يكون صدمة أليمة لكل من بريطانيا وفرنسا ، لأنهما فى هذه الحالة لا يخرجان بشىء من الأملاك العثمانية فى الشرق العربى ، ويكون خروجهما على هذا النحو دليلا على إفلاس الدبلوماسية البريطانية والفرنسية ، ولذلك كان من الطبيعى أن تعمل الدولتان على وأد المشروع الروسى وتسرعا لتدعيم مطالبهما فى أملاك تركيا الآسيوية بالوصول إلى اتفاق فيما بينهما .

وانتهت المفاوضات بإعداد مشروع لمذكرات ثلاث تبادلتها الحكومات الثلاث خلال شهرى أبريل (نيسان) ومايو (أيار) ١٩١٦ ، وقد حددت هذه المذكرتت المناطق العثمانية التى تعتبرها كل دولة منطقة نفوذ لها وترغب فى أن تعترف لها حليفتاها بها . وهذه المذكرات هى :

مذكرة سازونوف Sazonov وزير الخارجية الروسية إلى باليولوج Paleologue سفير فرنسا فى بتروجراد فى ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩١٦ .

ومذكرة بول كامبون Cambon سفير فرنسا فى لندن إلى إدوارد جراى Grey وزير الخارجية البريطانية فى ٩ مايو (إيار) ١٩٦١ .

ثم مذكرة جراى فى ١٦ مايو (إيار) رداً على المذكرة الفرنسية .

وقد نصت الاتفاقية[١] على :

١ — استعداد بريطانيا وفرنسا للاعتراف بدولة عربية مستقلة أو اتحاد من الدول العربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين ا (داخلية الشام) ، ب (داخلية العراق) المبينين على الخريطة المرفقة بالاتفاقية ، ويكون لفرنسا فى المنطقة ا ولبريطانيا فى المنطقة ب حق الأولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، والافراد بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو اتحاد الحكومات العربية .

يسمح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (ساحل الشام) ولبريطانيا فى المنطقة الحمراء (العراق الأدنى جنوبى بغداد) بإنشاء ماتريان إنشاءه من إدارة مباشرة بعد الاتفاق مع الحكومة العربية أو اتحاد الحكومات العربية .

٣ — تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يحدد شكلها بعد استشارة روسيا والاتفاق مع بقية الحلفاء وممثل شريف مكة .

٣ — تحصل بريطانيا على ميناءى حيفا وعكا .

. . . .

من هذا ، ومن الخريطة المرفقة بالاتفاقية ، نرى أن منطقة النفوذ الفرنسى (ولونت باللون الأزرق) كانت تضم الساحل السورى من رأس الناقورة

---

(١) Woodward & Butler : Documents on British Foreign Policy, ist Series, Vol IV, pp. 245-7 (From Gery to Cambon, May 16, 1916).

جنوباً حتى الاسكندرونة شمالا، وكانت كل هذه الشقة الساحلية مع جبل لبنان بحدوده المعروفة دولياً وكذلك الجزر المجاورة لهذا الساحل مثل أرواد وولاية قليقية وأطنه ومرسين، تضم إلى منطقة النفوذ الفرنسي ، وتكون هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع (حكم مباشر) للنفوذ الفرنسي .

هذا إلى جانب المنطقة (داخل الشام) وتضم الموصل ودمشق وحمص وحماة وحلب وتكون تحت النفوذ الفرنسي غير المباشر .

أما منطقة النفوذ البريطاني (ولونت على الخريطة باللون الأحمر) فكانت تضم أراضي ما بين النهرين (القطر العراقي) بما في ذلك مدينة بغداد، وتخضع للسيطرة البريطانية المباشرة ، وتمتد حتى الخليج ، هذا إلى جانب المنطقة «ب» (داخل العراق) وتخضع للنفوذ البريطاني غير المباشر .

* * *

نقد الاتفاقية :

لا شك في أن الاتفاقية ، وهي تالية لاتفاق بريطانيا مع الشريف ، كانت مناقضة له ، ذلك التناقض الذي اعترف به الكثيرون ، والذي أدى إلى حوادث مؤسفة زادت تفاقماً على مر السنين[١]، واعتبرها البعض وثيقة مخيبة للآمال ، وأنها لم تكن فقط نتيجة الطمع المقترن بالشك ، ولكنها كانت أيضاً مظهراً للنفاق[٢].

وإلى جانب ذلك فقد مزقت الاتفاقية منطقة الشرق العربي الآسيوي بطريقة

(١) Wingate : Wingate of the Sudan (1955) pp. 182-3.

(٢) Antonius ; Ouv, Cit. p. 242.



مناطق النفوذ الأوربى
فى الشرق العربى الأسيوى
(فى اتفاقية سايكس – بيكو)

تهدف إلى وضع العقبات المصطنعة فى طريق وحدتها ، ويرجعون ذلك إلى العداء الدفين المستحكم منذ أيام بالمرستون لفكرة قيام دولة عربية تعترض الطريق إلى الهند، متجاهلين تغير الظروف عام ١٩١٦عنها فى أيام بالمرستون ، وخاصة اشتداد اليقظة القومية التى حركت سكان هذه المنطقة ودفعتهم ينشدون الاستقلال والوحدة .

ويلاحظ أن المنطقة التى تقرر فى الاتفاقية إخضاعها للسيطرة الأجنبية المباشرة كانت أكثر رخاء وتقدماً من المناطق الداخلية التى تقرر أن تقام فيها دول عربية تتمتع بقسط من الحكم الذاتى ، وكأنما أرادت الدولتان الاستعماريتان بريطانيا وفرنسا — أن تضمنا عدم وجـــود أى خطر على مصالحهما فى الشرق فى المستقبل حتى ولو قدر للأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتى أن تنال استقلالها الكامل (١).

وقد ظلت الاتفاقية سراً لأنها كانت تتعارض مع المبادىء التى كان يروجها الحلفاء بدعوى إقامة عالم أفضل ، ولم يكن ساسة بريطانيا وفرنسا يؤمنون بصلاحية هذه المبادىء كأساس للعلاقات الدولية ، وخاصة فى الشرق العربى ، ولكنهم اضطروا لقبولها نتيجة دخول الولايات المتحدة الحرب ، وقد ذكر بالفور أن اتفاقية سايكس/بيكو كانت غريبة مختلفة تماماً عن الأفكار القومية التى كانت موضع التقدير فى ميثاق عصبة الأمم والذى ينص على أنه « إذا أمددنا مجموعة من الأهالى المتفقين فى اللغة والدين بشىء من المعونة وكثير من النصح ، وإذا وفرنا لهم الحماية ضد العدوان الخارجى وضد الفوضى الداخلية ، فإنهم سوف ينتظمون كدولة ديمقراطية على الأسس الحديثة »(٢) .

---

(١) Ibid .

(٢) Documents on British Foreign. Policy 1, IV, p. 343 (Memorandum by Balfour, August II, 1919

وهذا التصريح من هذا السياسى البريطانى إنما يدل على ازدواجية السياسة البريطانية ، وأن هذا السياسى كان يتبع سياسة ملتوية حين سعى سعيا حثيثا بصفته عضواً فى وزارة الحرب البريطانية إلى استصدار التصريح البريطانى المعروف باسمه ، والذى وعد بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

اذاعة الاتفاقية :

وقد أذيع النص الكامل للإتفاقية ضمن بقية الاتفاقات السرية التى عقدت فى أثناء الحرب ، عندمانشرت هذا النص جريدتا ازفستيا وبرافدا فى ٢٢نوفبر (تشرين ثان) ١٩١٧ عقب العثور على نصوص الاتفاقيات فى سجلات وزارة الخارجية الروسية ، ونشرت بناء على تعليمات تروتسكى قوميسير الشئون الخارجية الذى أعلن فى حديث له أمام اللجنة المركزية للسوفييت فى بتروجراد , أن كل الاتفاقيات السرية قد صارت الآن تحت يدى ، وأن بنود هذه الوثائق لأسوأ مما توقعنا ، وسوف نلقى بها فى سلة المهملات ، .وفى ١٢ ديسمبر (كانون أول) نشرت المانشستر جارديان ترجمة إنجليزية للنص الروسى من المعاهدات السرية .

* * *

موقف العرب من الاتفاقية :

وهنا نجد أنفسنا أمام موقفين عربيين متناقضين ، موقف الزعامة التى تصدت لقيادة الشعب العربى فى كفاحه من أجل تحقيق أهدافه فى الحرية والاستقلال والوحدة ، وموقف الشعب العربى نفسه صاحب المصلحة .

أما موقف الفريق الأول فإنه يتسم بالضعف والخنوع والاستسلام وترك مصائر البلاد بين أيدى « العظمة البريطانية » كما كان يسميها الشريف حسين .

ذلك أنه بعد إذاعة اتفاقية سايكس/بيكو بعث جمال باشا برسالة بتاريخ ٢٦ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٧ حملهما مبعوث خاص ، وكانت احداهما موجهة إلى الأمير فيصل . والأخرى إلى جعفر باشا العسكرى ، وفيهما قدم جمال باشا — نيابة عن الحكومة العثمانية — عرضا بعقد صلح عربى تركى ، بعد أن صار مؤكداً أن الحلفاء قد وضعوا الخطط والمشروعات السرية التى تتعارض مع استقلال العرب والتى ستؤدى فى واقع الأمر إلى خضوع البلاد العربية لبريطانيا وفرنسا .

وعندما علم الشريف حسين بأمر خطاب جمال باشا طلب من فيصل أن يرد على جمال رداً جافا مقتضبا ، ثم يحيل الخطاب إلى المندوب السامى البريطانى فى مصر ويطلب منه توضيح حقيقة أمر الاتفاقية السرية التى أذاعها جمال ، وقد تملك ونجت المندوب السامى البريطانى ارتباك شديد وأحال الأمر إلى الحكومة البريطانية ، فبعث بالفور وزير الخارجية برقية غامضة مضللة طالب فيها الملك حسين بأن يعتبر رواية جمال باشا مثلا آخر على مكائد الترك كما قدم باست Basset القائم بالأعمال البريطانى فى جدة إلى ملك الحجاز فى ٨ فبراير (شباط) ١٩١٨ مذكرة رسمية أثنت على الملك حسين وعبرت عن رضائها عن اخلاصه بإحالة خطاب جمال باشا إلى الحكومة البريطانية، واتهمت المذكرة الترك بأنهم يحاولون بذر بذور الشقاق بين الحلفاء والعرب ، وأكدت المذكرة أن بريطانيا وحلفاءها مصممون على الوقوف إلى جانب الشعوب العربية فى جهادها من أجل إقامة عالم عربى يحل فيه القانون محل الظلم العثمانى[1] . . . .

وجازت هذه التبريرات المضللة على الملك حسين، واستمر مستسلما للسياسة

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٦٢ — ٣ (الملاحق) .

البريطانية ونفاقها ، ويتجلى هذا أيضاً فى أنه فى ١١ يوليو (حزيران) نشرت صحيفة القبلة الناطقة بلسان الملك حسين (العدد ١٨٨) حديث جمال باشا فى بيروت والذى كشف فيه الستار عن اتفاقية سايكس/بيكو ، وقد نشرت القبلة هذا الحديث نقلا عن صحيفة المستقبل ، وهى صحيفة عربية كانت تصدر فى باريس لحساب فرنسا ، وهنا احتج الملك حسين وطلب مرة أخرى تفسيراً من الحكومة البريطانية ، فردت هذه عن طريق ونجت فى ٨ يونيو (حزيران) مؤكدة أن الوثائق التى عثر عليها البلشفيك فى سجلات وزارة الخارجية الروسية فى بتروجراد لا تمثل اتفاقية مبرمة فعلا ولكنها محاضر لمحادثات وتبادل وجهات نظر بين فرنسا وبريطانيا وروسيا جرت فى بداية الحرب وقبل الثورة العربية بقصد تجنب إثارة الصعوبات بين الدول فى متابعة الحرب ضد تركيا وأنه إذا كان جمال باشا بدافع الجهل أو الحقد قد شوه الهدف الأصلى من التفاهم بين الدول وأغفل الشروط الخاصة بموافقة الشعوب المعنية وحماية مصالحها ، فإنه أيضاً تجاهل حقيقة أخرى وهى أن الثورة العربية ونجاحها الباهر وكذلك انسحاب روسيا من الحرب قد خلق ظروفاً مختلفة تماماً[١] .

وهكذا استمر الملك حسين فى ثقته ببريطانيا ووعودها معتقداً أنها ستقف إلى جانبه ، وكان ممثلو بريطانيا مثل لورنس يغذون هذا الشعور .

ولكن كان يقابل هذا الموقف المتراخى من جانب الملك حسين موقف آخر مختلف تماما ، ألا وهو موقف الشعب العربى فى المنطقة . ذلك أنه بعد أن أعلن الملك حسين أن بريطانيا وعدت العرب بالاستقلال انضم كثير من شيوخ العرب والضباط والجنود إلى جانبه وعرضوا خدماتهم عليه ، ونشطت الدعاية بين القبائل العربية فى شرق الأردن وحوران والعراق والشام ، وعلى

---

(١) Antonius : Ouv, Cit p. 257

الرغم من عدم صدور إعلان رسمى عن سياسة الحلفاء إزاء العرب فإن هؤلاء كانوا يحاربون من أجل تحرير بلادهم من حكم الترك ، والآمل فى الاستقلال التام يملأ قلوبهم .

إلا أن الاتفاقيات السرية الخاصة باقتسام الشرق العربى لم تلبث أن أذيعت ، وكان بالفور قد أصدر أيضاً فى ٢ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٧ تصريحه الخاص بالوطن القوى اليهودى فى فلسطين ، وانتهز الترك الفرصة وأخذوا يغيرون من سياستهم فى الشرق العربى ، ويضاعفون من دعايتهم لإثارة العرب فى المنطقة ، ومحاولة كسب ودهم مستعينين بالخديو عباس حلمى خديو مصر السابق الذى استدعى من سويسرة كى يتولى شئون الدعاية ضد البريطانيين فى الشرق العربى ، وأشيع أن السلطان العثمانى وعده بحكم العراق تعويضاً له عن مصر ، كما استدعى إلى الآستانة كثير من المصريين الذين كانوا يعيشون فى أوربا للإسهام فى هذه الدعاية[١] .

وقد أثار ذلك كله الزعماء السوريين فى القاهرة الذين أعلنوا أن عرب الشام والعراق قد فقدوا ثقتهم فى الحلفاء ، وليسوا على استعداد للتعاون معهم ما لم يصدر بيان حاسم لا غموض فيه ولا إبهام حول مستقبل الشام والعراق ، وإلا فإن الحلفاء وملك الحجاز سيخسرون عرب هذه البلاد ، وقد أيدت ذلك الأنباء التى تلقاها البريطانيون ، فقد أبلغ بعض العلماء العرب أحد ممثلى بريطانيا بأن الأمير فيصل بعث مؤخراً إلى أحد زعماء جبل الدروز فى حوران لكى يتعاون مع قوات ملك الحجاز المتقدمة فى الشام فرفض الزعيم السورى وأعلن

---

(١) National Archives, Washington : Ya'e.s Report no 11. January 12. 1918 «Recent Political Events in Turkey ». & no. 13, February 4, 1918 «British Attitude Towards the Turkish Propaganda ».

سخطه وعدم [illegible] ، [illegible] مقترحاً أن [illegible] : [illegible] أفضل من عروض الحلفاء وملك الحجاز(١)

وعبر المراقبون عن اعتقادهم بخطورة الموقف بسبب سخط العرب وعدم رغبتهم فى التعاون مع الحلفاء وملك الحجاز ، لأن انضمام عرب الشام للترك يشكل تهديداً خطيراً للقوات البريطانية فى فلسطين والعراق ، وقد يكون له أثره على الموقف السياسى والعسكرى فى أوربا ، ولذلك اقترح وليام ييل فى تقريره إلى الحكومة الأمريكية أن تتدخل حكومته لكى تقنع العرب — الذين فقدوا الثقة فى بريطانيا وفرنسا — بأن مصالح العرب ستكون موضع الاعتبار فى مؤتمر الصلح ، وأن مصيرهم سيتقرر على يد دول العالم وليس على يد بريطانيا وفرنسا وحدهما(٢) .

---

(١) National Archives, Washington : Yale's Report no. 17, March 4, 1918, «Growing Discontent Among the Arabs» .

(٢) Ibid .

الفصل الرابع عشر

تصريح بالفور *

ولم تكن اتفاقية سايكس/بيكو هي الطعنة الوحيدة التي وجهتها بريطانيا إلى الأمة العربية ، بل وجهت طعنة أخرى إلى قلب هذه الأمة ، طعنة لا تزال الدماء تسيل من جرائها رغم انقضاء أكثر من نصف قرن عليها ، ولا تزال الأمة العربية تحاول أن تجد علاجاً ناجعاً لهذا الجرح الدامي ، وهذه الطعنة الثانية تتمثل في تصريح بالفور ، الذي أصدرته الحكومة البريطانية في الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ ، وبه قوي أمل الصهيونية في تحقيق الأماني التي جالت بخاطر زعمائها ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الهدف الذي كانت تسعى إليه منذ ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر كحركة سياسية تدعو إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

* * *

عوامل اصدار التصريح :

على الرغم من أن المنظمة الصهيونية العالمية - عندما نشبت الحرب العالمية الأولى - كانت تعلن أن في نيتها الوقوف على الحياد بين المعسكرين المتصارعين فإنها لم تلبث أن فطنت إلى أن الجانب الذي يمكن أن تفيد منه في تنفيذ مخططاتها هو جانب الوفاق ، وبريطانيا بالذات ، خصوصاً وأنه في ذلك الوقت تغير موقف بريطانيا من الدولة العثمانية بعد دخول الأخيرة الحرب

---

* للمؤلف تصريح بالفور (١٩٧٠) .

إلى جانب دولتي الوسط في أوائل نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ ، وأعلن اسكويث Asquith رئيس الوزرة البريطانية في التاسع من الشهر نفسه أنه في ضوء الموقف الجديد تخلت بريطانيا عن سياستها الشرقية التقليدية ،وصار من بين أهدافها من الحرب تجزئة الدولة العثمانية ومن بين ممتلكاتها فلسطين .

وقد كانت بريطانيا تولى فلسطين اهتماماً خاصاً بحكم موقعها الجغرافي وخصوصاً بجاورتها لمصر وقناة السويس ، وعلى وجه أخص إذا كانت بقية بلاد الشام ستئول إلى حليفتها اللدود فرنسا ، ولذلك نجد هربرت صمويل - العضو في الوزارة البريطانية - يطالب حكومته بألا تترك فلسطين تقع في منطقة نفوذ دولة أخرى وخاصة فرنسا « حيث أن إقامة دولة أوربية كبرى بجوار قناة السويس سوف يكون تهديداً خطيراً ودائماً لخطوط مواصلات الإمبراطورية ، ولا نستطيع أن نفترض أن علاقاتنا الطيبة حالياً مع فرنسا سوف تستمر » [١] .

فقد كان ساسة بريطانيا يعتقدون أن الوجود الفرنسي في الشام من شأنه أن يتهدد مصر وقناة السويس، بل وقوة بريطانيا في البحر المتوسط،ومصالح بريطانيا الحيوية في المنطقة ، ولذلك كان بعض هؤلاء الساسة يريدون إنشاء منطقة حاجزة في فلسطين لتفصل بلاد الشام (الفرنسية) عن مصر (البريطانية) فهذا الكولونيل مينرتزاجن Meinertzhagen يعتبر فلسطين «حجر الزاوية في إمبراطوريتنا ، وأهميتها الاستراتيجية لا تحتاج إلى تأكيد. وبالنسبة للمستقبل فإن فلسطين القوية والصديقة ستكون حيوية بالنسبة الاستراتيجية الكومنولث

---

(١) Stein, L. : The Balfour Declaration (1961) p. 107 - 110.

البريطانى ، ولن تكون قوية فى ظل سيادة موزعة أو تحت أى شكل من أشكال الحكم العربى »[1] .

وإذ فطنت الصهيونية إلى هذه الاتجاهات فى السياسة البريطانية ، قررت أن تربط المخططات الصهيونية بالمصالح الاستعمارية البريطانية فى المنطقة ، ولذلك كتب الزعيم الصهيونى وايزمان فى ١٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٤ أى قبل دخول تركيا الحرب ـ «إن خططى تقوم على أساس أن الحلفاء سوف يكسبون الحرب : وهذا ما أوده مخاصاً . ولا شك أن فلسطين سوف تقع فى منطقة نفوذ بريطانيا فإن فلسطين إمتداد طبيعى لمصر » ولا بد من وجود حاجز يفصل قناة السويس عن البحر الأسود ، وفى حالة توقع خطر من هذا الجانب، فإن هذا الحاجز سيكون بمثابة بلجيكا الآسيوية ، وخاصة إذا ماشملها التقدم على أيدى اليهود ، وإذا ما أتيحت لنا الفرصة فإننا نستطيع أن ننقل مليون يهودى إلى فلسطين خلال الخمسين أو الستين عاماً القادمة ، وبذلك يتوفر لبريطانيا حاجز ويتوفر لنا وطن[2] .

ولذلك فقد اقترح وايزمان على سكوت رئيس تحرير صحيفة المانشستر جارديان البريطانية فى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ أنه إذا وقعت فلسطين ضمن منطقة النفوذ البريطانى وشجعت بريطانيا الاستيطان اليهودى فيها « فاننا نستطيع فى خلال عشرين أو ثلاثين عاما أن يصبح لنا مليون يهودى وأكثر يطورون البلاد ، كما يحمون قناة السويس حماية فعالة »[3] .

---

(١) Meinertzhagen : The Fufilment of God's Promise in (Chaim Weizmann, by Paul Goodman. (1945), p 47.

(٢) Stein : Ouv. Cit. p 127.

(٣) Weizmann : Trial and Error, p. 191.

واقتنع ساسة بريطانيا بوجهة النظر هذه ، وحفلت تصريحاتهم بتأييد المخططات الصهيونية ، فهذا صمويل يقترح تحقيق أمانى اليهود بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين بواسطة النفوذ البريطانى ، لما سيكون لهذه الدولة من أهمية كبرى بالنسبة للإمبراطورية البريطانية ، وصار صمويل يعتقد بأن آمال الصهيونية جديرة بتأييد بريطانيا لأن الصهيونيين يستطيعون مساعدة بريطانيا على تدعيم مركزها فى منطقة لها مثل هذه الأهمية الاستراتيجية ، وأن إنشاء دولة يهودية سوف يؤدى إلى ملء الفراغ الذى سيترتب على انهيار الامبراطورية العثمانية(١) .

وفى يناير (كانون ثان) ١٩١٥ كان لويد جورج - وزير خارجية بريطانيا آنئذ - يلوح بفكرة إنشاء دولة يهودية حاجزة Jewish Buffer State فى فلسطين بين الشام (الفرنسية) ومصر (الإنجليزية) وهذا أمرى Amery أحد مساعدى لويد جورج يذكر أن مارك سايكس أقنعه بأنه من وجهة النظر البريطانية البحتة ، فان إقامة مجتمع يهودى مزدهر فى فلسطين يكون وسيلة قيمة فى الدفاع عن السويس ضد أى هجوم من الشمال ، ومحطة على الطرق الجوية إلى الشرق فى المستقبل(٢) .

ولما كانت الحكومة البريطانية لاتستطيع أن تتخلص من الإدعاءات الفرنسية فى فلسطين نهائياً ودفعة واحدة بسبب تحالفهما والحرب دائرة الرحى ، فقد كان نجاح بريطانيا فى تقرير تدويل فلسطين فى اتفاقية سايكس بيكو خطوة لزحزحة فرنسا وإقامة سيطرة بريطانية على فلسطين فيما بعد بالاستعانة بالصهيونية ، وقد ألمح روبرت سسل فى لقاء له مع وايزمان فى وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٥ إبريل (نيسان) ١٩١٧ بأن الحكومة البريطانية

---

(١) Goodman (edit) : Chaim Weizmann, Foreword by Lloyd George, d 9.

(٢) Ibid. Preface by Amery p. 11.

ورحب بقيام اليهودية العالمية بالتعبير صراحة عن رغبتها فى أن تكون بريطانيا هى الدولة التى تتولى الحماية على فلسطين . وفى اجتماع عقد فى منزل الزعيم الصهيونى جاستر وحضره روتشلد وصمويل وسايكس وسوكولوف ووايزمان قرر المجتمعون أن ما يريده الصهيونيون هو الحماية البريطانية على فلسطين[١] .

ولذلك لقد صدق تمبرلى Temperley عندما ذكر أن بريطانيا كانت تهدف إلى حماية قناة السويس بمركز أمامى ، يعيش فيه عنصر من السكان ، ليس فقط مرتبطاً ببريطانيا برابطة المصلحة ، ولكنه أيضاً يتحكم فى تأييد اليهودية العالمية ، وأن هذه المصالح الاستعمارية بعيدة المدى هى التى كان لها اعتبارها ووزنها فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧[٢] .

* * *

وإلى جانب أهمية فلسطين لبريطانيا فى إبعاد فرنسا عن مصر واتخاذها قاعدة للدفاع عن مصالح بريطانيا فى المنطقة ، كانت بعض المصادر البريطانية كما جاء فى مقال المحرر العسكرى للمانشستر جارديان فى ٢٦ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ — تعتقد أنه لما كانت بريطانيا — نتيجة للعمليات الحربية التى تقوم بها فى العراق - سوف تستحوذ على قطر جديد فإن هذا القطر يجب ألا تفصله عن مصر (البريطانية) أرض معادية ، ولذلك كان كاتب المقال يحبذ أن يقطن فلسطين « شعب صديق »[٣] .

وهكذا نرى أن هدف الساسة البريطانيين من إصدار تصريح بلفور بالعطف على أمانى الصهيونية والذى وعدت فيه الحكومة البريطانية ببذل

---

(١) Weizmann : Trial and Error. pp. 238 - 9.

(٢) Temperley, H. : Hist. of the Peace Conference, VI, p. 171.

(٣) Stein, L. : Ouv. Cit. pp. 138 - 9.

الجهد من أجل إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، هو أن هؤلاء الساسة من أنصار التصريح كانوا يرون فيه وسيلة لجعل فلسطين المتاخمة لقناة السويس منطقة نفوذ بريطانية تحمى مركزها فى مصر وتضمن الاتصال البحرى مع الشرق ، وتقيم سداً بين موقعها فى قناة السويس وموقع فرنسا المقبل فى الشام بإقامة عنصر جديد من الناس مدين لبريطانيا بالفضل ويرى مصلحته فى تأييدها ومؤازرتها ، كما أن تصريح بلفور يمهد السبيل أمام بريطانيا لجعل فلسطين من نصيبها فى أسلاب الإمبراطورية العثمانية ، باعتبارها أقدر الدول على تنفيذ التصريح الذى أصدرته لليهود[١] .

وكان إصدار التصريح يعتبر أيضا خطوة عملية من جانب بريطانيا للدق اسفين فى قلب العالم العربى كوسيلة لمواجهة حركة القومية العربية والحيلولة دون نجاحها فى جمع شمل الأمة العربية ، وذلك تنفيذاً لمشروع كان قد ظهر فى أفق السياسة البريطانية الاستعمارية قبل عشر سنوات ، عندما تولت الحكم فى عام ١٩٠٧ وزارة من حزب الأحرار برئاسة كامبل بانرمان ، وتكونت لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بتفادى انهيار الإمبراطورية الاستعمارية ، وقدقدمت اللجنة تقريرها الذى حفظ فى وزارة المستعمرات حيث ظل منسياً حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، حينما نشره صحفى بريطانى صهيونى فى معرض الدفاع عن فكرة قيام دولة يهودية فى فلسطين كضرورة سياسية لسيطرة بريطانيا على الشرق .

فقد تحدث التقرير عن الخطر الذى يهدد الاستعمار فى الشرق ، فذكر أن هذا الخطر يكمن فى السواحل الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط ، وعلى الخصوص فى الجسر البرى الضيق الذى يصل آسيا بأفريقيا وتمر فيه قناة السويس ، وجاء

---

(١) Yale's Report no. 3 (Nov. 12, 1917) « The British policy in the Near East, p. 14.

فى التقرير أن ضربة قاصمة سوف تحل بالإمبراطوريات الاستعمارية إذا ماتحرر الشعب فى هذه المنطقة ونهض (أى الشعب العربى) ، وأنه لاسبيل لتفادى ذلك إلا بالعمل على تجزئة المنطقة ومحاربة اتحاد سكانها (وهذا يتحقق بتنفيذ اتفاقية سايكس / بيكو) ، وأوصى التقرير بضرورة فصل الجزء الأفريقى من المنطقة عن جزئها الآسيوى بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر العربى ، بحيث يشكل فى المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة حليفة للاستعمار[1] .

وعلى الرغم من أنه لم تصل إلى أيدينا وثيقة رسمية تتضمن تقرير اللجنة التى شكلتها وزارة كامبل بانرمان إلا أن هناك من الشواهد ما يؤكد ماجاء فى التقرير ومن هذه الشواهد ما ذكره ميغر تزاجن — الضابط البريطانى فى الشرق — فى رسالته إلى لويد جورج عام ١٩١٩ والتى قال فيها : « إننا نسير بحكمة بالغة مستهدفين السماح لليهود بإنشاء وطنهم القومى فى فلسطين ، لقد حررنا العرب من نير الترك ، ولن نستطيع البقاء فى مصر إلى الأبد ، وبريطانيا تتحكم الآن فى الشرق الأوسط ، ونحن لا نستطيع أن نكون أصدقاء للعرب واليهود فى وقت واحد ، وإننى أقترح منح الصداقة البريطانية لليهود وحدهم ، باعتبارهم الشعب الذى سيكون صديقنا المخلص الموالى لنا فى المستقبل »[2] .

وليس هذا بمستغرب على بريطانيا ، فى الوقت الذى كانت تدق فيه أسفينا فى قلب العالم العربى فى فلسطين ، كانت تدق أسفينا آخر فى قلب العالم الإسلامى ، فى العراق ، فقد كتب أرنولد ولسن نائب سير برسى كوكس

---

(١) شفيق الرشيدات . فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيرا (١٩٦١) ص ٢٧ — ٤٤ .

(٢) الحكم دروزة . عرض موجز للقضية الفلسطينية (سلسلة حقائق وأرقام ٧ — بيروت ١٩٦٧) ص ٢٢ — ٢٣ .

المندوب السامى البريطانى فى العراق ، إلى وزير الهند ، فى ١٠ كانون أول (ديسمبر) ١٩١٨ « وقد استطعنا — باحتلال العراق — أن ندق أسفينا فى العالم الإسلامى ، وبذلك منعنا تجمع المسلمين ضدنا فى الشرق الأوسط ، ويجب أن تكون سياستنا بعد الحرب قائمة على الاحتفاظ ببلاد العراق ، وعدم إدماجها سياسياً فى أى من بلاد العالم العربى أو العالم الإسلامى »[1] .

* * *

وفى تقديرى إن هذه هى الأسباب الرئيسية التى دفعت بريطانيا إلى إصدار تصريح بالفور ، وأما ما يساق من أسباب أخرى كالثورة فى روسيا ، والرغبة فى الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية ، والخوف من أن تسبق ألمانيا إلى تأييد الصهيونية فالمعتقد أن هذه كلها عوامل مساعدة تكاد أهميتها تنحصر فى تحديد الموعد الذى اختارته بريطانيا لإصدار التصريح ، وبدون هذه العوامل كانت بريطانيا ستصدر التصريح فى وقت آخر .

صدى التصريح فى الأوساط العربية :

وليس هنا مجال الإفاضة فى مناقشة ما تضمنه التصريح من عبارات وتعهدات غامضة ومتناقضة ، ويكفى أن نشير إلى أن هذا التصريح كان يتناقض ويتعارض مع إتفاق بريطانيا مع الشريف حسين ، ذلك الاتفاق الذى كانت الحكومة البريطانية قد وعدت فيه باستقلال فلسطين ضمن الدولة العربية ، حيث أن التحفظات التى أبداها سير هنرى مكماهون لم تشمل فلسطين ، يضاف إلى ذلك أن تنفيذ التصريح — رغم ما أدعته الحكومة البريطانية — كان لا بد

---

(١) إرلاند / خياط : العراق ، دراسة فى تطوره السياسى (١٩٤٩) ص ١٠٠ — ١٠١ (برقية رقم ١٠٩٧٣) .

وأن ينزل أضراراً جسيمة بالعرب أهالى فلسطين ، فى وقت اشتد فيه ساعد الحركة القومية العربية التى تأثرت بها فلسطين أيضاً ، حتى كان من بين العرب الذين أسسوا جمعية الفتاة العربية إثنان من فلسطين وكان من بين الأربعة عشر عربياً الذين حاكمهم الترك فى عاليه عام ١٩١٥ ثلاثة من الفلسطينيين ، وكان الفلسطينيون أشد الفئات العربية إدراكاً لحقيقة الخطورة التى تنطوى عليها المخططات الصهيونية وتصريح بالفور ، فقد كانوا بحكم إقامتهم فى فلسطين — يشاهدون عن كثب المستعمرات اليهودية ، ويرون ما يتهدد مصيرهم ومستقبلهم .

وكان أهل فلسطين العرب — المسلمون والمسيحيون على السواء — يعارضون الصهيونية على أساس أنه ليس لليهود حق مشروع فى البلاد، بالإضافة إلى الخوف من إنتزاع اليهود لموارد الثروة خصوصاً وأن الصهيونية العالمية ستكون وراءهم بكل مواردها ، وكان العرب من أهل فلسطين — حتى قبل إصدار التصريح — يشاهدون اليهود يطلقون أسماء عبرية على المواقع والأماكن العربية ، وبذلك كان العرب يرون قراهم العربية تختفى من خريطة فلسطين ومن سجلاتها الرسمية[1] .

وقد تحقق المراقبون من الخطر الذى سوف يحيق بعرب فلسطين نتيجة تدفق اليهود على فلسطين ، وبقدر وليام ييل إحدى نتيجتين لنجاح الصهيونية فإما أن تصبح فى فلسطين قوتان متعارضتان مما يؤدى إلى نشوب صراع بينهما وإما أن يضطر الملاك والتجار العرب — وقد صاروا عاجزين عن مجاراة اليهود ومنافستهم — إلى ترك فلسطين لليهود . وكذلك الفلاحون الفلسطينيون

---

(١) Storrs : Orientations, p. 416, n. 2

إما أن يصيروا أقنان الأرستقراطية اليهودية التى ستمتلك البلاد و تسيطر عليها وإما أن يهاجروا إلى مكان آخر[١] .

موقف الملك حسين .

أما موقف الملك حسين ، فإنه مثلما جازت عليه من قبل خديعة « العظمة البريطانية » عندما علم باتفاقية سايكس / بيكو ، وصدقها عندما أنكرت وجود هذه الاتفاقية ، فقد جازت أيضاً خديعتها عليه للمرة الثانية ، ومع تفاوت بين الحالتين . ذلك أن تصريح بالفور لم يكن سراً لكى تنكره الحكومة البريطانية ولكنها استخدمت سلاح الترغيب والترهيب لمحاولة إسكات الملك وإرغامه على قبول الأمر الواقع ، خصوصاً وأن غشاوة الجهل بحقيقة الصهيونية والثقة التامة فى كل ما تشير به (العظمة البريطانية) قد حجبت عنه الأطماع الصهيونية والأخطار التى سوف تهدد المشرق العربى كله نتيجة لها .

ولذلك فإنه عندما طلب الملك حسين إيضاحا من السلطات البريطانية أبلغته هذه بأنها عازمة على ألا توضع عقبة فى سبيل إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين (تهديد) وأشارت إلى أن صداقة العالم اليهودى للقضية العربية معناه أن تكسب هذه القضية تأييد البلاد التى لليهود فيها نفوذ سياسى[٢] ، (ترغيب) ، وقد انطلت الخدعة على الملك حسين حتى أنه أرسل إلى أتباعه فى مصر وإلى قواته المشتركة فى القتال يحثهم على الاستمرار فى الثقة بوعود بريطانيا ، بل وأوصى بنشر مقال فى صحيفة (القبلة)[٣] الناطقة باسمه يلفت

---

(١) National Archives (Washington), Yales Report n. 4. pp. 14-16.

(٢) Edwards, O.S. : Palestine, Land of Broken Promise, pp. 16-17.

(٣) العدد ١٨٣ فى ٢٣ مارس (آذار) ١٩١٨ .

فيه نظر الشعب العربى فى فلسطين إلى أن كتبه المقدسة وتقاليده تحض على التسامح والكرم ، ويحثهم على الترحيب باليهود كإخوة والتعاون معهم من أجل الصالح العام[1] .

وهكذا حاول الملك حسين أن يستخدم نفوذه فى كسر حدة المعارضة العربية لتصريح بالفور ، واثقاً كل الثقة فى بريطانيا ووعودها ، غير مقدر للعواقب الوخيمة التى سوف تترتب على هذا التصريح وهو أمر ما كان ليغيب عن أى سياسى حصيف تصدى لرعاية مصالح الشعب العربى السياسية .

موقف الزعماء السوريين :

وقد بعث الزعماء السوريون المقيمون فى القاهرة ببرقية احتجاج إلى بالفور على إصدار التصريح يلفتون نظره إلى أن فلسطين جزء حيوى من الشام « بمثابة القلب من الجسم ، ولا تقبل فصلها سياسياً أو اجتماعياً »[2] .

وعندما وصلت هذه البرقية إلى المسئولين البريطانيين فى لندن بعث سير مارك سايكس برد الحكومة البريطانية بتاريخ ١٦ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٧ ، وفيه أشار إلى أن « الهدف الذى ترمى إليه الحكومة البريطانية ليس فقط الإبقاء على القضية العربية بل كذلك العمل على وضع الحركة العربية فى مكانها الملائم بالنسبة للسياسة العالمية و (حركات العصر) ، وإن عدم التوفيق بين الحركة العربية وبين وجهات نظر مختلف الحكومات و (العناصر) يجعلها تحرم من العون السياسى الضرورى لبقائها بعد الحرب . . .

---

(١) Antonius : Ouv. Cit. p. 269.

(٢) National Archives (Washington) Yale's Rep. no. 4, (Nov. 19, 1917) « The Attitude of the Syrians towards Zionism » p. 10 .

« وأنا على يقين من أن تكاتف الصهيونية والقومية العربية سيجعل تحرير العرب أمراً مؤكداً .. » وأشار إلى أن الصهيونيين مستعدون التعاون مع العرب فى تحرير الشام والأجزاء الباقية تحت الحكم التركى(١) .

وقد أضاف كلايتون Clayton رئيس المخابرات البريطانية إلى رد سايكس نصيحة وجهها إلى الزعماء السوريين بأن من مصلحتهم العمل بتفاهم مع اليهود والأرمن لتحرير البلاد من نير الترك ، وأن معارضتهم لليهود ستضر بالقضية العربية ، وحاول أن يبين لهم مدى نفوذ الصهيونيين فى كل أنحاء العالم ، وأنهم سوف يحققون هدفهم فى فلسطين لامحالة ، رضى العرب أو كرهوا ، وحذر العرب من أن اليهود إذا لم يحصلوا على بغيتهم من الحلفاء فانهم سيحصلون عليها من الترك وفى هذه الحالة يخسر العرب قضيتهم ، لأن معارضة العرب للصهيونية سوف يترتب عليها بقاء فلسطين تحت حكم الترك ، « وحينئذ سيحصل الصهيونيون على بغيتهم من الحكومة العثمانية »(٢)

ويقول وليام ييل فى أحد تقاريره أن الزعماء السوريين شعروا بالارتياح بعد تأكيدات كلايتون من أنه لن تقام فى فلسطين دولة يهودية ، كما صدقوا ما ذهب إليه وايزمان رئيس البعثة الصهيونية التى ذهبت إلى فلسطين عن طريق مصر من أن الصهيونيين لا يرغبون فى إقامة حكومة يهودية . وفات على الزعماء السوريين أن وايزمان كان يعنى أنه ليس فى النية إنشاء حكومة يهودية فى ذلك الوقت ، لأنه كان يعتقد أن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يكون إلا على مراحل أولاها فتح باب الهجرة اليهودية على مصراعيه فى ظل إدارة صديقة .

---

(١) Ibid. Yale's Rep. no, 19 (March 18, 1918) : « Zionism & the Arab Movement ». p. 1; Enclosed Telegram from Sir Mark Sykes dated Nov. 16, 1917, 1 - 3.

(٢) Ibid. Yales's Rep no 9 (Dec. 24, 1917) : « Arab Activities & the Balfour Declaration » pp. 1 - 3 .

من هذا نرى أن السوريين فى مصر لم يفطنوا إلى خطورة الصهيونية ، وكان منهم أنصار لبريطانيا وسياستها مثل فارس نمر صاحب المقطم وأحد الموقعين على برقية الاحتجاج ، كما خدع الزعماء السوريون بالتصريحات الكاذبة التى كان يطلقها الساسة البريطانيون أمثال سايكس وكلايتون والزعماء الصهيونيون أمثال وايزمان ، يضاف إلى ذلك أن السوريين فى مصر كانوا يعيشون فى كنف بريطانيا ، ويضعون هم أيضاً ثقتهم فى عدالة بريطانيا ، لدرجة أن أحدهم وهو سليمان بك نصيف بعث فى ١٤ يونيو (حزيران) ١٩١٨ إلى محرر صحيفة الكوكب التى كانت تصدرها سلطات الاحتلال فى مصر منادياً بضرورة شعور العرب بالثقة فى بريطانيا « التى كانت صديقة العالم الإسلامى والعرب لسنوات عديدة مضت ، وإن سياستها لضمان كاف لأن يعتقد العرب أن مصالحهم لن تهمل »[1] .

لذلك كله لانعجب إذا وجدنا هؤلاء الزعماء ـ رغم احتجاجهم الأول على تصريح بلفور ـ يتقبلون من حيث المبدأ فكرة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، على الرغم من خطابات الاحتجاج التى انهالت على الزعماء السوريين المقيمين فى مصر من الفلسطينيين وكلها مليئة بالعداء للصهيونية والخوف منها ، حافلة بالسخط ، معبرة عن القلق .

وزيادة على ذلك فقد طلب بعض الزعماء السوريين من السلطات البريطانية فى مصر أن تسمح لهم بزيارة فلسطين ليشرحوا لأهلها وليقنعوهم بأن من مصلحتهم عدم معارضة الصهيونية[2] .

---

(١) Yale University Library : Yale's Reports & Papers.

(٢) National Archives, Yale's Rep. no. 29 (May 27, 1918) : « The Syrian Mission in Palestine ».

عوامل تناقض السياسة البريطانية :

ولقد كان لبعض المراقبين المحايدين مثل (وليم ييل) عذرهم إذ استولت عليهم الدهشة إزاء هذا التناقض فى السياسة البريطانية : اتفاق مع العرب يتضمن وعدا بالاستقلال داخل حدود معينة مع بعض التحفظات الغامضة ، اتفاق مع فرنسا لاقتسام الشرق العربى فيما بينهما كمناطق نفوذ ، وبذلك يتعارض مع الاتفاق مع العرب ، ثم وعد للصهيونية يتعارض مع هذا وذاك.

ويرجع هؤلاء المراقبون هذا التناقض إلى أنه لم تكن لبريطانيا فى ذلك الوقت سياسة محددة إزاء مستقبل الشرق العربى ، بل كان ساستها يضعون عدة حلول للمشكلة ثم ينتظرون ما تسفر عنه الاحداث قبل أن يختاروا الحل المناسب الذى يطبقونه ، ولذلك صار للسياسية البريطانية اتجاهات عدة غالباً ما ظهر تعارضها خصوصاً وأنها كانت متداخلة مع القوى السياسية المختلفة العاملة فى الشرق العربى كالدولة العثمانية المتهاوية والحركة القومية العربية الناشئة وحكام شبه الجزيرة العربية وبخاصة ابن سعود والشريف حسين ، وكذلك الاستعمار الفرنسى الذى كان يعتبر الشام منطقة لنفوذه الاقتصادى والثقافى وكان يخطط لجعلها جزءاً من الإمبراطورية الفرنسية ، ثم الحركة الصهيونية التى كانت تهدف إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومى لليهود بضمان دولى .

ولما كانت أهداف هذه القوى المختلفة متعارضة تماماً ، ويهم بريطانيا أن ترتبط بها جميعاً لأهمية ذلك فى تحقيق أهدافها المعروفة بعد كسب الحرب وهى حماية الهند وقناة السويس ، فقد صار للسياسة البريطانية عدة اتجاهات متناقضة فتحالفت مع الحركة القومية العربية من أجل إحلال الهزيمة بالدولة العثمانية وتحطيمها ، ثم إقامة حكومات عربية مستقلة فى المناطق المحددة على أن تكون متحالفة مع بريطانيا أو تحت حمايتها ، وذلك بالاعتماد على الشريف

حسين فى تحقيق هذين الغرضين وبذلك تتمكن بريطانيا من السيطرة على مقدرات الإسلام وفى الوقت نفسه لا تتاح الفرصة لقيام دولة إسلامية كبرى قد يؤدى قيامها إلى حدوث قلاقل بين مسلمى الإمبراطورية البريطانية . ثم عمدت بريطانيا إلى استثناء بعض المناطق من الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية من هذه السياسة لأن بريطانيا لم يكن فى استطاعتها أن تخطط سياستها فى العالم العربى على أساس اعتبار واحد دو صداقة العرب ، بل كان عليها أن تدخل فى اعتبارها عوامل أخرى مثل مطالبة فرنسا ببلاد الشام بحدودها الجغرافية كمنطقة نفوذ لها ، وادعاءات الحركة الصهيونية فى فلسطين ورغبة حكومة الهند فى السيطرة على العراق كخط دفاع أمامى عن الهند ومنفذ للهجرة ولحماية آبار النفط بالسيطرة على رأس الخليج ، كما أن الحكومة البريطانية لم تكن راغبة فى المضى فى تشجيع القومية العربية إلى الدرجة التى تصبح معها خطراً على مركز بريطانيا ذاتها فى مصر [1] ، خصوصاً إذ وضعنا فى اعتبارنا أنه لم تكن هناك هيئة بريطانية واحدة تخطط السياسة البريطانية فى منطقة الشرق العربى ، ومن ثم انعدم التنسيق بين هذه المخططات ، فقد كان لوزارة الحربية أفكارها ولوزارة الخارجية آراؤها ولدار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة وجهة نظرها ولحكومة الهند أهدافها ، وكل جهة من هذه الجهات تعمل على تنفيذ سياستها وأفكارها دون تنسيق مع الجهات الأخرى .

وكذلك حاولت بريطانيا بسياستها المتناقضة أن ترضى مختلف الأطراف التى تتعامل معها ، بأن تعد كلا منها بما يريد على أمل أن يصير من المحتمل التوفيق بطريقة ما بين المطالب المتعارضة ، أو إقناع كل طرف من هذه الأطراف بجزء مما وعد به .

---

(١) Hourani, A. : Gt. Britain and the Arab World (1945) pp. 15 — 16.

ولقد فكر البريطانيون أيضاً فى تأييد وضع فلسطين بل وكل بلاد الشام تحت حماية الولايات المتحدة الأمريكية كأحد الحلول لمشكلة الشرق العربى ، وبينما كان يبدو فى الظاهر أن المسئولين البريطانيين يتمسكون بالولاء لفرنسا وأطماعها فى الشام فقد كان ثمة ما يدل على أن البريطانيين لا ينظرون بارتياح إلى احتلال فرنسا لبلاد الشام وخاصة فلسطين ، وأنهم يرحبون بأى حل المسألة السورية من شأنه أن يبعد للسيطرة الفرنسية .

ومع هذا كله ورغم ما يبدو من ميل بريطانيا للوفاء بالوعود التى قطعتها أو التصريحات التى أدلى بها ساستها سواء إزاء مطالب فرنسا أوحقوق الأمم الصغيرة فان بريطانيا كانت ترى أنها مضطرة للتضحية بمصالح الآخرين إذا شعرت بأن هذه المصالح تهدد الإمبراطورية البريطانية بأى شكل من الأشكال[١].

---

(١) National Archives, Washington, Yale's Rep, no, 3. Nov. 12, 1917. The British policy in the Near East. pp. 1 - 4.

الفصل الخامس عشر

انحسار الحكم التركى

الحملة على الشام :

كانت الحملة البريطانية التى خرجت من مصر بقيادة سير أرشبالد مرى قد استطاعت خلال النصف الثانى من عام ١٩١٦ أن تطرد الترك من صحراء سيناء وتمد خطاً حديدياً وأنابيب مياه عبر الصحراء ، وبذلك حلت المشكلة التى تواجها الحملة وقد قام جيش العمال المصريين Egyptian Labour Corps الذى بلغ تعداده نحو مائة ألف من الفلاحين والعمال بانجاز هذا العمل تحت وطأة السياط ، وبذلك صارت العمليات العسكرية التالية سهلة للغاية[1] .

وتقدمت الحملة حتى وقفت قبالة غزة، ولكنها فشلت مرتين فى الاستيلاء عليها ومع ذلك فقد كان من رأى الحكومة البريطانية الاستمرار فى هذه الحملة أملا فى تعويض بعض الخسائر التى منيت بها فى الجبهة الغربية على أن تزود بتعزيزات جديدة ويعين عليها قائد جديد ، وبعد أن اعتذر جنرال سمطس Smuts عن تولى قيادة الحملة رشح اللنبى لقيادتها فوصل إلى الإسكندرية فى ٢٧ يونيو (حزيران) ١٩١٧[2] .

وعندما قررت بريطانيا إرسال الحملة على فلسطين بعثت فرنسا بفصيلتين من الجنود الجزائريين مع قوة فرنسية للعمل تحت إمرة القائد العام البريطانى

---

(١) Gontaut — Biron : Ouv. Cit. p. 37.

(٢) Wavell: Allenby, a Study in Greatness (1940). pp. 184-7

وأطلق على هذه القوة « التجريدة الفرنسية فى فلسطين وسورية[١] » وتتابعت الإمدادات الفرنسية لها من قبرص وبورسعيد حتى بلغ مجموع القوة فى جيش الشرق Legion d'orient سبعة آلاف مقاتل فى سبتمبر (أيلول) ١٩١٨ .

وكانت البحرية الفرنسية قد استولت على جزيرة أرواد المواجهة للساحل السورى بين اللاذقية وطرابلس واتخذت منها قاعدة لجمع المعلومات عن العدو وتحركاته[٢] ولما كان العنصر البريطانى هو الغالب على الحملة فقد خشيت فرنسا أن تضار مصالحها وحقوقها كما حددت فى اتفاقية سايكس - بيكو ولذلك أوفدت بيكو منذ أبريل ١٩١٧ ليمثل المصالح الفرنسية فى الشام بما فيها فلسطين، وعهدت إليه بالقيام بتنظيم الأراضى المحتلة ليحصل لفرنسا على مركز لا يقل عن مركز بريطانيا ، وعند الاستيلاء على أى مكان عليه أن يتأكد من رفع علم الدولتين « إن الاتفاقيات التى عقدت أخيراً (سايكس - بيكو) تحدد تلك الخطوط العامة للسياسة التى تسير عليها فى علاقتك مع العرب[٣] » .

وكانت الخطة التى وضعها اللنبى تقوم على أساس التظاهر بالهجوم على غزة على أن يركز الهجوم على ميسرة الترك فى بير سبع وكانت الحكومة البريطانية تريد أن يؤدى هذا الهجوم إلى إخراج تركيا من الحرب، ولما كانت الامدادات لم تصل إلى اللنبى من سالونيك إلا فى منتصف سبتمبر (أيلول) فقد تحدد آخر أكتوبر (تشرين أول) موعدا للهجوم على بير سبع على أن يبدأ بقصف غزة قبل ذلك ببضعة أيام[٤] .

---

(١) Detachement Francais de Palestinete de Syrie (D.F.P.S.)

(٢) Gontaut-Biron. Oav. Cit. pp. 38 — 39.

(٣) Stein, L. : Syria (1926) . pp 23 — 24.

(٤) Ibid 200 — 205.

وقد وصلت أنباء استعدادات البريطانيين على حدود فلسطين إلى الترك فعدلوا عن خطة الهجوم فى العراق لاستخلاص بغداد ونقلت قوات الصاعقة Yilderim للدفاع عن فلسطين تحت إمرة القائد الألمانى فالكنهاين، وبعد قصف غزة من البر والبحر بدأ الهجوم على بير سبع وسقطت فى ٣١ أكتوبر (تشرين أول) فتقهقر خط دفاع الترك بأكمله فوصلت القوات البريطانية إلى قلعة غزة فى ٧ نوفمبر (تشرين ثان) لتجدها خالية ، وتابعت القوات البريطانية تقدمها بمحاذاة الساحل حتى يمكن ضمان معونة الأسطول وحمايته ، واستمر التقدم فسقطت يافا فى ١٦ نوفمبر (تشرين ثان) وفى ١٨ منه بدأ التقدم نحو القدس التى سقطت فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ (كانون أول) ودخلها اللنبى رسميا فى ١١ منه يرافقه مندوب فرنسى وآخر إيطالى وكذلك الكولونيل لورنس الذى كان قد حضر إلى مقر القائد العام ليقدم تقريرا عن تقدم العمليات الحربية تحت إمرة فيصل قبل سقوط القدس مباشرة ، كما مثلت فى العرض قوات رمزية تمثل القوات التى اشتركت فى الحملة ومنها قوات فرنسية وإيطالية ، وكان إشراكها لأسباب سياسية[1] .

وهكذا لم يصل عام ١٩١٧ إلى نهايته إلا وقد أصبحت القوات البريطانية تسيطر على ذلك الجزء من الشام الذى كان يعرف باسم صنجقية القدس ، ولا شك أن القوات البريطانية لقيت فى تقدمها ـ وبتأثير الدعاية العربية ـ كل معاونة من السكان بوصفهم حلفاء جاءوا لتحريرهم فتخلى الجنود والضباط العرب عن مراكزهم فى الجيش العثمانى ولجأوا إلى الخطوط البريطانية ، كما تطوعوا للإدلاء بمعلومات كان لها قيمتها عن خطط ومواقع الترك ، وليس

---

(١) Wavell : Allenby ; A Study in Greatness 217 — 230 .

أدل على هذه المشاعر من أنه عندما افتتح مكتب فى القدس بعد سقوطها لتسجيل المتطوعين للخدمة فى جيش الأمير فيصل اشتعل الحماس وأقبل الرجال على التطوع حتى كونوا قوة تبلغ نحو ألفين رغم سوء حالة البلاد نتيجة إماقها من ظروف الحرب(١) .

وقد أثار دخول فلسطين واحتلال القدس عدة مشاكل واجهت اللنبى نظرا لصعوبة التوفيق بين وعود بريطانيا للعرب ، وتعهداتها لفرنسا ،وتصريح بالفور الذى صدر لصالح الصهيونية ، حتى أن بيكو الذى كان يرافق اللنبى كممثل سياسى لفرنسا ذكر للجنرال اللنبى يوم دخول القدس رسميا ، غدا سوف تتخذ الإجراءات لإقامة إدارة مدنية فى المدينة ، ولكن اللنبى رد بقوله إن القدس ستظل خاضعة للإدارة العسكرية وأن الجزء المحتل من فلسطين سيدار باعتباره من بلاد العدو المحتلة ، وقرر اللنبى أن العلم الوحيد المسموح برفعه خلال فترة الاحتلال العسكرى هو العلم البريطانى الذى يرفعه القائد العام ، كما رفض السماح بنشر تصريح بالفور فى فلسطين (٢) . ولعله كان يريد ضمان استمرار مساعدة العرب بدليل أنه سمح بنشره بعد ذلك بعد أن استقرت الأحوال وضمن النصر .

وقد أعلن ستفن بيشون pichon وزير خارجية فرنسا فى ٢٧ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٧ أن سقوط القدس من الأحداث التاريخية التى لا تنسى وأنه ليس انتصارا لبريطانيا أو لفرنسا بل هو انتصار للعالم المتحضر ، وأنه لن يقام نظام انجليزى أو فرنسى مكان النظام الذى انهار وإنما سيقام نظام دولى قائم على العدل والحرية ، إن فرنسا التى يعترف لها الجميع بحقوقها

---

(١) Antonius : Ouv. Cit., pp. 229 — 230.
(٢) Wavell : Ouv. Cit. pp. 236 — 7.

التقليدية ودورها التحررى فى الشام هى المؤهلة بسبب هذا الوضع وبسبب المعاهدات التى لم تعد سراً لكى تقوم — أكثر من أى دولة أخرى — بمهمة بعث شعب يعتمد عليها ويرتبط بها ببعض الروابط منذ القدم[١] » .

كما قرر اللنبى فى أوائل عام ١٩١٨ إصدار صحيفة للجيش تحت عنوان (أخبار فلسطين)The Palestine Newsواختار لإدارتها ضابطاً كان من هيئة تحرير التيمس وقد ثار بعد ذلك نقاش وجدل فى مجالس الحلفاء حول مستقبل حملة فلسطين وذلك بعد انسحاب روسيا من الحرب وماترتب على ذلك من أن جانباً كبيراً من القوات الألمانية صار من الممكن نقلها من الجبهة الروسية وتعزيز القوات الألمانية فى الجبهة الغربية بحيث يصير لها التفوق العددى ولكن لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية طالب فى عام ١٩١٨ باستمرار الهجوم على فلسطين لإخراج تركيا من الحرب[٢] .

وليس أدل على أهمية دور العرب فى هذه الأحداث من نشاط الترك من أجل تعزيز حامية معان ، وإرسال المكتب العربى الألمانى الذى أنشىء فى دمشق الكثير من الرسل يحملون الأموال لمحاولة كسب العرب ، كما أرسل عدد من الألمان المتخصصين فى الدعاية فى البلاد الشرقية تحت إشراف الهر نيدرماير Niedermayer إلى عمان ، كما بذلت عروض ومحاولات للصلح مع فيصل من جانب الحكومة التركية بتأييد الحكومة الألمانية وبضمانها ، لكن دون جدوى[٣] .

---

(١) Lyautey : Le Drame Oriental (1924) p. 153,
Abousiouan : Le Probleme Politique Syrien (1925) p. 77, n. 1.

(٢) Wavell : Ouv. Cit. pp. 238 — 239.

(٣) Antonius ; Ouv. Cit., 230

وقرر اللنبي التقدم على طول الساحل والإستيلاء على المدن الساحلية على أن يحاول أن يمد عملياته نحو الشرق حتى عمان لكي تتقدم على طول الخط الحديدي مستعيناً بالعرب تحت قيادة فيصل لتحطيم خط سكة حديد الحجاز ولجذب أكبر عدد ممكن من القوات التركية إلى هذا الجانب حتى يسهل التقدم على الساحل ، ولقد كانت إغارات العرب شديدة الوطأة لدرجة أنه فى يناير (كانون ثان) عام ١٩١٨ أرسل الترك حملة لإلحاق الهزيمة الساحقة بالعرب ولكن الحملة التركية أبيدت فى طفيلة . وقد فشل اللنبي فى عبور الأردن والاتصال بالقوات العربية فى شرقه . وفى تلك الأثناء وصلت أنباء انتصار الألمان فى فرنسا وتقهقر قوات الحلفاء . وكان لذلك أثره السريع على الحملة البريطانية على الشام فقد سحبت بعض قوات اللنبي وأرسلت إلى الجبهة الفرنسية وبدىء فى إحلال وحدات هندية تدريجياً محلها ولذلك لم يعد فى مقدور هذه الحملة أن تكون قوة ذات فاعلية[1] .

ولما أيقن فيصل من صعوبة تحقيق الاتصال مع حلفائه البريطانيين قصر نشاطه على منطقة معان وحاول عزل المدينة تمهيداً للاستيلاء عليها ، فشدد العرب الضغط عليها وتعددت هجماتهم على خط سكة حديد الحجاز حتى قلت حركة النقل عليه واقتصرت على قطار واحد أسبوعياً ، وأصبح الترك يجدون أن محاولة تمسكهم بالمدينة المنورة تكلفهم كثيراً ، ولم يكونوا يتمسكون بها إلا لأسباب سياسية أكثر منها عسكرية ، من أجل الإبقاء على جزء من هيبتهم فى العالم الإسلامى خاصة بعد سقوط اللتين من المدن المقدسة الثلاث ، وهما مكة والقدس . وفى منتصف مارس (آذار) وصلت إلى الأمير فيصل أنباء اعتزام الترك إخلاء المدينة المنورة وسحب حاميتها والحاميات المرابطة على خط سكة حديد الحجاز ونقلها إلى معان وبذلك يمكن استخدامها إما فى أعمال هجومية مباشرة على قواته

---

(١) Antonius : Ouv. Cit., pp. 246 — 259.

أو لتدعيم وتعزيز القوات التى تقف للدفاع عن دمشق ضد أى تقدم بريطانى عربى نحو الشمال . وبعد مشاورات مع جويس ولورنس وبموافقة اللنبى وضع فيصل خطة للهجوم فوراً على معان لعزلها وقطع مواصلاتها مع المدينة وإحباط خطة الترك ، وبدأت الهجمات العربية فى الأسبوع الأول من أبريل (نيسان) عام ١٩١٨ واشترك فيها جعفر باشا العسكرى ، وفى أبريل (نيسان) كان قد تم عزل معان تماماً ولم تجد نفعاً هجمات الترك المضادة[١] .

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن القوات العربية العاملة شرقى الأردن كانت تحتجز الجيش الرابع ومركز قيادته عمان إلى جانب الفرقة الثانية المرتكزة على معان ويبلغ مجموع هذه القوات نحو أربعة عشر ألف جندى هذا بالإضافة للآلاف التى حصرها العرب فى المدينة المنورة والحاميات التى احتجزوها على طول الخط الحديدى بينما كانت القوات البريطانية العاملة غربى الأردن تواجه الجيش السابع بقيادة مصطفى كمال باشا والثامن بقيادة جواد باشا ويبلغ مجموع هذين الجيشين نحو سبعة عشر ألف جندى ، وهذا يدلنا إلى أى مدى كانت العمليات التى قام بها العرب مفيدة للقوات البريطانية الزاحفة وسهلت مهمتها إذ كانت قوات فيصل وحدها تشغل تقريباً من القوات التركية عدداً مساوياً لذلك الذى كانت تواجهه القوات البريطانية ، وباحتلال المنطقة شرقى معان كان فيصل يحمى الجناح الأيمن للجيش البريطانى فى فلسطين ويحمى خطوط مواصلاته الطويلة من هجمات الترك بالقرب من الخليل وبير سبع ، إذ أنه فى أول مارس (آذار) عام ١٩١٨ عين القائد الألمانى ليمان فون ساندرز خلفاً لفون فالكنهاين كقائد عام للقوات التركية الألمانية ، وأقام مركز قيادته فى الناصرة .

وكان اللنبى قد استعد ليبدأ الهجوم فى الربيع لكن هجوم الألمان الكبير فى

---

(١) Antonius : Ouv. Cit.' p. 232.

الجبهة الغربية استدعى سحب بعض القوات من مصر وكان على اللنبي أن ينتظر ما يحل محلها من الهند ، وفى سبتمبر (أيلول) كان اللنبي قد أكمل استعداداته .

وقد وضع اللنبي خطة لتنفيذها بالتعاون مع العرب بقيادة فيصل لاكتساح الجيوش التركية الرابضة فى الشام ، وكانت الخطة تقوم على أساس التقدم على طول الساحل مع قطع مواصلات الترك بين دمشق والجنوب قبل بدأ هجومه وكانت أهم نقطة فى مواصلات الأتراك هى درعا ، فإذا تم عزلها صار من المتعذر على الأتراك إرسال إمدادات بالسكة الحديد إلى فلسطين وبذلك يقطع عليهم خط الرجعة أمام هجوم عربى بريطانى مشترك ، كما أن تهديد الخط الحديدى عند درعا يحمل ليمان فون ساندرز يرسل بعض قواته الاحتياطية من منطقة الناصرة لحماية المواصلات وبذلك تضعف مقاومته أمام التقدم البريطانى .

ومن المهم هنا أنه لم يكن فى ذهن اللنبي التقدم فى ذلك الوقت أكثر من خط طبرية عكا أى الحدود الشمالية لفلسطين[١] .

ولما كانت درعا بعيدة عن متناول قواته المتقدمة بينما هى فى متناول حلفائه العرب فقد عهد إليهم بمهمة تحطيم الخط الحديدى قرب درعا قبل أن يبدأ هو هجومه — ويقول ويفل أن اللنبى لم يكن يثق فى مقدرة العرب على احتلال درعا ذاتها[٢] ، وقد نالت الخطة استحسان الأمير فيصل لأن قواته قد صارت قادرة على الإسهام فى تنفيذها إذ تحسنت أحوالها سواء من حيث الكفاية والتمرين بفضل جعفر باشا وزملائه الضباط ، ومن حيث الإمدادات بفضل بعض المصفحات والمدافع التى أمدته بها بريطانيا ، كما أن رصيده من رجال

---

(١) Wavell, Allenby : A Study in Greatness, 265 ,

(٢) Wavell : Ouv, Cit, p, 26

القبائل ازداد بسبب انتشار دعايته خلال عام ١٩١٨ حتى ضمن انضمام بقية القبائل بين خليج العقبة والفرات إلى الثورة ، وقد حشد نورى شعلان زعيم الرولة أتباعه استعداداً للهجوم كما تعهد زعماء حوران وجبل الدروز سراً بالثورة فى نفس الوقت الذى يبدأ فيه الهجوم .

وكما نمت قوة فيصل فقد تغير تكوينها فقد تضاءل فيها العنصر الحجازى وأصبحت قواته سواء النظامية أو البدوية تتكون فى معظمها من أهالى سورية وفلسطين والعراق أى من رجال كانت لهم مصلحة مباشرة ، فالبلاد التى هم على وشك دخولها هى وطنهم[1] .

وفى بداية سبتمبر (أيلول) نقل فيصل قاعدته فى الأزرق وتقع إلى الشرق من عمان واختارها مركزاً لتجمع قواته ، وفى ١٦ سبتمبر (أيلول) — أى قبل الهجوم البريطانى بثلاثة أيام — قام فيصل بالهجوم على الخط الحديدى تنفيذاً لخطة اللنبى ونجح فى قطع الإتصال بين درعا وعمان ، كما قامت جماعات عربية أخرى بتدمير الخط فى أماكن أخرى فى شرق وشمال درعا حتى تم عزل درعا تماماً فى ١٧ سبتمبر (أيلول) ، وفى اليوم التالى (١٩) بدأ الهجوم البريطانى فى جبهة فلسطين وتقهقر الترك أمامه وأخذت المواقع تسقط الواحد تلو الآخر .

وفى الوقت نفسه كانت القوات العربية شرق الأردن قد أحاطت بدرعا وأخذت تطبق على الجيش الثانى العثمانى فى عمان ، ومما زاد الأمور سوءاً بالنسبة للترك أن الثورة عمت كل أنحاء البلاد[2] .

---

(١) Antonius : Ouv. Cit , p. 235,

(٢) Ibid pp, 236 — 239

وقد احتلت القوات العربية معان فى الثالث والعشرين من سبتمبر (أيلول) بينما قامت فصيلة من القوات البريطانية فعبرت الأردن واحتلت عمان فى الخامس والعشرين[1] وأخذ الجيش الرابع التركى يتقهقر سيراً على الأقدام نظراً لأن الخط الحديدى إلى درعا قد تحطم ، وإلى الشمال كان العرب يطبقون على درعا فاحتلوها فى السابع والعشرين قبل وصول القوات البريطانية[2] .

ويذكر كدورى أنه بعد دخول العرب درعا بساعات وصلت إليها فصيلة من القوات الهندية بقيادة جنرال بارو Barrow لاحتلال محطة السكة الحديد التى كانت فى قبضة القوات العربية فرفض نورى السعيد وتدخل لورنس فى النزاع وتحدث مع قائد القوة الهندية وفهم نورى السعيد من الحديث بينهما أن القيادة البريطانية زودت لورنس بتعليمات تنص على أن ما يستولى عليه الجيش العربى النظامى يصبح تحت الإدارة العربية[3] .

واستمرت القوات البريطانية تشق طريقها صوب الشمال ، وكانت القوات العربية النظامية تحمى جناحهم الأيمن فى تعقب الجيش الرابع بينما كان رجال القبائل يكيلون الضربات للقوات التركية المتقهقرة .

دخول دمشق :

وكان أول من وصل إلى مشارف دمشق الشريف ناصر ونورى شعلان بقواتهما — التى قطعت نحو سبعين ميلا فى يوم واحد — وذلك فى مساء ٣٠ سبتمبر (أيلول) ، ولكن - كما يقول انطونيوس — احتراماً لرغبات القائد العام امتنعوا عن دخولها فى تلك الليلة ، وقنعوا بإرسال وفد من القوات

---

(١) Wavell : Ouv, Cit, p. 282,

(٢) Wavell : Ouv, Cit, p 2 3,

(٣) K.dourie : Ouv, Cit, p, 119.

غير النظامية لنقل البشائر إلى الأهلين ، ورسالة تحتم ضرورة إقامة حكومة عربية ، وعندما وصل مبعوثو الشريف ناصر إلى الميدان الرئيسي مساء ٣٠ سبتمبر (أيلول) شاهدوا العلم العربي ، علم ملك الحجاز ، يرفرف على قاعة بلدية دمشق ، وبذلك انتهى الحكم التركي قبل دخول القوات النظامية العربية والبريطانية[١] .

ويذهب ويفل[٢] إلى أن القوات الأسترالية ممثلة في فصيلة الخيالة الخفيفة الأسترالية بقيادة الجنرال ولسن عندما وصلت إلى ضواحي دمشق في مساء ٣٠ سبتمبر (أيلول) وجدت أن بعض القوات العربية غير النظامية قد دخلت المدينة وأن القوات الأسترالية دخلت المدينة في صباح أول أكتوبر (تشرين أول) وتبعها الشريف ناصر ونوري شعلان بقواتهما . ويقول Kedourie أن القوات الأسترالية والهندية والفرنسية مع الجيش العربي الشمالي كانوا يطبقون على دمشق وأنه في الساعة الواحدة بعد ظهر ٣٠ سبتمبر (أيلول) اقترب الأستراليون والفرنسيون من ضواحي المدينة ، وعندئذ كما يقول بيشون Pichon وهو أحد ضباط الفصيلة الفرنسية — وصل أحد الضباط الاستراليين يحمل أمراً عاجلا من الجنرال أونسلو Onslow بوقف الزحف وبعد برهة وصلت إشارة من القيادة العامة بأنه مهما كانت الأحوال يجب ألا تدخل أي قوات إلى دمشق قبل صدور تعليمات أخرى[٣] وأن ماسي Massey وهو مراسل إحدى

---

(١) Cyrril Falls : Military Operations II (1930); pp. 588 — 9
Massey : Allenby,s Final Triumph (1920) p. p. 252 - 3.
السكوكب العدد ١١٤ (١٥ أكتوبر ١٩١٨)

(٢) Wavell : Ouv. Cit, p. 284

(٣) Pichon : Sur la Route des Indes. 121 — 122

الصحف ومرافق للقوات الزاحفة يؤكد أن تعليمات خاصة أعطيت بخصوص تجنب دخول دمشق إذا كان ذلك ممكناً(١) .

ويعلق Kedourie على ذلك بأن الهدف من هذا الإجراء هو إعطاء فرصة الجيش العربي لكي يثبت وجوده في دمشق أولا ، ويذكر لورنس(٢) أن اللنبي كان يأمل أن يكون العرب موجودين في دمشق فقد كان يعلم قيمة دمشق بالنسبة لهم .

ويقول البلاغ الرسمي الصادر في ٢ أكتوبر (تشرين أول) أن دمشق قد استسلمت في السادسة من صباح أول أكتوبر (تشرين أول) حيث دخلتها « قواتنا الراكبة والجيش العربي وأنه بعد إقامة نقط حراسة سحبت القوات من المدينة »(٣) .

وبذلك تركت دمشق للأشراف لإدارتها وفاء بالوعد الذي تضمنه التصريح للسوريين السبعة ، والتزام البريطانيين نحو فيصل ،ولو أن الفرنسيين يرون أن الإجراءات التي اتخذتها القيادة البريطانية تبدو كما لو كانت تدعو العرب للسيطرة على الشام وأن تقدم الجيش نظم بحيث لا يتاح للقوات الفرنسية فرصة دخول دمشق أولا ، وكان بطء القوات البريطانية يبدو كما لو كان مقصوداً(٤) .

ويتساءل Kedourie عمن أصدر الأمر بتسليم دمشق للجيش العربي وهل صدر الأمر من لندن أم من اللنبي بتأثير لورنس ورجال المكتب العربي فقد

---

(١) Massey : Allenby's Final Triumph (1920 p.) 230 .
(٢) Lawrence : Seven Pillars, 664 .
(٣) Yale : Report on Nov. 9, 1918 .
(٤) Gontaut-Biron : Ouv, Cit. p. 46.

اعتبر Kedourie ذلك أمراً بعيد الأثر لأنه جعل الأشراف وأهالى الشام يعتقدون أن الإمبراطورية البريطانية تؤيدهم ومن ثم امتنعوا عن الوصول إلى اتفاق مع فرنسا ، كما أن هذا القرار زج ببريطانيا فى نزاع مع فرنسا وتعرضت بلاد الشام لعامين من القلاقل والاضطرابات وخلقت « أسطورة مؤداها أن الثورة العربية قد انتصرت . وتوجت انتصارها بالإستيلاء على دمشق »[١] .

وعلى ذلك يمكن القول بأن القوات العربية غير النظامية دخلت دمشق يوم ٣٠ سبتمبر (أيلول) ، أما القوات النظامية فإنها لم تدخلها إلا صباح أول أكتوبر (تشرين أول) مع القوات المتحالفة .

وجدير بالذكر أن مسألة دخول القوات العربية دمشق قبل قوات الحلفاء ليست بالأمر الذى تعلق عليه هذه الأهمية الكبرى ، لحتى إذا كان ولسن والأستراليون قد عبروا دمشق فى الخامسة صباحاً فإن الفرق بين هذا الوقت ودخول قوات العرب النظامية كان ضئيلا للغاية ، وعلاوة على ذلك فإن العرب كانوا يمثلون ميمنة القوات البريطانية ولم يكن فى استطاعة الحلفاء بدون معونة العرب أن يصلوا إلى دمشق بسهولة ، وعلى كل حال فإن حق العرب فى دمشق لا ينبع من الفتح والاحتلال وإنما حقهم ثابت وواضح فيها بصرف النظر عن القوات التى تحتلها قبل الأخرى .

وقد عم الفرح دمشق وخرج أهلها للترحيب بالقوات البريطانية والعربية وأظهروا حماساً عظيما .

ولقد كان لسقوط دمشق أهمية سياسية كبرى إذ أن العرب كانوا يعتبرون أن سقوطها يقوى الأمل فى تحقيق الأمانى القومية ، بإقامة الدولة العربية

---

(١) Kedourie : Ouv. Cit., p. 122.

المستقلة تامة السيادة وتكون بلاد الشام جزءا منها ، ولكن شبح اتفاقية سايكس - بيكو كان يخيم على هذه الآمال ، تلك الاتفاقية التي أعطت لفرنسا بعض الحقوق في سورية ، ولبريطانيا في فلسطين ، وخاصة بعد أن أذاعت روسيا نصوص الاتفاقية ، فكان العرب في قلق ، فاهتموا لذلك بإثبات حقهم في سورية ودمشق عن طريق الفتح وإظهار أنفسهم بمظهر القادرين على القيام بأعباء الإدارة[1].

وطبقاً للتاريخ الرسمي للعمليات الحربية في مصر وفلسطين يذكر ماجور أولدن Olden أنه وجد في قاعة البلدية محمد سعيد الجزائري أحد الضباط العرب في الجيش العثماني يرأس اجتماعا ويعلن أن القائد التركي قد أقامه حاكما بعد ظهر اليوم السابق ، ولكن عندما دخل لورنس دمشق في صباح أول أكتوبر كان أول ما فعله أن عزل الأمير سعيدا الجزائري من رئاسة الحكومة وعين شكري باشا الأيوبي حاكما عسكريا على دمشق[2] .

ورغم ما قيل في تعليل عداء لورنس للأمير سعيد فإنه من المعتقد أن لورنس كان يشك في أن الأخوين الجزائريين كانا ذوي ميول تركية أو بالأحرى فرنسية[3] ، إذ كان يخشى أن يكونا من عملاء فرنسا ويعملان من أجل مصالحها ، وهو كان يعمل جاهداً من أجل الحيلولة دون تقدم الفرنسيين من بيروت إلى دمشق واحتلالها[4] ولعل لورانس من ناحية أخرى كان يخشى

---

(١) wavell : Allenby, Study in Greatness, p. 285.

(٢) Lawrence : Secret Despatches, pp. 170 — 171.

Gontant-Biron : Ouv. Cit, p. 48 .

(٣) Zeine : Struggle for Arab Independence, p. 26 .

Parliamentary Debates-House of Commons, 5th Series, Vol. 132 p. 159 .

(٤) Garnett, D, : Letters of T. E. Lawrence, P. 87 .

أن تتفوق سلطة الأميرين الجزائريين فى دمشق على سلطة الأمير فيصل بحيث يصبحان عقبة فى طريقه ، ولربما كان لورنس مدفوعاً أيضاً بعدائه للأميرين الجزائريين والذى كان يرجع إلى الوقت الذى كانا فيه مندوبين عن الأتراك فى الحادثات التى حاول فيصل — على حد قول kedourie — أن يبيع فيها الإنجليز ، والتى لم تؤد إلى نتيجة ، وبينما يقول بيل فى تقريره (بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩١٨) أن الأمير عبد القادر الجزائرى قتل أثناء هجومه على بيت الأمير فيصل فقتله الحارس ، فإن رواية أخرى تذكر أن فيصل أمر بالقبض على الأميرين فاستسلم الأمير سعيد و نقل إلى حيفا بينما قتل عبد القادر أثناء المقاومة[١]

الشام عقب سقوط دمشق :

وبعد أن دخل فيصل دمشق فى الثالث من أكتوبر (تشرين أول) وسط ترحيب الأهلين صدم صدمة كبرى لأنه فى اليوم نفسه أسرع اللنبى إلى دمشق وقد أثارته الأخبار التى تلقاها من الشام ، واستبد به القلق نتيجة الرسائل التى وردت من القيادة العامة فى بير سالم ، ومن المعتمد البريطانى فى مصر ، ومن قنصل فرنسا العام فى مصر ، ومن مسيو بيكو وخاصة تلك التى جاءته من وزارتى الحربية والخارجية البريطانيتين ، وكان مضمون هذه الأنباء والرسائل جميعاً هو أن عليه وقف التيار العربى الجارف ، وأن يسد الطريق أمام فيصل وأحلامه ، وأن يتذكر اتفاقية سايكس/بيكو[٢] . ولذلك فإنه بعد أن دخل اللنبى دمشق بعث فى طلب فيصل وتمت المقابلة فى قاعة الاستقبال بفندق

---

(١) Samré Syria (1920) p, 464—5,

(٢) Beckles, Wilson: Our Amazing Syrian Adventure, National Review, Sept. 1920) p. 46,

فيكتوريا بحضور لورنس ، وفى أثنائها أشار اللنبى إلى أن الحرب لم تنته بعد ، وأن الأراضى التى احتلتها القوات التى تحت قيادته إنما تعتبر من أراضى العدو ، وأن بريطانيا مسئولة عن إدارة هذه المناطق ، وأنه تلقى تعليمات بالسماح للفرنسيين بالسيطرة على المنطقة غربى دمشق وحلب والتى تتضمن بيروت ولبنان (أى المنطقة الزرقاء) وعندما اعترف لورنس أنه بحسن نية بعث شكرى باشا لامتلاك بيروت نيابة عن الملك حسين ملك الحجاز الذى يعتبر كل الشام ملكاله، ذكر لورنس أن أى حقوق لفرنسا فى الشام سيكون لها عواقب وخيمة[١] استاء اللنبى من كلام لورنس وسأله عما إذا كان لا يعلم شيئاً عن الاتفاق مع الفرنسيين الذى تعهدت فيه بريطانيا بالاعتراف بالحماية الفرنسية على لبنان والساحل السورى، فأجاب لورنس بالنفى ، وأفهمه اللنبى بأنه لم يكن مكلفا باحتلال المنطقة الساحلية ، وأن عليه أن يذهب إلى لندن ويشرح الأمر للمسئولين بوزارة الخارجية ، وأن مهمة القائد العام تنفيذ التعليمات التى يتلقاها والتزامات حكومته وارتباطاتها[٢] .

ثم التفت اللنبى إلى فيصل وأخذ يشرح له أن المنطقة التى تضم دمشق وحمص وحماه وحلب (المنطقة أ) ستكون تحت حماية فرنسا التى تعهدت بأن تقيم فيها دولة عربية مستقلة ، وأنه على استعداد الإعتراف بإدارة عربية تحت إمرة فيصل كممثل لوالده الملك حسين ، وذلك فى الأراضى الواقعة شرقى نهر

---

(١) ولو أن لورنس فى خطابه الى ييل عام ١٩٢٩ أنكر مسئوليته مؤكداً أن على رضا الركابى هو الذى أرسل شكرى الأيوبى إلى بيروت .

Zeine : Struggle, pp. 29–30,

(٢) Garnett, D, : The Letters of T, E, Lawrence (1938) pp, 670 — 671,

الأردن من العقبة إلى معان ودمشق بما فيها المدينة الأخيرة وأنه سيعين ضابطى اتصال أحدهما بريطانى والآخر فرنسى وعن طريقهما يستطيع فيصل أن يتصل بالحكومتين البريطانية والفرنسية بخصوص مسائل الإدارة العربية ، وعندما احتج فيصل بشدة على أى سيطرة لفرنسا على الشام أصر اللنبى على ضرورة إطاعة أوامره وتنفيذها بصفته قائداً عاما وأنه يجب على فيصل قبول هذا الوضع لحين عقد الصلح[1].

وهكذا أطلت اتفاقية سايكس / بيكو برأسها وعادت إلى الظهور وألقت سحابة كثيفة على آمال الملك حسين والوطنيين العرب بعد أن أغفل وجودها عن قصد خلال ثلاثة أيام (من ١ — ٣ أكتوبر)[2].

وفى مساء الثالث من أكتوبر ، وفى مأدبه عشاء فى فندق فكتوريا وبحضور كولوندر Coulondre كبير المستشارين السياسيين لمنطقة النفوذ الفرنسى سأل كلايتون عن الحالة فى بيروت ولبنان فأخبره نورى السعيد بأن قوة شريفية صغيرة من الفرسان أرسلت إلى بيروت فغادر كولوندر المائدة على الفور وذهب رأسا إلى بيروت من أجل الإسراع — كما عرف فيما بعد — بإنزال قوات فرنسية هناك ، وعندما رأى كلايتون كولوندر يغادر المائدة التفت إلى نورى السعيد قائلا « يبدو أننا سنواجه واحدة من أصعب وأعقد مشاكلنا مع الفرنسيين »[3] وكانت قد شكلت فى أول أكتوبر (تشرين أول) إدارة عربية فى بيروت على رأسها عمدتها عمر الداعوق ، إذ أنه بعد أن انسحب الترك منها فى ٣٠ سبتمبر (أيلول) تلقى عمر الداعوق برقية من الأمير سعيـــد

---

(١) Wavell: Ouv, Cit, p. 286

(٢) Zeine : Ouv. Cit, pp. 30 — 31

(٣) يقول زين أن هذه رواية نورى السعيد له . Ibid p. 32

الجزائرى فى دمشق يبلغه فيها بإقامة حكومة عربية هاشمية فى دمشق ويطلب منه إقامة إدارة عربية فى بيروت باسم هذه الحكومة [١] . وأصدرت حكومة الداعوق فى صحيفتها الرسمية (بيروت) فى عددها الثالث الصادر فى يوم الخميس الثالث من أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٨ بيانا مجدت فيه الحكومة العربية الهاشمية وخاطبت أهالى بيروت بأن الله قد من عليهم بالاستقلال فى ظل الحكومة العربية الهاشمية وهى حكومة أمينة مخلصة تدعو إلى العزة .

وينقل زين عن نورى السعيد أن بعض أعيان بيروت ومنهم أحمد مختار بيهم وسليم طياره بعثوا ببرقية إلى القيادة العربية فى دمشق يطلبون فيها إيفاد مندوب عن الشريف حسين لتنظيم حكومة عربية فيها ، فطلب منهم نورى السعيد رفع العلم العربى على كل المبانى الحكومية وأبلغهم أن قوة عربية ستُرسل لمساعدتهم ، وعندما أخطر فيصل بالموقف وافق على إيفاد شكرى الأيوبى مع قوة رمزية من مائة جندى عربى وبعض المدافع والأعلام ، وغادرت هذه القوة دمشق فى الثانى من أكتوبر فوصلت فى الرابع منه (بسبب تدمير الألمان الخط الحديدى بين المدينتين) ويقال أن إيفاد شكرى الأيوبى كان بناء على إلحاح من لورنس على الأمير فيصل [٢] .

أما فى لبنان فإن الأمير سعيد الجزائرى كان قد أرسل أيضاً من دمشق منذ ٣٠ سبتمبر (أيلول) إلى البطريك المارونى إلياس بطرس الحويك يطلب منه إقامة حكومة عربية فى جبل لبنان ، ولكن البطريرك لم يرد انتظاراً لما

---

(١) توجد صورة فوتوستات لهذه البرقية وإعلان إنشاء الحكومة العربية فى بيروت فى صحيفة الحياة (البيروتية) فى العدد رقم ١٠٧٠ بتاريخ ٥ نوفبر (تشرين ثان) ١٩٣٩ ص ١ .

(٢) Zeine : ouv. Cit., pp. 27—28.

تسفر عنه الأحداث ، كما وجه سعيد الجزائرى إلى زعماء القرى اللبنانية بيانا فى أول أكتوبر (تشرين أول) يدعوهم فيه إلى التوجه إلى بعابدة (مقر متصرفية لبنان) لتكوين حكومة مستقلة ، لأن أول سلطان على العرب - وهو الأمير فيصل - قد دخل دمشق ، ويطلب منهم التزام الهدوء والتعبير عما فى نفوسهم من رغبات وكان البيان بتوقيع الأمير سعيد الجزائرى « وكيل السلطان ورئيس الحكومة العربية[1] .

ويلاحظ أن الأمير سعيد الجزائرى لم يشر إلى الملك حسين فى بيانه ، ولعله كان يريد تجنب إثارة اللبنانيين الذين قد يرضون بالاندماج فى الشام دون الحجاز وكان ممتاز بك متصرف لبنان - قبل رحيله - قد عهد بالحكومة فى جبل لبنان إلى حبيب فياض عمدة بعابدة ، مقر متصرفية لبنان ، فأقيمت حكومة مؤقتة على رأسها مالك شهاب وعادل أرسلان ، وقد أبرق البطريرك فى الخامس من أكتوبر (تشرين أول) إلى عادل أرسلان يطلب منه السيطرة بشدة على ناصية الأمور وأن ينصح الأهالى بعدم الاتصال بأحد حول مستقبل البلاد إلى أن يتبادل معهم البطريرك وجهات النظر .

ثم تقدم شكرى الأيوبى من بيروت إلى بعابدة حيث أصبح يرفرف العلم العربى على سراى الحكومة ، وهناك فى احتفال رسمى - فى السابع من أكتوبر (تشرين أول) - أقيم - باسم الملك حسين - حبيب باشا السعد رئيسا للحكومة الجديدة فى لبنان والتى كانت تتكون من أعضاء المجلس الإدارى السابق ، وأقسم حبيب باشا فى الاحتفال يمين الولاء لحكومة فيصل فى دمشق .

---

(١) Ibid, pp. 36-37 (Footnote).

وقد كتب حبيب باشا إلى البطريرك يخطره بما حدث ووقع خطابه بعبارة حاكم عام لبنان [1] وقد كان الاحتفال صدمة كبيرة للموارنة ، ولما كان لبنان يتمتع بوضع خاص منذ ١٨٦١ حين صار متصرفية تتمتع بحكم ذاتى ويحكمه متصرف فقد اعتبر البعض سياسة فيصل فى إقامة حكومة عربية هاشمية فى بيروت ولبنان باسم ملك الحجاز سياسة قصيرة النظر لأنها أثارت ليس فقط شكوك الفرنسيين حول نوايا فيصل وإنما أثارت كذلك شكوكهم فى نوايا بريطانيا فى الشام ، فقد كان الفرنسيون يرون أنه رغم أن اللنبى قد منع رفع الأعلام إلا أنه لم يطبق هذا الحظر على العرب حيث صارت كل المدن فى الداخل وعلى الساحل ترفع العلم العربى إلى أن تدخل كولوندر لدى اللنبى بخصوص المنطقة الزرقاء .

وقد احتج الفرنسيون بشدة لدى وزارة الخارجية البريطانية وجنرال اللنبى وكان من نتيجة ذلك أن أمر اللنبى بعض ضباط مخابراته بالتقدم إلى بيروت وعزل شكرى الأيوبى من منصبه وإزال الأعلام الحجازية وإعطاء التأكيدات اللازمة للقائد البحرى الفرنسى الذى كان يقف بسفنه قبالة بيروت بأن فى استطاعته إنزال قواته إلى البر ، وفى الوقت نفسه أرغم فيصل على أن يرسل أمره إلى شكرى الأيوبى ممثله فى بيروت بالعودة فوراً إلى دمشق تجنباً للصدام مع الفرنسيين .

وقبل احتفال بعابدة بيوم واحد أى فى السادس من أكتوبر (تشرين أول) قامت بعض قطع الأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال فارنى **Varney** بدخول ميناء بيروت ، وبعد يومين (فى ٨ أكتوبر) وصل البريطانيون بقيادة الجنرال

---

(١) Zeine : Ouv. Cit. p. 38.

بلفن Bulfin بعد أن تقدموا من حيفا بحذاء الساحل ، وفى نفس اليوم وصل ضباط المخابرات البريطانية من دمشق إلى بيروت وأبلغوا شكرى الأيوبى بأن مهمته قد انتهت ، ورغم احتجاجه فقد أزيلت الأعلام العربية تحت جنح الظلام[1] وصلت إلى بيروت الفصيلة الفرنسية التى كانت ملحقة بجيش اللنبى

Detachement Francais de Palestine et de Syrie.

وكان يقودها الكولونيل بيباب الذى تولى مهام منصبه فى بيروت كأعين حكام عسكريون لمدن صيدا وصور .

وبمناسبة إخلاء بيروت من القوات الشريفية قدم اللنبى بعض التأكيدات الرسمية للأمير فيصل ، وقد أبلغ اللنبى حكومته بهذه التأكيدات فى السابع عشر من أكتوبر (تشرين أول) ومفادها أنه مهما كانت الإجراءات التى تتخذ فى فترة الإدارة العسكرية فإنها مؤقتة ولن تضر بالتسوية النهائية التى يضعها مؤتمر الصلح الذى سيمثل فيه العرب ، كما أبلغ اللنبى حكومته بأنه أمر الحكام العسكريين بعدم التورط فى المسائل السياسية . وأنه أبلغ فيصل بأن الحلفاء قد تعهدوا بشرف من أجل الوصول إلى تسوية تتفق ورغبات الشعوب المعنية[2] .

ومنذ الخامس من أكتوبر (تشرين أول) أقام فيصل فى دمشق حكومة

---

(١) Beckles Wilson : Our Amazing Syrian Adventure in (National Review) Sebt. 1920, pp. 45 – 46.
Gontaut-Biron : Ouv. Cit. p. 49.

(٢) Zeine: Ouv Cit., p. 39 (footnote) extract from Cmd 5094 N. 4 1939. Statements made on behalf of H.M.G. during 1918 in regard to the Future State of certain parts of the Ottoman

عربية عسكرية للشام ، بموافقة الجنرال اللنبى ، الذى أبلغ حكومته بذلك فى اليوم التالى [١] .

وأصدر فيصل باسم والده أول بياناته الرسمية موجهاً إلى شعب سورية ، وفيه شكر فيصل السوريين على الاستقبال الحار الذى لقيته قواته المنتصرة وعلى الولاء للسلطان حسين ، ثم أعلن قيام حكومة عربية دستورية فى الشام تتمتع بالاستقلال التام باسم السلطان حسين ، وتمتد سلطتها على كل الشام وعين على رضا الركابى رئيساً لهذه الحكومة ، أما بقية البيان فقد أهاب فيه بالسكان من أجل المحافظة على النظام والقانون وإطاعة الحكومة الجديدة ، ومن أجل إزالة مخاوف المسيحيين والأقليات الأخرى فى الشام اختتم فيصل بيانه بتأكيد أن الحكومة حكومة عربية تقوم على العدالة والمساواة بين جميع العرب الذين سوف يتمتعون بنفس الحقوق سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً [٢].

وبعد سقوط دمشق ألحت الحكومة البريطانية على اللنبى لكى يتقدم إلى حلب ويحتل بقية الشام ، وقد تم تنفيذ ذلك قبل نهاية أكتوبر (تشرين أول) نتيجة عمليتين حربيتين: الأولى بالتقدم بمحاذاة الساحل عبر صور (٤ أكتوبر) وصيدا (٦ أكتوبر) وبيروت (٨ أكتوبر) حيث كانت القوات الفرنسية قد سبقت البريطانيين بإنزال الجنود من السفن الحربية كما سبق القول ، كما احتلت طرابلس بعد احتلال بيروت بخمسة أيام ، أما العملية الثانية فكانت بالتقدم عبر المناطق الداخلية عبر حمص وحماه وحلب وقد ساهم العرب بنصيب كبير وفعال فى العملية الثانية حتى دخول حلب [٣] ، ولقد كان التقدم إلى حلب عملية

---

(١) Empire, pp. 6—7.

(٢) ساطع الحصرى : يوم ميسلون ص ١٩٤/١٩٥ .

(٣) Wavell : Allenby, A Study in Greatness, p. 288.

صحية شاقة بسبب إرهاق القوات وصعوبة تدبير المؤن بعيداً عن القاعدة وانتشار المرض واحتشاد قوات كبيرة من الترك المنسحبين على الطريق . ولكن تعاون العرب والبريطانيون فتقدمت قوة بريطانية على الطريق الرئيسى تحميها فى جناحها الأيمن قوة عربية نظامية ، بينما الشريف ناصر وقوة من رجال القبائل تهاجم حمص وتحتلها فى الخامس عشر من أكتوبر (تشرين أول) قبل وصول البريطانيين ، وبعد يومين احتل العرب بقيادة الشريف ناصر حماة دون مقاومة ، ولكنه وجد مقاومة قوية من جانب الترك بقيادة مصطفى كمال دفاعاً عن حلب ، وبينما القوات النظامية العربية والبريطانية تستعد للهجوم عليها استطاعت قوات القبائل أن تدخل المدينة بعد ظهر الخامس والعشرين من أكتوبر فاضطر الترك إلى الانسحاب وبذلك استطاعت القوات النظامية العربية والبريطانية دخول المدينة فى صباح السادس والعشرين .

ومن التاسع والعشرين قامت قوة من رجال الشريف ناصر باحتلال المسلمية حيث يتفرع الخط الحديدى من الآستانة إلى فرعيه السورى والعراق وكان احتلالها يمثل أقصى ماوصل إليه تقدم القوات المتحالفة شمالا إذ أنه فى اليوم التالى وقعت هدنة مدروس بين تركيا والحلفاء [1] .

القيمة العسكرية للاسهامات العربية :

اتجه بعض الكتاب إلى الحط من قيمة ما أسدته العمليات العربية التى اضطلع بها العرب فى نصر الحلفاء وخاصة بريطانيا فى ميدانى الحجاز والشام، وأثر ذلك على النتيجة العامة للحرب ، فيرى ونجت أنه لم يكن للثورة أهمية عسكرية فى العمليات التى دارت فى الحرب العالمية الأولى ، وأن أهميتها كانت عملية اقتصرت على الحيلولة دون سيطرة الترك على الحجاز ، وأنها كانت ثورة

---

(١) Ant nius : Ouv Cit, pp 239—240

سياسية احتضنتها بريطانيا لمواجهة مركز الترك الديني ، ذلك المركز الذى كان من الممكن أن يؤثر على الولاء التام لمائة مليون مسلم من رعايا بريطانيا »[١].

وهذا الفرنسى جونتو بيرون Gontaut — Biron يذهب إلى أن معونة العرب لم يكن لها تأثير على النتيجة النهائية للحملة على الشام ، وأن البدو الذين كانوا يحاربون لم تكن لهم قيمة من الناحية العسكرية ، بل كانوا يجتمعون ويفترقون حسب هواهم ، وأن الجيش النظامى العربى لم يتجاوز أربعة آلاف من الجنود ، لم يعملوا وحدهم وإنما كانت تشد أزرهم القوات البريطانية والفرنسية ويدلل على ضعفهم بعجزهم عن الاستيلاء على المدينة المنورة إلا فى ١٣ يناير (كانون ثان) ١٩١٩ أى بعد عقد الهدنة ، وأنهم لم يحرزوا سوى نصراً واحداً وهو الاستيلاء على معان وأن هجماتهم على الخط الحديدى بين معان والمدينة لم تؤثر على الحركة على الخط التى استمرت حتى عام ١٩١٨[٢] .

وهذا كدورى kedourie يقول إن تجنيد رجال القبائل العربية إنما كان لاتقاء شرهم أكثر من زيادة القوة المحاربة للأشراف ، وأن قوات الأشراف النظامية لم تتجاوز فى أعلى تقدير ثلاثة آلاف ، بل ويذهب كدورى إلى حد القول بأن البعض قدرها بثمانمائة رجل فقط[٣] ، رغم أن ونجت — شأنه شأن جونتو بيرون — يقدرها بأربعة آلاف[٤] .

ورغم هذه الأقوال المغرضة التى تهدف إلى التقليل إلى أقصى حد من قيمة

---

(١) Wingate : Ouv. Cit , p. 197

(٢) Gontaut-Biron : Ouv. Cit. pp. 43—44.

Aldington : Lawrence of Arabia (1954) p. 197—8.

(٣) Kedourie : Ouv. Cit , pp. 117—118

(٤) Wingate : Ouv. Cit., p. 192.

الثورة وعملياتها العسكرية وتأثيرها على النصر العام رغبة فى إنكار حق العرب فى الخروج من الحرب بأى مكسب يقصد مخططات بعض الدول فإن هناك من لم يستطيع إنكار حقيقة ما أسداه العرب للحلفاء عامة وبريطانيا على وجه الخصوص فى أثناء الحرب ، فهذا ويفل Wavell يذكر أن الثورة أسدت خدمة قيمة للقيادة البريطانية لأنها شغلت جانبا كبيرا من التعزيزات والإمدادت التركية وحولتها إلى الحجاز ، كما حمت ميمنة القوات البريطانية فى تقدمها عبر فلسطين ، وإلى جانب ذلك فقد وضعت حدا للدعاية الألمانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية وأزالت أى خطر كان من الممكن أن ينشأ من إقامة قاعدة للغواصات الألمانية على البحر الأحمر(١) وفى التقرير الختامى الذى رفعه اللنبى فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٨ عن سير الحرب جاء أن « الجيش العربى قد ساعدنا مساعدة عظيمة القيمة بقطع مواصلات العدو قبل القتال ، وبمعاونته لفرساننا فى أثناء الزحف صوب دمشق ، فقد رابط العرب على طريق تقهقر العدو شمالى درعا . فحال دون فرار جانب من الجيش العثمانى الرابع وأنزل بالعدو خسائر فادحة(٢) .

وهذا ليمان فون ساندرز يذكر أن الثورة العربية أدت خدمات جلى للقوات البريطانية الزاحفة من شبة جزيرة سيناء فكان البريطانيون يحاربون وهم مطمئنون كما لو كانوا يحاربون فى بلادهم ، بعكس الترك الذين كرههم أهل البلاد فكانوا يقاتلون وكأنهم فى بلاد معادية (٣) .

كما ذكر أحد ضباط المخابرات فى القوة التركية التى كانت تدافع عن معان

---

(١) Wavell : The palestine Campaigns (1951) p. 56,

(٢) أمين سعيد ج ١ ص ٢٧١، Loder : The Truth about Mesopotamua, Palestine & Syria (1923) p 26

(٣) محمد طاهر العمرى مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٢٥٦ .

أنه لولا وجود جيش عربى ناصب الترك العداء فى جزيرة العرب وفى جبهة طولها نحو ألف كيلو متر لما تم للجيش البريطانى إحراز للنصر الذى أحرزه بهذه السرعة و بدون عناء كبير ، فإلى الجيش العربى يرجع الفضل فى وصول البريطانيين إلى قلب البلاد العربية واحتلال القدس ، ولولا الجيش العربى لكان فى استطاعة الترك تطويق القوات البريطانية وإجبارها على التراجع ، فقد شغل العرب نحو أربعين ألف مقاتل من الترك بأسلحتهم الكاملة ، كان من الممكن حشدهم فى ساحة فلسطين فى مواجهة البريطانيين لمنعهم من التقدم ، وكانت القوات المحاصرة فى المدينة بقيادة فخرى باشا تقدر بنحو خمسة عشر ألف جندى علاوة على القوات التركية التى كانت تسهر على حماية الخط الحديدى وكانت تقدر بنحو عشرة آلاف إلى جانب ثمانية آلاف فى معان وأربعة آلاف فى تبوك ، ولو تجمعت هذه القوات فى وجه اللنبى لما كان فى مقدوره بلوغ دمشق[١] ، بل ذهب البعض إلى حد القول بأنه لولا اتفاق البريطانيين مع الشريف حسين لما استطاعوا عبور القناة والتقدم فى الشام لمحاربة الترك الذين اضطروا إلى تجزئة قواتهم إلى قسمين أحدهما يحارب البريطانيين والآخر يحارب العرب مما عجل بانكسار الترك[٢].

ويذهب نيدل هارت إلى القول بأن ثورة العرب نجحت فى فل سلاح الجهاد الذى لم تعد له قيمة خارج تركيا رغم جهود مبعوثى الترك والألمان ، وأنقذت بريطانيا من الحرب المقدسة التى كان سينوه بها ظاهرها . لقد أقدم الحسين على مغامرة ولا شك أنه لو انحاز إلى جانب الجهاد فكل ما كانت تستطيعه بريطانيا هو أن تحاصر سواحل الحجاز ، وفى هذه الحالة سيثور عليها

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٢) أمين سعيد: الثورة العربية جـ١ ص٩٦

رعاياها المسلمون غضباً وحقداً لمحاولتها إجاعة الأماكن المقدسة، بينما رفض الجهاد أثار الحسين غضب الترك ووضع مصيره تحت رحمتهم إذا خرجوا من الحرب منتصرين[١] .

وبمقارنة هذه الأقوال جميعاً نخلص إلى أن العرب — رغم ضآلة قوتهم بالنسبة لقوة حلفائهم — أدوا خدمة جليلة لنجاح العملية العسكرية الرئيسية، فقد أخرجوا الترك من الحجاز وبذلك ضمنت بريطانيا عدم استخدام سواحل البحر الأحمر الشرقية ضدها، كما أخذت القوات العربية النظامية وغير النظامية تعمل شرقي نهر الأردن، واحتل العرب على التعاقب: الوجه، العقبة، معان، درعا ثم تقدموا إلى دمشق هدفهم الرئيسي، كما أن ثورة العرب وتقدمهم ضد الترك شجع على تخلي العرب عن مراكزهم في الجيش التركي كما أخذت القبائل في الشام تنضم إلى القوات العربية وتؤازرها في العمل ضد الترك مما جعل الترك يشعرون — كما يقول ساندرز — بأنهم يحاربون في أرض معادية، كما كان النشاط العسكري للقوات العربية مسئولا عن شغل نحو ٦٥ ألفاً من القوات التركية .

الحملة البريطانية على العراق :

كان العراق موضع اهتمام عميق من بريطانيا منذ القرن التاسع عشر لأسباب سياسية واقتصادية وعسكرية، وقد كانت الحرب العالمية الأولى فرصة سانحة لكي تحقق بريطانيا أطماعها في العراق، وتقيم سيادتها عليه تحت أي شكل من الأشكال، وقد أعلنت حكومة الآستانة إلى ذلك ولذلك نرى أن كلا من البريطانيين والترك أخذوا في الاستعداد لمواجهة الموقف حتى قبل أن

---

(٣) Jeffries : palestine, The Reality, pp 60—61.

تعلن الدولة العثمانية الحرب رسمياً ، فغادرت السفن البريطانية البصرة متجهة إلى المحمرة ، ولم تعد هذه السفن تتجه إلى البصرة ، وصار بترول شركة النفط الانجلو إيرانية يشحن من عبدان على سفن تحمل أعلام دول محايدة كاليابان ، ومن ناحية أخرى نشطت السلطات التركية فى البصرة نشاطاً ملحوظاً ونقلت بعض القوات من بغداد إلى البصرة ووضعت على طول شط العرب بين البصرة وفاو[1] .

وعلى الرغم من أن فكرة إرسال حملة إلى رأس الخليج كانت تدور فى أذهان المسئولين البريطانيين فقد كان ثمة تردد لأن حكومة الهند ـ التى كانت ستضطلع بمثل هذه الحملة ـ كانت ترى أنه قد سحب جانب كبير من قواتها إلى ماوراء البحار كما كانت تخشى أن تؤدى مبادرتها لتركيا وخليفة المسلمين بالعدوان إلى إثارة حفيظة المسلمين الهنود، كما كانت الحكومة البريطانية مترددة لحاجتها إلى تركيز كل جهودها لوقف تقدم الألمان فى الجبهة الغربية ، خصوصاً وأنه كان هناك احتمال بألا تدخل الدولة العثمانية الحرب .

إلا أنه ظهر للسلطات البريطانية السياسية والعسكرية ـ كما جاء فى تقرير السكرتير العسكرى لوزير الهند بتاريخ ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٩١٤ ـ ضرورة القيام بعمل فى رأس الخليج وإنزال جيش فوراً فى شط العرب لحماية مؤسسات النفط فى الظاهر وليفهم الأتراك أننا جادون فى الأمر ، كما يفهم العرب أننا مستعدون لمساندتهم[2] .

---

(١) National Archives (Washington): political Affairs in Turkey, Rep. from American Consulate in Baghdad to American Ambassador, Constantinople, Sept 22 1914, Conditions in Basorah.

(٢) أيرلاند : العراق ، دراسة فى تطوره السياسى ترجمة جعفر خياط (١٩٤٩) ص ٢/٣

وفى التاسع والعشرين من سبتمبر (أيلول) أرسلت إحدى السفن الحربية البريطانية إلى شط العرب وألقت مراسيها تجاه المحمرة ، كما وقفت سفينة أخرى عند عبدان لحماية مصافى النفط .

وفى ١٦ أكتوبر (تشرين أول) غادرت قوة من القوات الهندية بومباى بقيادة البريجادير جنرال دلماين Dalmain وكانت التعليمات الصادرة إليه تنص على القيام بحماية أنابيب النفط إلى الاهواز ، ومصافيه فى عبدان ، وتغطية عمليات إرسال التعزيزات ، وتأكيد معونة بريطانيا للزعماء العرب المحليين ضد الدولة العثمانية ، وفى ٢٣ أكتوبر تم احتلال جزيرة البحرين واتخذت قاعدة عسكرية للحملة ، وفى اليوم التالى لدخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا — نزلت القوة إلى البر عند فاو حيث يصب شط العرب فى الخليج(١).

وتوالت الإمدادات من الهند ، وبعد سلسلة من الاشتباكات مع القوات التركية استطاعت القوات البريطانية القادمة من الهند بقيادة الجنرال باريت Barrett أن تحتل البصرة فى ٢٢/٢٣ نوفمبر (تشرين ثان ١٩١٤) حيث أذاع سير برسى كوكس Percy Cox كبير الضباط السياسيين المرافقين للحملة بياناً باللغة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية ـ رغم حالة الحروب القائمة بينها وبين الدولة العثمانية ـ لا تحمل ضغينة ولا عداوة ضد الأهلين ، وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والعدالة فى ظل العلم البريطانى والإدارة البريطانية طالما وقفوا موقف الحياد بين القوات البريطانية والتركية وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا (٢).

---

(١) wilson : Loyalties, Mesopotamia, VoL I, (1930) pp. 6—9.

(٢) Ibid pp 10—11. Appendix I, p. 311 ;

عبد الرزاق الحسنى : تاريخ العراق السياسى الحديث جـ ١ ط ١٩٤٨) ص ١٥٥

وبدأ البريطانيون فى إقامة إدارة مدنية . ونظمت شرطة من مسلمى الهند والصوماليين من عدن ، وقد كانت حكومة الهند تفكر فى جعل البصرة ولاية تابعة للهند . ولم تقنع القوات البريطانية باحتلال البصرة بل تقدمت حتى احتلت القرنة حيث يلتقى دجلة بالفرات وذلك فى ٩ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ بدعوى أن آبار النفط لا تزال فى خطر التعرض لهجوم الترك[١].

ولم تحاول القوات البريطانية أن تجذب الأهالى العرب فى العراق إلى جانبها ضد الترك لأن المسئولين البريطانيين كانوا يعلمون أن ذلك الأمر لم يكن فى استطاعتهم دون أن يبذلوا وعوداً محددة وضمانات معينة مما قد يؤدى إلى غضب حلفاء بريطانيا لتعارض ذلك مع المخططات التى كانت توضع لتقرير مصير الشرق العربى . يضاف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن المسئولين فى حكومة الهند كانوا ضد استخدام العرب ضد السلطان العثمانى حتى لا يثير ذلك سخط العناصر الإسلامية فى الهند ذاتها ضد البريطانيين ورغبة فى عدم تشجيع الاتجاه القومى بين العرب .

وعلى الرغم من أن السلطات البريطانية كانت تعلم بوجود بداية حركة قومية فى العراق فى السنوات القليلة السابقة على الحرب ، وأن الوطنيين فى العراق كانوا يعملون جنباً إلى جنب مع الوطنيين السوريين ضد نظام الحكم العثمانى ، وكانت البصرة — على وجه الخصوص - رائدة فى هذا النشاط بزعامة السيد طالب النقيب ، فإنه لم يكن ثمة تعاون بين القوات البريطانية والعرب فى العراق ، وكل ما أقدم عليه البريطانيون هو العمل على كسب حياد

---

(١) wilson : Ouv Cit., p. 15 ;
Yale : The Near East. p. 223.

العرب بدفع بعض الأموال واستخدام بعض العرب فى أعمال النقل وغيرها، أما بالنسبة لزعماء العرب وقادتهم فلم يكن فى استطاعة البريطانيين دعوتهم للانضمام إليهم رغبة فى عدم تشجيعهم فى آمالهم الوطنية ، خاصة وأن المسئولين البريطانيين كانوا يعتقدون أن الوقت لم يحن بعد لإقامة حكومة عربية فى العراق ، إذ اعتبرها لورد هاردنج Hardinge نائب الملك فى الهند سابقة لأوانها ، لأنها قد تستدعى البحث فى التسوية النهائية الخاصة بالعراق وبقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، خصوصاً وأنه فى ذلك الوقت كان العرب متأثرين بدعوة السلطان العثمانى إلى الجهاد ، ولم تكن بريطانيا قد كسبت بعد الشريف حسين إلى جانبها فى دعوته المضادة للجهاد[1] .

وفى هذا الوقت شهدت إيران بعض القلاقل الموالية للألمان ، كما أخذ الترك يحشدون قواتهم — التى كان العرب يكونون جزءاً منها — لمحاولة استعادة البصرة ، ولذلك فقد تقرر تعزيز القوات البريطانية فى العراق ولم تلبث أن انتصرت على الترك عندما التحمت بهم فى الشعيبة وتقدمت — وقد صار يقودها منذ ٢٢ أبريل (نيسان) ١٩١٥ جنرال تاونسند Townshend — بمحاذاة دجلة ، وقد أسفر هذا التقدم عن الاستيلاء على كوت العمارة فى أوائل يونيو (حزيران) ١٩١٥[2]. وبعد قتال عنيف ومقاومة شديدة من جانب القوات العثمانية استطاعت القوات البريطانية أن تحتل الناصرية فى الخامس والعشرين من يوليو (تموز) ١٩١٥ ، وباحتلالها تحقق هدف حكومة الهند المباشر من وراء الحملة ألا وهو احتلال ولاية البصرة وحماية آبار النفط وأنابيبه ومصافيه ، وعلى الرغم من أن البعض يرى الاكتفاء بهذا

---

(١) wilson : Ouv. Cit., I, pp. 16—18.

(٢) Ibid pp. 47—48.

القدر من التقدم فإن البعض الآخر من الساسة وكذلك المسئولون عن القوات البريطانية فى العراق كانوا يهدفون إلى أبعد من ذلك ألا وهو احتلال بغداد واعتبروا ذلك العمل معادلا لاحتلال الآستانة ذاتها لأنه سيؤدى إلى تبدل الأحوال فى إيران وأفغانستان .

ولما كان الموقف فى أوربا عصيباً فى ذلك الوقت فإن كتشنر وزير الحربية كان يعارض التقدم إلى بغداد ، ومع ذلك فإن حكومة الهند أخذت تلح من أجل الموافقة على هذا التقدم ، وقد لخص لورد هاردنج نائب الملك فى رسالة منه إلى أوستن تشمبرلن وزير الهند فى ٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٥ فوائد الحملة على بغداد بأنها « سوف تحدث انطباعا عظيما فى الشرق الأدنى وخاصة فى إيران وأفغانستان وعلى الحدود الهندية ، وستكون بمثابة تعويض لنا عما أصاب سمعتنا فى الشرق بسبب إخفاق حملتنا على الدردنيل ، كما أنها ستعزل الجماعات الموالية للألمان فى إيران ، وستحطم آمال الألمان فى إثارة أفغانستان وستثير شعورا طيبا فى البلاد العربية والهند»(١) .

وقد وافقت الحكومة البريطانية وعهدت فى ٢٤ أكتوبر (تشرين أول) إلى تاونسند بالتقدم للاستيلاء على بغداد ، ولكن عندما وصلت القوات البريطانية إلى سلمان باك (المدائن) دارت معركة كبرى فى ٢٢ نوفمبر (تشرين ثان) لقيت فيها القوات البريطانية هزيمة أليمة وتكبدت خسائر فادحة فتقهقرت إلى الكوت حيث حاصرها الترك بقيادة الضابط الألمانى الكفء فون جولتز الذى شدد الحصار على البريطانيين حتى اضطر القائد البريطانى إلى التسليم

---

(١) أيرلاند : المرجع السابق ص ٣٦/٣٧

wilson : Ouv. Cit, p. 82,

Foster : The Making of Mod. Iraq (1936) p. 76.

فى ٢٩ أبريل (نيسان) ١٩١٦ بعد حصار دام ١٤٣ يوما ، ووقع فى أسر الترك ما يزيد على إثنى عشر ألفا من القوات البريطانية [١] ، بعد أن فشل لورنس فى مسعاه لفك الحصار التركى على الكوت برشوة خليل باشا القائد التركى الذى خلف جولتز بعد وفاته[٢] .

وقد كان لهذا الانحدار أسوأ الأثر فى كل من الهند وبريطانيا حتى لقد عين البرلمان البريطانى لجنة للتحقيق فى سير العمليات الحربية فى العراق والتحرى عن سبب تلك الهزيمة[٣] .

وعندما اتضح أن استعادة الكوت أمر متعذر قرر وزير الحربية البريطانية الذى صارت تقع عليه مسئولية توجيه القوات عسكريا فى العراق - أن تتخذ القوات البريطانية هناك موقفا دفاعيا من جل مساعدة الروس ولمنع حدوث أى رد فعل سىء قد ينشأ فى إيران وأفغانستان وكذلك فى ولاية البصره نتيجة للانسحاب .

إلا أن الترك لم يستغلوا النصر الذى أحرزوه على البريطانيين ، وإلى جانب ذلك فإنه فى السادس من مايو (آيار) ١٩١٦ أى بعد أسبوع واحد من سقوط الكوت فى أيدى الترك تبادل سير إدوار جراى وزير الخارجية البريطانية وبول كامبون الفرنسى فى لندن المذكرات التى تمخضت عنها اتفاقية سايكس / بيكو التى كانت من العوامل التى حدت بالبريطانيين إلى الإسراع من أجل الاستيلاء على ما أصبح نصيب بريطانيا فى هذا الإتفاق[٤] .

---

(١) wilson : Ouv. Cit. p. 91—100.

(٢) Garnett : Letters of T.E: Lawrence, pp. 202-205

(٣) Yale : The Near East, p. 234

(٤) wilson : Ouv. Cit., pp. 153—154.

وكان الكولونيل مارك سايكس قد زار العراق فى سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ بعد زيارته للقاهرة وعدن والهند . وظل فى العراق حتى ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ وعلى الرغم من أن اتفاقية سايكس/بيكو لم تكن قد خرجت إلى حيز الوجود بعد فإن سايكس لم يدع لدى المسئولين البريطانيين فى العراق أدنى شك فى أن ولايتى البصرة وبغداد ستقعان تحت الحماية البريطانية .

وفى ذلك الوقت أيضاً كثرت الإشارات فى البرلمان البريطانى إلى الرغبة فى جعل العراق مستعمرة هندية ، فقد ذكر أحد الأعضاء فى ٢٢ مارس (آذار) ١٩١٦ أنه يعتبر العراق « الجائزة التى يحارب الجيش الهندى من أجل الفوز بها وآمل أن أرى فى العراق فى المستقبل منشآت للرى تعمل تحت إشراف الحكومة البريطانية وأن أرى ضفاف أنهاره وقد سكنها ويفلحها المستوطنون الهنود الذين ، ينتقلون من ضفاف السند » ، ولم ترد الحكومة البريطانية بما ينفى هذه الأقوال[1] .

وفى الوقت نفسه قررت الحكومة البريطانية فى أغسطس (آب) ١٩١٦ أن تطبق فى جبهة العراق ما طبقته فى ميادين الحرب الأخرى وذلك بالاعتماد فى القيادة العليا على قواد صغار السن نسبياً . ولذلك تولى القيادة فى العراق جنرال مود Maude ، ومن ناحية أخرى فإن وفاة فون جولتز حرمت الجيش التركى فى العراق من قائد كفء قدير إذ أن خلفه خليل باشا كان أقل منه مقدرة وكفاءة .

وقد تمكن البريطانيون من استعادة كوت العمارة فى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٧ ، وفى ٢٨ منه أعلن سير وليام روبرتسون رئيس هيئة أركان حرب

---

(١) Wilson : Ouv. Cit., pp. 153 – 154 .

الإمبراطورية أنه لما كان من سياسة الحكومة البريطانية وضع ولاية بغداد تحت النفوذ البريطانى فقد عهد إلى الجنرال مود بالتقدم شريطة أن تسمح حالة قواته بذلك ، وألا يزج بها فى مأزق يضطره إلى التقهقر فيما بعد[1]. ولم يكن القرار بالتقدم إلى بغداد يهدف إلى المظاهر ومجرد الاستيلاء على المدينة وحسب، وإنما كانت الحكومة البريطانية تسعى أيضاً من أجل ضم أراض والحصول على مكاسب إقليمية تحقيقاً للمخططات التى ضمنتها اتفاقية سايكس بيكو والتى بمقتضاها أصبح العراق — باستثناء الموصل — من نصيب بريطانيا .

كما يقال إن الجنرال نيكسون القائد العام فى العراق منذ توليه القيادة العامة فى ٩ أبريل (نيسان) ١٩١٦ وكذلك رجال القيادة العامة فى الهند كانوا يحبذون التقدم إلى بغداد وأسرعوا بمهاجمتها خوفاً من أن الروس — وهم يقاتلون فى الشمال الشرقى — قد يسبقون البريطانيين إلى بغداد[2] .

وعلى ذلك فإنه فى الحادى عشر من مارس (أذار) ١٩١٧ سقطت بغداد فى يد الجنرال مود الذى أذاع فى ١٩ من الشهر نفسه بياناً باللغتين العربية والإنجليزية أعلن فيه أن القوات البريطانية لم تأت إلى العراق غازية بل محررة وأن بريطانيا والأمم المتحالفة معها ترغب وتأمل فى أن ينهض الجنس العربى ليحتل مكانه بين شعوب الأرض ، ودعا العراقيين إلى المساهمة فى إدارة شئونهم المدنية بالتعاون مع ممثلى بريطانيا السياسيين الذين يرافقون القوات البريطانية[3] .

---

(١) wilson : Ouv. Cit, I, p. 207

(٢) Foster : The Making of Modern Iraq, p. 41

(٣) الحسنى : تاريخ العراق السياسى الحديث ج ١ ص ٨٦ — ٨٨ .
wilson ; Ouv. Cit. Vol. I, p. 238 .

ويلاحظ أن البيان لم يذكر شيئاً عن استقلال العراق، بل تضمن عبارات عامة غير محددة، فهو لم يعد بشيء، وقد كان هذا طبيعيا فقد أبلغ المسئولون البريطانيون فى العراق سراً فى مايو (آيار) ١٩١٧ بأن الحكومة البريطانية تفكر - تنفيذاً لاتفاقية سايكس بيكو - فى إقامة حكم بريطانى فى ولاية البصره ونظاما عربيا تحت حماية بريطانيا فى ولاية بغداد ونظاما عربيا تحت حماية فرنسا فى ولاية الموصل[١]، كما لم يتضمن بيان الجنرال مود ما ينفى الاعتقاد السائد بأنه فى الوقت المناسب سوف تعلن بريطانيا وضع العراق تحت حمايتها شأنه شأن مصر وقبرص وحتى تعليمات الحكومة البريطانية بإحلال عناصر عربية محل التركية فى الإدارة لم يكن يحمل أى تأثير على مستقبل البلاد السياسى.

وعلى الرغم من كل هذا النقص فى البيان فقد كان الجنرال مود يعارض فى نشره معتقداً أن إصداره سوف يخلق بلبلة فى أذهان العرب حول نوايا بريطانيا المقبلة، ويثير آمالهم فى وقت يرى أنه يجب أن تكون سلطة الجيش البريطانى هى العليا والمطلقة فى المناطق المحتلة[٢] مما لا يدع مجالا للشك فى أن المنشور لم يدع إلا من أجل تهدئة أعصاب العرب وتخديرها، ومنع الشعب من إبداء أية مقاومة للجيش البريطانى المتقدم.

ولذلك فإن دخول البريطانيين لم يقابل بالترحاب من الأهلين ولم تفلح الإدارة البريطانية فى استغلال العرب والحركة العربية من الوجهة الحربية كما اقترح سير وليام روبرتسون فى برقيته فى السادس عشر من مايو (آيار).

ولذلك فإن الحملة على العراق تختلف تماما عن حملة اللنبى على الشام، فقد

---

(١) wilson : Ouv. Cit., p. 241.

(٢) الحسنى : المرجع السابق ص ٨٦.

كانت حملة العراق تعتمد على قوتها الخاصة دون الاستعانة بقوات عربية كما كانت خطوط مواصلاتها طويلة ممتدة من قاعدتها فى الهند ، ومما زاد من أعبائها — إلى جانب المناخ — أنه كان عليها ألا تجعل ما يجرى إلى جوارها فى إيران يغيب عن نظرها[1] .

وقد كان لسقوط بغداد فى أيدى القوات البريطانية صدى عميق فى ألمانيا والشرق العربى على السواء فإن هيبة بريطانيا التى كانت قد هبطت بعد الفشل فى غاليبولى وفقدان كوت العمارة للترك عادت إلى الإرتفاع حتى لقد قررت القيادة الألمانية العليا العمل على استعادة بغداد بإنشاء قوة ضاربة قوية سريعة الحركة وقد أسماها الترك (يلدريم) أى الصاعقة ، إلا إن الصعوبة التى كانت تواجه هذه القوة هى المواصلات . وقد اعتبر ليمان فون ساندرز أن تقدم الترك فى إيران كان السبب فى فقدان بغداد ، وأن تقدمهم فى القوقاز سيؤدى إلى فقدانهم بقية العراق[2] .

ومع أن القوات البريطانية كانت فى حاجة إلى تدعيم مراكزها فى العراق فإن رئاسة أركان حرب الإمبراطورية كانت تفضل الاكتفاء بالوقوف موقف الدفاع فى فلسطين والعراق لتركيز معظم القوات البريطانية ضد العدو الرئيسى فى الجبهة الغربية ، إلا أن الحكومة البريطانية من ناحية أخرى كانت تشك فى الحصول على نتيجة ما إزاء الجمود الذى خيم على الجبهة الغربية ، واعتبرت أن التقدم فى الشام سيكون له مزايا سياسية ومعنوية ، خاصة وقد أخذ القلق يساور البريطانيين حول الموقف فى الهند بسبب ازدياد السخط نتيجة ما تحملته الهند من خسائر فى الأرواح والمؤن .

---

(١) Lmczowski : The Middle East in world Affairs p. 60

(٢) Yale : The Near East, pp. 240 245.

عند انتهاء الحرب رفض على سعيد باشا أن يقوم بعمل إيجابى لمصلحة الإمام وأعلن أنه سيسلم البلاد تحت سيطرته للإنجليز إذا لم يسارع من يهمه أمر الجنوب إلى تسلمها منه[1] .

أما الإدارة العثمانية فى صنعاء فقد قامت بأعمال تهدف إلى خدمة قضية الإمام ، إذ رأى الوالى محمود نديم والقومندان أحمد توفيق أن يدخل الإمام صنعاء وأن يتسلم قصر غمدان بما فيه وكذلك الأسلحة مقابل ما للإمام من ديون على الترك[2] ، بل حاول محمود نديم قرب خروج العثمانيين أن يبرز شخصية الإمام وأن يمنحه مظاهر السيادة والسلطان ، واعترف بذلك فى خطاب منه إلى ستيورات حاكم عدن بتاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ وحاول فيه أن يثبت للإنجليز شخصية الإمام وأنه أصبح الوارث الطبيعى لهم والحاكم الشرعى لليمن بعد خروجهم[3] . ولذلك فقد بقى محمود نديم ومعه عدد من الموظفين العثمانيين وأقاموا فى اليمن وعين الإمام بعضهم — بعد دخوله صنعاء فى صفر ١٣١٧ (نوفمبر ١٩١٨) — فى المناصب الحكومية مستعينا بخبرتهم فى إدارة دولته ، إلا أن السلطات البريطانية — كما جاء فى رد حاكم عدن على رسالة محمود نديم — رفضوا الدخول فى مفاوضات مع الإمام على أساس أنه كان محايدا وليس طرفا فى الحرب .

وفى الوقت نفسه تقريبا كانت الحديدة هدفا لقنابل الأسطول الإنجليزى لأنها حاولت المقاومة نتيجة تردد محمود نديم فى التسليم ، ثم احتلتها القوات

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ص ٢٣٣ .

(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن (١٩٥١) ص ٢٢٥ .

(٣) العبدلى : هدية الزمن من أخبار ملوك لحج وعدن (١٣٥١) ص ٤ د ٢٦٠/٢

الإنجليزية[1] . وكان الإنجليز يرمون من وراء ذلك إلى وضع أقدامهم في اليمن حتى يستخدموا الحديدة — وكانوا يدركون مدى أهميتها للإمام — في المساومة معه إذ كانوا يخشون على الجنوب من الإمام، فاعتبروا الحديدة ورقة في أيديهم يساومون بها الإمام حتى يطمئنوا على مستقبل الوضع في اليمن والجنوب وعلى سير العلاقات مع الإمام[2] .

تطلع اليمن إلى معونة الولايات المتحدة :

ومما تجدر ملاحظته ، أن الشام لم يكن القطر العربي الوحيد في الشرق الذي تطلع إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتلقي المعونة في حياته المستقبلة ، فإن اليمن أيضاً فكر في نفس الاتجاه ، وقد حفظت لنا الوثائق الأمريكية ما يثبت ذلك ، منها خطاب بتاريخ ٢٢ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٨ بعث به الإمام المتوكل على الله يحيى بن حميد الدين إلى ولسن رئيس حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ومذكرة بتاريخ ٩ يناير (كانون ثان) ١٩١٩ رفعها مندوبا الإمام يحيى (السيد على ابراهيم بن الإمام والقاضي عبد الله بن أحمد) كان قد أوفدهما إلى عدن لمقابلة نائب القنصل الأمريكي في عدن ، علاوة على تقرير سري رفعه هذا الأخير بتاريخ ١٣ يناير (كانون ثان) ١٩١٩ عن الوضع القائم وأهداف وأطماع السلطان الإمام ، وأرفق به خطاب الإمام يحيى إلى الرئيس ولسن ومذكرة مندوبي الإمام ، وقد ذكر الإمام يحيى في خطابه أن اليمن كان دائماً يتمتع بالاستقلال ، ولم تكن ثمة صلة بينه وبين الحكومة العثمانية ، وأنه لو كان قد علم من المقيم في عدن بتفاصيل الخلاف بين الدولة العثمانية ودول

---

(١) الواسعي : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن (١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م) ص ٢٦٢ .

(٢) السيد مصطفى سالم : نفس المرجع ص ٢٤٥ .

الوفاق لأقدم على تسليم الوحدات العسكرية التركية فى اليمن. وقبل توقيع الهدنة ومن أجل حماية مركزه كان من الممكن أن يطلب الإمام عن طريق المقيم فى عدن توسط حكومة الولايات المتحدة والدول الأخرى من أجل الاعتراف بالأمامة وحماية مطامع اليمن فى المستقبل، لولا أن المقيم تسبب فى قصف الحديدة ميناء اليمن التجارى الوحيد واعتبارنا أعداء، مما سبب اضطراب الأهالى، وأنكر الإمام كل صلة له بالعمليات الحربية التى قام بها الترك ضد البريطانيين، وذكر أنه بعث بوفد من لدنه لمفاوضة المقيم البريطانى فى عدن من أجل حقوق اليمن، واختتم الإمام رسالته بمناشدة الرئيس الأمريكى — باسم الإنسانية — تأييد حقوق الامامة فى اليمن واستقلال العرب[1].

أما مذكرة ممثلى الإمام فقد بدأت بإزجاء المديح إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذى انتهت الحرب بفضل بعد نظره السياسى وحكمته، وأنهما لذلك يأملان فى علاج الاضطرابات القائمة فى اليمن بفضل جهود القنصل الأمريكى فى عدن. وحدد مندوبا الإمام مطالبهما وهى تتلخص فى تثبيت حدود اليمن المعروفة واستقلاله التام تحت حكم الإمام المتوكل على الله يحيى ابن محمد حميد الدين على أساس أن ذلك سيضع حداً للقلاقل وسفك الدماء فى اليمن، مع المطالبة بعدم تدخل أى دولة فى الشئون الداخلية أو الخارجية لليمن أو هجومها على اليمن، وحرية التجارة اليمنية فى كل موانى اليمن دون تدخل أى دولة، ورعاية مصالح التجار اليمنيين فى البلاد الأخرى طبقاً للقانون الدولى مقابل حماية حكومة الإمام لمصالح التجار الأجانب فى اليمن طبقاً للقانون الدولى.

---

(١) Yale University Library: Translation of Letter from the Imam to the President of the U.S.A. Sanaa, Arabia, Dec, 22, 1918

وجاء فى ختام المذكرة أنه عندما يحين وقت إدخال الإصلاحات الضرورية فى اليمن فإن حكومة البلاد تأمل أن تقدم دول الوفاق كل معونة ممكنة لإنجاز هذه الإصلاحات[١] .

وأشار نائب القنصل الأمريكى فى عدن فى تقريره إلى حكومته إلى أن ممثلى الإمام تحدثا معه بصراحة لما يعلمانه عن عدم وجود أطماع إقليمية للولايات المتحدة فى ساحل البحر الأحمر، ثم أخذ التقرير فى سرد ما دار بين نائب القنصل الأمريكى وبين ممثلى الإمام يحيى، وخاصة نظرة الإمام إلى عسير على أنها جزء من اليمن ، وأن الإدريسى يقوم بالحكم فى عسير بفضل تأييد البريطانيين له ، إذ يدفعون له إعانة مالية ، ثم أشار التقرير إلى أن أهل اليمن رغم ما بينهم من خلافات مذهبية يصرون جميعاً على عدم الخضوع لأى دولة أجنبية ، وأنه إذا كان الترك المسلمون لم يتمكنوا من إخضاع الإمام فكيف يخضع لدولة أجنبية مسيحية ، وأوضح التقرير أنه إذا لم تجب مطالب الإمام فسوف يتعرض اليمن لاضطرابات وقلاقل ، وكذلك إذا منح اليمن حكماً ذاتياً تحت حماية دولة أجنبية وأنه لا شىء يضمن لليمن الهدوء والاستقرار إلا الحرية الكاملة ، وأن للامام القدرة على حفظ النظام فى اليمن إذا اعترف بحقوقه .

ويذكر التقرير أن نائب القنصل الأمريكى تناول فى حديثه مع مندوب الإمام موضوع العلاقات بين اليمن والدول الأخرى ، وأن الإمام يرغب فى أن يقيم علاقات ودية سياسية وتجارية مع الدول الأخرى رغم أنه لا يقبل التورط فى معاهدات تسىء إلى دول أخرى ، وأنه إذا اعترف بحقوق الإمام

---

(١) Ibid. Translation of a letter signed by Sayed Ali Bin Ibrahim Bin Imam and kadi Abdulla Bin Ahmed el Arshy Representativeof the Imam, Aden. Arabia, Jan. 9, 1919

فإنه سوف يتخذ لنفسه مستشاراً فى معاملاته التجارية والسياسية مع الدول الأخرى وهو يفضل أن يكون هذا المستشار أمريكياً نظراً لأن الولايات المتحدة الأمريكية ليس لها شأن بأمور البحر الأحمر علاوة على ما عرف عن الأمريكيين من العدل والتقدم ، كما انه سيلجأ إلى الولايات المتحدة للحصول على الأموال اللازمة للاصلاحات التى يزمع إدخالها . ورغم أن الإمام عبر عن تفضيله الأمريكيين فقد ذكر نائب القنصل أنه لا يمانع فى إبرام معاهدات مع دول أخرى على أن تعامل جميعاً على قدم المساواة ودون إقحام رغبات ومطامع حكوماتهم فى الموضوع .

وفى الحادى عشر من يناير (كانون ثان) ١٩١٩ وصل إلى عدن مندوبان آخران من قبل الإمام هما مستر كورغى ، وهو أرمنى ، وبهاء بك وهو تركى وكان مديراً سابقاً للبنك العثمانى فى الحديدة ، وكانا يحملان خطابات أحدهما موجه إلى رئيس الجمهورية الفرنسية وسلمه إلى القنصل الفرنسى فى عدن والآخر موجه إلى ملك إيطاليا وسلمه إلى القنصل الإيطالى ، ورغم أن الخطاب الموجه إلى رئيس الجمهورية الفرنسية جاء فيه أن رسالة مماثلة سلمت إلى نائب القنصل الأمريكى وأنه بعث بها إلى الرئيس ولسن فى باريس ، فإنه عندما استوضح القنصل الفرنسى أنكر نائب القنصل الأمريكى تسلم الرسالة حيث أنه كان يفضل أن يجرى الأمر فى سرية تامة ، ولعله كان يريد ألا يثير فرنسا ، ويبعد عنها أية شكوك فى أن للولايات المتحدة أطماعاً فى الشرق[1] .

---

(١) Ibid. Confidential Report on Present Aims&Ambitious of the Sultan Imam; Aden, Arabia, Jan. 13, 1919,

منطقة الخليج :

كانت بريطانيا قد أصدرت فى الثالث من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ تبليغاً إلى الشيخ مبارك أمير الكويت باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية .

كما ظلت العلاقات بين وقطر وبريطانيا تستند إلى المعاهدة التى أبرمت فى الثالث من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٦ وفيها تعهد الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثانى بألا تكون له علاقات مع وكلاء أية دولة أخرى دون موافقة الحكومة البريطانية .

* * *

استمرار بريطانيا فى خديعة العرب :

وعلى الرغم من تلك الاتفاقيات السرية التى عقدتها بريطانيا مع حلفائها لتقسيم الشرق العربى الآسيوى ، فقد استمرت بريطانيا فى سياسة الخديعة ، التى تتمثل فى التصريح البريطانى الفرنسى المشترك فى ٧ نوفمبر (تشرين ثان) سنة ١٩١٨ .

فإنه قبيل الهدنة ببضعة أيام ، وفى السابع من نوفمبر (تشرين ثان ١٩١٨) أصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية معاً تصريحاً تضمن بيان الأهداف التى تسعى إليها الحكومتان البريطانية والفرنسية ، نشرته فى صحف فلسطين والشام والعراق فى اليوم التالى قيادة الحلفاء فى هذه المناطق ، كما بذلت الجهود لتوزيعه فى مناطق البدو والحضر على شكل منشورات ، وحيث كانت تسود الأمية بين الناس كان التصريح يقرأ باللغة العربية بواسطة بعض العرب ممن يعملون فى الإدارة العسكرية وقد ترجم (أنطونيوس) هذا التصريح من أحد

المنشورات التى وزعت بالفرنسية فى ذلك الوقت كما أمكن الحصول من مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة Durham على الأصل الفرنسى للتصريح كما بعثت به وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ الرابع من نوفمبر (تشرين ثان) إلى المعتمد البريطانى فى مصر طالبة إليه ترجمته إلى اللغة العربية وإبلاغه إلى الملك حسين وإذاعته ونشره فى أوسع نطاق ممكن[1].

وفى هذا التصريح أعلنت الحكومتان أن الهدف الذى تسعيان إليه من متابعة الحرب فى الشرق هو التحرير التام النهائى للشعوب التى طال اضطهاد الترك لها ، وإقامة حكوما . وإدارات وطنية تستمد سلطتها من الاختيار الحر للأهلين ، وأضاف التصريح أنه من أجل تحقيق هذه الأهداف اتفقت الدولتان على تشجيع إقامة حكومات وإدارات وطنية ومساعدتها فى كل من الشام والعراق اللذين حررهما الحلفاء ، وكذلك فى المناطق التى تعمل الدولتان على تحريرها .

واستطرد التصريح فأعرب عن عزوف الدولتين عن فرض أى نظام معين على أهالى هذه البلاد ، وأن كل ما تهدفان إليه من وراء المساعدة التى سوف تقدمانها هو أن يضمنا حسن سير الحكومات والإدارت التى يختارها الأهالى اختياراً حراً وضمان العدالة والمساواة بين الجميع ، وتسهيل التقدم الاقتصادى فى البلاد والعمل على نشر التعليم والقضاء على الفرقة التى كثيراً

---

(١) wingate Papers, School of Oriental Studies. Univ, of Durham Box 150/1 no. 1323, Nov. 4 th 1918 from F. O. To High Commissioner for Egypt, Cairo.

ما استغلتها السياسة التركية[١] .

والتصريح تتسم عبارته بالغموض وعدم الصراحة ، لأنه كان من الممكن — استناداً إليه — تشكيل مجالس بلدية مثلا للاشتراك فى إدارة البلاد وبذلك يمكن أن يدعى الحلفاء أنهم شكلوا إدارات وطنية .

ولقد كان الهدف من التصريح تطمين العرب من ناحية ، وكذلك إقناع حكومة الولايات المتحدت الأمريكية بأن الحلفاء ماضون فى تحرير الشعوب. وأنه ليس فى نيتهم استعمار البلاد العربية بينما فى الوقت نفسه يجرى تنفيذ الجانب الأكبر من اتفاقية سايكس — بيكو[٢] .

أما السبب المباشر لإصدار هذا التصريح فهو محاولة إزالة ما ترتب على إنزال العلم العربى فى بيروت من استياء فى البلاد العربية التى كانت تحتلها القوات المتحالفة ففى الثالث من أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٨ وقبل دخول طلائع القوات البريطانية والفرنسية ببضعة أيام أعلنت السيادة العربية ورفع العلم العربى فى بيروت بواسطة شكرى باشا الأيوبى باسم الأمير فيصل ، وقـــد احتج الفرنسيون وترتب على احتجاجهم أن أمر (اللنبى) بإنزال العلم العربى، الأمر الذى سبب هياجا فى دمشق وظهر ما يشبه التمرد بين قوات فيصل ولو أن فيصل قضى عليه بسرعة[٣] .

---

(١) Ibid : Antonius : Ouv. Cit. : Appendix E pp. 435—6.

محمد طاهر العمرى : تاريخ مقدرات العراق السياسية جـ ٢ ص ٢٨٩ ، وثائق الجامعة العربية ص ٨٣ الوثيقة رقم ٢٢ الملحق ط .

(٢) محمد طاهر العمرى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩١ .

(٣) Antonius : Ouv. Cit., p. 274.

وازداد الاستياء نظراً لما تواتر فى ذلك الوقت من أن بيروت والساحل السورى سوف يخضع للاحتلال الفرنسى، كما أن نشاط الصهيونيين فى فلسطين صار معروفاً فى دمشق وزاد من ثورة المشاعر .

وأدى سقوط دمشق وحلب إلى اتصال الزعماء السوريين والعراقين الذين كانوا يحاربون فى صفوف قوات الثورة بمواطنيهم الذين ظلوا فى وطنهم أو فى المنفى مما وجد فرصة لتبادل الرأى ، وكان لدى المواطنين الذين ظلوا فى أوطانهم أخبار كثيرة من مصادر تركية كانت بمثابة غذاء للقادمين الوافدين، التفكير فى مدى إخلاص تصريحات الحلفاء ، واجتاحت البلاد موجة من الشك والخوف من النوايا الخفية لحكومات الحلفاء ، واحتج فيصل لدى اللنبى وأعلن أنه لن يكون مسئولا عن السيطرة على القوات العربية ما لم يصدر تصريح رسمى فى الحال يعبر عن حقيقة نوايا الحلفاء ، ولما كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية راغبتين فى تجنب المتاعب فى ذلك الوقت فقد أصدرتا البيان المذكور الذى كان له أثره السريع ، وفى أيام قلائل انتهى الهياج .

وتشير مجموعة الوثائق الخاصة بهذا التصريح ضمن أوراق ونجت بمدرسة الدراسات الشرقية[١] بجامعة درم Durhm إلى أن الحكومة البريطانية كانت تهدف من وراء هذا التصريح إلى إزالة مخاوف الملك حسين وشكوك العرب بوجه عام ، خصوصاً وأنه قد نما إلى علم الحكومة البريطانية أن الملك حسين ينوى الذهاب مع نجله الأمير عبد الله إلى الشام بسبب توتر الحالة هناك[٢] ولذلك فقد عملت السلطات البريطانية على نشر التصريح على أوسع نطاق ، وقد أتى التصريح ثماره ، إذ أدخل الهدوء على قلب الملك حسين الذى

---

(١) School of Oriental Studies, Univ. of Durham. wingate Papers, Box 150/5 .

(٢) Ibid, Pox 170/3/2(From wingate to Allenby. Nov,7,1918)

عبر من تشكراته القلبية ، كما نجح ولسن مندوب بريطانيا فى جدة فى الحيلولة دون سفر الملك حسين إلى الشام .

ومما تجدر ملاحظته أن وغجت بعث برقية فى الثامن من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ إلى وزارة الخارجية البريطانية محذراً من أن سياسة تقرير المصير التى تضمنتها برقية وزارة الخارجية (يقصد التصريح المشترك) قد يكون لها رد فعل بين الوطنيين المصريين الذين سيطالبون ولاشك بمعاملة مصر معاملة مماثلة للأقطار التى ورد ذكرها فى التصريح[١] .

ومهما يكن من أمر فإن التصريح الإنجليزى الفرنسى المشترك اعترف بمبدأ موافقة المحكومين ، وأرجأ حدوث تصدع فى العلاقات بين العرب وبريطانيا وحلفائها . فقد اعتبر كثير من العرب عموما والسوريين على وجه الخصوص أن هذا التصريح إنما هو بديل أو — على الأقل — تعديل لبنود اتفاقية سايكس — بيكو[٢] .

* * *

وهكذا نرى أنه لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها فى عام ١٩١٨ حتى كان الحكم التركى قد انحسر عن أقطار المشرق العربى الآسيوى ، وبدا كما لو كان عرب هذه المنطقة سيبدأون عهدا جديدا ينعمون فيه بالحرية والاستقلال ، استناداً إلى حقهم المشروع ، وإلى دورهم فى تحرير بلادهم ، وإلى التصريح البريطانى والفرنسى المشترك ، ولكن هذه الآمال لم تلبث أن انهارت ، فقد كانت الدول الأوربية الاستعمارية وبخاصة بريطانيا وفرنسا تدبران من وراء العرب أمراً آخر ، انتهى — كما سنرى فى الفصل التالى — بوضع معظم المشرق العربى تحت سيطرة الدولتين الغربيتين .

---

(١) Ibid, Box 170/3/2 .
(٢) Temperley : Ouv. Cit. Vol. VI. p. 141

الفصل السادس عشر

تنفيذ المؤامرة الاستعمارية

عرض القضية العربية على مؤتمر الصلح :

فى الثانى والعشرين من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ غادر الأمير فيصل بيروت على ظهر الطراد البريطانى (جلوسستر) يرافقه بعض الأنصار .

وكانت الدعوة لزيارة أوربا قد وجهتها الحكومة البريطانية إلى الملك حسين لكى يرسل مندوبا عنه إلى مؤتمر الصلح ، وتلقى الأمير فيصل فى أثناء زيارته لحلب برقية من والده يطلب إليه فيها أن يسافر إلى بريطانيا وفرنسا وإن التوجيهات التى زوده بها الملك حسين ابنه الأمير فيصل وهو على وشك الرحيل إلى أوربا لتدل على مبلغ الثقة التى كان الملك حسين لا يزال يوليها لحليفته بريطانيا رغم كل ما حدث من ظواهر إذ يقول له « حيث أن رابطتنا الوحيدة هى العظمة البريطانية ولا مناسبة مع سواها فى أساساتنا السياسية فكل ملاحظتك تبديها لنوابها . . . وما يكلفونك من قول أو عمل إن كان فى المجتمع (الاجتماع) أو فى سواه تعمل به وتجنب ما سوى ذلك[1] .

ولذلك فإن الأمير فيصل عندما ذهب إلى فرنسا كان يبدو أن سياسته تقوم على ضمان الحصول على تأييد بريطانيا فى مقاومة مطالب فرنسا ورغم أن هذه السياسة كانت أمرا ضروريا لعدم إمكانه الحصول على تأييد دولة

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١٩٤/١٩٥ :

أخرى إلا أن ذلك أثار شكوك فرنسا فى أن فيصل قد صار أداة فى يد بريطانيا لمقاومة مطالب فرنسا .

وبدأ فيصل زيارته لأوربا بالتجول فى فرنسا رغم عدم رضا الحكومة الفرنسية عن رحلته .

وبينما كان فيصل يتجول فى ميادين القتال فى الجبهة الغربية عقد اجتماع فى لندن بين لويد جورج وكليمنصو وهو اجتماع كانت له آثاره العميقة على الشام، وعلى مستقبل الأمير فيصل نفسه فقد قرر كليمنصو أن يسعى من أجل الوصول إلى تسوية مع البريطانيين والوصول إلى تفاهم حاسم قبل عقد مؤتمر الصلح فى باريس وذلك حتى يظهر البريطانيون والفرنسيون كجبهة متحدة فى وجه أى محاولة من جانب الرئيس ولسن للقضاء على المعاهدات السرية الأنجلو فرنسية التى عقدت فى أثناء الحرب .

ففى أول ديسمبر (كانون أول) وصل إلى لندن كليمنصو والمارشال فوش والسنيور اورلاندو (orlanqo) رئيس وزراء إيطاليا والبارون سونينو (sonnino) وزير الخارجية الإيطالية وذكرت صحيفة التايمز فى عددها الصادر فى ٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٨ أن المهمة الكبرى لكليمنصو ومرشال فوش فى أثناء إقامتها فى لندن هى الإعداد لمؤتمر السلام الذى سينعقد فى باريس والاتفاق سلفا على الخطوط الرئيسية لسياستهم فى مؤتمر الصلح .

وعقدت عدة اجتماعات فى دراننج ستريت ما بين ١ — ٤ ديسمبر (كانون أول) وهو اليوم الذى عاد فيه كليمنصو وفوش إلى باريس، وفى خلال هذه الأيام عقد اجتماع بالغ الأهمية بين لويد جورج وكليمنصو وأحيط بسرية تامة ، ولا يمكن معرفة ماذا جرى فى هذا الاجتماع بين القطبين على وجه

التحديد حيث إن اتفاقيتهما الجديدة كانت شفوية وقد سمى هذا الاجتماع باسم (مقابلات ديسمبر — كانون أول — الخاصة « Les Entretiens Prives de Decembre »)[1].

وبعد عودة كليمنصو إلى باريس وافق على التنازل عن ولاية الموصل كما أقر بأن الحكومة الفرنسية ترغب فى التخلص من أعباء الإدارة فى فلسطين، ولو أنها تود أن ترى هذه المنطقة (فلسطين) تحت سيطرة دولية [2].

ومما ذكره لويد جورج عن محادثات لندن أنه « عندما وصل كليمنصو إلى لندن بعد الحرب ركبت معه إلى السفارة الفرنسية ، وبعد وصولنا إلى السفارة سألنى عما أريده من فرنسا وعلى الفور أجبته بأنى أريد أن تلحق الموصل بالعراق وأن توضع فلسطين من دان إلى بير سبع تحت سيطرة بريطانيا ، وبدون تردد وافق كليمنصو»[3].

وهكذا يمكن القول أن اتفاق لويد جورج / كليمنصو فى ديسمبر (كانون أول) ١٩١٨ كان يعنى تخلى بريطانيا عن تأييد فيصل وتركه تحت رحمة فرنسا، وهذا يدل على أن بريطانيا لم تشأ أن تفقد فرنسا تماماً وإنما كان كل هدفها أن تقلل منطقة نفوذ فرنسا وتقصرها على الساحل (نفوذ مباشر) ونفوذ غير مباشر على داخل الشام ، على أن يتم ذلك باتفاق بين الفرنسيين وفيصل ، ولا تتدخل هى فيه بحيث تبدو بريطانيا وكأنها برت بوعودها للطرفين .

وهكذا عندما وصل فيصل إلى لندن فى ١٠ ديسمبر (كانون أول) كان

---

(١) Dec. I, IV, p. 251.
(٢) Temperley : Ouv. Cit. Vol. VI. pp. 141—2
(٣) Lloyd George : Ouv, Cit Vol, II, p. 1038

مصير الشام يبدو كما لو كان قد تقرر ، وأنه لم يعد لزيارته أية أهمية سياسية . ومع ذلك فإن الأحوال فى الشام كانت تتطور فى غير مصلحة فرنسا .

وقد قابل فيصل ملك بريطانيا والقائم بأعمال وزارة الخارجية وقد ظل فيصل فى بريطانيا حتى السابع من يناير (كانون ثان) ١٩١٩ حين غادرها إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح ، ونظراً لعدم وجود وثائق خاصة بما جرى فى هذه الزيارة فإنه لم يعرف على وجه التحديد ما جرى بين الأمير فيصل ووزارة الخارجية البريطانية حول مستقبل الشام ، ولو أن تمبرلى يقول إن فيصل قد نصح بأن يقبل سيطرة فرنسا على الشام إذ أفهمه البريطانيون أن بريطانيا ليست على استعداد للاصطدام بفرنسا حول الشام[1] ، حتى لقد ذهب البعض إلى أن فيصل فى أثناء زيارته لبريطانيا أبلغ باتفاقية سايكس بيكو لأول مرة ، ومن المحتمل أنه رأى رأى العين خريطة لتلك الاتفاقية التى (أعادت العرب إلى الصحراء)[2] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن فيصل وهو فى أوربا ، خيل إليه — وبإيحاء من السلطات البريطانية — أنه ما دامت الصهيونية تعارض بشدة احتلال فرنسا لفلسطين فإنه يمكن أن يتعاون معها لزحزحة فرنسا عن بقية الشام ، ولذلك دبر اجتماع فى لندن بين فيصل والزعيم الصهيونى وايزمان بحضور لورنس وتمخض هذا النشاط عن اتفاقية عقدت بين الزعيمين ونصت — كما جاء فى مقدمتها — على التعاون الوثيق بين الشعب العربى واليهود فى تنمية وتطوير الدولة العربية وفلسطين .

وقد أضاف فيصل إلى هذه الاتفاقية وباللغة العربية — منعا لسوء التأويل

---

(١) Temperley : Ouv, Cit, VI p, 142

(٢) Zeine : Ouv, Cit, p, 62

— شرطاً جاء فيه أنه سوف يلتزم بالمواد السابقة « شريطة حصول العرب على استقلالهم — كما جاء فى مذكرتى بتاريخ ٤ يناير (كانون ثان) ١٩١٩ إلى وزارة الخارجية البريطانية — أما إذا حدث أدنى تعديل فى المطالب الواردة بالمذكرة فإننى أكون حينئذ فى حل ولن أتقيد بكلمة واحدة من هذا الاتفاق — الذى سيصبح لاغياً ولن تكون له أية قيمة »[1].

والوثيقة التى وقعها الطرفان كانت تحمل هذا الشرط ، مما يدل على أن وايزمان قد وافق عليه ، ويستنتج (شتاين) من هذا الاتفاق أن العرب وافقوا على تسليم فلسطين لليهود [2] ويعتقد البعض أنه لو تم تحقيق آمال فيصل فيما يختص بالدولة العربية لكان من السهل ألا تتحرج الحالة فى فلسطين بل ولربما تنازل الحسين وفيصل عن فلسطين (الصغيرة)[3] .

وهكذا لم ير فيصل عدواً له سوى فرنسا ، أراد أن يستعين عليها بكل القوى بما فيها الصهيونية ، غير مقدر لخطورتها وحقيقة نواياها ، كما أنه كان يسير ويتصرف بتوجيهات بريطانيا التى وضع فيها هو ووالده كل ثقتهما ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى رشده ، وفطن إلى خطأ تقديره وخطورة الصهيونية سواء بسبب مالمسه من عدم استعداد الصهيونية المساعدة التى كان يرجوها أو لأنه لم يستطع أن يقف فى وجه التيار العربى الجارف المعادى للصهيونية ، وهذا الرأى هو الأقرب إلى الحقيقة وإبرام هذه الاتفاقية باطل لأن الأمير فيصل لم يكن يملك حق التصرف فى جزء من سوريا بما يتعارض مع رغبات

---

(١) Antonius : Ouv. Ci . pp 437—439 .

(٢) Jeifries : Palestine, the Reality, p 250—1
Stein : The Balfour Declaration, pp 640 —2.

(٣) p lestine Royal Commission (Cmd 5479, p. 27 .

السوريين . ومهما كانت وجهة نظر فيصل إزاء الصهيونية والفائدة التى خيل إليه إنه يستطيع أن يجنيها من وراء التحالف معها فإن أهل فلسطين مسلمين ومسيحيين لم يروا هذا الرأى، وكان عداؤهم للصهيونية واضحاً تماماً منذ البداية حتى لقد اعتبر البعض أن فلسطين أسوأ منطقة يمكن اختيارها لإنشاء وطن قوى يهودى بسبب انسجام سكانها .

* * *

قضايا المشرق العربى فى مؤتمر الصلح :

بدأت اجتماعات مؤتمر الصلح فى باريس فى ١٨ يناير (كانون ثان) ١٩١٩ وقد ذهب إليها فيصل ومستشاره لورنس ، وكانت الحكومة الفرنسية لا تثق فيهما وتعتبر فيصل « ألعوبة فى يد الحكومة البريطانية تستخدمه للإساءة إلى فرنسا »(١).

وكان فيصل قد قدم مذكرة إلى المؤتمر فى أول يناير (كانون ثان) تحدث فيها عن الحركات القومية العربية وأنها تهدف إلى توحيد العرب فى أمة واحدة، وعبر عن أمله فى أن تجد الدول الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف الحركة القومية العربية (٢) .

وكان مما ذكره الأمير فيصل فى هذه المذكرة أن بلاد الشام متقدمة سياسياً بما يؤهلها لكى تدير شئونها الداخلية بنفسها ، ومع اعترافه بأن الارشاد والمعونة الفنية أمران ضروريان من أجل النمو القومى إلا أن أهل الشام سيسددون أجر هذه المعونة نقداً ، ولا يمكن أن يضحوا من أجلها بأى جزء من حريتهم التى كسبوها مؤخراً بقوة السلاح ، وطالب بأن تكون

(١) Zeine : Ouv. Cit p. 65.

(٢) Miller, pp. 297 - 299

حكومة العراق عربية على أن تأخذ بيد البدو حتى يصيروا مثل إخوانهم أهل المدن فى المستوى الثقافى ، ووافق على تدعيم النظام الحكومى فى العراق بالخبراء والمعونة الفنية من دولة كبرى أجنبية . أما عن فلسطين فقد ذكر الأمير فيصل فى مذكرته أن الأغلبية الساحقة من السكان من العرب وأن اليهود يرتبطون بالعرب وليس هناك تعارض بين شخصية العنصرين (يقصد طبعاً اليهود المقيمين فى فلسطين) ومع ذلك فإن العرب لا يستطيعون المخاطرة بتولى مسئولية حفظ التوازن فى حالة الصدام بين الأجناس والطوائف الدينية ولذلك فإن العرب يفضلون وصاية عليا طالما أن إدارة محلية نيابية ستعمل على النهوض بأحوال البلاد ، وطالب فيصل الدول بألا تعلق أهمية على الخلافات الظاهرية وألا تنظر إليها بمنظار مصالح الدول الأوروبية ومناطق نفوذها ، وأن العرب يؤملون أن تعتبرهم الدول أمة واحدة يعتزون بلغتهم ويطالبون بألا تتخذ خطوات تتعارض مع وحدة هذه المناطق تحت حكومة واحدة ذات سيادة . وأنه رغم بعض الاختلاف بين بعض المناطق فإن العقبة الكبرى التى يجب التغلب عليها هى الجهل الذى يعتبر الحكم التركى مسئولا عنه[١] .

وفى ٢٩ يناير (كانون ثان) قدم فيصل مذكرة أخرى إلى مؤتمر الصلح بصفته مندوباً عن والده الذى قاد — بناء على طلب بريطانيا وفرنسا — ثورة عربية ضد الترك ، وذكر فيصل فى مذكرته أنه جاء يطالب الاعتراف بالشعوب التى تتكلم العربية والتى تمتد فى آسيا من خط الاسكندرونة / ديار بكر إلى المحيط الهندى جنوباً كشعوب مستقلة ذات سيادة بضمان عصبة الأمم باستثناء الحجاز وهو دولة مستقلة فعلا ومحمية عدن البريطانية ، وذكر أنه

---

(١) Hurwitz : Ouv. Cit. Vol II pp 38—39 .

يؤسس هذا الطلب على المبادىء التى أعلنها الرئيس ولسن وإلى الدور الذى لعبه الجيش العربى فى تحرير بلاده وأشار إلى ان العرب لو علموا بأن إجراءات الننى ليست مؤقتة وإنما هى تنفيذ لاتفاق سرى لما سمحوا بها ، وأضاف فيصل أنه على ثقة من أن الدول سوف تولى الشعوب العربيه اهتماما أكثر مما تولى مصالحها المادية الخاصة(١) وهكذا حاول فيصل ألا يكتفى بتأييد بريطانيا بل حاول أن يكسب معونة الولايات المتحدة وتأييدها بالمطالبة بتطبيق مبادىء ولسن معتقداً أنه على هذا الأساس سيصير فى استطاعة السوريين اختيار الدولة التى سوف تساعدهم .

وقد أبلغ فيصل الكولونيل هاوس فى حديث له معه فى يوم ٢٩ مارس (أذار) ١٩١٩ أن قومه قد أوفدوه ليستعرض الدول الأوربية المختلفة ويختار تلك التى يفضلونها لتولى الانتداب وأنه يحب الإنجليز كثيراً ولكنه حضر ليتعرف على الأمريكيين ويعرف ما إذا كانت الولايات المتحدة تقبل تولى الانتداب على الشام نظراً لوجود نزاع بين بريطانيا وفرنسا حول هذا الموضوع . فرد هاوس بأنه يشك فى قبول الولايات المتحدة لهذا الانتداب فأعلن فيصل أن العرب يفضلون الموت على انتداب فرنسا وهنا تدخل لورنس الذى كان يقوم بالترجمة بين فيصل وهاوس وطالب بأن توصى اللجنة الدولية بانتداب أمريكى على سورية .

وقد عبر عن ذلك لوليام ييل فى حديث معه فى ١٣ فبراير (شباط) ١٩١٩ كما عبر عن نفس الفكرة للجنة كنج كرين . فإن الولايات المتحدة لم تكن طرفاً فى الاتفاقيات التى عقدت بين دول الحلفاء فى أثناء الحرب لتقسيم بعض أجزاء العالم إلى مناطق نفوذ — كما أن أهداف الولايات المتحدة من

---

(١) Lloyd George ; The Truth II, 1039—40

الحرب كما حددها الرئيس ولسن فى بنوده الأربعة عشر التى أعلنها يوم ٨ يناير (كانون ثان) ١٩١٨ كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن الاتجاه العام للمعاهدات السرية وكان التناقض واضحاً بين البرنامج الأمريكى وسياسة الحلفاء الآخرين وفى باريس رفض الرئيس ولسون أن يضع موضع الاعتبار اتفاقيات الحلفاء أثناء الحرب وقال إن الحلفاء وقد أعلنوا موافقتهم على مبادئه الأربعة عشر فإنهم بذلك يكونون قد ألغوا تلقائيا اتفاقياتهم السرية ، وصار عليهم أن يلتزموا بهذه المبادىء التى تنبذ الاستعمار وتنادى بحق الأمم فى تقرير مصيرها ولو قدر برنامج الرئيس ولسن أن ينتهى إلى نهايته المنطقية فإنه كان يهدم كل الاتفاقيات السرية .

وقد ذكر وليم ييل فى تقرير له أثناء وجوده فى الشام فى يونيو (حزيران) ١٩١٩ لاستكشاف الأحوال تجنب الخوض فى موضوع انتداب أمريكى على الشام لعدة أسباب :

١ — أن أمريكا قد أصدرت وعوداً عديدة لليهود وتنفيذها سوف يثير صعوبات جمة مع المسلمين ومشاكل سياسية فى الولايات المتحدة ذاتها .

٢ — أن فرنسا مصممة على البقاء على الأقل فى لبنان ومن المستحيل إقناعها بالوسائل السلمية بالتخلى عن هذه الفكرة .

٣ — قيام الولايات المتحدة بتشجيع وتنمية الشعور القوى لدى السوريين سوف يلقى مقاومة من جانب بريطانيا التى تستطيع أن تعمل عن طريق مكة وبغداد والهند والقاهرة وربما القسطنطينية ضد هذه المحاولة[1].

---

(١) Yale Univ. Library, from Yale to Westermann, Beirut July 8, 1919, p. 3.

ومع ذلك لم يفقد الدكتور عبد الرحمن شهبندر الأمل فى إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بتولى الانتداب على الشام حتى لقد فكر فى السفر مع بعض رفاقه إلى الولايات المتحدة .

* * *

ولم يتمكن الأمير فيصل من عرض مشكلته بنفسه على مؤتمر الصلح فى الكاى دور ساى إلا فى السادس من فبراير (شباط) وكان يصحبه لورنس فأشار إلى مذكرة ٢٩ يناير (كانون ثان) وأورد الأسباب التى دفعته إلى هذا المطالب فذكر أن والده لم يغامر بالثورة لدوافع شخصية وشكر كلا من بريطانيا وفرنسا على معونتهما وطالبهما بالوفاء بوعودهما التى أصدراها فى نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ .

وعندما مثل فيصل أمام مؤتمر الصلح فى ٦ فبراير (شباط) كان يحمل برنامجا أوسع من محتويات مذكرته فى أول كانون ثان (يناير) إذ طالب فى ٦ فبراير (شباط) استقلال البلاد العربية الواقعة جنوب خط ديار بكر اسكندرونة استقلالا تاما تحت ضمان عصبة الأمم على أن ينظر فى تأليف إدارة خاصة فى فلسطين نظراً لاختلاف الأديان كما يمنح لبنان إدارة خاصة بمساعدة فرنسا .

ولخص فيصل مطالبه فى أنه يطلب الاعتراف ببلاد العرب وحدة جغرافية مستقلة برئاسة والده الملك حسين وتطبيق العهود المقطوعة للعرب بالاستقلال التام مع الاعتراف للشام بالاستقلال على أن يستعين بمستشارين أجانب عند الحاجة وعلى أن تكون حكومة الشام متصلة بحكومة الحجاز فى شئونها الخارجية[1] .

---

(١) أمين سعيد : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢١ ، العمرى ج ٣ ص ١٣٩ .

ويذكر (لانسنج) أن خطاب فيصل أحدث فى سامعيه تأثيراً عميقاً إلا أنه كان يواجه فى باريس قوى أصعب من أن تقهر ، فقد كان العالم المسيحى — منذ أجيال — يكن كراهية للعقيدة الإسلامية ، وكانت الأمم المسيحية تبحث عن فرصة لتخليص مسيحى الشرق من العسف التركى الإسلامى ، وقد سنحت هذه الفرصة بسقوط الإمبراطورية العثمانية ، ولذلك عزم ممثلو الدول الأوروبية فى مؤتمر الصلح على الحيلولة دون عودة السيادة الإسلامية على هذه المناطق مما جعل من الصعب تحقيق رغبة فيصل فى إقامة دولة جديدة فى الشام رغم اعتراف (لانسنج) بأنه كان ثمة بون شاسع بين الإدارة العربية والإدارة التركية إلا أنه كانت هناك قوى أخرى تقف بالمرصاد ضد قيام دولة مسلمة فى الشام تتمثل فى بعض الدول الكبرى : ففرنسا - الحامية التاريخية لمسيحى لبنان - كانت تتطلع للحصول على السيادة على الشام رغبة فى تأمين مصالحها المادية ، وكان ذلك على أساس اتفاق فرنسا مع بريطانيا ، ذلك الاتفاق الذى اعترفت فيه فرنسا باستحواذ بريطانيا على العراق ، وكان قبول فكرة سورية المستقلة تحت سيادة عربية يعنى هدم هذا الاتفاق ، وإذا كانت بريطانيا قد أولت مقترحات فيصل أذناً صاغية باستثناء تلك التى تتعارض مع وعدها للصهيونية — فإن الحكومة الفرنسية عارضت بشدة إقامة سيادة عربية فى الشام خصوصاً وأن العرب قد تعاونوا مع القوات البريطانية فى الشرق فكان الفرنسيون يخشون فى حالة قيام دولة عربية مستقلة فى الشام أن تقع البلاد تحت سيطرة بريطانيا ، وبذلك تصير ميداناً مفتوحاً لمشروعات بريطانيا[1] .

وعلى الرغم من اقتراح ولسن إيفاد لجنة دولية للتعرف على رغبات

---

(١) Memoires de Robert Lansing (1925) pp. 265—8.

الأهالى فى الشام ، فإنه بسبب مناورات كل من بريطانيا وفرنسا لم يقد لهذه اللجنة الخروج إلى مهمتها ، باستثناء الشعبة الأمريكية منها ، وهى التى عرفته بلجنة كنج / كرين King-Crane . وعلى هذا الأساس عاد فيصل إلى الشام فى آخر إبريل (نيسان) ١٩١٩ معتقداً أن هذه اللجنة ستكون بداية تحقيق الأمانى العربية فى الاستقلال .

ومما تجدر ملاحظته أن الأمير فيصل اتجه نحو المطالبة بتولى بريطانيا الانتداب على الشام ، وذلك لتفادى خضوع البلاد لفرنسا ، وذلك بتوحيد الانتداب فى كل من الشام والعراق ، وحاول أن يدعو السوريين إلى المطالبة بذلك أمام اللجنة الدولية .

وقد سبق وقبل الشريف حسين بسيطرة بريطانيا على العراق الأدنى والأوسط (البصرة وبغداد) وها هو الأمير فيصل يطالب بانتداب بريطانى على الشام . مفضلا بريطانيا على فرنسا ، وفى رأينا أن فيصلا ووالده قد أخطأ كثيراً بهذه السياسة التى أثارت فرنسا وأشعرت المسئولين الفرنسيين أنهما ليسا متمسكين كل التمسك باستقلال البلاد العربية عن أى سيطرة أجنبية ، وإنما يقفان فى صلابة فى مواجهة الفرنسيين وليونة وتساهل فى مواجهة البريطانيين ، وأن الأمير فيصل إنما يعارض الانتداب الفرنسى من أجل إقامة انتداب بريطانى ولاشك أن هذا أدى إلى تشدد الفرنسيين فى معاملتهم وتمسكهم بموقفهم وإدعاءاتهم ، وكان حريا به أن يتمسك بحق البلاد العربية فى الحرية والاستقلال عن أى نفوذ أجنبى ولو أنه فى موقفه هذا لم يكن خائنا لقضية البلاد العربية ، وإنما كان مفرطاً فى ثقته ببريطانيا .

بريطانيا تتخلى عن فيصل :

ولما كان المسئولون البريطانيون العاملون فى الشرق يشجعون فيصل على التمادى فى أحلامه ، والاعتقاد بأن بريطانيا تريد أن تحل محل فرنسا فى الشام لو أنه ظل متمسكا فى المطالبة بتولى بريطانيا الانتداب على البلاد ، فقد أخذت الصحافة الفرنسية تحمل على السياسة البريطانية فى الشام الأمر الذى أحرج الحكومة البريطانية أمام حليفتها خصوصاً وأنه لم يبد من جانب الحكومة الأمريكية أى اتجاه نحو التدخل ، فقد اتخذت الحكومة البريطانية فى ١٣ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩١٩ قراراً بجلاء القوات البريطانية عن الشام فى أول نوفمبر (تشرين ثان) سنة ١٩١٩ على أن تسلم هذه القوات حاميات دمشق وحمص وحماه وحلب إلى الأمير فيصل ، بينما تسلم حاميات المنطقة الواقعة غربى خط سايكس ـ بيكو إلى القوات الفرنسية .

وإذا كان بمقتضى هذا الاتفاق صار من حق الفرنسيين احتلال لبنان فقط بدلا من لبنان وداخلية الشام كما كانوا يطالبون فإنه يلاحظ أنه لم يعد البريطانيون يقفون بين الفرنسيين على الساحل وفيصل فى داخلية الشام ، ولذلك وافق كليمنصو على المشروع وأعلن أنه أصبح على فرنسا أن تصل بمفردها إلى اتفاق مع العرب وبدون تدخل أى دولة فى الانتداب الأخرى[1] .

ويعتبر اتفاق ١٣ سبتمبر (أيلول) نصراً لكليمنصو وحكومته وخطوة نحو تحقيق الأطماع الفرنسية على الشام . ولذلك فإنه بمجرد قبول الاقتراح

---

(١) Doc. I. IV p 468—9 (from Derby, Paris, to Curzon, Oct 14, 1919; enclosure from Clemenceau to Derby on the Same date.

البريطانى أرسلت وزارة الحربية الفرنسية تعزيزات إلى الشام و كليكية كما اختارت وزارة الخارجية الفرنسية رجلا عسكرياً هو الجنرال جورو (Gou) ليقود هذه القوات ويصبح كبير ممثل فرنسا فى الشرق خلفاً لجورج بيكو ، كما انتهز كليمنصو الفرصة ووجه خطاباً إلى الأمة السورية تضمن وعداً بإقامة نظام من الحرية والاستقرار والتقدم طبقاً لرغبات الأمة والصالحها[1] ، ولقد اعتبر اتفاق سبتمبر (أيلول) ١٩١٩ الخاص بإحلال قوات فرنسية محل البريطانية ، وكذلك تعيين جورو كمقيم عام فى سوريا دلائل على أن فرنسا عقدت العزم على إثبات وجودها فى الليفانت[2] . ومع ذلك فقد بعث لورنس برسالة إلى لويد جورج يهنئه لأنه بهذا الاتفاق قد وفى بكل وعود بريطانيا للعرب « وأعطيتهم أكثر مما يستحقون وتخلصت من عبء كبير بخروجى نظيف اليدين »[3] .

أما المراقبون المحايدون فقد اعتبروا أن اتفاق ١٣ سبتمبر (أيلول) بالغ الضرر لأنه ، ولو كان لا يبدو فى الظاهر إجراء سياسياً ، وإنما مجرد تغيير فى الوضع العسكرى فى بلاد العدو المحتلة إلا أنه فى واقع الأمر قد عرض للخطر المستقبل السياسى للأقطار العربية ، بل وكان يشكل تهديداً للسلام فى الشرق لأن تنفيذ الاتفاقية كان يعنى تثبيت السيطرة الإدارية والعسكرية الفرنسية على الساحل السورى والسيطرة الإدارية والعسكرية البريطانية على كل العراق .

---

(١) Longirgg : Syria & Lebanon under French Mandate (1958) p. 94.

(٢) Lyautey : Le Drame Oriental (1924) p. 160.

(٣) Garnett : Letters of T.E, Lawrence no, 114 p, 287.

اعلان استقلال الشام والعراق :

وزار الأمير فيصل أوروبا مرة ثانية حيث أمضى نحو أربعة أشهر فى أواخر عام ١٩١٩ ، ولم تأت هذه الزيارة بفائدة ، وفى الوقت نفسه ازدادت حدة التوتر بين أهالى الشام ، وتتابعت الأحداث ، فاجتمع المؤتمر السورى العام ، وقرر فى ٧ مارس (آذار) ١٩٢٠ إعلان استقلال بلاد الشام بحدودها الطبيعية استقلالا تاماً ، والمناداة بفيصل بن الحسين ملكا دستورياً عليها ، ورفض مطالب الصهيونية فى جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود وانتهاء حكومات الاحتلال العسكرى القائمة فى شرق وغرب وجنوب الشام على أن تقوم مكانها حكومة ملكية نيابية مسئولة أمام المؤتمر على أن تدار أقاليم الدولة الجديدة على أساس اللامركزية الإدارية وعلى أن تراعى أمانى اللبنانيين الوطنية فى طريقة إدارة لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبى .

وأضاف بيان المؤتمر إلى أن الأسباب التى يستند إليها فى استقلال القطر السورى هى ذات الأسباب التى يستند إليها فى استقلال القطر العراقى استقلالا تاماً على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسى اقتصادى على أن يتولى الأمير عبد الله عرش العراق وينوب عنه الأمير زيد ، وأعلن انتهاء الاحتلال البريطانى للعراق .

وأثار هذا القرار الحليفتين الغربيتين اللتين اعتبرتا هذا العمل من جانب السوريين عصيانا واستباقا لمقررات مؤتمر الصلح ولأنه يفسد المخططات التى كانتا تديرانها لأقاليم الشرق العربى ، وتذرعت الحكومة البريطانية بما جاء فى بيان الاستقلال عن فلسطين والعراق لكى تصل إلى تفاهم تام مع الحكومة الفرنسية بعد أن صارت مصالح بريطانيا فى العراق وفلسطين فى خطر شأنها

شأن المصالح الفرنسية فى(١) .

ولا نستطيع أن نؤيد الرأى القائل بأن إعلان المؤتمر السورى استقلال الشام والعراق أفقد فيصل صداقة بريطانيا وعطفها وتأييدها له فى مواجهة فرنسا ، وذلك لأن تخلى بريطانيا عن جانبه كان قد اتضح بجلاء منذ أوائل عام ١٩١٩ ولم يصل العام إلى نهايته إلا وقد تخلت عنه نهائيا وتركته لقمة سائغة لفرنسا ، وقد تعجب المراقبون لتخلى بريطانيا عن العرب وتأييدها لفرنسا رغم ما كان معروفا لديهم من أن بريطانيا لم تكن ترتاح إلى أى وجود لفرنسا فى الشام لأن ذلك من شأنه أن يشكل تهديداً لفلسطين من الشمال ، كما أن سيطرة فرنسا على دمشق سيجعل لها تأثيراً على شئون شمال شبه الجزيرة وكذلك الحجاز بسبب موقع خط سكة حديد الحجاز يضاف إلى هذا أن مجاورة فرنسا فى الشام لبلاد الرافدين ما كان ليجد ترحيباً من بريطانيا ومع ذلك كله فإن تعجب المراقبين لم يطل فقد ظهرت لهم الدوافع التى جعلت بريطانيا تتجه هذا الاتجاه فى تأييد فرنسا ضد العرب فإن بريطانيا لم تكن تنظر بعين الارتياح إلى آمال العرب فى إنشاء دولة مستقلة فى الشام لأن إقامة مثل هذه الدولة من شأنه أن يثير العرب من سكان فلسطين والعراق ومصر ضد السيطرة البريطانية فينزعون إلى الاستقلال وبالتالى تهديد مركز بريطانيا فى الشرق(٢) .

---

(١) Documents on British Foreign Policy I, Vol. XIII pp, 226–7 (from Curzon to Derby, March 13, 1920).

(٢) Yale University Libary, Yale's Rep. No. 33 « Arab Empire Propaganda » July 1, 1918) Zionist attitude towards the future state of Syria pp. 17–18 (microfilm),

مؤتمر سان ريمو :

وعلى الرغم من أن بريطانيا وفرنسا كانتا قد اعتزمتا الأخذ بنظام الانتداب فإنهما لم تلحا من أجل تحديده بسبب عدم التأكد من مدى اشتراك الولايات المتحدة فى الشئون الدولية ، ولذلك فقد أرجىء الموضوع حتى ربيع ١٩٢٠ ، وفى تلك الأثناء كانت قد تمت الموافقة على ميثاق عصبة الأمم الذى صار أداة يمكن استغلالها كأساس رسمى للانتداب . وفى تلك الأثناء أيضاً كان المرض قد انتاب الرئيس الأمريكى ولسن ، ورفض مجلس الشيوخ فى ١٩ مارس (آزار) ١٩٢٠ كل ترتيباته فى أوربا ، وتسبب فى انسحاب الولايات المتحدة من مجلس الحلفاء الأعلى ومن أى دور فعال فى تسوية السلام .

ولم تلبث بريطانيا وفرنسا أن وجدتا أنه لابد من الإقدام على خطوة ما لمواجهة قرارت المؤتمر السورى ، ولتنفيذ مخططاتهما بخصوص الشرق العربى ، فاجتمع مجلس الحلفاء الأعلى بدون الولايات المتحدة فى لندن فى الثامن عشر من فبراير (شباط) ١٩٢٠ واستؤنفت الاجتماعات فى سان ريمو بين التاسع عشر والسادس والعشرين من أبريل (نيسان) ١٩٢٠ وحضر الاجتماع رئيسا الوزارتين البريطانية والفرنسية شخصياً (لويد جورج وميلران) ، وكان نورى السعيد حاضراً فى سان ريمو فى ذلك الوقت ولكنه لم يحضر اجتماعات المؤتمر بل ظل فى الفندق ولذلك لا يمكن اعتبار أنه كان لفيصل مندوب فى المؤتمر[1] كما سافر وايزمان وسكولوف إلى سان ريمو وكذلك هربرت صمويل .

وفى الخامس والعشرين من أبريل (نيسان) حدد الانتداب فتقرر أن تتولى بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين والأردن ، وفرنسا على الشام

---

(١) Lloyd Geogre : The Truth... Vol, I, p. 622.

(سورية ولبنان) ، ودون أن يأخذ فى الاعتبار ما نصت عليه الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم التى تمت الموافقة عليها فى الثامن والعشرين من يونيو (حزيران) عام ١٩١٩ والتى نصت على أن « لرغبات الأهلين الاعتبار الرئيسى فى اختيار الدولة المنتدبة » وهكذا تم الاتفاق بين الحليفتين ولم يعد ثمة تصادم بين مصالحهما فى المشرق العربى .

ولا شك فى أن الانتداب على الشرق العربى الآسيوى بالصورة التى تقرر بها فى مؤتمر سان ريمو يعتبر الصورة النهائية التى نفذت بها اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وقد أقر لويد جورج نفسه بأن نظام الانتداب كان بديلا للاستعمار القديم .

* * *

وهكذا أصيبت الآمال القومية لعرب الشرق الآسيوى بنكسة على يد الأصدقاء ، بعد ما بذل العرب من جهد فى سبيل التحرر من نير الترك ، ومساعدة الحلفاء على إحراز النصر ، وبخضوع أقطار الشرق العربى الآسيوى لسيطرة الحليفتين الغربيتين دخلت الحركة القومية فى مرحلة جديدة من الكفاح فى سبيل تحقيق الأهداف التى بدأت فى السعى من أجلها ، وهذه المرحلة الجديدة ستكون موضع دراسة قادمة إن شاء الله .

(والحمد لله رب العالمين)

فهرس

صفحة

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　صفحة

الموضوع	صفحه

